مايكل بيجنت ريتشارد لي

خديعة

مخطوطات البحر الميت

ترجمة: وسيم عبده

تقديم ومراجعة: د. منذر الحايك

نحو فكر

حضاري متجدد

الكتاب: خديعة مخطوطات البحر الميت

تأليف: مايكل بيجينت – ريتشارد لي

ترجمة : وسيم حسن عبده

الإصدار الأول 2010 م
شباط ـ فبراير

عدد النسخ: 1000/ عدد الصفحات: 296

الغلاف: م. جمال الأبطح

التدقيق اللغوي: مظهر اللحام

الإشراف العام: يزن يعقوب/جوال 00963 933 418 181

الإخراج الفني: فؤاد يعقوب/جوال 00963 933 902 764

سورية ـ دمشق ـ ص.ب: 3397

هاتف: 095 13 22 11 00963

تلفاكس: 013 33 22 11 00963

www.darsafahat.com

info@darsafahat.com

الترقيم الدولي ISBN
978-9933-402-31-0

مايكل بيجنت   ريتشارد لي

ترجمة: وسيم عبده

تقديم ومراجعة: د. منذر الحايك

المحتويات

تقديم

د. منذر الحايك

ورد ذكر البحر الميت في الكتب القديمة، ومنها التوراة، باسم بحر الملح أو بحر السديم، أو بحر عربة، ومنذ عام500 ق.م تقريباً كان الأنباط العرب أسياد منطقة البحر الميت، وقد تمكنوا من معرفة طريقة استخراج البيتومين والقطران من مياهه، وصدّروها إلى مصر، حيث كانت تستخدم في التحنيط.

وذكر أرسطو البحر الميت في كتابه الميتيورولوجيا، وذكره أيضاً سترابون في الجغرافيا، وتحدث عن عمق مياهه الكبير وكثافتها، ووصف غازات البحر الميت وينابيعه الحارة، أما بليني فكان أول من سمّى البحر الميت اسمه اللاتيني القديم بحيرة الإسفلت، نسبة إلى قطع الإسفلت الطافية على سطحه، وظهرت تسميته البحر الميت أول مرة في كتابات بوسناس، ومن بعده غالين، ويعد مصور البحر الميت المنفذ بالفسيفساء في القرن السادس الميلادي، والذي عثر عليه في كنيسة أثرية بمدينة مأدبا الأردنية من أدق المصورات القديمة للبحر الميت.

وقد تردد ذكر البحر الميت في معظم مؤلفات الجغرافيين والرحالة العرب، ولكنه ورد بأسماء كثيرة، منها بحيرة زُغَر، وذلك نسبة إلى واحة نخيل في الجنوب منه، وفي المعتقد الشعبي للمنطقة أن مدينة زغر القديمة، التي في غور الصافي قرب مصب وادي الحسا، هي مدينة النبي لوط، لذلك شاع له اسم آخر هو بحيرة لوط، كما ورد عند ابن الفقيه والإدريسي، وكذلك سمّي بحيرة سدوم وعمورة، وذكره المسعودي وياقوت الحموي باسم: البحيرة المقلوبة والبحيرة المنتنة.

ولم يشتهر البحر الميت بانخفاضه الكبير عن سطح البحر، ولا بملوحة مياهه الفائقة، ولا بطبيعته الفريدة، كما اشتهر بمخطوطات قديمة، كانت قد لفّت ودسّت في جرار فخارية، ارتفاع كل منها أكثر من قدمين قليلاً، وكانت المخطوطات من جلد رقيق، كل منها مؤلف من عدة قطع موصولة ببعضها، وهي ملفوفة بنسيج كتاني، لكن منها ما كتب على ورق البردي، ومنها على صفائح نحاس، وقد ساهمت الطبيعة الصحراوية الجافة في حفظها نحو ألفي سنة، فقد كشف فحصها بالكربون أنها تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي، وقد عرفت باسم مخطوطات البحر الميت، أوعلى نحو أدق لفائف البحر الميت، لأنها جميعاً كانت ملفوفة بشكل اسطواني.

ولإيمان سكان المنطقة القدماء بأن الحرف كائن حي، فعندما تتآكل مخطوطة أو صفحة من كتاب أو تمزق، ويراد حفظها، ومهما كان الموضوع دينياً أو غير ديني، كانت تلف أو تدرج وتدس في الحائط أو شق في الصخر، وإذا كانت كثيرة توضع في جرة لتحفظ أو لتبلى طبيعياً، حيث لا يجوز إحراقها أو رميها، بل تدفن فقط في الأرض، وهذا اعتقاد شرقي قديم، كان شائعاً في بلادنا حتى فترة غير بعيدة، ومثلها تماماً الجنيزة التي هي مجموعة الأوراق والوثائق التي لا يجوز إتلافها أو حرقها وفقاً للعرف الشرقي القديم، وخصوصاً إذا ضمت اسم الله بين ثناياها، وإنما يجري جمعها في غرفة معزولة، ليجرى دفنها بعد ذلك، وكلمة الجنيزة قد تكون عبرية أو آرامية، لكنها تشترك بجذر واحد مع الكلمة العربية جنازة التي تجسد حالة الدفن أو المدفون، ومع أن هذا السبب قد يكون مختلفاً مع مخطوطات قمران، لكنه غير بعيد عنه، ويمكن تفسيره على أساسه.

أثبت فرز النصوص النهائي لمخطوطات البحر الميت أن 30٪ مما كتب فيها هو نصوص توراتية، حيث تحوي مقاطع من كل الأسفار، عدا سفر إستير، و25٪ منها من نصوص دينية يهودية، مثل سفر أخنوخ وغيره، و30٪ منها تفاسير للتوراة، و15٪ منها لم يترجم أو لم تحدد هويته حتى الآن، كما كتب أكثر هذه النصوص بالعبرية، وبعض منها بالآرامية، والقليل باليونانية.

اكتشفت المخطوطات في عدة مراحل من الزمن، لكن في عصرنا الحالي كان أول من عثر عليها راع فلسطيني، ثم تتالى الكشف عنها خاصة بين عامي **1947**م و**1956**م، وكان ذلك في أكثر من عشرة كهوف في المنحدرات العالية التي تطل على خربة قمران في وادي قمران شمال غرب البحر الميت، في الجنوب من مدينة أريحا.

كانت قمران بلدة صغيرة، يظن أنها دمرت بفعل زلزال عام **31** ق. م، وأعيد بناؤها عام **4** ق.م، ولكن الرومان أحرقوها عام **68**م، ولذلك يرجح العلماء أن أصحاب المخطوطات لم يكونوا يعيشون في البلدة، بل في الكهوف المجاورة لها، ويمكن أن يكونوا قد عاشوا في أكواخ من القصب والطين أو خيام من الجلود، وهم طائفة منطوية على نفسها، تعيش حياة زهد وعزلة، وكان أفرادها يسمّون أنفسهم أبناء النور، وأبناء العهد الجديد، وينتظرون وصول المخلص، وهو ما يوضح ظن كثير من العلماء بصلة طائفة قمران بالمسيحية الناشئة التي تبنّت هذه الاعتقادات، وترك المجال مفتوحاً لخيال المؤرخين، ولافتراضات كثيرة، أهمها وأكثرها انتشاراً أن المسيحية ولدت وترعرعت في هذه البيئة.

هذا الاكتشاف الذي يعد من أعظم اكتشافات القرن العشرين أعاد فتح ملف تاريخ الدين اليهودي، بل التاريخ الديني للمنطقة على نحو عام، وقد جاءت المخطوطات التي حُققت ونشرت مدة أكثر من خمسين عاماً، لتكشف عن وجوه مثيرة من حيث التطور

التاريخي والسياسي للدين اليهودي في العصور السابقة للميلاد، وتأثره بالمتغيرات التي كانت تشهدها المنطقة أيضاً، من حيث الأفكار التي كانت سائدة في قمران، والتي كانت منتشرة في عدد من المواقع خارج فلسطين.

وجاء الكشف عن المخطوطات ليؤكد أن الدين اليهودي كان يشهد صراعاً حاداً في بداية العهد المسيحي، يظهر المحاولة اليائسة لصياغته صياغة قومية، والتي انتهت بالإخفاق، ومما لاشك فيه أن الصهيونية أدت دوراً كبيراً في تأخير نشر المخطوطات، وحاولت إيهام الرأي العام بأن المخطوطات تحتوي على فخ يستهدف الأديان، وبالمقابل حاولت الصهيونية جاهدة التركيز على أن هذه المخطوطات جاءت لتؤكد أصالة اليهود في المنطقة بالتوجه إلى فكرة أن اليهودية هي أصل الديانات السماوية، وهو ما تثبت الدراسة المتأنية للمخطوطات عكسه تماماً.

ونتيجة لما أحدثته المخطوطات من صراعات وبلبلة فكرية واختلافات واجتهادات دينية، ظهرت أصوات كثيرة، تطالب بعدم الالتفات إليها، وعدم نشرها، لأن فيها كثيراً من المصطلحات التي لا تتوافق مع الفكر المسيحي السائد الآن، ولكن لأصالة هذه المخطوطات فقد وضعت موضع دراسة أكاديمية وعلمية وأثرية جادة، فبعد سلسلة طويلة من الكتب عن مخطوطات البحر الميت ظهر في لندن عام **1991**م كتاب عنوانه: خديعة مخطوطات البحر الميت، تأليف كل من مايكل بيجنت وريتشارد لي، وهو الكتاب الذي بين أيدينا، وقد اتهما فيه الفاتيكان صراحة بالتدخل في عملية ترجمة المخطوطات ونشرها، ومحاولة إخفاء معلومات وردت بها، لأنها مخالفة للتعاليم الكاثوليكية، وقالا: «إن اللجنة المكلفة تخضع في عملها لبابا الفاتيكان مباشرة، وإن هذه التبعية تهدد بإخفاء أي نص قد يتعارض صراحة مع وجهة نظر الفاتيكان».

وتابع الكتاب أخبار الحملة الإعلامية الكبرى التي تركزت، خاصة في الصحف الأمريكية، مثل نيويورك تايمز، وواشنطن بوست التي أخذت تهاجم مجموعة الباحثين المسؤولة عن ترجمة المخطوطات ونشرها، وتتهمهم بالاشتراك في مؤامرة يحوكها الفاتيكان، تهدف إلى منع نشر بعض ما ورد في المخطوطات، لأن محتوياتها سيكون لها تأثير سلبي في بعض المعتقدات اليهودية والمسيحية، كما بين بالتفصيل نتائج سقوط المنطقة تحت الاحتلال الإسرائيلي عام **1967**م على المخطوطات ودراستها.

ووضح الكتاب خلاصة لكل ما عرضه أن كشف مخطوطات البحر الميت جعلنا نتوقع إلقاء المزيد من الأضواء على التاريخ الإنجيلي، وعلى شخصيات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وعلى جذور المسيحية والإسلام على نحو ما. وبطبيعة الحال، لا ينبغي التوقع من كشف، مهما بلغ حجمه، أن يسقط الكنيسة، وليس لنا أن نتوقع أي

شيء مروع كهذا العمل، ففي النهاية نجد أن الكنيسة اليوم مؤسسة اجتماعية، وثقافية، وسياسية، واقتصادية أكثر من كونها مؤسسة دينية، حيث يعتمد استقرارها وأمنها عوامل بعيدة تماماً عن الإيمان، والمذهب، والعقيدة التي تنشرهم .

ويضيف: في نهاية المطاف تكمن أهمية نصوص المخطوطات في شيء أكبر من إحراج الكنيسة، إذ تكمن الأهمية الحقيقية لهذه النصوص في الشيء الذي ستكشفه عن الأرض المقدسة، تلك الأرض التي أريقت عليها دماء الكثير من البشر قروناً كثيرة، وكلها أريقت باسم الآلهة، فهذه النصوص تشير إلى أنها ربما كانت أسماء متعددة للإله نفسه .

ويوضح الكتاب على نحو غير مسبوق أسرار تجارة الآثار غير المشروعة، وطرق تحرك القطع من مناطق اكتشافها في الشرق الأوسط نحو أوروبا، مع نماذج طريفة من طرق العرض وأساليب البيع لدى مهربي آثار مخضرمين، ومتورطين طامعين، والكثير من المدفوعين بسياسات وإيديولوجيات متناقضة.

ونستطيع الآن أن نقول إن مخطوطات البحر الميت قدمت لنا رؤية جديدةً عن الأديان السماوية التي ولدت في الشرق العربي، فقد بينت مقدار تداخل هذه الأديان، بل تشابهها، وإن كل الخلافات بينها لم تنجم من اختلاف القيم الروحية أو سوء فهمها، بل نجمت من حب السيطرة والتسلط، والجشع، والأنانية، وغطرسة سوء التفسير الوقحة، وأوضح أمثلتها في العصور الوسطى غزوات الفرنجة للأراضي المقدسة، وفي أيامنا الحركة الصهيونية التي دمرت وقتلت وهجّرت سكان تلك الأرض، ولا تزال ترتكب المجازر، مدفوعة بتهيؤات، رفضها اليهود أنفسهم منذ قرون طويلة، فسعت الصهيونية لإقامة دولة اليهود الدينية خلال حركة انبعاث أصولية، تقوم على التعصب الأعمى، وعدم التسامح، والتشدد الذي ولد صحوة أصوليات أخرى، كانت هاجعة منذ فترة طويلة.

إن فهمنا ـ نحن العرب ـ لنتائج كشف مخطوطات البحر الميت، ولكل الكشوف الأثرية في شرقنا العربي، بأنها جزء من تراث ثقافي وحضاري واحد، عاشته المنطقة العربية منذ وجودها وحتى الآن، أنتج ثقافات وأدياناً وحضارات متعددة ظاهرياً، لكنها واحدة الجوهر والروح، منطلقها العيش بسلام والانفتاح على الآخر، وهذا ما ساعدها على تخطي الزمن والاستمرار في الحياة، وهو نفسه سيكون أداة انتحار الصهيونية التي تقيم مجتمعاً عنصرياً معزولاً بجدران فصل، ما يؤكد أن هذا المجتمع هو جسم غريب، لا بد من أن يُلفظ أو أن يذوب في محيطه، ومن يشك في ذلك فعليه التأكد بدراسة محايدة متأنية لمخطوطات البحر الميت.

حمص الشام، الأربعاء 9 رجب 1430هـ، الموافق 1 تموز 2009م

الدكتور منذر محمد الحايك

القسم الأول

مدخل

مخطوطات البحر الميت الأربع

قمران والبحر الميت
QUMRAN AND THE DEAD SEA
نهر الأردن
R. Jordan
اريحا
JERICHO
JERUSALEM
القدس
البقيعة
EL-BUKEI'AH
وادي قمران
Wadi Qumran
وادي النار
Wadi en Nar (Kedron)
BETHLEHEM
بيت لحم
Khirbet Mird
خربة مرد
Herodium
قلعة هيروديوم
وادي مرابعات
Wadi Murabba'at
JUDAEAN
صحراء يهودا
(صحراء النقب)
DESERT
Machaerus
قلعة مكاور
Wadi el Mujib
قلعة مسعدة
Masada

«للبيع مخطوطات إنجيلية تعود على الأقل إلى عام 200 قبل الميلاد، تُصلُح هدية مثالية إلى مؤسسة تعليمية أو دينية، من فرد أو مجموعة»

كان هذا نص إعلانٍ ظَهَرَ في صحيفة وول ستريت[1] في الأول من حزيران عام 1954م، ولو أن إعلاناً كهذاً ظهر في إحدى الصحف اليوم، لظنه الناس من دون شك مقلباً من نوع ما، أو ربما رسالة مشفرة، تخفي وراءها صفقة أسلحة أو شيئاً تجسُسياً.

وطبعاً فقد أصبحت مخطوطات البحر الميت اليوم معروفة جيداً ولو بالاسم، فمعظم الناس سمعوا على الأقل بهذه المخطوطات، ولو أن فكرتهم عن ماهيتها قد تكون في بعض الأحيان غير واضحة، كما غدت العامة تعي اليوم أن تلك المخطوطات هي أشياء ثمينة، تشكل دليلاً تاريخياً بالغ الأهمية، ولا يتوقع المرء أن يعثر على عينة منها خلال الحفر في حديقة منزله الخلفية، كما لا ينظر إليها كما قد ينظر إلى أسلحة صدئة، أو أوان وأدوات منزلية، أو بقايا معدات وألبسة، كتلك التي قد يُعثر عليها مثلاً في موقع تنقيب عن آثار رومانية في بريطانيا.

لقد ولّد اكتشاف مخطوطات البحر الميت في عام 1947م فورة من مشاعر الإثارة في الأوساط العلمية وعامة الناس، لكن مع حلول عام 1954م كان هذا الشعور قد أُخمدَ بمهارة عالية، لقد جرى الافتراض أن هذه المخطوطات كشفت عن كل ما كانت لتكشفه، بدا الأمر أقل إثارة مما كانت عليه التوقعات، ونتيجة لذلك لم يثر إعلان عرضها للبيع ذلك الاهتمام الشعبي، عندما ظهر في الصفحة الرابعة عشرة من صحيفة وول ستريت، وفي الأسفل منه مباشرة كان هناك إعلان لبيع خزانات صناعية وآلات لحام كهربائية وعُدد أخرى، وفي العمود المجاور كانت هناك عقارات للإيجار ووظائف شاغرة، لقد كان الأمر أشبه بعرض كنز توت عنخ آمون وسط مجموعة كبيرة من أجهزة السمكرة أو الحاسوب، وفي هذا الكتاب سنرى كيف كان لهذا الأمر الغريب أن يحدث.

خلال تعقبنا لمسيرة مخطوطات البحر الميت منذ اكتشافها في صحراء اليهودية[2]، وحتى وصولها إلى المؤسسات الكثيرة التي تمتلكها اليوم، وجدنا أنفسنا نواجه تناقضاً، كنا قد واجهناه من قبل، التناقض نفسه بين يسوع التاريخ ومسيح العقيدة، كان بحثنا قد بدأ

---

1 – وول ستريت: من كبريات الصحف اليومية في العالم، تصدر في نيويورك منذ عام 1889م، ولها عدة طبعات خارجية، تهتم بالأعمال التجارية والمالية.

2 – اليهودية – **Judaea**: الاسم اليوناني الروماني للقسم الجنوبي من فلسطين غرب البحر الميت، وتضم القدس وبيت لحم، وهي برارٍ شاسعة جرداء، لذلك يمكن أن يقال عنها صحراء.

في فلسطين، ومن هناك امتد ليصل إلى أروقة الفاتيكان ومكاتب التحقيق المشؤومة، وقد واجهنا خلاله إجماعاً متفقاً عليه، ومحافظاً عليه بحزم على تفسير محتوى المخطوطات وتاريخها، كما وصلنا إلى فهم كم ستكون نتائج دراسة محايدة لهذه المخطوطات صاعقةً للمعتقد اللاهوتي المسيحي كاملاً، واكتشفنا مقدار شراسة العلماء الإنجيليين الكاثوليكيين، واستعدادهم للنضال لاستعادة احتكار المعلومات المتوافرة.

يمكن المسيحيين اليوم بسهولة أن يعترفوا ببوذا أو محمد مثلاً كأنها شخصيات تاريخية، تماماً كما قد يعترف المرء بالقيصر أو الاسكندر، وأن يفرقوا بينها وبين الأساطير والتقاليد وعلوم اللاهوت التي أصبحت مرتبطة بها، لكن هذا التفريق يغدو أشد صعوبةً عليهم عندما يتعلق الأمر بالمسيح، ففي صميم الاعتقاد المسيحي يرتبط التاريخ وعلم اللاهوت ببعضهما على نحو متشابك ومعقد، حيث يصطبغ كل منهما بلون الآخر، بينما يبدو كل منهما يشكل تهديداً ممكناً للآخر، إذا ما نُظرَ إلى كل منهما على انفراد، لذا يبقى الأسهل والأكثر أمناً إزالة الحدود الفاصلة بينهما، وهكذا، فإن المؤمنين من المسيحيين يقومون بصهر أمرين متباينين تماماً، ليصبحا أمراً واحداً، فمن ناحية معينة هناك الشخصية التاريخية، أي الرجل الذي يقر معظم الباحثون أنه وُجِدَ فعلاً، ومشى على تراب فلسطين قبل ألفي عام، ومن ناحية أخرى هناك الرجل الربّ للديانة المسيحية، أي الشخصية السماوية البارزة المبجلة التي أعلنها القديس بولس، إلا أن التمحيص في دراسة هذه الشخصية شخصيةً تاريخيةً، أي النظر إليها كما قد ينظر المرء إلى محمد أو بوذا وإلى القيصر أو الاسكندر، ما زال يعد لدى الكثير من المسيحيين في مقام الكفر أو التجديف على الرب.

في منتصف ثمانينيات القرن الماضي كنا منخرطين في تجديف كهذا تماماً، ففي سياق بحثنا في المشروع الذي توليناه آنذاك كنا نحاول الفصل بين التاريخ وعلم اللاهوت، وذلك لتمييز يسوع التاريخي من مسيح العقيدة، وفي خضم تلك العملية قفزنا على نحو أخرق ومباشر داخل اختلاط التناقضات الذي يواجهه جميع الباحثين في الشؤون الإنجيلية، وكجميع الباحثين من قبلنا وجدنا أنفسنا حائرين ومضطربين من ذلك الاختلاط.

في بحث كالذي كنا قد انكببنا عليه، طبعاً لم تستطع روايات الكتاب المقدس أن تقدم سوى أضأل قدر من المساعدة، إذ إن الأناجيل، وكما يعلم جميع الباحثين، معروفة بأنه لا يمكن اعتمادها مستندات وقرائن تاريخية، ففي جوهرها تتشكل الأناجيل المسيحية من روايات ذات تبسيط أسطوري بحت، تقص أموراً حدثت كما يبدو في ثقب

أسود تاريخي، وفيها يظهر المسيح وأتباعه وسط مشهد مصور على نحو مشبع بالخيال، جرت تعريته من معظم الأحداث والأحوال المرافقة، بينما يلوح الرومان واليهود على نحو غير واضح في الخلفية، وكأنهم عناصر إضافية في ديكورات فيلم ما، أما الأحوال الاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية التي انتزعت منها مسرحية يسوع، فلا تنقل تلك الروايات عنها أي شيء يحمل معنى، وفي حقيقة الأمر يواجه المرء فيها شيئاً يشبه الفراغ التاريخي.

ربما يعطي سِفْرُ أعمال الرُسُل[1] قليلاً من الوضوح للصورة، فقد يستطيع المرء أن يستنبط منه معلومات، ولو ضئيلةً، عن البيئة المحيطة على الأقل، وهي معلومات عن نزاع طاحن وصراعات مذهبية بين أتباع المسيح المباشرين، وعن حركة توحيدية أخذت تدريجياً نموذج المسيحية، وعن عالم يمتد إلى ما وراء حدود الجليل وأرض اليهودية، وعن علاقة فلسطين الجغرافية ببقية بلاد البحر المتوسط، إلا أنه لا يزال يفتقر إلى شرح دقيق عن القوى الاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية الأخرى الفاعلة آنذاك، فكل شيء فيه مركز ومقتصر على القديس بولس[2]، وإذا كانت الأناجيل مصوغة بأسلوب غير واقعي، فإن سفر أعمال الرسل ليس أقل منها في ذلك، ولو بطريقة مختلفة، وإذا كانت الأناجيل مُختَصَرَة إلى التبسيط الأسطوري التام، فإن سفر أعمال الرسل يضم نوعاً من رواية صعلوكية[3]، بل إنها رواية صعلكة، ترمي تحديداً إلى أهداف إعلامية، مصورةً القديس بولس بطلاً لها، وربما كان هذا السفر يحتوي على بعض معلومات عن عقلية بولس، ومواقفه ومغامراته، لكنه يفتقر إلى رؤية يُعتَمَد عليها عن العالم الذي تنقل فيه

---

1 - سفر أعمال الرسل: هو أحد كتب العهد الجديد، وهو يروي قصة نشأة الكنيسة المسيحية، سمي أعمال الرسل لأنه يركز على ما قام به الاثنا عشر رسولاً من نشاطات في الفترة التي تلت صعود يسوع المسيح إلى السماء، على نحو أوسع مما قام به بولس الرسول من رحلات وأعمال تبشيرية، وكيف أسس جماعات مسيحية في معظم المدن اليونانية.

2 - بولس: هو بولس الرسول أحد قادة الجيل المسيحي الأول، يعده بعضهم ثاني أهم شخصية في تاريخ المسيحية بعد المسيح نفسه، عرف برسول الأمم، وكان من أبرز من بشّر في آسيا الصغرى وأوروبا، وكان له الكثير من المريدين والخصوم على السواء، ساهم التأثير الذي خلفه بولس في المسيحية بجعله واحداً من أكبر القادة الدينيين في العالم على مر العصور، ولد بولس في مدينة طرسوس في كيليكية، بين السنة الخامسة والعاشرة للميلاد، كان اسمه شاول، وترعرع في كنف أسرة يهودية منتمية إلى سبط بنيامين، كما كان أيضاً مواطناً رومانياً، ولما كان شاول فريسياً متحمساً ذا ميول متطرفة عمل على محاربة المسيحية الناشئة، كأنها فرقة يهودية ضالة، تهدد الديانة اليهودية الرسمية، في طريقه إلى دمشق وبحسب رواية العهد الجديد أصيب بالعمى، حصلت رؤيا لشاول سببت تغيير حياته، حيث أعلن الله له عن ابنه، فقد قال بولس إنه رأى الرب يسوع، فدخل دمشق، وشفي بمعجزة على يد حنانيا، فاعتنق المسيحية وسمّي بولس.

3- أي إنها تحكي عن حياة التصعلك والتشرد.

بولس، ففي رأي أي مؤرخ أو محلل تاريخي مسؤول لا يمكن أي رواية عن تلك الحقبة أن تكون كاملة من دون أن تشير، ولو باختصار، إلى نيرون[1] وإحراق روما مثلاً . حتى ضمن فلسطين كانت هناك تطورات بالغة الأهمية لمن عاشوا في تلك الفترة، فمثلاً في عام 39 للميلاد جرى نفي هيرود أنتيباس[2] أمير منطقة الجليل إلى جبال البيرينيه[3]، ومع حلول عام 41 للميلاد كانت كل من الجليل ويهوذا اللتين كانتا تحت إدارة الولاة الرومان منذ العام السادس للميلاد، قد مُنحَت الملك أغريبا[4]، وتوحدت فلسطين بقيادة ملك أوحد غير روماني، مع أنه ربما كان مجرد دمية متحركة، أول مرة منذ أيام هيرود العظيم[5] قبل قرابة نصف قرن من الزمن.

---

1 - نيرون: أو نيرو، إمبراطور روماني ولد عام 37، وكان ابن الإمبراطور كلوديوس بالتبني، بدأ حكمه بفترة من الإصلاحات، ولكنه كان صغيراً في السن ليحكم الإمبراطورية الواسعة، فقد كانت سنه 16 سنة، فانقلب حكمه إلى كابوس مخيف وانغمس في اللهو، ساهم في المؤامرات والاغتيالات السياسية، وكانت أمه إحدى ضحاياه، وزوجته الأولى أيضاً، ثم قتل معلمه سينيكا، أما أشهر جرائمه فكان حريق روما الشهير سنة 64 م، حيث التهمت النيران عشرة أحياء من جملة أحياء المدينة الأربعة عشر، ويقال إنه بينما كانت النيران تتصاعد والأجساد تحترق كان نيرون جالساً في برج مرتفع يتسلى بمنظر الحريق، وتزايدت كراهية الشعب له، فاحتاج إلى كبش فداء، فألصق التهمة بالمسيحيين، وبدأ يلهي الشعب في القبض عليهم وتقديمهم للوحوش أو حرقهم بالنيران في مسرح روما، وفي جميع أنحاء الإمبراطورية، وكان من ضحاياه الرسولان بولس وبطرس اللذان استشهدا عام 68م، ثم أعلنه مجلس الشيوخ «عدواً للشعب»، فمات منتحراً في عام 68 م.

2- هيرودس أنتيباس: هو الابن الثاني لهيرودس الكبير من زوجته الرابعة السامرية ملثاكي، فنصفه أدومي ونصفه سامري، نال أخوه الأكبر وراثة العرش، وعين هو حاكماً على الجليل، فتنافسا طويلاً، ولما جلس على العرش اتسعت مطالبه، حتى حملته امرأته على الذهاب إلى روما، ليطلب أن يمنح لقب ملك، وهناك غضب عليه الإمبراطور كاليجولا، ونفاه إلى إسبانيا، وأنباء هيرودس أنتيباس كثيرة في التوراة، فهو الذي تزوج بامرأة أخيه هيروديا، ولذلك ظل يوحنا المعمدان يوبخه، حتى قطع رأسه، وقدمه هدية لـ«سالوما» ابنة هيروديا .

3- البيرينيه: سلسلة جبال بين فرنسا وإسبانيا .

4 - هيرودس أغريباس الأول: هو حفيد هيرودس الكبير، عاش طويلاً في روما، ثم رجع وعين حاكماً على بعض فلسطين سنة 39 م، وكان يحظى برضى الإمبراطور كاليجولا، ويروى أنه ذبح يوحنا، وسجن بطرس، ويروي الكتاب المقدس أن نهايته كانت بأن أكله الدود بعد أن ادعى الألوهية، ومات سنة 44 م، وكان عمره عند ذاك 54 سنة.

هيرودس أغريباس الثاني: هو ابن أغريباس الأول، وكان صغيراً عند موت أبيه، فرفض الإمبراطور تعيينه في مركز أبيه، وبقي يقيم في روما إلى أن نال أخيراً لقب ملك، وضمت إليه بعض مناطق لبنان الداخلية، واستمر ملكه في الاتساع إلى أن حكم نيرون، فأضاف إليه مناطق كثيرة في فلسطين والأردن، واستمر يملك حتى سقوط القدس، فانتقل إلى روما، وهناك عاش مع أخته برنيكي التي كان يعاشرها كزوجة إلى أن مات سنة 100م.

5 - هيرود العظيم: ولد عام 73ق.م في منطقة أدوم جنوب البحر الميت، وأمه ابنة أحد شيوخ القبائل العربية، جرى تعيينه حاكماً لمنطقة الجليل، ومع أنه اكتسب شعبية كبيرة، لكنه أثار سخط اليهود ونقمتهم، لأنه ليس يهودياً، وعند اندلاع الحرب بين الفرس والروم وقف عامة اليهود مع الفرس، بينما استطاع هيرود الهرب إلى روما، في عام 37 ق.م، وبعد أن تمكن الروم من دحر الفرس، أعادوا هيرود ملكاً إلى القدس، فكان على خلاف مع اليهود، وخاصة الفريسيين الذين يعدونه ملكاً غير شرعي، لأن أمه ليست يهودية مع اعتناقه لليهودية.

إن أياً من هذه التطورات لم يؤتَ على ذكره في سفر أعمال الرسل، فالأمر فيها يشبه قراءة سيرة حياة شخص مثل بيلي غراهام[1] من دون أن تكون فيها إشارة إلى صداقته بالرؤساء وأشخاص بارزين آخرين، وإلى اغتيال جون كنيدي[2]، وحركة الحقوق المدنية، وحرب فيتنام، وتحول القيم خلال الستينيات، وفضيحة ووتَرغيت[3] وتبعاتها .

وبخلاف العُرف المسيحي كانت فلسطين قبل ألفي عام تشكل بيئة تاريخية واقعية كأي بيئة أخرى، أي مثل مصر بعهد كليوبترا[4]، أو روما بعهد الإمبراطورية، واللتين تصارعتا عليها، ولم يكن ممكناً أن تتحول واقعية فلسطين إلى بساطة أسطورية مجردة. ومهما كان يسوع أو بولس، ومهما كان ما فعلاه، فيجب أن يوضع ويوضعا أمام خلفية أكثر اتساعاً من الأحداث، أي أمام دوامة الشخصيات والجماعات والمؤسسات والحركات التي عملت في فلسطين في القرن الأول، وشكلت بنية ما يسمى التاريخ.

ولكي نحصل على معلومات حقيقية عن تلك الفترة كان علينا، كأي باحثين آخرين، أن نلجأ إلى مصادر أخرى كالروايات الرومانية، والسجلات التاريخية التي جمعها كتاب

---

1 - بيلي غراهام: يعد آل غراهام أشهر الوعاظ في «العالم الحر»، وظل القس «بيلي» الواعظ والمستشار الروحي لخمسة رؤساء أمريكيين، وقد قيل إن الرئيس جورج بوش الابن تاب واستقام على يديه، وحالياً يدير فرانكلين بن بيلي جمعية للمبشرين المرافقين للقوات الأمريكية الغازية للعراق، تختفي وراء هذه الأسرة منظمة عسكرية دينية، أنشئت لتخوض من قبل الحرب الباردة، وتدعم المسيحية ضد الشيوعية، وتستعمل اليوم ضد الإسلام، وقد عين بوش الابن فرانكلين غراهام واعظاً يترأس الصلاة العامة في حفل الافتتاح بعد أن اختير ليكون الرئيس الثالث والأربعين للولايات المتحدة الأمريكية مباشرة، كما اختارت إدارة بوش الجمعية التبشيرية «ساماريتانز بورس» لتنشط بالعراق المحتل، وتحمل إلى العراقيين «الإيمان» ثانية.

2 - جون كنيدي: هو الرئيس الخامس والثلاثون للولايات الأمريكية المتحدة، خلف الرئيس دوايت أيزنهاور، وقد خلفه نائبه ليندون جونسون، ولد في عام **1917**م، تولى رئاسة الولايات المتحدة منذ عام **1961**م وحتى اغتياله في عام **1963**م، وهو الرئيس الأمريكي الكاثوليكي الوحيد، وهو أصغر رئيس أمريكي منتخب، تولى الرئاسة في فترة رهيبة وحرجة من الصراع في الحرب الباردة، وكان صاحب مواقف قوية في مواجهة السوفيت في كل المجالات، وهو الأمر الذي جعله أحد أكثر رؤساء أمريكا شعبية، وأحد أكثرهم أهمية، وكان من أهم الأحداث في فترة ولايته عملية اقتحام خليج الخنازير، وأزمة الصواريخ الكوبية، وبناء جدار برلين، والإرهاصات الأولى لحرب فيتنام، وحركة الحقوق المدنية الأمريكية، وسباق غزو الفضاء، حيث إنه صاحب الوعد الشهير بإنزال إنسان على القمر.

3 - ووتر غيت: هو اسم لأكبر فضيحة سياسية في تاريخ أمريكا، ففي عام **1972**م وخلال عملية الترشح لتجديد الرئاسة قرر الرئيس نيكسون التجسس على مكاتب الحزب الديمقراطي المنافس في مبنى ووتر غيت، فألقي القبض على خمسة أشخاص في واشنطن بمقر الحزب الديمقراطي، وهم ينصبون أجهزة تسجيل مموهة، فتفجرت أزمة سياسية هائلة، وتوجهت أصابع الاتهام إلى الرئيس نيكسون، واستقال إثر ذلك في آب عام **1974**م، وجرت محاكمته، لكن الرئيس فورد أصدر عفواً عنه بشأن الفضيحة.

4 - كليوبترا: هي كليوباترا السابعة (**69** ق م - **30** ق م) ملكة مصر، الشهيرة في التاريخ بعلاقتها بيوليوس قيصر، ثم القائد الروماني ماركوس أنطونيوس، أصبحت كليوباترا ملكة عند وفاة والدها بطليموس الثاني عشر، وبعد انتصار جيوش روما بقيادة أوكتافيان على قواتها وقوات أنطونيوس انتحرت كليوباترا، وكذلك فعل أنطونيوس، ووقعت مصر تحت سيطرة الرومان.

آخرون ذوو توجهات أخرى، والتلميحات والتضمينات الواردة في وثائق لاحقة، والنصوص المنتحلة، وتعاليم الطوائف والديانات المنافسة وبراهينها، ولا داعي للقول إن المسيح ذاته قلما ذُكرَ في تلك المصادر، إلا أنها قدمت صورة شاملة ومفصلة عن العالم الذي تحرك فيه المسَيح، وفي حقيقة الأمر كان عالم المسيح في هذه المصادر مدوناً ومسجلاً أفضل من عالم الملك آرثر[1] أو روبين هود[2] مثلاً، مع أن المسيح شخصياً ظل شخصية محيرة فيها، لكنه لم يكن أكثر تحييراً من آرثر أو روبين هود مثلاً. لذا عندما انغمسنا في خلفية يسوع التاريخي كان الأمر مترافقاً بالدهشة والمتعة، لكن لم يمض وقت طويل على ذلك حتى وجدنا أنفسنا أمام مشكلة تواجه كل الباحثين في التاريخ الإنجيلي، لقد وجدنا أنفسنا نواجه ما بدا أنه طيف محير من المذاهب والطوائف وأشباه الطوائف اليهودية، ومن المنظمات والمؤسسات السياسية والدينية التي بدت أحياناً في عداء حربي ضد بعضها، بينما تتداخل في بعضها أحياناً أخرى. وسرعان ما اتضح لنا أن الأسماء المستخدمة للتفريق بين هذه الفرق اليهودية المتنوعة كالفريسيين[3]، والصدوقيين[4]،

---

1 - الملك آرثر - **King Arthur**: أحد أهم الرموز الميثولوجية في بريطانيا، حيث يمثل الملكية العادلة في الحرب والسلم، وهناك خلاف بشأن وجود آرثر، وتاريخ آرثر الأسطورة كان محل جدل طويل بين الدارسين، وهناك من يرى أنه ليس له وجود تاريخي، بينما يظن بعضهم أنه كان في الأساس إلهاً سلتياً نصف منسي، تحول إلى شخصية ملكية بينما رأي آخر يرى أن آرثر كان شخصاً حقيقياً، وهو،كما ترى معظم النظريات، قائد روماني بريطاني عاش في أواخر القرن الخامس الميلادي حتى بداية القرن السادس الميلادي، وقاتل ضد الغزاة السكسون.

2- روبين هود - **Robin Hood**: هو شخصيه انجليزية، تمثل فارساً شجاعاً، مهذباً، طائشاً وخارجاً عن القانون، عاش في العصور الوسطى، وكانت لديه براعة باهرة في رمي السهام، تمثل أسطورة روبين هود في العصر الحديث شخصاً قام على سلب الأغنياء وسرقتهم وإطعام الفقراء، إضافة إلى ذلك حارب روبين هود الظلم والطغيان، كان يعمل مع مجموعة من رفاقه في غابات شيروود في محافظة نوتنغهامشاير من مدينة نوتنغهام.

3- الفريسيون: اسم آرامي معناه المنعزلون، وهم إحدى طوائف اليهود الرئيسة الثلاث التي تضم الصدوقيين والأسينيين، وكانت أضيقهم رأياً وتعليماً، ويرجّح أن يكون الفريسيون خلفاء الحسديين المتظاهرين بالتقوى، قوي نفوذهم على حياة اليهود الدينية، وأصبحوا قادتهم فيها، وكانوا يقولون بالقدر، ويجمعون بينه وبين إرادة الإنسان الحرّة، ويؤمنون بخلود النفس وقيامة الجسد ووجود الأرواح، ومكافأة الإنسان ومعاقبته في الآخرة بحسب صلاح حياته الأرضية أو فسادها، غير أنهم حصروا الصلاح في طاعة الناموس، فجاءت ديانتهم ظاهرية، وليست قلبية داخلية، وعلى مرّ الزمن فسد أحبارهم، واشتهر معظمهم بالرياء، فخضعوا بحق للانتقاد اللاذع والتوبيخ القاسي، فيوحنا المعمدان دعاهم الصدوقيين «أولاد الأفاعي»، كما وبخهم السيد المسيح بشدة على ريائهم وادعائهم البرّ كذباً، وكان لهم يد بارزة في المؤامرة على حياة المسيح.

4- الصدوقيون: فرقة صغيرة تقريباً، ولكنها مؤلفة من مثقفين، جلهم أغنياء وذوو مكانة مرموقة، وقد عم الرأي أن اسمها مشتق من صادوق، وذلك لأن هذه الطائفة مؤلفة من رؤساء الكهنة والأرستقراطية الكهنوتية، وقد كان صادوق رئيس كهنة في أيام داوود وسليمان، وفي عائلته حفظت رئاسة الكهنوت حتى عصر المكابيين، فسمي خلفاؤه وأنصاره صدوقيين، وعلى خلاف الفريسيين فقد حصر الصدوقيون تعاليمهم في نص الكتاب، وأنكروا القيامة والثواب في الجسد، ذاهبين إلى أن النفس تموت مع الجسد، وقالوا بالجبرية، فقالوا بحرية الإرادة، وإنا قادرون على أعمالنا، وإننا سبب الخير، وإننا نتقبل الشر من أجل حماقة أفعالنا، وإنه لا دخل لله في صنعنا الخير أو إعراضنا عن الشر، وكانت القيادة السياسية على نحو كبير في أيديهم في زمن الرومان، وكان رؤساء الكهنة آنذاك منهم.

والحسديين[1] الأسينيين، والغيوريين[2] قنّائيم، والناصريين، لم تكن دقيقة ولا مفيدة، فقد بقي الاختلاط بينها قائماً، وبدا أن المسيح كانت له ارتباطات من نوع أو آخر، بجميع تلك المكونات، فمثلاً بدا المسيح أنه ينتمي إلى عائلة وأرضية فريسيّتين، وأنه كان مليئاً بفكر فريسي، وقد أكد الكثير من الدارسين التشابهات الصادمة بين تعاليم المسيح، خاصة موعظة الجبل، وتعاليم أصحاب الفكر الفريسي مثل هيليل العظيم[3]، وهناك باحث واحد على الأقل يقول إن المسيح كان نفسه فريسياً .

لكن إذا كانت كلمات المسيح كثيراً ما تتقاطع مع كلمات المذهب الفريسي آنذاك، فهي تبدو أنها تقوم كثيراً على فكر صوفي أو حسدي أسيني أيضاً، فيوحنا المعمدان[4] معروف أصلاً بأنه كان حسدياً أسينياً من نوع ما، ويُدخل تأثيره في المسيح مكوناً حسدياً أسينياً واضحاً في سيرة المسيح، إلا أنه تبعاً للروايات الإنجيلية كانت أم يوحنا أليصابات[5]، وهي خالة المسيح، زوجة لكاهن من كهنة الهيكل، وبذلك فهي أعطت الاثنين، أي يوحنا والمسيح، صلات صدوقيةً، بل إن الأمر الأكثر حساسية للعرف المسيحي اللاحق هو أن المسيح يبدو بجلاء أنه اتخذ من بين الغيوريين أتباعاً له، ومنهم

1- الحسديون: ترجع تسمية هذه الفرقة إلى الكلمة العبرية حسديم، ومعناها المشفقون، ظهرت هذه الفرقة نحو القرن الثاني قبل الميلاد، وتختلف هذه الفرقة عن بقية فرق اليهود اختلافاً جوهرياً في عقائدها وعباداتها ونظمها وتقاليدها، فتحرم الأضحية والقرابين، التي كانت تعد عند الفرق الأخرى من أهم العبادات، وتكثر في شعائرها مناسبات الغسل والوضوء، كما تنكر التفرقة العنصرية، وتقرّر مبدأ المساواة بين الناس في القيمة الإنسانية المشتركة، وتحرص على التعايش السلمي بين جميع الشعوب.

2- الغيوريون: إحدى الفرق اليهودية القديمة، قاوموا الرومان، وقد شاركوا الفريسيين في الكثير من معتقداتهم، إلا أنهم كانوا لا يقبلون سيداً سوى الله، وقد ساد اعتقاد بأن يهوذا الاسخريوطي كان واحداً منهم.

3- هيليل العظيم أو الكهل: وهيليل تعني المضيء، عاش بين 70 ق.م - 10م، وهو حبر يهودي ومعلم، وأول باحث نظم تأويل الشرائع اليهودية، وبحسب التلمود ولد هيليل في بابل، وتعلم في القدس، وقد استمد سلطته من الناموس، وجرى انتخابه رئيساً للمجلس الديني في القدس.

4 - يوحنا المعمدان: هو من عمّد يسوع المسيح في نهر الأردن، وكان يعمّد الناس، أي يغسلهم، في نهر الأردن للتوبة من الخطايا، ولد يوحنا من والدين تقيين، وهما زكريا الكاهن وإليصابات في عين كارم، وهو النبي يحيى بن زكريا لدى المسلمين، وهو نبي الصابئية المندائيين، حيث ينسبون إليه كتاب «تعاليم يحيى» هو أحد الكتب المقدسة لديهم، كما يعد يحيى أو يوحنا المعمدان أو يحيى بن زكريا نبياً في الديانة البهائية.

5 - إليصابات: هي زوجة النبي زكريا وأم يوحنا المعمدان، وهذا الاسم هو الصيغة اليونانية لاسم لفظه في اللغة الآرامية إيل يشبع، أي «الله قسم»، وكانت امرأة تقية من سبط لاوي ومن بيت هارون، وقد ولدت يوحنا المعمدان بعد أن تقدمت بها السن، ومع أنها كانت من سبط يختلف عن السبط الذي جاءت منه مريم في الناصرة إلا أنهما كانتا قريبتين.

مثلاً سمعان الغيور[1] أو الناموسي، وربما يهوذا الاسخريوطي[2] الذي ربما جاء اسمه أصلاً من عصبة حملة الخناجر الدمويين السيكاري[3].

لقد كان التلميح فقط إلى ارتباط المسيحية بالغيورين في ذاته أمراً استفزازياً، لكن هل كان المسيح فعلاً المنقذ المهادن المسالم، كما تصفه المسيحية التي أتت بعد ذلك؟، وهل كان خالياً من العنف فعلاً على نحو كامل؟، إذاً لماذا انخرط في أعمال عنف كقلب طاولات صرافي النقود في الهيكل؟، ولماذا أعدم على يد الرومان، كما قالوا، بطريقة كانت مخصصة لممارسي لنشاطات الثورية حصراً؟، ولماذا وجّه المسيح أتباعه قبل صلاة قيامه في الجثمانية[4] ليجّهزوا أنفسهم بالسيوف؟، ولماذا قام بطرس الرسول[5] بعد ذلك فترة

---

1 - سمعان: الملقب بالقانوي، نسبة إلى بلدة قانا، وأيضاً الغيور، واسمه بالآرامية والعبرية شمعون، الذي يعني سميع الله، وهو واحد من رسل المسيح الاثني عشر، وأكثرهم غموضاً، حيث لم يُكتب عنه الكثير في الأدبيات المسيحية في القرون الميلادي الأولى.

2- يهوذا الاسخريوطي: هو واحد من تلاميذ المسيح الاثني عشر، ‹يهوذا معناه بالعبرية «الحمد»، المقطع الأول من لقبه هو إس أو إش بمعنى رجل فيكون القريوتي نسبة إلى قريوت التي تعني القرية، وهي في جنوب يهوذا، وقد ذكرت في العهد القديم، وبحسب الأناجيل القانونية فإن يهوذا الاسخريوطي هو التلميذ الذي خان يسوع، وسلمه لليهود بثلاثين قطعة فضة، وبعد ذلك ندم على فعلته، ورد المال لليهود، وذهب وقتل نفسه، وبعد قيامة يسوع من الموت اختار الرسل متياس بديلاً من يهوذا، ليكون من جملة الاثني عشر، يؤمن الغنوصيون بأن يهوذا بريء من تهمة الخيانة، وبأنه إنما قام بفعلته تلك لخدمة سيده المسيح، وتذهب جماعة القايينيين الغنوصية إلى أبعد من ذلك، فتبجل شخص يهوذا، وتعد أن قيامه بتسليم يسوع للموت كان لغاية نبيلة، وهي تخليص العالم من الخطيئة، لذلك يجب احترام يهوذا وتقديسه، بل شكره على مساعدته المسيح، فيهوذا علم بأن يسوع كان خائفاً مما هو مقدم عليه، فخشي أن يتراجع نهائياً عن فداء البشر، لذلك «خانه» أو سلمه لرؤساء الكهنة، لكي لا تعوّق عملية الخلاص.

3- عصبة الخناجر: بعد انتفاضات كثيرة ضد روما قامت حركة بقيادة يوحنا المعمدان في مطلع القرن الميلادي الأول باسم **Essenes**، أي اليائسين»، نادت بالانقطاع عن الإنتاج بكل أنماطه، والهجرة من المدن والعيش في الصحراء، واعتماد الطبيعة وحدها في الغذاء واللباس، وعدم الزواج والتعمد بالماء وإطالة الشعر، خشيت روما من تنامي هذه الجماعة، فقمعتها بشدة وأعدمت رئيسها يوحنا المعمدان، ويظن أن يسوع كان أحد أعضاء هذه الجماعة، ويقال إنه استمراراً لحركة اليائسين ضد روما شكل يسوع في الجليل جماعة تعمل على مقاومة الرومان مقاومة إيجابية، وتدعو إلى العصيان المدني والامتناع عن دفع الضرائب، وسميت تلك الجماعة الناصريين، ليس نسبة إلى مدينة الناصرة، كما يظن العامة، والتي لم تكن قد ظهرت بعد إلى الوجود، بل لأن الجماعة انبثقت من جماعة اليائسين، و(الناتسر ـ**Nitzer**) كلمة آرامية تحمل معنى الانبثاق، ثم تشكل داخل هذه الجماعة جناح عسكري اسمه الزيلوت (**Zelotes**)، وهم حملة السيوف، وجماعة أخرى اسمها السيكاري (**Sicari**)، وهم حملة الخناجر، وكانت وظيفة هؤلاء اغتيال عساكر الرومان بالطعن بالخنجر.

4 - الجثمانية: حديقة الجثمانية أعلى وادي قدرون في أسفل منحدر جبل الزيتون، وقد جرى تعرف هذه الحديقة منذ القرن الرابع للميلاد على أنها المكان الذي قام فيه المسيح بالصلاة، والمكان الذي اعتقل فيه بعد خيانته من يهوذا، وتتوسط الحديقة كنيسة كل الأمم الرائعة، تعرف أيضاً بكنيسة الكرب، صممها المعماري الإيطالي الشهير أنطونيو بيرلوزي.

5 - بطرس: هو بطرس الرسول أو القديس بطرس، واسمه سمعان بن يونا، ومعنى بطرس هو الصخرة، وقد نال لقبه هذا من السيد المسيح بحسب رواية الكتاب المقدس، كان واحداً من نخبة الرسل الذين اختارهم المسيح من بين أتباعه، وسموا التلاميذ، وقد دونت بعض محطات حياته في الكتاب المقدس، ولد بطرس ونشأ في قرية بيت صيدا بفلسطين، و عمل صياداً للسمك قبل أن يدعوه يسوع، ليكون أحد أتباعه، وأصبح بعد ذلك قائداً لبقية الرسل، كما أقرت الكنيسة الأولى بسلطته، استشهد عام **64** م، ويظن بأنه قتل صلباً على نحو مقلوب بيد السلطات الرومانية، وقبره الآن تحت المذبح العالي في بازيليك القديس بطرس في الفاتيكان.

قصيرة بسل سيف وبتر أذن أحد الأتباع في حاشية الكاهن الأعظم في الهيكل؟، وإذا كان المسيح في الواقع أكثر حربية مما يصور على نحو عام، أفلم يكن أيضاً أكثر التزاماً للسياسة ولو عند الضرورة؟، وكيف إذاً يمكن تفسير استعداده لإعطاء القيصر ما كان للقيصر؟، وذلك بناء على ما يفترض أنه نسخ دقيق وترجمة دقيقة لكلماته.

وإذا كانت هذه التناقضات قد أحاطت بالمسيح خلال حياته، فيبدو أنها لم تمت بموته، بل استمرت أكثر من أربعين عاماً بعد خبر وفاته، ففي عام **74** للميلاد جرى أخيراً اجتياح قلعة مسعدة[1] من الرومان بعد أن صمدت في وجه حصار روماني طويل، لكن هذا لم يحصل إلا بعد أن قامت حامية الجند المدافعة عن القلعة بانتحار جماعي، وعلى نحو عام يُعرَفُ عن مدافعي مسعدة بأنهم كانوا من الغيوريين، وهي ليست طائفة متدينة تبعاً للتأويل التقليدية، بل هم أنصار متفانون لحركة سياسية وعسكرية، لكن الأمر، كما وصل إلى الأجيال التالية، يُظهرُ أن مذهب الجنود المدافعين عن القلعة كان حسدياً أسينياً، وهي طائفة يزعم أنها نبَذت العنف، واتخذت توجهات صوفية، كما يظن أنها نفت جميع أنماط النشاط السياسي، كي لا نقول العسكري.

كانت تلك أمثلة للتناقضات والاختلاطات السائدة التي وجدناها، لكن إن كنا قد حُيِّرنا بالأمر كاملاً، فقد كان هذا أيضاً حال الباحثين المحترفين والخبراء الأكثر منا ضلاعة في هذا الشأن، لقد كان كل من الباحثين، وبعد أن يشق طريقه عبر المتاهة، ينتهي بالاختلاف مع بقية زملائه، فتبعاً لبعضهم، نشأت المسيحية كمذهب تصوفي تأملي نابذ للدنيا وذي شعائر سرية من اليهودية، لذا لم يكن لها أن ترتبط بأي حال بالقوميين الثوريين الحربيين أمثال الغيوريين، بينما يقول آخرون إن المسيحية نفسها بدأت كمذهب من القومية اليهودية الثورية، وربما لم يكن لها أن ترتبط بأي حال بالمتصوف المسالم السائد لدى الحسديين الأسينيين، وفي الوقت نفسه يرى بعض آخر أن المسيحية انبثقت من أحد التوجهات السائدة للفكر اليهودي في ذلك الوقت، على حين يظن آخرون أنها بدأت بالانحراف عن اليهودية، حتى قبل أن يظهر بولس على الساحة، ويجعل الانشقاق رسمياً.

وكلما كنا نستشير الخبراء كان يتضح لنا أكثر أنهم لا يزيدون حقيقةً في معرفتهم سوى قليل على أي شخص آخر، لكن الأمر الأكثر إقلاقاً كان أننا لم نواجه أي نظرية أو تفسير يوفق على نحو مقبول بين كل الأدلة وكل الأمور الشاذة والغريبة وغير المتوافقة والمتناقضة.

---

1 - مسعدة- **Metzada** : قلعة صحراوية على قمة صخرة منعزلة فوق الهضبة، تطل على البحر الميت من جنوبه الغربي، وهي غير مسعدة السورية التي في الجولان،

وبعد ذلك وقع في أيدينا عمل روبرت إيسنمان رئيس قسم الدراسات الدينية، وبروفيسور ديانات الشرق الأوسط في جامعة كاليفورنيا في مدينة لونغ بيتش الأمريكية، كان إيسنمان قد التحق بجامعة كورنيل في تزامن مع توماس بينشون، وهناك درس الأدب المقارن على يد فلاديمير نابوكوف[1]، وحصل على إجازة في الفيزياء والفلسفة في عام 1958م، وشهادة الماجستير في الدراسات العبرية والشرق الأدنى من جامعة نيويورك عام 1966م. وفي عام 1971م نال شهادة الدكتوراه باللغات والثقافات الشرق الأوسطية من جامعة كولومبيا، بعد أن ركز تحديداً على التاريخ الفلسطيني والشريعة الإسلامية، كما كان أيضاً زميلاً خارجياً لجامعة كالبريا الإيطالية ومحاضراً بالشريعة الإسلامية والديانة والثقافة الإسلاميتين، ومخطوطات البحر الميت، والأصول المسيحية في الجامعة العبرية في القدس. وفي عامي 1985م و1986م كان إيسنمان أستاذاً باحثاً مقيماً في معهد وليم أولبرايت للبحث الأثري في القدس، وبين عامي 1986م و 1987م كان عضواً بارزاً غير مقيم في كلية ليناكر في جامعة أكسفورد، وباحثاً غير مقيم في مركز أكسفورد للدراسات العليا العبرية.

في البداية صادفنا عمل إيسنمان على شكل كتاب صغير عنوانه معقد، هو المكابيون[2] الصدوقيون المسيحيون، وقمران، كان قد نشره إي. جي بريل من جامعة ليدين الهولندية في عام 1983م. كان الكتاب أكاديمياً جداً، إذ كان فيه من الحواشي أكثر مما فيه من النصوص، وكان ينم عن افتراض مهيأ بخلفية هائلة من المعرفة، بينما يعوقك ما ملأ به من أسماء المصادر والمراجع، لكنه في الوقت نفسه تضمن فرضية محورية، تقوم على الحس السليم ووضوح الفكر، وكان ذلك أمراً مبهجاً ومشجعاً، وما إن أخذنا نشق طريقنا في نصوصه الكثيفة، حتى شرعت الأسئلة التي حيرتنا في الماضي تحل نفسها بوضوح وتناسق ومن دون نظريات مختلقة زائفة، ومن دون تجاهل لأجزاء هامة وحاسمة.

لقد كان القسم الأول من كتابنا الإرث المسيحي الذي نُشر في لندن يقوم كثيراً على عمل إيسنمان، وكانت النتيجة التي خلُصنا إليها في ذلك الكتاب تدين بالكثير للمنظور

---

1 – فلادمير نابوكوف: ولد عام 1899م في سانت بطرسبرغ بروسيا، وتوفي عام 1977م في مونترو بسويسرا، كاتب روسي أمريكي، اشتهر عالمياً، وعرفت أعماله بأنها معقدة، حيث إن حبكة القصص والكلمات المستخدمة فيها كثيرة التعقيد، له أيضاً روايات جميلة، ربما كان أشهرها لوليتا والحريق الشاحب وبنين.

2 المكابيون: هم من بادر العصيان ضد السلوقيون بعهد أنطيوخوس الرابع إيبيبانيس الذي كان يريد من الشعوب الخاضعة له تبني الثقافة والعادات الإغريقية، واستجاب لرغبته الكثير من اليهود، لكن في الوقت نفسه رفض بعضهم اتباعه، ومنهم المكابيون.

الذي فتحه لنا إيسنمان عن المعرفة الإنجيلية والخلفية التاريخية للعهد الجديد، إلا أن أسئلة معينة ظلت دونما إجابة، وكنا في الحقيقة قد أغفلنا صلة وصل حاسمة، ولم يكن لنا أن نعلم ذلك وقتها، إنها الصلة التي أصبحت في السنوات الخمس الأخيرة محوراً للجدل، وموضوعاً لمقالات الصفحات الأولى في الصحف، وقد تبين أن تلك الصلة تتكشف في المعلومات التي تقدمها مخطوطات البحر الميت.

إن ما اكتشفناه كان وجود ارتباط يقبع في مركز اللغز بين مخطوطات البحر الميت والقديس يعقوب شقيق المسيح، الذي يشكل شخصية محيرة، فقد أدى صراعه ضد بولس إلى تشكُّل ذلك الدين الجديد الذي عُرف بعد ذلك بالمسيحية، كانت تلك هي الصلة التي دأبت لإخفائها حفنة صغيرة من الباحثين، وهم الذين وصف روبرت إيسنمان تفسيراتهم التقليدية للمخطوطات بـ الإجماع المتفق عليه، إذ يقول إيسنمان في كتابه:

لقد قامت مجموعة صغيرة من الاختصاصيين، ممن عملوا مع بعضهم على نحو كبير، بتطوير إجماع متفق عليه، وبدلاً من التبصر التاريخي، جرى سرد التصورات السابقة وتركيبات الأحداث على أنها حقائق، ومن ثم أصبحت تلك النتائج التي استخدمت لإثبات بعضها، تشكل فرضيات جديدة، استخدمت لتغييب جيل كامل من الدارسين الذين ببساطة لم يرغبوا، أو لم يستطيعوا، في الشك بأعمال معلميهم .

وكانت النتيجة إقرار نظرية تقليدية رسمية لتفسير المخطوطات، وهي عدد من الافتراضات والنتائج التي تبدو للشخص الخارجي متميزة بصلابة الحقيقة الراسخة التي لا تقبل الجدل، وعلى هذا النحو كان إنتاج الكثير مما يدعى مسلمات التاريخ، وقد ظل واضعو الإجماعات المتفق عليها للديانة المسيحية قادرين على احتكار بعض المصادر الهامة، وقاموا بالتحكم بانسياب المعلومات منها على نحو يخدم غايات فردية معينة، وقد قام أمبيرتو إيكو[1] في روايته اسم الوردة بسبر هذه الظاهرة، حيث يظهر الدير والمكتبة التي فيه في الرواية الاحتكار الذي مارسته كنيسة العصور الوسطى للتعلم، مشكّلةً شيئاً يشبه جمعية سرية للمعرفة، يحظر فيها الجميع عدا نخبة محدودة قادرة على تسيير السياسة المتفق عليها بحذر تام.

إن رعاة السياسة المتفق عليها يستمدون قوة السلطة التي ينتحلونها بالزعم أنهم كانوا وحدهم من اطلع على المصادر ذات الصلة، والمحظورة على أي شخص من الخارج.

1- أمبيرتو إيكو: كاتب وباحث أدبي إيطالي من الرواد في دراسة الإشارات والرموز، ولد عام 1932م، ويعد فيلسوفاً وناقداً أدبياً وروائياً، أشهر رواياته: اسم الوردة، يجمع الأدب والفكر، تمتاز رواياته بالغموض والخيال، ويتطرق فيها إلى مواضيع الكتاب المقدس وأحداث العصور الوسطى بالتحليل.

أما لدى الأشخاص الخارجيين، فإن جمع الأجزاء المتناثرة المتوافرة ضمن نظام متماسك يشكّل تمريناً في علم الرموز، وفي عالم علم الرموز يغدو ممكناً جداً ظهور فرسان الهيكل مسؤولين عن كل شيء، وأن يبدو أمبيرتو إيكو نفسه مسؤولاً عن انهيار مصرف بانكو أمبروسيانو[1] الإيطالي، ومن ثم في ظل استحالة الوصول إلى المصادر ذات الصلة لا يبقى لدى الأشخاص الخارجيين خيار سوى القبول بتفاسيرالسياسة المتفق عليها، وأن يقوم المرء بالطعن في تلك التفاسير يعني أن يجد نفسه موصوماً في أحسن الأحوال بشذوذ الفكر، أو في أسوئها كمرتد زنديق أو مهرطق، إن بضعة فقط من الباحثين يتميزون بمزيج من الشجاعة والمكانة والخبرة، ما يخولهم للقيام بطعن كهذا من دون أن تتأثر سمعتهم، وقد كان روبرت إيسنمان الذي وضعته شعبيته وصدقه بين الشخصيات الأكثر بروزاً وتأثيراً قادراً على فعل ذلك، وقد قدمت قصته الدفع الأكبر لهذا الكتاب.

---

1 - انهيار مصرف أمبروسيانو الإيطالي عام 1982م شكل إحدى أكبر الفضائح المالية في إيطاليا منذ الحرب، وقد تورط في القضية أكبر مصرف خاص في إيطاليا، كما ارتبطت الفضيحة بمصرف الفاتيكان.

الفصل الأول

الخديعة

اكتشاف المخطوطات:

في شرق القدس ينحدر طريق طويل بتدرّجٍ بين تلال جرداء، ترقّطها مضارب القبائل البدوية، ويغوص الطريق نحو 3800 قدم، ليصبح على عمق 1300 قدم تحت سطح البحر، يعود ويبرز بعدها ثانية، فترى من عليه مشهداً بانورامياً فاتناً لوادي الأردن، في اليسار يستطيع المرء أن يميز مدينة أريحا، وفي قلب السديم إلى الأمام تستلقي أرض الأردن، وترى جبال مؤاب[1]، كما لو كانت سراباً، أما في الناحية اليمنى فيمتد الشاطئ الشمالي للبحر الميت، ومن سطح مياهه الساكنة ترتفع الجروف الصفراء أكثر من 1200 قدم، خاطّةً الجانب الفلسطيني من البحر، وبينما يمنحك ذلك المشهد إحساساً بالروعة يعطيك أيضاً شعوراً شديداً بعدم الارتياح، فالهواء هنا، وعلى انخفاض كبير تحت سطح البحر، ليس حاراً وحسب، بل إنه حار وعلى نحو محسوس مع كثافة وضغط، بل وثقل فيه.

إن المكان هنا فاتن الجمال والبهاء والسكون، وهو كذلك أيضاً بما يحمله من إحساس بالعصور القديمة، إنه إحساس بعالمٍ أقدم مما عاش فيه معظم زائريه من الغرب، ولذا فإن الصدمة قد تصيبك عندما يتدخل القرن العشرون بزئير يشق السماء، وذلك بمرور سرب من طائرات إف 16 أو الميراج الإسرائيلية التي تنقض دنوّاً من سطح الماء، حتى إنك تستطيع رؤية الطيارين في قمراتهم، وبعد ذلك ترتفع تلك العنقاوات الفولاذية عمودياً، نافثة اللهيب من محركاتها، لتذوب بعدها في ضوء الشمس، وهنا ينتظر المرء وهلة وهو يشعر بالخدر، لتهتز بعد ثوان كل الجروف من جلجلة ارتداد الصوت، وعندها فقط تعود وتتذكر أن هذه الأرض تعيش حالة حرب دائمة، وأن هذه الضفة من البحر الميت لم تكن قطّ، وعلى مدى أكثر من أربعين سنة خلت، في سلام مع الضفة الأخرى، لقد شهدت هذه الأرض صراعات مستمرة منذ بداية التاريخ، ويبدو أن الكثير من الآلهة قد تصارعت هنا مطالبة بأضاحي الدم من عبادها.

في اليمين تظهر أطلال قمران، أو ما يسمى خربة قمران، وذلك لدى وصول الطريق إلى الجروف المطلة على البحر الميت، وبعد ذلك ينحني الطريق، ليتبع الجروف نحو الجنوب محاذياً للشاطئ نحو موقع قلعة مسعدة التي تبعد ثلاثةً وثلاثين ميلاً، وتتربع قمران على شرفة بيضاء من تربة كلسية، ترتفع قرابة مئة قدم أعلى الطريق، ونحو ميل وربع الميل فوق سطح البحر الميت، إلا أن أطلال قمران ذاتها ليست خلابة جداً، مع أن

1- مؤاب: مدينة قديمة في السهل الذي في الشرق من البحر الميت، أي في الأراضي الأردنية اليوم، كان المؤابيون متصلين جداً بالعبرانيين، وخضعوا لإسرائيل خلال حكم داوود وسليمان بين القرنين 11 ـ 10 ق.م.

الناظر قد يُدهَشُ بدايةً لمرأى برج لا يزال اثنان من طوابقه سليمين، وتبلغ سماكة جدرانه ثلاث أقدام، وهي جدران يبدو جلياً أنها بنيت بغية الدفاع عمن وراءها، وعلى مقربة من البرج يقبع عدد من الأحواض الكبيرة والصغيرة التي تتصل ببعضها بشبكة معقدة من القنوات المائية، وربما كان بعض هذه الأحواض يستخدم للحمامات الشعائرية، لكن أكثرها، إن لم تكن جميعها، كانت تستخدم لخزن الماء الذي كان أهل قمران يحتاجون إليه للبقاء هنا في الصحراء، وبين الأطلال والبحر الميت وعلى المستويات الأخفض من المصطبة الكلسية تستريح مقبرة كبيرة تضم نحو **1200** قبر، ويتشكل كل منها من كومة من الصخور المصفوفة من الشمال إلى الجنوب، ما يخالف ما هو متبع في كل من الديانتين الإسلامية واليهودية.

حتى في يومنا هذا يلف قمران شعور بالغربة، مع وجود عدة مئات ممن يعيشون في مزارع استيطانية يهودية مجاورة، ومع أن الوصول إلى المكان ممكن بسرعة ويُسرٍ عبر طريق حديث، يتجه إلى مدينة القدس، وهي رحلة تمتد عشرين ميلاً، وتستغرق أربعين دقيقة في السيارة، وعلى طول الليل والنهار لا تنفك القاطرات الضخمة تعصف على طول الطريق الذي يربط ميناء إيلات في أقصى الجنوب من فلسطين المحتلة بمدينة طبريا في أقصى الشمال منها، وتتوقف حافلات السياح بين الفينة والأخرى، ليخرج منها الأوربيون والأمريكيون المتعرقون، فيقودهم دليل سياحي برهة حول الأطلال، وبعدها إلى مخزن كتب ومقهى يملؤهما الهواء المكيَّف، ليتناولوا أخيراً كوباً من القهوة مع قطعة حلوى، كما أن هناك الكثير الكثير من العربات العسكرية، لكنك ترى أيضاً سيارات خاصة إسرائيلية وعربية، تحمل لوحات تسجيل مختلفة الألوان.

وعلى طول الوقت لا يغيب الجيش الإسرائيلي عن الأبصار، وقد لا يَعجَب المرء لذلك فهذه هي الضفة الغربية، والأردنيون لا يبعدون سوى بضعة أميال عبر البحر الميت، وطوال الليل والنهار تسير الدوريات ببطء هنا، لتتحقق من كل ما يقع عليه بصرها، وهي عادة شاحنات صغيرة، تحمل على ظهرها ثلاثة رشاشات ثقيلة، يمسك بكل منها جندي إسرائيلي، وتتوقف هذه الدوريات لتتحقق من السيارات، والتأكد بدقة من مكان أي شخص، يستكشف المكان أو ينقب عن الجروف أو في الكهوف، وسرعان ما يتعلم الزائر أن يلوح بيديه، ليتأكد من أن الجنود يرونه، ولكي يخطرهم بوجوده، فمن الخطر هنا أن تظهر للجنود فجأة، أو أن تتصرف بأي طريقة قد تصدمهم، كأن تبدو مختلساً أو مريباً.

تبعد مستوطنة كاليا الزراعية اليهودية مسير عشر دقائق من قمران، وذلك عبر طريق قصير صاعد من موقع الآثار، وتضم المستوطنة مدرستين صغيرتين للأطفال،

إضافة إلى قاعة إطعام جماعية، ووحدات سكنية، تشبه النزل من أجل السياح الذين يودون قضاء الليل هناك، لكن المستوطنة لا تزال منطقة عسكرية، إذ يحيط بالمزرعة سور من الأسلاك الشائكة، ويجري إقفال مداخلها في أثناء الليل، على حين تبقى دورية مسلحة على أهبة الاستعداد على مدار الساعة، وينتشر فيها الكثير من ملاجئ الغارات الجوية المحفورة عميقاً تحت الأرض، ويتضاعف عدد هذه الملاجئ لاستخدامها في أغراض أخرى أيضاً، فأحدها مثلاً يستخدم قاعة محاضرات، بينما يستخدم آخر حانة، وآخر ملهى للرقص، لكن البراري القابعة خارج أسوار المستوطنة تبقى من دون مساس من أي من مظاهر الحداثة هذه، فهناك لا يزال البدو يرعون جمالهم وماعزهم بأعداد تبدو أبدية، تصل الحاضر بالماضي.

عندما اكتُشفت مخطوطات البحر الميت في عام **1947**م كانت قمران مختلفة جداً عما هي عليه اليوم، ففي ذلك الوقت كانت المنطقة جزءاً من الانتداب البريطاني على فلسطين، وفي الشرق منها كان ما عُرف آنذاك بمملكة عبر الأردن، ولم تكن هناك تلك الطريق الممتدة جنوباً بمحاذاة شاطئ البحر الميت، فقد كانت تنتهي عند الربع الشمالي الغربي من البحر الميت على بُعد بضعة أميال من أريحا، وحول قمران لم تكن هناك سوى دروب وعرة، كان أحدها يتبع مسار طريق رومانية عتيقة، ولطالما ظلت تلك الدرب في حالة مزرية، وهكذا فإن الوصول إلى قمران كان تقريباً أصعب مما هو عليه اليوم، أما الوجود الآدمي الوحيد الذي كان قد يقارب قمران فكان وجود البدو الرُحّل الذين كانوا يرعون جمالهم وماعزهم في فصلي الشتاء والربيع، عندما تطرح الصحراء، على غير عادتها شيئاً من الكلأ والماء، لكن في شتاء سنة **1947**م، أو ربما أوائل، لربيع منها، طرحت تلك الأرض ما هو أكثر من ذلك كثيراً، لقد طرحت واحداً من أعظم اثنين أو ثلاثة اكتشافات أثرية في العصر الحديث.

لقد تحولت الأحوال التي أحاطت باكتشاف مخطوطات البحر الميت اليوم إلى أسطورة، لكن هذه الأسطورة لم تكن على الأرجح وفي كثير من أفكارها دقيقة كاملة، ومع أن الباحثين ظلوا يتنازعون في أفكار معينة حتى وقت متأخر من ستينيات القرن العشرين، إلا أن هذه تبقى الرواية الوحيدة المتوافرة لدينا في الوقت الراهن، ويعزى أول اكتشاف للمخطوطات إلى راع صغير اسمه محمد الديب من عشيرة التعامرة البدوية، وقد زعم محمد في وقت لاحق أنه عثر على المخطوطات، بينما كان يبحث عن نعجة ضائعة، وبغض النظر عما كان يفعله فقد ساقه ذلك إلى التسلق بين جروف قمران، حيث اكتشف فتحة في جانب أحدها، حاول محمد أن يحدّق في داخل تلك الفتحة، لكنه لم يستطع أن

يرى شيئاً من مكانه، فرمى بحجر صغير نحو الظلام، وإذ صوت تكسر أوانٍ فخارية، فدفعه ذلك طبعاً إلى المزيد من الاستكشاف.

رفع الديب نفسه إلى فم الفتحة، وحبا عبره، وإذ هو يسقط ليجد نفسه في كهف صغير ضيق مرتفع السقف، لا يزيد عرضه على ست أقدام، وربما كان طوله أربعاً وعشرين قدماً، ضم الكهف عدداً كبيراً من الجرار الفخارية، طول كل منها قدمان وعرضها عشرة إنشات تقريباً، وقد تكسر الكثير منها، ويظن أن ثمانياً منها كانت سليمة مع أن العدد لم يجر إثباته بدقة قطّ.

بحسب روايته شعر محمد بالخوف، فجرّ نفسه إلى خارج الكهف وفر هارباً، لكنه في اليوم التالي عاد، ومعه أحد الأصدقاء، ليواصل استكشاف الكهف وما فيه بتمعّن أكبر، كانت بعض الجرار مغلقة بأغطية تشبه وعاء الحساء، وفي واحدة منها كانت هناك ثلاث قطع جلدية ملفوفة ومربوطة بخيوط كتانية بالية، وكانت تلك أولى مخطوطات البحر الميت التي ترى الضوء بعد نحو ألفي عام.

خلال الأيام التالية عاد البدو إلى الموقع، وجرى العثور على أربع مخطوطات جلدية أخرى على الأقل، وجرى أخذ جرتين على أقل تقدير، لتستخدما في حمل الماء، لكن عندما بدأ التنقيب الأثري المنظم جرى الكشف عن عدد كبير من الكسرات والأجزاء، وتبعاً لتقديرات موثقة فإن عدد الأجزاء التي عثر عليها كان كافياً لتشكيل ما لا يقل عن أربعين جرة، ومع ذلك فليست هناك من طريقة لمعرفة كم من تلك الجرار كانت فارغة عند اكتشافها أول مرة؟، وكم منها احتوت على مخطوطات، وليس ثمة من طريقة لمعرفة كم مخطوطة أخرجت من الكهف؟، فأخفيت أو دمرت أو استخدمت لأغراض أخرى قبل أن تصبح أهميتها بارزة، إذ يُقال إنه جرى إحراق بعضها وقوداً، وعلى أي حال فقد قيل لنا إن ما أخرج من الكهف من مخطوطات يزيد على العدد الذي جرى تسجيله في السابق أو ما رأى الضوء بعد ذلك، ففي مجمل ما أعلن عنه، سبع مخطوطات كاملة فقط استطاعت أن تجد طريقها إلى الملأ، مع قطع تعود إلى نحو إحدى وعشرين مخطوطة أخرى.

عند هذه المرحلة شرعت الروايات تنمو بتناقض متزايد، بحسب إحداها فإن البدو أخذوا كل ما وجدوه إلى شيخ إحدى العشائر المحلية، وذلك بعد أن فكروا، كما يبدو، أن تكون لهذه المخطوطات قيمة ما، وبينما تقول مصادر إنهم أخذوا ثلاث مخطوطات كاملة، يقول آخرون إنها كانت سبعاً أو ثماني مخطوطات، فأرسلهم الشيخ أيضاً إلى صاحب متجر مسيحي، يتعامل بالتحف والقطع العتيقة اسمه خليل اسكندر شاهين، وكان يعرف بلقب

كاندو، كان كاندو من أتباع الكنيسة اليعقوبية السورية[1]، وقام بإخبار شخص آخر من أتباع الكنيسة يقيم في القدس، وهو جورج أشعيا، وتبعاً لباحثين موثوقين فقد خرج كاندو وأشعيا كلاهما مباشرة إلى قمران، وهناك قاما بإخراج المزيد من المخطوطات والأجزاء.

كان هذا النوع من النشاطات غير قانوني طبعاً، فبحسب قانون الانتداب البريطاني الذي أبقت عليه بعد ذلك كلتا الحكومتين الأردنية والإسرائيلية، كانت جميع الاكتشافات الأثرية تعود رسمياً إلى الدولة، إذ كان يفترض أن تُسلم إلى دائرة الآثار آنذاك التي في متحف فلسطين الأثري، أو ما كان يعرف باسم روكفيلر القائم في القسم العربي من القدس الشرقية، لكن في ذلك الوقت كانت فلسطين في حالة اضطراب عارمة، وكانت مدينة القدس مقسومة إلى مناطق يهودية وعربية وبريطانية، وفي ظل أحوال كهذه كانت لدى السلطات شؤون أكثر إلحاحاً للتعامل معها من ضبط سوق سوداء للقى الأثرية، ومن ثم أخذ كاندو وجورج أشعيا راحتهما في مواصلة تعاملاتهما السرية من دون رقيب أوعقاب.

نقل جورج أشعيا نبأ الاكتشاف إلى زعيمه في الكنيسة المطران السوري آثاناسيوس يوشع صموئيل الذي كان زعيم الكنيسة اليعقوبية السورية في القدس، لكن من الناحية الأكاديمية كان صموئيل رجلاً قليل الخبرة، يعوزه العلم المتطور الضروري لتحديد،، النصوص التي أمامه كي لا نقول ترجمة، وقد كتب عنه الباحث الراحل إدموند ويلسون الذي كان أحد أقدم من كتب عن اكتشاف قمران وأوثقهم: أنه لم يكن عالماً عبرانياً، ولم يكن في وسعه قراءة ما في تلك المخطوطات ولو بصعوبة، حتى إن صموئيل أحرق قطعة صغيرة منها، واشتم رائحتها ليتأكد من أنها كانت من الجلد فعلاً أم من البردي، لكن من دون النظر إلى عيوبه الأكاديمية كان صموئيل نافذ البصيرة، وقد ضم ديره، دير القديس مارك، مجموعة شهيرة من الوثائق القديمة، وبذلك كانت لديه فكرة بسيطة عن أهمية ما وقع في النهاية تحت يديه.

وذكر صموئيل في وقت لاحق أنه كان قد علم بأمر مخطوطات البحر الميت أول مرة في نيسان عام **1947**م، وإذا كان التسلسل الزمني حتى هذه اللحظة غامضاً ومتناقضاً أصلاً فهو الآن يزداد تناقضاً مع اختلافه من راوٍ إلى آخر، لكن في وقت ما بين مطلع شهر

---

1 - الكنيسة اليعقوبية: نسبة إلى يعقوب البرادعي، وهي الآن الكنيسة السريانية الأرثوذكسية، والسريان لا يفضلون اسم اليعقوبية، ويقولون إن كنيستهم أسسها القديس مار بطرس، وليس مار يعقوب البرادعي، وهي كنيسة شرقية، لا خلقدونية، تتمركز في منطقة الشرق الأوسط، وينتشر أفرادها في مختلف بقاع العالم، في فترة الحرب العالمية الأولى اضطرت الكنيسة السريانية إلى نقل مركزها إلى حمص، ثم نقلته إلى دمشق في عام **1957**م.

حزيران ومطلع تموز طلب صموئيل من كاندو وجورج أشعيا ترتيب موعد له مع البدو الثلاثة الذين كانوا أول من اكتشف المخطوطات، وذلك ليعرف منهم ما عثروا عليه تحديداً.

وصل البدو إلى القدس حاملين أربع مخطوطات على الأقل، وقد يصل العدد إلى ثمانٍ، الثلاث التي كانوا قد وجدوها بأنفسهم أصلاً، مع واحدة أو أكثر مما كانوا هم أو كاندو وجورج أشعيا قد نهبوه من الكهف، لكن المطران صموئيل لسوء الحظ لم يكن قد أتى على ذكر زيارة البدو أمام رهبان دير القديس مارك، وهكذا ما إن وصل البدو بلحىً غير محلوقة ومظاهر مزرية، يحملون مخطوطاتهم المتسخة المتشققة المهترئة، حتى قام الرهبان على بوابة الدير بطردهم، لكن صموئيل لم يعلم بذلك إلا بعد فوات الأوان، فالبدو الذين امتعضوا ولسبب واضح لم يعودوا يريدون أي شيء من المطران صموئيل، حتى إن أحدهم رفض أي تعامل آخر، حتى مع كاندو، وقام ببيع حصته التي تشكل واحدة من ثلاث حصص، وتتألف من ثلاث مخطوطات، لشيخ مسلم من بيت لحم، واستطاع كاندو شراء الحصص الباقية من المخطوطات، وباعها أيضاً للمطران بسعر قيل إنه **24** جنيهاً استرلينياً، كان الظن في البداية أن هذه الخبيئة تتألف من خمس مخطوطات، لكن تبين أخيراً أنها تحوي أربعاً فقط، إلا أن إحداها كانت مقسومة إلى نصفين، كان أحد النصوص الأربعة يشكل نسخة بحالة جيدة عن سفر أشعيا من العهد القديم، والتي كان طول مخطوطها أربعاً وعشرين قدماً، أما الثلاث الأخرى فقد ضمت ما سمي لاحقاً من الباحثين تحوير سفر التكوين، وتعليق على سفر حبقوق، إضافة إلى ما يدعى قانون المجتمع .

بعيد زيارة البدو غير الناجحة إلى القدس أرسل المطران صموئيل قسيساً، ليعود مع جورج أشعيا إلى الكهف في قمران، وذلك في أواخر تموز تبعاً لبعض التقارير، بينما قالت تقارير أخرى إنه كان في شهر آب، ولأن نشاطهما غير مشروع عمل الرجلان في الليل، فتفحّصا الموقع مطولاً، وعثرا على جرة واحدة أخرى على الأقل جانب بعض القطع، بعد أن قاما كما يبدو ببعض التنقيب الموسع، وقد وجد أول فريق بحث رسمي وصل إلى الموقع بعد عام أن جزءاً كاملاً من السطح الجانبي للجرف كان قد أزيل من مكانه، كما تسبب بتشكيل مدخل ضخم للكهف تحت الفجوة الأصغر التي اكتشفها البدو في الأصل، لكنّ ما أخرج من هذه الفتحة الكبيرة يبقى مجهولاً، وقد أكد بعض ممن قابلناهم خلال بحثنا أن جورج أشعيا وجد خلال تنقيبه الليلي عدداً من المخطوطات الأخرى التي لم ير الباحثون بعضها قط؟.

بعد حصوله على بعض المخطوطات شرع المطران صموئيل في محاولة تحديد عمرها، فقام أولاً باستشارة خبير سوري يعمل في مديرية الآثار، وقد رأى الخبير أن

المخطوطات تعود إلى تاريخ حديث تقريباً، ومن ثم قام المطران باستشارة باحث هولندي، يعمل مع معهد القدس الإنجيلي الفرنسي للآثار الذي يديره الرهبان الدومينيك، وتموله جزئياً الحكومة الفرنسية، وعلى حين اهتم الباحث الهولندي لأمر المخطوطات إلا أنه ظل مشككاً بقدم المخطوطات، وقد روى بعد ذلك كيف رجع إلى المعهد الإنجيلي، واستشار باحثاً بارزاً هناك، وكيف لقنه الباحث محاضرة عن حالات التزوير الرائجة التي تسري بين تجار الآثار المحتالين، وبالنتيجة تخلى الباحث الهولندي عن بحثه في الأمر، وخسر المعهد الإنجيلي فرصته للانخراط في الأمر من بدايته، ويبدو أنه عند هذه المرحلة لم يكن هناك سوى المطران ذي الخبرة القليلة تقريباً الذي كانت لديه فكرة غامضة عن عمر المخطوطات وقيمتها وأهميتها.

في شهر أيلول عام 1947م أخذ المطران المخطوطات التي بحوزته إلى رئيسه بطريرك الكنيسة اليعقوبية السورية في مدينة حمص السورية، ويبقى غير معروف ما الذي دار بينهما، لكن لدى عودته قام المطران مرة أخرى بإرسال فريق من الرجال لينقبوا في الكهف في قمران، وعلى الأرجح كان المطران في هذا يتحرك بناء على توجيهات البطريرك، على أي حال سيبدو واضحاً أنه كان يظن أن هناك المزيد مما يمكن اكتشافه.

صادفت زيارة المطران صموئيل إلى سورية وصول شخص آخر إليها، ذلك الشخص هو مايلز كوبيلاند الذي كان خلال الحرب العالمية الثانية قد التحق بمكتب الخدمات الاستراتيجية، وبقي فيه إلى أن أصبح ذلك المكتب يدعى وكالة الاستخبارات المركزية، واستمر كوبيلاند في الوكالة، ليصبح عميلاً ذا خدمة طويلة فيها ورئيساً لأحد مكاتبها، وفي مقابلة شخصية شرح كوبيلاند أنه في خريف عام 1947م كان قد أُرسلَ حديثاً إلى دمشق ممثلاً لوكالة الاستخبارات المركزية هناك، وضمن الأحوال التي كانت سائدة آنذاك لم يكن ثمة حاجة إلى العمل في سرية تامة، ويبدو أن هويته كانت مكشوفة تقريباً، وقال كوبيلاند إن تاجراً مصرياً محتالاً أتى لرؤيته هناك في أحد الأيام زاعماً أن لديه كنزاً عظيماً، ثم أخرج التاجر من كيس قذرٍ مخطوطة، كانت أطرافها متحللة، ويتطاير منها الفتات على الطريق، وعندما استفسر التاجر من كوبيلاند عن ماهيتها لم يستطع كوبيلاند طبعاً أن يجيب، لكنه وعد بتصويرها وإيجاد شخص ما لدراستها في حال تركها له التاجر.

ومن أجل تصويرها أخذ كوبيلاند وزملاؤه المخطوطة إلى سطح مبنى المفوضية الأمريكية في دمشق، حيث قاموا بفردها، ويَذكُر كوبيلاند أنه في ذلك الوقت كانت هناك

ريح قوية تعصف فوق السطح، فتطايرت نتيجتها قطع من المخطوطة بعيداً، وتناثرت على السطح وفي شوارع المدينة، لتضيع إلى الأبد، وبحسب رواية كوبيلاند فإن جزءاً هاماً من المخطوطة تلاشى بهذه الطريقة، وقالت زوجته نفسها التي كانت باحثة آثار إنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الشعور بالفزع في كل مرة سمعت بها تلك القصة.

قال كوبيلاند إنه وزملاءه أخذوا نحو ثلاثين صورة للمخطوط باستخدام معدات تصوير مزوّدة من الحكومة الأمريكية، وأضاف أن هذا العدد لم يكن كافياً حتى لتغطية كامل طول المخطوط، وبعد ذلك جرى نقل هذه الصور إلى السفارة الأمريكية في بيروت، حيث جرى عرضها على مسؤول بارز هناك ضليع باللغات القديمة، فأعلن المسؤول أن النص كان جزءاً من سفر دانيال في العهد القديم، قائلاً إن بعض الكتابات كانت باللغة الآرامية، بينما كان بعضها الآخر بالعبرية، لكن الأمر لسوء الحظ لم يحظ بالمتابعة الضرورية، عاد كوبيلاند إلى دمشق، إلا أن أحداً لم ير ذلك التاجر المصري المحتال بعد ذلك، وظلت الصور مرمية في الأدراج، وحتى يومنا هذا لا يدري أحد ماذا حلّ بهم أو بالمخطوطات الأصلية نفسها، مع أن أجزاءً من مخطوطة سفر دانيال وجدت بعد ذلك في قمران بعد خمس سنوات من الحادثة التي رواها كوبيلاند، وإذا كانت المخطوطات التي رآها كوبيلاند والتقط صوراً لها شكلت فعلاً نصّاً من سفر دانيال، فهي لم تنشر على الملأ قط.

مع وجود المطران صموئيل في الوقت ذاته في سورية مع المخطوطات التي كان اشتراها في فلسطين، إلا أنه يظل مستبعداً أن تكون المخطوطة التي رآها كوبيلاند هي إحداها، والسبب في ذلك هو أن ثلاثاً فقط من المخطوطات التي كانت بحوزة المطران كان يمكن فتحها، كما تحتاج إحداها، وهي نص أشعيا العبري الذي بلغ طوله أربعاً وعشرين قدماً، إلى أكثر من ثلاثين فيلماً لكي تُصوَّر، وإذا كانت هذه هي التي رآها كوبيلاند، فلماذا إذاً جرى تعرفها بأنها سفر دانيال؟، وليس أشعيا، ولماذا جرى تعرف اللغة فيها بأنها عبرانية وآرامية معاً؟، ممكنٌ طبعاً أن مسؤول وكالة الاستخبارات المركزية في بيروت كان مخطئاً، لكن عندما أعدنا سرد رواية كوبيلاند أمام باحث إسرائيلي بارز استثارت الرواية انتباهه، وقال بثقة: إن الأمر قد يكون مثيراً جداً للاهتمام، فقد تكون تلك مخطوطة لم تشاهد قطّ من قبل، وأضاف الباحث: أنه إذا استطعنا نحن الحصول على أي معلومات أخرى فإنه سيتبادلها معنا مقابل معلومات إضافية عن مخطوطات مفقودة، وهذا يتضمن طبعاً وجود معلومات كهذه، وأنها لم تفش للعلن من قبل البتّة.

بينما كانت الصور التي التقطها كوبيلاند تُفحص في بيروت كان المطران صموئيل يدأب للتأكد من عمر المخطوطات التي بحوزته، وفي تلك الأثناء قام طبيب يهودي زار

الدير بوضع المطران على تواصل مع باحثين من الجامعة العبرية، فقام هؤلاء أيضاً بتعريفه إلى رئيس قسم الآثار في الجامعة البروفيسور أليعازر سوقينق، وفي الرابع والعشرين من تشرين الثاني، وقبل مجيئه لرؤية المخطوطات التي لدى المطران، عقد سوقينق اجتماعاً سرياً مع شخص، جرت بعد ذلك الإشارة إليه بأنه تاجر آثار أرميني، ولما لم يكن الوقت قد تسنّى لأي من الرجلين للحصول على التصريح العسكري الضروري لعبور أحدهما إلى الآخر اضطر سوقينق والتاجر الإرميني إلى الاجتماع عند منطقة عبور بين المنطقتين العربية واليهودية في القدس، والتحدث عبر سور من الأسلاك الشائكة، عند ذلك الحاجز أظهر الإرميني لسوقينق قطعة من مخطوط، بدت عليه كتابة باللغة العبرية، وبعدها شرح الإرميني أن تاجر آثار عربياً من بيت لحم أتى إليه قبل يوم، ومعه هذه القطعة مع قطع أخرى، زعم أنه جرى العثور عليها من البدو، ومن ثم سأل الإرميني سوقينق: هل كانت هذه القطع أصلية؟، وهل الجامعة العبرية مستعدة لشرائها؟، فطلب سوقينق لقاء آخر، جرى بعد ثلاثة أيام، هذه المرة كان لدى سوقينق تصريح عبور، فاستطاع الاطلاع عن قرب على عدد من القطع، ولدى اقتناعه بأهميتها قرر سوقينق الذهاب إلى بيت لحم ورؤية المزيد منها مع ما كانت تحمله مَهمَّة كهذه من خطورة في ذلك الوقت.

في التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام **1947**م تسلل سوقينق سراً من القدس متجهاً إلى بيت لحم، وهناك أُخبِرَ تفصيلاً كيف اكتُشفَت المخطوطات، وجرى إطلاعه على المخطوطات التي كانت معروضة للبيع، أي التي لم يستطع المطران الحصول عليها، إضافة إلى الجرار التي كانت فيها، كما سُمِحَ له بأخذ المخطوطات معه إلى البيت، وبينما كان سوقينق يدرسها ليلاً سمع في المذياع أخباراً مثيرة، إذ صوتت أكثرية مجلس الأمم المتحدة لمصلحة قيام دولة إسرائيل، وفي تلك اللحظة قرر سوقينق شراء المخطوطات، فقد بدت له فأل خير، وأنها كانت بمنزلة تصديق رمزي للأحداث التاريخية الهامة التي كانت قد بدأت حالاً آنذاك.

وقد شاطره في هذه القناعة ابنه يغائيل يادين الذي كان يشغل في تلك الأثناء منصب رئيس العمليات في منظمة الهاغاناه[1]، وفي رأي يادين أيضاً كان اكتشاف المخطوطات يحل دلالة تكاد تكون صوفية، إذا قال:

1- الهاغاناه: منظمة صهيونية، تعني بالعبرية الدّفاع، تأسست عام **1921**م في القدس للدفاع عن المستوطنات اليهودية خارج نطاق الانتداب البريطاني، وبلغت درجةً من التنظيم أهلّتها لتكون نواة لجيش إسرائيل الحالي، وساهمت الهاغاناه في إنشاء **50** مستوطنة يهودية في فلسطين وتهجير الفلسطينيين من ديارهم.

إنّي أعجز عن ألا أحس بأن ثمة شيئاً رمزياً في اكتشاف المخطوطات والحصول عليها في لحظة قيام دولة إسرائيل، إن الأمر كما لو كانت هذه المخطوطات كانت تنتظر في الكهوف ألفي عام منذ دمار استقلال إسرائيل، حتى يعود شعب إسرائيل إلى دياره ويسترد حريته .

مع نهاية كانون الثاني عام **1946**م رتب سوقينق لرؤية المخطوطات التي يحتفظ بها المطران صموئيل، ومرة أخرى كان الاجتماع سرياً، هذه المرة كان اللقاء سيجري في الجزء البريطاني من القدس، وتحديداً في جمعية الشباب المسيحي التي كان أمين مكتبتها عضواً في محفل المطران، كانت الإجراءات الأمنية مشددةً في ذلك المكان، فالجمعية كانت في شارع فندق الملك داوود الذي كان قد جرى تفجيره في عام **1946**م، ونجمت منه خسائر بشرية جسيمة، ولكي يدخل المنطقة كان على سوقينق الحصول على تصريح مرور من الضابط البريطاني المسؤول عن تلك المنطقة، البروفيسور بيران.

حمل سوقينق بيده بضعة من كتب المكتبة، ليبدو كأي باحث آخر، وشق طريقه إلى داخل جمعية الشباب المسيحي، وهناك في غرفة خاصة جرى إطلاعه على مخطوطات المطران، وسُمح له باستعارتها، ليقوم بتحريها، أعاد سوقينق المخطوطات إلى المطران في السادس من شباط بعد أن أخفق في جمع المال الكافي لشرائها، ففي ذلك الوقت كان الوضع السياسي والاقتصادي شديد الحرج، ومن ثم لم يكن أي من المصارف ليمنح القرض الضروري، أما السلطات اليهودية المحلية فقد كانت تواجه إمكان حرب وشيكة، وهكذا فهي لم تكن مستعدة لدفع أي مبالغ، وسواها لم يكن ثمة من أحد آخر قد يهمّه الأمر.

حاول سوقينق تخفيض السعر، ووعده العميل السوري الذي كان يمثل المطران بترتيب لقاء به بعد أسبوع، مع حلول ذلك الوقت كان سوقينق قد تدبر أمر المال، لكنه مع ذلك لم يسمع شيئاً من المطران أو عميله، إلى أن وردت رسالة بعد بضعة أسابيع من العميل السوري، تقول إن المطران قرر في النهاية ألا يبيع المخطوطات، لقد كانت هناك مفاوضة تجري منذ مدة من دون علم سوقينق مع باحثين أمريكيين، التقطوا صوراً لمخطوطات المطران، وأكدوا له أن سعراً أفضل كثيراً كان يمكن تحصيله لها في الولايات المتحدة، وقد شعر سوقينق طبعاً بألم كبير لتسرب الفرصة من يديه.

في شهر شباط كان المطران صموئيل قد تواصل مع معهد أولبرايت الذي مركزه في القدس أو ما يعرف بالمدرسة الأمريكية لبحوث الشرق، وقام المعهد بطباعة مجموعة كاملة من المخطوطات وأرسلها إلى الخبير الموثوق في هذا المجال البروفيسور ويليام إف أولبرايت من جامعة جونز هوبكينز، في الخامس عشر من آذار رد البروفيسور أولبرايت

مؤكداً ظن سوقينق عن أهمية الاكتشاف، ووضع ختم الموافقة على نصوص قمران، وعن غير عمد قام هو أيضاً بتقديم الدعم لأولئك المصممين على إعطاء المخطوطات أقدم تاريخ ممكن:

تهانيّ القلبية على أعظم اكتشاف لنص في العصر الحديث، ليس هناك أي شك لدي في أن هذا النص أكثر قدماً من نص بردية ناش[1]، إني لأرى أن تاريخ هذه المخطوطات هو نحو عام **100** قبل الميلاد، يا له من اكتشاف لا يصدق، و لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك في العالم في أصالة النص .

في الثامن عشر من آذار جرى وضع بيان صحفي مقترح، بينما أخذت المخطوطات إلى بيروت، لتودع في مصرف هناك، وتبقى في الحفظ والصون، وفي وقت لاحق من ذلك العام قام المطران صموئيل بأخذها من المصرف، ليأخذها في كانون الثاني عام **1949**م إلى الولايات المتحدة، حيث أمضت الأعوام القليلة اللاحقة في خزانة في مصرف نيويورك.

ظهر أول بيان صحفي عن المخطوطات في الحادي عشر من نيسان، وقد صدر من جامعة يايل التي شغل فيها البروفيسور ميلر بوروس، وهو مدير معهد أولبرايت ومدير قسم لغات الشرق الأدنى، لكن ذلك البيان لم يكن صحيحاً تماماً، إذ إن أحداً لم يرغب في أن تتدفق حشود الهواة أو المنافسين إلى قمران، وهكذا زُعم في البيان أن اكتشاف المخطوطات جرى في مكتبة دير المطران صموئيل، ومع ذلك فقد كان نشره سيجعل وجود مخطوطات البحر الميت معروفاً للعامة أول مرة بعد سنة كاملة من ظهورها الأول، وفي الصفحة الرابعة من عددها الصادر في يوم الاثنين الثاني عشر من نيسان عام **1948**م نشرت صحيفة التايمز[2] المقال التالي، وعنوانه العثور على مخطوطات قديمة في فلسطين، وفيه جاء: نيويورك ـ **11** نيسان

أعلنت جامعة يايل أمس اكتشاف أقدم مخطوط معروف لسفر أشعيا في فلسطين، وقد جرى العثور عليه في دير القديس مارك السوري في القدس، حيث كان محفوظاً في مخطوطة من ورق البردي، تعود إلى قرابة القرن الأول قبل الميلاد، وكان المخطوط قد

1- بردية ناش: تعود إلى القرن الثاني الميلادي، ويظن أنها كانت من وثائق عبادة عامة، اشتراها مستر ناش من مصر سنة **1902** م، وأهديت بعد ذلك إلى مكتبة جامعة كامبردج، كانت تعد أقدم مخطوطة قبل اكتشاف مخطوطات البحر الميت، وتحتوي على نص الوصايا العشر، وجانب من «الشمّا»، أي «اسمع»، وهي قانون الإيمان لبني إسرائيل التي تقول: «اسمع يا إسرائيل الرب، إلهنا رب واحد»، ويتلوها اليهود في الصلاة اليومية،

2 - التايمز: صحيفة يومية بريطانية، تصدر في لندن، وتعد من أشهر صحف العالم.

جرى تعرفه مؤخراً من باحثين من المدرسة الأمريكية لبحوث الشرق أو معهد أولبرايت في القدس، كما جرت في المعهد أيضاً دراسة ثلاث مخطوطات عبرية أخرى، كانت إحداها جزءاً من تعليق على سفر حبقوق، بينما بدت واحدة أخرى أنها دليل قواعد دينية، تابع لطائفة قليلة الشهرة تقريباً، أو نظام رهباني يعود إلى طائفة الأسينيين ربما، أما المخطوطة الثالثة فلم يجر بعد تعرفها .

لم تكن تلك مقالة مُعدّة لإشعال اهتمام جمهور الباحثين، أما معظم قراء صحيفة التايمز فلم يكن المقال ليعني الكثير، كما كان وبكل الأحوال قد جرى التعتيم عليه خلال أخبار أخرى، نشرت في الصفحة ذاتها، مثل: صدر حكم بالإعدام شنقاً بحق أربعة عشر ضابطاً ألمانياً، قادوا فرقة إبادة في الجبهة الشرقية، وبحسب المدعي العام فإن الحكم كان يشكل علامة بارزة في الحملة ضد التعصب العرقي والعنف، وأنباء عن مذبحة في الأراضي المقدسة جرت يوم الجمعة الأسبق، إذ اكتسحت منظمتان إرهابيتان يهوديتان هما جماعة أرغون وعصابة شتيرن[1] قرية دير ياسين[2] العربية مغتصبين فتياتها وذابحين رجالها ونساءها وأطفالها،على حين عبرت الوكالة اليهودية نفسها عن شعورها بالرعب والاشمئزاز لما حدث، وفي الصفحة ذاتها وردت أنباء عن اقتتال في القدس، إذ قصفت المدفعية العربية الحي الغربي من المدينة عند الغسق، ووصلت أعداد من مدفعيات الميدان قادمةً من سورية مستهدفة المناطق اليهودية، وانقطعت موارد المياه في المدينة مرة أخرى، بينما تقطعت خطوط السكك الحديدية، ومن المتوقع أن يتجدد القتال على الطريق بين تل أبيب والقدس في وقت وشيك، وفي أماكن أخرى من الأراضي المقدسة قتل مقاتلون عرب اثنين من الجنود البريطانيين، بينما قتل إرهابيون يهود واحداً.

استمرت أعمال العنف في الشرق الأوسط عاماً آخر، ففي الرابع عشر من أيار عام 1948م، وقبل يوم من وضع جدول انسحاب للانتداب البريطاني، التأم الكنيست اليهودي في

---

1 - الأرغون أو الإتسل: منظمة إرهابية صهيونية، تأسست عام 1937م بعد أن انفصلت عن الهاغاناه، تحت إمرة جابوتنسكي رئيس المنظمة الصهيونية الجديدة، وكان قائدها الإرهابي مناحيم بيغن، وفي عام 1948م جرى حلها حيث انضم أفرادها إلى الجيش الصهيوني. شتيرن أو ليحي: تنظيم سري إرهابي صهيوني، عمل في فلسطين في أثناء فترة الانتداب البريطاني، أسسه إبراهام شتيرن، وقد انفصل هذا التنظيم عن الإتسل عام 1940م بعد موت جابوتنسكي، وقد جرى حله عام 1948م،

2 – دير ياسين: قرية عربية غربي القدس، في عام 1948م هاجمتها الجماعتان الصهيونيتان ارغون و شتيرن، بعد أسبوعين من توقيع معاهدة سلام طلبها رؤساء المستوطنات اليهودية المجاورة، ووافق عليها أهالي قرية دير ياسين، وراح ضحية هذه المذبحة أعداد كبيرة من سكان القرية من الأطفال وكبار السن والنساء والشباب بين 250 إلى 360 شخصاً، كانت مذبحة دير ياسين عاملاً مهمّاً في الهجرة الفلسطينية إلى مناطق أُخرى من فلسطين والبلدان العربية المجاورة لما سببته المذبحة من حالة رعب عند المدنيين.

متحف تل أبيب، ليعلن قيام إسرائيل دولة مستقلة، وكانت ردة فعل الدول العربية المجاورة على ذلك مباشرة، ففي الليلة نفسها قصفت الطائرات المصرية تل أبيب، وبعد ستة أشهر ونصف من القتال جرى غزو إسرائيل من قوات من مصر والسعودية ومملكة شرق الأردن وسورية والعراق ولبنان، بينما أعلن عاهل الأردن نفسه ملكاً على كامل فلسطين.

دخل آخر وقف لإطلاق النار مرحلة التنفيذ في السابع من كانون الثاني عام **1949**م وتبعاً لبنوده كان الجزء الأوسط مما كان سابقاً يشكل فلسطين قد تبقى للعرب، وجرى احتلال تلك الأرض، ومن ثم ضمّها من شرق الأردن، التي أخذت منذ الثاني من حزيران عام **1949**م، تدعو نفسها مملكة الأردن، وهكذا ذهبت قمران إلى الأيدي الأردنية، ومعها الشرق العربي من القدس، بينما أصبح الحد بين إسرائيل والأردن وهو طريق نابلس، يمرّ قاطعاً مركز المدينة.

في خضم هذه الأحداث التاريخية المثيرة، لم تسترع المخطوطات سوى القليل من الانتباه أو الاهتمام العام، إلا أنه خلف هذا المشهد كانت هناك قوىً سياسية ودينية وأكاديمية تشرع بالتحرك، ومع حلول كانون الثاني عام **1949**م، كانت مديرية الآثار لشرق الأردن وفلسطين العربية قد انخرطت في الأمر برعاية مديرها جيرالد لانكستر هاردينغ، كما كان قد انخرط في الأمر أيضاً الأب رونالد دو فوكس الذي شغل منذ عام **1945**م منصب المدير لمؤسسة أخرى هي المدرسة الإنجيلية التي ترعاها الرهبنة الدومينيكية[1]، وهي في الجانب الشرقي من القدس الخاضع للسيطرة الأردنية، وبقيت مدة ستين السنة الأخيرة مركزاً للبحث الإنجيلي الكاثوليكي الفرنسي في المدينة.

مضت سنة ونصف على الاكتشاف الأول للمخطوطات، ولم يكن أي باحث آثار مؤهل قد زار موقع الاكتشاف ضمن هذه الفترة، مع أن معهد أولبرايت حاول القيام بذلك، لكن من فيه رأوا أن الحرب جعلت المحاولة أمراً شديد الخطورة، وهنا ظهر ضابط جو بلجيكي هو الكابتن فيليب ليبينز، كان ليبينز قد وصل إلى القدس عضواً في منظمة الأمم المتحدة للإشراف على الهدنة، لكنه كان أيضاً ذا تعليم مسيحي كاثوليكي، وخريجاً في المعهد الشرقي في جامعة لوفين، وكان قد قرأ عن المخطوطات، فحاول التقرب من دو فوكس الذي بدا حتى ذلك الوقت مشككاً في أهميتها، وسأل ليبينز دو فوكس أنه في حال

---

1 - الرهبان الدومينيكانيون: كانوا بمنزلة حراس الكنيسة الكاثوليكية، وتنظيمهم يعد امتداداً لمحاكم التفتيش في العصور الوسطى، فكانوا ينتشرون في العالم وبين كل الطبقات والحرف لتقصي أخبار من يعارض أو يحتج على البابا أو الكنيسة.

تمكن ليبينز من تحديد موقع الكهف الذي وجدت فيه المخطوطات الأصلية فهل سيمنح فوكس الشرعية للعملية بتبوؤ منصب مدير فني تنقيبات لاحقة؟، فوافق دو فوكس.

في 24 كانون الثاني تمكن ليبينز من توفير دعم ضابط بريطاني، كان يقود لواء في الفرقة العربية الأردنية، بوساطة الضابط تمكن ليبينز من توفير دعم لانكستر هاردينغ في عمان، وبمباركة من هاردينغ جرى إرسال الضابط الآثاري في الجيش البريطاني إلى قمران للبحث عن الكهف الذي اكتشفت فيه المخطوطات الأصلية، وقد رافقه اثنان من البدو من الفرقة العربية، فعثروا على الكهف في 28 كانون الثاني، وفي داخله وجدوا بقايا من الكتان الذي كانت المخطوطات ملفوفة به، وقطعاً كثيرة من الفخار، وبعد نحو أسبوعين، أي في أوائل شباط قام هاردينغ ودو فوكس معاً بزيارة للكهف، ووجدوا ما يكفي من الأجزاء الفخارية لأكثر من أربعين جرة، وبقايا ثلاثين نصاً يمكن تحديد هويته، وفي أسبوعين آخرين جرى تجهيز أول بعثة تنقيب أثري رسمية.

في السنوات التي تلت غدت المخطوطات مشروعاً مربحاً فعلاً، وأصبحت المتاجرة بها صنعة منزلية مثرية جداً، كانت أجزاء تلك المخطوطات تُهرَّب هنا وهناك في أكياس قذرة وفي صناديق السجائر وأشياء أخرى كثيرة، وشرع المزورون في الظهور، بينما لم يفتقر التجار المحليون المجتالون إلى زبائن عديمي الخبرة، صورت الصحافة الشعبية أي شيء يشبه البردي العتيق بأنه شيء بالغ القيمة، لذا لم يعد التجار العرب يرغبون في البيع بأي ثمن يقل عن مئات الجنيهات الاسترلينية، وفي بعض المرات عن ألف، ولا ننسَ أن هذا كان في زمن لم يتعد فيه ثمن المنزل 1500 جنيه.

عندما أخذ المطران صموئيل مخطوطاته إلى الولايات المتحدة زعمت تقارير إذاعية أردنية أنه طلب مليون دولار ثمناً لها، وقد أثيرت مخاوف من أن المخطوطات لن تشترى للاقتناء الشخصي والذكرى فحسب، بل للمتاجرة أيضاً، وفي تلك الأثناء كانت المخطوطات نفسها هشة على نحو خطير، وبحاجة إلى شروط خاصة من الضوء والحرارة لحفظها من المزيد من التفسخ، في الحقيقة كان التفسخ في كثير منها قد تعدى مرحلة المعالجة، وكان ازدهار تداول المخطوطات في السوق السوداء يزيد مخاوف الباحثين من أن تتفسخ تلك المادة النفيسة من دون رجعة.

آلت مسؤولية القيام بعمل ما حيال الأمر إلى جيرالد لانكستر هاردينغ من وزارة الآثار، وقد توصل هاردينغ إلى أن الشيء الأهم كان إنقاذ أكبر قدر يستطيع إنقاذه من المخطوطات وأجزاء المخطوطات سواء كان ذلك على نحو قانوني أم غير قانوني، وأخذ

هاردينغ يشتري المخطوطات، من أي شخص كانت لديه، مع أن ذلك كان يؤثر طبعاً في الوضع القانوني للمخطوطات، إذ كان اعترافاً ضمنياً بشرعية حق أي شخص بحوزته مخطوطات، وكان عملاء هاردينغ في مفاوضاتهم وتعاملاتهم مخولين بتجاهل جميع الأسئلة المتعلقة بالشرعية، وحتى تلك المتعلقة بالسعر، لقد قام هو نفسه، لأنه ضليع باللغة العربية، بإقامة الصداقات، ليس مع تجار الآثار فحسب، بل مع البدو أيضاً، وقد أشاع بينهم أنه كان يدفع بسخاء ثمن أي شيء قد يحصلون عليه، لكن المطران صموئيل كان قد اتهم بتهريب مخطوطاته إلى خارج البلاد، مع مطالبة الحكومة اليهودية باستعادتها إلا أن الأوان كان قد فات، وفي النهاية مُنح بدو عشيرة التعامرة رخصة احتكار لغنيمة كهف، فقد أصبحت منطقة قمران في الواقع منطقة عسكرية، وغدا التعامرة مسؤولين عن حراستها، وذلك بذريعة منع العشائر الأخرى من التدافع لغزو الموقع، وكان التعامرة يأخذون أي شيء يجدونه إلى كاندو الذي كان يدفع لهم، ويأخذه إلى هاردينغ الذي كان يدفع له أيضاً.

في تشرين الأول عام 1951م وصل أفراد من عشيرة التعامرة إلى القدس، وبحوزتهم أجزاء مخطوطات أخذت من موقع جديد، لكن في حينها لم يكن أي من الأب دو فوكس أو هاردينغ في المدينة، فتوجه البدو إلى جوزيف سعد مدير متحف روكفيلر، طلب سعد أن يأخذه البدو إلى الموقع الذي أخذت منه تلك المخطوطات، فذهب البدو لكي يتشاوروا في الأمر، لكنهم لم يعودوا بعدها.

أخذ سعد سيارة جيب وتصريحاً من ضابط الآثار في الفرقة العربية مع عدد من الرجال المسلحين متجهاً إلى أول معسكر للتعامرة، استطاع العثور عليه خارج بيت لحم، وفي الصباح التالي وبينما كان يقود داخلاً إلى بيت لحم رأى أحد الرجال الذين كانوا قد جاؤوا إليه في اليوم السابق، ومن دون أن يلقي بالاً لأي من الإجراءات الضرورية تقدم سعد ليقوم بخطف البدوي.

بينما أبطأت سيارة الجيب للتوقف نادى سعد الرجل، وطلب منه أن يمده حالاً بالمزيد من المعلومات عن الكهف، فبرق الخوف في عيني البدوي، ومضى كأنه لم يسمع شيئاً، لكن الجنود وثبوا من الجيب ليعترضوا طريقه، وبإيماءة من رأس سعد قاموا برفع الرجل ورميه في مؤخرة الشاحنة، وبعدها داس السائق على الوقود، ليتجهوا إلى الطريق الذي جاؤوا منه.

وبعد إخضاع البدوي لهذا النوع من الإقناع وافق على التعاون، فحصل سعد على تعزيزات من موقع عسكري مجاور، وتوجه مع الفرقة عبر وادي التعامرة إلى البحر الميت،

وعندما أصبحت الأرض عصية على السيارة غادروها، وأكملوا الطريق سيراً على الأقدام، مشوا سبع ساعات، حتى وصلوا إلى واد ترتفع حوافه مئات الأقدام، كان ممكناً رؤية كهفين على علو شاهق في واجهة الجرف، وكانت غيوم من الغبار تخرج منهما، وذلك لأن البدو كانوا بداخلهما يجمعون ما يستطيعون جمعه، لدى وصول سعد ظهر عدد منهم، فأطلق الجنود الذين معه عدة طلقات في الهواء، فاختفى البدو، وصل الجنود إلى الكهف الأول، فتبين أنه كان كبيراً جداً، إذ بلغ عرضه **20** قدماً، وتراوح ارتفاعه بين **12** و**15** قدماً، وكان يمتد نحو **150** قدماً في داخل الجرف، لم يرجع سعد إلى القدس قبل صباح اليوم التالي، وحال وصوله خلد إلى النوم منهكاً من رحلته التي استغرقت **14** ساعة من السير على الأقدام، استيقظ بعد ذلك خلال النهار، ليجد القدس بحالة من الفوضى والغليان، إذ كان رفاق البدوي قد نشروا نبأ اختطافه وحبسه، وقد علق أحد المراقبين بعد ذلك بأنه ربما كان خطأ استخدام القوة، فقد أدى ذلك إلى أخذ الوثائق إلى تحت الأرض، وجعل البدو أكثر تمنعاً في إعطاء ما كانوا يجدونه.

أدت حملة سعد إلى اكتشاف أربعة كهوف في وادي مربعات الذي لا يبعد سوى أربعة أميال في جنوب قمران، ونحو ميلين عن البحر الميت، كانت المادة التي عثر عليها هناك أقل صعوبة من مادة قمران من حيث تحديد تاريخها وماهيتها، لكنها لم تكن تقل أهمية عنها، كانت المادة تنتمي إلى نحو القرن الثاني للميلاد، وتحديداً إلى ثورة أرض يهوذا التي نظمها شمعون بار كوكبا بين عامي **132** و**135** للميلاد، وقد تضمنت رسالتين تحملان توقيع شمعون شخصياً، ومعلومات جديدة عن الموارد اللوجستية والاقتصادية والإدارة المدنية للثورة التي لم تلق سوى القليل من النجاح، في الحقيقة تمكن شمعون من انتزاع القدس من أيدي الرومان والسيطرة عليها نحو سنتين، وبحسب روبرت إيسنمان كانت هذه الثورة استمراراً مباشراً للأحداث التي تعود إلى القرن السابق، وهي أحداث تضمنت بعضاً من العائلات نفسها، والكثير من المبادئ الناظمة، وربما المسيح نفسه أيضاً.

بعد وقت قصير من اكتشاف الكهوف في وادي مربعات أخذ النشاط في قمران يكتسب زخماً أكبر، فبعد عودته من أوروبا شرع الأب دو فوكس ينقب في الموقع وكان معه في ذلك هاردينغ إضافة إلى خمسة عشر عاملاً، واستمرت أعمال التنقيب تلك خلال الأعوام الخمسة اللاحقة، أي حتى عام **1956**م، ومن الأشياء الأخرى التي كشفوا عنها هناك تجمع سكني قيل إنه مجتمع أسيني، ورد في أحد مؤلفات المؤرخ بليني القديم.

لقد توفي بليني نفسه في عام **79** ميلادي، وذلك في انفجار بركان فيزوف الإيطالي الذي دفن مدينتي بومبي وهيركولانيوم، ومن أعماله لم ينج سوى كتاب تاريخ الطبيعة

الذي يتعلق بالطبوغرافيا، ويتناول أحداثاً معينة جرت في أرض يهوذا، ومع أن المصادر التي استند إليها بليني غير معروفة، إلا أن في نصه إشارة إلى تدمير القدس في عام 68 ميلادي، وعليه فلا بد إنه ألّف الكتاب في وقت ما بعد ذلك، بل سرت فترة ما أسطورة تقول إن بليني، مثل يوسيفوس[1]، قام بمرافقة الجيش الروماني في غزوه لفلسطين، لكن هذه الأسطورة أصبحت الآن تفتقر إلى الصدق، على أي حال بليني هو أحد الكتّاب القدامى القلة الذي ذكروا الأسينيين بالاسم، وحددوا موقعهم جغرافياً، لقد قام بذلك بدقة تامة، إذ حدد موقعهم على شواطئ البحر الميت:

على الضفة الغربية للبحر الميت، لكن بعيداً عن العبق الخانق للشاطئ، تقبع قبيلة الأسينيين المنعزلة التي تتميز من جميع القبائل الأخرى في العالم بأسره، فهي قد خلت من النساء، ونبذت كل أشكال الرغبة الجنسية، لم يكن لديها مال أو أي شيء سوى أشجار النخيل لتصاحبها، وتحت الأسينيين كانت في السابق مدينة إنجيدي، ومن ثم تأتي مسعدة .

عد دو فوكس أن هذا المقطع كان يشير إلى قمران، مفترضاً أن عبارة تحت الأسينيين تعني في الجنوب منهم، ورأى أن نهر الأردن يسير نزولاً أو جنوباً إلى البحر الميت، وإذا تابع المرء أكثر نحو الجنوب فإنه يصل فعلاً إلى إنجيدي، لكن باحثين آخرين يعارضون رأي دو فوكس قائلين إن عبارة تحت الأسينيين ينبغي أن تفهم حرفياً، أي إن المجتمع الأسيني كان على التلال المشرفة على إنجيدي.

سواء كانت قمران هي المجتمع الذي تحدث عنه بليني أم لم تكن، فإن دو فوكس كان متحفزاً لبذل المزيد من الجهد، وفي ربيع عام 1952م حاول الرجل أخذ المبادرة من البدو، فقام بمسح منظم لجميع الكهوف في أنحاء المنطقة، جرى المسح بين العاشر والثاني والعشرين من شهر آذار - مارس عام 1952م، وشارك فيه دو فوكس وثلاثة من أعضاء المدرسة الإنجيلية مع ويليام ريد المدير الجديد لمعهد أولبرايت، كما رافقتهم مجموعة من أربعة وعشرين بدوياً بقيادة ثلاثة باحثي آثار أردنيين وفلسطينيين، وطبعاً كان البدو هم من قاموا بجل العمل، متسلقين حواف الوديان والجروف الشاهقة في أكثر الأحيان، ليسبروا الكهوف فيها، بينما فضل الأثريون البقاء في الأسفل، ينظمون القوائم،

---

1 - يوسيفوس فلافيوس - (نحو 38- 100 م): يهودي من القدس، واسمه الأصلي يوسف بن ماتيتياهو، كان أديباً مؤرخاً وعسكرياً رومانياً، اشتهر بكتبه التي تلقي الضوء على الأوضاع والأحداث في فلسطين خلال القرن الأول للميلاد.

ويرسمون المصورات والمخططات، ونتيجة لذلك كان مسحاً ناقصاً، فمثلاً لم يشأ البدو الكشف عن بعض الكهوف التي وجدوها، وعليه فإن الكثير من المخطوطات لم تظهر إلا بعد وقت طويل، ويقال إن هناك واحدة لم يجر استردادها من البدو مطلقاً.

إجمالاً شمل البحث نحو خمسة أميال من الجروف، وبحسب دو فوكس فقد تضمن دراسة **267** موقعاً، أما بحسب ويليام ريد فكان الرقم **273**، وبحسب دو فوكس فقد نجم من المسح اكتشاف **37** كهفاً، احتوت على أوان فخارية، أما ريد فقال إن عدد الكهوف كان **39**، بينما أظهر المصور الرسمي الذي أصدر في نهاية الحملة **40** كهفاً، وجرى العثور على قطع لأكثر من مئة جرة، وهو رقم تقديري، وهذا النوع من عدم الدقة هو أمر نموذجي في أبحاث قمران.

لكن مسح عام **1952**م، مع أنه لم يتميز بالاحترافية، فقد أثمر عن اكتشاف واحد مهم حقاً، ففي العشرين من آذار، أي قبل يومين من نهاية المسح، وفي الموقع المسمى الكهف **3** عثر فريق بحث على مخطوطتين، أو جزأين يعودان إلى مخطوطة واحدة، مصنوعة من النحاس الملفوف، وكانت الكتابة عليها قد نحتت في المعدن، ولكن التأكسد جعل ذاك المعدن قاسياً وهشاً على نحو يصعب فيها فرده، لذا وقبل التمكن من قراءة المخطوط كان يجب تقطيعه بعناية في المخبر، لكي يتسنى فتحه، ومرت ثلاث سنوات ونصف السنة قبل أن تسمح السلطات الأردنية بذلك، وعندما وافقت في النهاية جرى تقطيع المخطوط في مدينة مانشستر البريطانية بإشراف جون آليغرو العضو في فريق دو فوكس، وجرى الانتهاء من الجزء الأول من المخطوط في صيف عام **1955**م، بينما انتهى العمل في الجزء الثاني في كانون الثاني عام **1956**م.

وقد تبين أن ذلك المخطوط كان قائمة تضم محتويات الكنز، قائمة بأوان ذهبية وفضية وشعائرية ومخطوطات أخرى، ويبدو أنه مع بدء الغزو الروماني جرى توزيع هذا الكنز على عدد من المخابئ السرية، وكانت المخطوطة النحاسية، كما جرت تسميتها لاحقاً، عرضاً تفصيلياً لمحتويات كلٍ من المخابئ.

بحسب تقديرات الباحثين فإن مجمل المخابئ كانت ستعطي نحو خمسة وستين طناً من الفضة، وربما ستة وعشرين طناً من الذهب، لكن حتى يومنا هذا ما زال هنالك بعض الجدل في وجود ذلك الكنز أصلاً، إلا أن أكثر الباحثين يتقبلون فكرة وجوده، والمخطوط ضم قائمة دقيقة لموجودات معبد القدس، لكن من سوء الحظ فإن المواقع والأماكن المشار إليها في المخطوط كانت قد اندثرت نتيجة الزمن والتغيرات، وهكذا لم يعثر على ذلك الكنز قط، مع أن بعضهم قاموا بالبحث عنه بكل تأكيد.

في أيلول عام 1952م، أي بعد مضي ستة أشهر على المسح الرسمي، ظهر مصدر جديد للمخطوطات، هو كهف ضمن مجال يمتد نحو خمسين قدماً من أنقاض قمران الفعلية، والتي كان دو فوكس وهاردينغ قد نقبا فيها عام 1951م، هناك وفي الموقع المسمى الكهف 4 جرى أكبر اكتشاف إطلاقاً، ومرة أخرى على يد البدو، وكان الأمر سيستغرق عدة سنوات لجمع هذه المادة مع بعضها، لكن مع حلول عام 1959م كان قد جرى ترتيب معظم الأجزاء، حيث جرى العمل في حجرة كبيرة من متحف روكفيلر، عرفت بعد ذلك باسم حجرة المخطوطات.

كان متحف روكفيلر أو ما يسمى رسمياً متحف فلسطين الأثري قد افتتح عام 1938م خلال حكم الانتداب البريطاني، وبني بتمويل من جون دي روكفيلر، وإضافة إلى مساحات العرض ضم المتحف مخابر، وحجرات تحميض أفلام، ومكاتب مديرية الآثار، وقد جرى تسليمه إلى مجلس أمناء دولي قبيل انتهاء الانتداب في عام 1948م، وقد تشكل ذلك المجلس من ممثلين للمعاهد الأثرية الأجنبية المتنوعة في القدس، ومثالها المدرسة الإنجيلية الفرنسية، ومعهد أولبرايت الأمريكي، والجمعية البريطانية لاستكشاف فلسطين، وقد ظل متحف روكفيلر مدة ثمانية عشر عاماً مؤسسة تعتمد الهبات المستقلة، وقد استطاع الحفاظ على هذا الوضع خلال أزمة السويس في عام 1956م[1]، عندما استدعي الكثير من موظفيه إلى بلادهم، ولم يتأثر في تلك الأزمة سوى اثنين، أحدهما جيرالد لانكستر هاردينغ الذي صرف من منصبه مديراً لمديرية الآثار والمخطوطات ذاتها، فخلال العمليات العسكرية جرى أخذ المخطوطات من المتحف، ووضعت في ثلاث وستين حقيبة، وأقفل عليها في مصرف في عمان، ولم تستعد إلى القدس حتى شهر آذار عام 1957م، حيث كانت عليها آثار طين وبقع من رطوبة الخزانة التي كانت فيها.

إلا أنه في عام 1966م جرى تأميم متحف روكفيلر رسمياً مع المخطوطات التي فيه من الحكومة الأردنية، وقد ترتب على تلك الخطوة نتائج مهمة، كما كانت موضع جدل من حيث شرعيتها مع عدم اعتراض مجلس الأمناء عليها، وعلى العكس من ذلك قام رئيس المجلس بتحويل صندوق هبات المتحف من لندن إلى عمان، وهكذا أصبحت المخطوطات والمتحف الذي ضمها فعلياً ملكية أردنية.

---

1 - أزمة السويس: أعقبت تأميم الرئيس المصري جمال عبد الناصر لقناة السويس، وأعقب ذلك هجوم إسرائيلي احتل سيناء، وهجوم انكليزي فرنسي احتل بورسعيد، لكن قوات المعتدين اضطرت إلى الانسحاب، ولم تفلح في مخططاتها لإلغاء تأميم القناة.

بعد مضي عام اشتعل الشرق الأوسط بحرب الأيام الستة، ووقعت القدس الشرقية التي كانت تحت سيطرة الأردن في يد القوات الإسرائيلية، في الساعة الخامسة من فجر السادس من حزيران عام **1967**م جرى إبلاغ يفائيل يادين أنه جرى احتلال المتحف على يد وحدة مظلية إسرائيلية.

كان يادين بعد توليه رئاسة أركان الجيش الإسرائيلي عام **1949**م قد استقال في **1952**م، ودرس الآثار في الجامعة العبرية، ليحصل على شهادة الدكتوراه في عام **1955**م بأطروحة عن إحدى مخطوطات البحر الميت، وفي تلك السنة شرع يحاضر في الجامعة العبرية، وكان يادين قد سافر في عام **1954**م إلى الولايات المتحدة في جولة محاضرات، وهناك، وعقب محاضرة في جامعة جونز هوبكنز التقى بالبروفيسور وليم إف أولبرايت، وسأله عن سبب نشر الولايات المتحدة ثلاثاً من مخطوطات المطران صموئيل الأربع، أجاب أولبرايت أن صموئيل كان متحمساً لبيع المخطوطات، ولم يكن ليدع الرابعة تنشر حتى يجري العثور على زبون يشتريها جميعاً، وسأل يادين: هل من الممكن ألا يعثر على مشتر في الولايات المتحدة؟، فمن المؤكد أن بضعة ملايين من الدولارات لغرض كهذا لن تكون صعبة التوفير، لكن رد أولبرايت كان مدهشاً، إذ قال: إن المخطوطات كانت على الأرجح ستباع بثمن نصف مليون دولار، ومع ذلك لم تبدُ أي مؤسسة أو فرد في أمريكا مهتمة للأمر.

في الواقع كان هناك سببان لعدم الاكتراث ذاك، أولاً كانت الصور الأولى المأخوذة عن المخطوطات الثلاث قد نشرت مغنية معظم الباحثين الأمريكيين عن المواد الأصلية، ثانياً وهو الأهم، كان الوضع الأخلاقي لملكية المخطوطات، حيث كانت الحكومة الأردنية قد عدت المطران صموئيل مهرباً وخائناً، زاعمة أنه لم يكن لديه الحق في إخراج المخطوطات من الأردن، وقد جرى اتهام الأمريكيين بالتواطؤ في الجريمة بعد قيامهم بنشر النصوص المهربة، وقد أثنى ذلك طبعاً من عزم الزبائن المحتملين على شراء المخطوطات، فهم لم يرغبوا في عرض مبلغ كبير من المال، ليجدوا أنفسهم أخيراً متورطين في قضية دولية، ومن الممكن جداً أن ينتهي بهم الأمر خاليي الوفاض، لكن يادين لم يكن لديه داع للخوف من الأردنيين، فعلاقة بلاده بالأردن لم تكن لتسوء أكثر مما كانت عليه سوءاً.

في الأول من حزيران تلقى يادين برقية من صحفي إسرائيلي مقيم في الولايات المتحدة، يلفت فيها انتباهه إلى الإعلان المنشور في صحيفة وول ستريت، فقرر يادين حالاً شراء المخطوطات، لكنه أدرك أن التواصل المباشر قد يعرض كل شيء للخطر، وقد

اعتمد يادين الوسطاء على نحو كامل، فكان من اتصل بخصوص الإعلان هو عامل مصرف من نيويورك، جرى ترتيب لقاء في 11 حزيران عام 1954م، وجرى الاتفاق على مبلغ 250000 دولار أمريكي سعراً للمخطوطات الأربع، كما عثر على متبرع ثري لتوفير المال الضروري، وبعد عدة تأجيلات محبطة جرى إنجاز الصفقة في فندق والدورف أستوريا في الأول من تموز، وبين من حضروا الصفقة كان باحث مميز هو البروفيسور هاري أورلنسكي الذي كان دوره التأكد من أن المخطوطات كانت أصلية، ولكي يخفي أي صلة إسرائيلية أو يهودية بالصفقة، عرّف أورلنسكي عن نفسه بأنه السيد غرين.

في اليوم التالي، الثاني من تموز، نقلت المخطوطات من خزانتها في والدورف أستوريا إلى القنصلية الإسرائيلية في نيويورك، ومن ثم أرسلت المخطوطات واحدة تلو الأخرى إلى إسرائيل، عاد يادين إلى موطنه على متن الباخرة، وكان يجري إبلاغه خلال شيفرة معينة بوصول كل من المخطوطات بسلام، ظلت تفاصيل الصفقة طي الكتمان مدة سبعة شهور أخرى، ولم يجر قبل 13 شباط عام 1955م الكشف في بيان صحفي عن أن إسرائيل حصلت على المخطوطات الأربع التي كانت بحوزة المطران صموئيل، وأنها الآن محفوظة مع مخطوطات ثلاث أخرى اشتريت من قبل في صرح الكتاب الذي بني خصيصاً للاحتفاظ بها.

مع نهاية عام 1954م كانت هناك هيئتان منفصلتان كاملاً، وطاقما خبراء منفصلان تماماً، يعملان على مادة المخطوطات، ففي القدس الغربية كان الإسرائيليون يعملون على المخطوطات التي حصل عليها سوقينق ويادين، وفي القدس الشرقية في متحف روكفيلر كان هناك فريق من الباحثين الدوليين، يعمل بإدارة دو فوكس، لم تكن أي من المجموعتين تتواصل مع الأخرى، ولم تعلم أي منهما بما لدى الأخرى، أو ما تقوم به الأخرى، عدا ما سُرب من معلومات في بعض المطبوعات العلمية، وفي حالات عدة كانت هناك نصوص مجزأة، حيث كان قسم منها في أيدي الإسرائيليين وبعضها في روكفيلر، ما جعل صعباً على الطرفين الحصول على معنى كامل لهذه النصوص، لقد كان الوضع من السخف حتى إن بعضهم فكر في حله بطريقة ما، وقد ذكر أرييل شارون[1] ذات مرة أنه

1 - أرييل شارون: من أكثر قادة العدو الصهيوني إرهاباً وتعصباً، وُلد عام 1928م، وهو شخصية مثيرة للجدل داخل إسرائيل وخارجها، يراه بعض اليهود بطلاً قومياً، ويراه آخرون مجرم حرب، وقد اضطُرّ سنة 1983م إلى الاستقالة من منصب وزير الدفاع لدوره في مذبحة صبرا وشاتيلا، وفي عام 2001م فاز بأكثرية ساحقة في الانتخابات الإسرائيلية، وفي سنة 2004م بادر شارون الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة، يعدّ شارون من السياسيين والعسكريين المخضرمين على الساحة الإسرائيلية، والرئيس الحادي عشر للحكومة الإسرائيلية، وفي عام 2006م غط في غيبوبة بعد جلطة دماغية، لا يزال فيها حتى يومنا هذا.

في أواخر الخمسينيات اقترح مع موشيه دايان[1] خطة للإغارة على روكفيلر من تحت الأرض، باستخدام أنفاق الصرف الصحي في القدس، لكن تلك الخطة لم تنفذ طبعاً.

إلا أنه في حرب عام **1967**م وقع روكفيلر في أيدي الإسرائيليين، فأرسل يادين حالاً ثلاثة من زملائه في الجامعة العبرية للتأكد من أن المخطوطات كانت بخير، لقد أدرك يادين أن متحف روكفيلر كان قد أصبح قبل الحرب مؤسسة أردنية لا دولية، وأنه من ثم سيغدو إلى أيدي الإسرائيليين كغنيمة حرب.

---

1 - موشيه دايان: من أشهر القادة العسكريين للعدو الصهيوني، وُلد في فلسطين عندما كانت ضمن الدولة العثمانية، التحق بمنظمة الهاغاناه قبيل الحرب العالمية الثانية، وعندما حُظر نشاطها ألقت القوات البريطانية القبض عليه، وأطلق سراحه عندما تعاونت الهاغاناه مع بريطانيا ضد المحور، فقد دايان عينه اليسرى، وبدأ بارتداء غطاء العين الذي اشتهر به، وقلدته الحكومة البريطانية أعلى الأوسمة العسكرية، وترقّى بالمناصب العسكرية إلى أن وصل إلى منصب رئيس الأركان للجيش الإسرائيلي في عام **1959**م، وبعد تقاعده من السلك العسكري عين وزيراً للزراعة، وفي عام **1967**م شغل موشيه دايان منصب وزير الدفاع، وفي عام **1981**م مات دايان ودفن في ناهال حيث نشأ.

الفصل الثاني

الفريق الدولي

سَرَدَ يغائيل يادين أحداث عام 1967م أمام ديفيد برايك جونز في مقابلة معه في مطلع عام 1968م، حيث قال: إنه كان يعي أن المخطوطات الأخرى كانت في الجوار، وأن كاندو كان على دراية بمكانها، ولذلك فقد أرسل زملاء له من الجامعة العبرية بصحبة ضباط ثلاثة إلى منزل كاندو في بيت لحم، فأخذوه موجوداً إلى تل أبيب، وعندما ظهر بعد خمسة أيام من الاستجواب، عاد كاندو بالضباط إلى منزله، وأراهم مخطوطاً كان قد أخفي هناك ست سنوات، وقد تبين أن ذلك المخطوط كان يشكل اكتشافاً فائق الأهمية، فقد كان مخطوط المعبد الذي نشر أول مرة في عام 1977م.

كما أجرى برايك جونز أيضاً مقابلة مع الأب دو فوكس الذي كان ساخطاً جداً لما جرى، بحسب ما كتبه برايك جونز فإن دو فوكس نعت الإسرائيليين بأنهم نازيون، إذ كتب برايك جونز: لقد احمرّ وجه دو فوكس، وهو يزعم أن الإسرائيليين كانوا يستخدمون احتلالهم للقدس ذريعة لنقل كامل مخطوطات البحر الميت من روكفيلر، ووضعها في صرح الكتاب التابع لهم، كما كان دو فوكس يخشى على كل من مكانته وإمكان وصوله إلى نصوص قمران، والسبب برأي برايك جونز هو أن الأب دو فوكس كان قد رفض السماح لأي يهودي بالعمل على المخطوطات في روكفيلر.

تبين بعد ذلك أن مخاوف دو فوكس لم تكن حقيقةً في محلها، ففي خضم النتائج السياسية والعسكرية لحرب الأيام الستة كان لدى الإسرائيليين أمور أخرى، ليركزوا عليها، ولذلك لم تكن لدى يادين والبروفيسور بيران مدير مديرية الآثار الإسرائيلية بين عامي 1961م و1974م مشكلة في الإبقاء على الوضع كما هو، وترك دو فوكس مسؤولاً عن المخطوطات شريطة أن يجري الإسراع إلى الإفصاح عن محتواها.

كان قد جرى الكشف عن مخبأ يضم نحو ثمانمئة مخطوطة في الكهف 4 في عام 1952م، وللتعامل مع تلك الكمية الكبيرة جرى تشكيل لجنة دولية من الباحثين، حدد لكل عضو فيها نصوص معينة، ليدرسها ويفسرها ويترجمها وينشرها في النهاية، وبينما كان ولاء اللجنة يعود اسمياً لمديرية الآثار الأردنية فهي في الواقع عملت بإمرة الأب دو فوكس، الذي أصبح من ثم رئيس تحرير النشرة الدورية الحصرية عن مخطوطات البحر الميت، وهي نشرة مؤلفة من عدة مجلدات عنوانها اكتشافات في صحراء يهوذا، من إصدار دار جامعة أكسفورد للطباعة، وقد ظل دو فوكس على رأس هذا الحقل حتى وفاته في عام 1971م.

ولد رونالد دو فوكس في باريس عام 1903م، ودرس الكهنوت بين عامي 1925م و1928م في كلية القديس سولبايس الكهنوتية، حيث تعلم العربية والآرامية في سياق

دراسته، وفي عام 1929م التحق دو فوكس بالرهبنة الدومينيكية التي أرسلته إلى المدرسة الإنجيلية في القدس، وهناك شرع دو فوكس يُدرس على نحو دوري منذ عام 1953م، كما عمل محرراً للمجلة التي أصدرتها المدرسة والمسماة ريفو بايبليكال .

كان دو فوكس برأي الذين عرفوه أو التقوا به شخصية مؤثرة من النوع الذي يبقى في الذاكرة، كان الرجل ذا لحية كثيفة ويدخن بكثرة، ويرتدي نظارات قاتمة، ونادراً ما خلع ثوب الرهبان الأبيض، حتى في أثناء عمليات التنقيب، لقد كان يتميز بجاذبية قوية، وعُرف بنشاطه وحماسته، كما كان خطيباً فصيحاً وقاصاً شائقاً، يتميز بموهبة العلاقات العامة، لقد جعله كل ذلك ناطقاً مثالياً باسم المشروع الذي انخرط فيه، وقد وصفه أحد زملائه السابقين بأنه كان باحثاً جيداً، إن لم يكن أثرياً جيداً أيضاً .

لكن خلف تلك الواجهة اللامعة كان دو فوكس شخصاً قاسياً، منغلق الذهن متعصباً ومفعماً بالحقد، سياسياً كان دو فوكس يمينياً حتى الصميم، وكان في صغره عضواً في حركة أكسيون فرانسيس الكاثوليكية القومية التي ازدهرت في فرنسا بين الحربين العالميتين، وناصرت عقيدة الدم والتراب، وعبرت عما هو أكثر من تعاطف طفيف مع الطغاة في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا، على نحو مؤكد لم يكن دو فوكس ملائماً لتولي رئاسة البحث في مخطوطات البحر الميت أولاً لأنه كان ناشطاً كاثوليكياً وراهباً، ما يجعل وجود توازن أو حياد في تعامله مع مادة دينية شديدة الحساسية أمراً صعباً، أضف إلى ذلك أنه كان معادياً لإسرائيل كياناً سياسياً، ولطالما أشار إلى الأرض التي احتلتها بأنها فلسطين، وعلى صعيد شخصي أكثر فقد كان معادياً للسامية، ويشهد أحد زملائه السابقين باحتقاره للإسرائيليين الذين كانوا يحضرون محاضراته، وقد صرح ديفيد برايك جونز بعد مقابلته مع دو فوكس، قائلاً: «لقد وجدته شخصاً عنيفاً، سريع الغضب، وعديم المنطق قليلاً »، وبرأي ميغان بروشي التي شغلت منصب إدارة صرح الكتاب الإسرائيلي: «كان دو فوكس متعصباً في عدائه للسامية وللإسرائيليين، لكنه كان أفضل شريك يمكن المرء أن يطلبه» .

لقد كان هذا هو الرجل الذي آلت إليه آنذاك المسؤولية عن مخطوطات البحر الميت، في عام 1953م كان مجلس أمناء متحف روكفيلر قد طالب بترشيحات ضمن المدارس الأثرية الأجنبية المتعددة البريطانية والفرنسية والألمانية والأمريكية التي كانت مؤثرة في القدس آنذاك، لكن أحداً لم يوجه دعوة إلى أي إسرائيلي مع وجود ملاك مؤهل على نحو جيد في الجامعة العبرية التي في الجوار، كما طُلب من المدارس أن تقدم معونات مالية للمساعدة على تحمّل تكاليف العمل.

كان البروفيسور فرانك كروس أول باحث يجري تعيينه تحت قيادة دو فوكس، وكان كروس آنذاك زميلاً لمدرسة ماكورميك الكهنوتية في شيكاغو ولمعهد أولبرايت في القدس، وقد رشحه معهد أولبرايت ليبدأ العمل في القدس في صيف عام **1953**م، وتألفت المادة الموكلة إليه على نحو أساسي من نصوص مقدسة، ومخطوطات تحوي شروحاً للكتب الكثيرة للعهد القديم عثر عليها في الكهف **4** في قمران، كما أوكلت مادة مشابهة إلى مونسينيور باتريك سكيهان من الولايات المتحدة، الذي كان في وقت تعيينه مديراً لمعهد أولبرايت .

أما مرشح المدرسة الإنجيلية فكان الأب جان ستاركي من فرنسا، الذي أُلحق في الوقت نفسه بالمركز الوطني للبحث العلمي، وقد أوكل إلى ستاركي، الذي كان خبيراً باللغة الآرامية، الجزء الأكبر من المادة المكتوبة بتلك اللغة.

وكان مرشح الألمان هو الدكتور كلاوس هونو هانزينغر الذي أوكل إليه نص محدد وحيد عرف باسم مخطوط الحرب، إضافة إلى مجموعة من المواد المكتوبة على ورق من نبات البردي بدلاً من الجلد، وقد ترك هانزينغر الفريق بعد ذلك، حيث استبدل به أخيراً كاهن فرنسي آخر هو الأب موريس بايليت.

رشحت المدرسة الإنجيلية شخصاً آخر، كان قد ألحق بها هو كاهن بولندي، كان يعيش في فرنسا، يدعى الأب جوزيف ميليك، وأوكل إلى ميليك، الذي تتلمذ على يد دو فوكس، وكان بيت أسراره، كمّ كبير ومهم من المواد، ليعمل عليه على نحو خاص، وتضمنت مواده نصوصاً جدلية من العهد القديم، إضافة إلى كتابات منتحلة، أي نصوص حاول فيها كاتب لاحق أن يعطي كلماته بعض السطوة بنسبتها إلى أنبياء ورجال دين سابقين، والأهم من ذلك كله أن مادته احتوت على ما كان يدعى المادة الطائفية، وهي مادة تنتمي تحديداً إلى مجتمع قمران وتعاليمه وشعائره ومبادئه.

كان المرشح البريطاني للفريق هو جون آليغرو الذي كان آنذاك يحضِّر رسالة الدكتوراه في جامعة أكسفورد بإشراف البروفيسور غودفري درايفير، عندما ذهب آليغرو إلى القدس كان شخصاً ملحداً، وكان الوحيد من أعضاء الفريق الذي لم يحمل أي انتماء ديني محدد، كما كان عالم اللغات القديمة الوحيد بينهم، وكان قد قام بنشر خمسة أبحاث له في منشورات أكاديمية، ومن ثم فهو الوحيد الذي كان قد سجل لنفسه شهرة واسعة قبل العمل على المخطوطات، على خلاف بقية المجموعة، فقد كانوا مغمورين في ذلك الوقت، واستطاعوا صناعة أسماء لهم فقط خلال عملهم على النصوص التي أُوكلت إليهم.

أوكلت إلى آليغرو نصوص مقدسة، تبين أخيراً أنها كانت مادة طائفية من النوع الذي أوكل إلى ميليك، كما أوكلت إليه نصوص أطلق عليها أدب الحكمة، وهي أناشيد وابتهالات وخطب وعظات دينية ذات طابع أخلاقي وشعري، وفي الحقيقة يبدو أن مادة آليغرو تقريباً كانت أكثر حساسية مما توقع أي أحد في ذلك الوقت، كما كان تقريباً باحثاً مستفرداً، وعلى نحو مؤكد فهو لم يشعر بأي حرج من أن يخرق الإجماع الذي كان دو فوكس يحاول تحقيقه، وكما سنرى بعد ذلك فإن آليغرو لم ينعم كثيراً في عضوية الفريق، وسرعان ما جرى استبعاده منه، واستبدال جون سترغنيل به، والذي كان هو الآخر يُحَضِّر رسالة الدكتوراه في أكسفورد، وقد أصبح بعد ذلك تلميذاً لفرانك كروس.

وفق أي مبادئ جرى تقسيم المواد وتوزيعها وعهدتها؟، كيف جرى تحديد من يتعامل مع ماذا؟، عندما سئل البروفيسور كروس هذه الأسئلة على الهاتف أجاب بأن القضية حلت خلال التشاور والإجماع السهل، وخلال مباركة دو فوكس.

كانت بعض الأمور واضحة، فمن كان بيننا يقوم بدراسات عليا بدوام كامل لم يستطع تولي أمور مجهولة وأكثر تعقيداً، وهكذا أخذنا مواد إنجيلية، فهي الأسهل من حيث تحديد هويتها ووضع الأشياء في أعمدة ورفوف، أما المختص باللغات الآرامية، وهو ستاركي فقد أوكلت إليه المواد الآرامية، لقد كانت اهتمامات الباحثين وإمكانات البحث هي التي حددت كثيراً ما كان كل منا سيفعله، لقد جرى الاتفاق على هذا الأمر بسرعة، وبمباركة دو فوكس، لم يحدث أن جلسنا وأجرينا تصويتاً، كما لم يكن ثمة من خلاف في هذا الشأن، لقد كان عمل الفريق قائماً على الإجماع.

ويوضح البروفيسور كروس أن كل عضو من الفريق كان على اطلاع على ما يفعله زملاؤه، إذ جرى توزيع المواد وتنظيمها في غرفة واحدة، هي حجرة المخطوطات، وكان أي عضو من الفريق يستطيع أن يتجول ويرى التقدم الذي كان يحرزه زملاؤه، كما كانوا حقاً يساعدون بعضهم في حل المشكلات التي تطلبت أكثر من خبير متخصص، وهذا يعني أن الجميع كانوا سيعلمون معاً أنه كان أي من الأعضاء يتعامل مع مادة جدلية أو قطعية، ومن هنا ظل آليغرو يصر وحتى وفاته على أن زملاءه كانوا يمتنعون أو يؤجلون الإفصاح عن المواد الهامة والجدلية، كما صرح باحث آخر ذو عقلية مستقلة، ممن التحقوا بالفريق لاحقاً، بأنه وُجِّهَ في ستينيات القرن العشرين بأن يمضي ببطء في عمله، حيث يتعب المجانين في النهاية ويذهبون بعيداً لقد أراد دو فوكس أن يتجنب إحراج المؤسسة المسيحية مادام من الممكن تجنب ذلك، فقد عدّت بعض مواد قمران قادرة على فعل ذلك تماماً.

لقد كان ملازماً تماماً لدو فوكس أن متحف روكفيلر ظل حتى عام 1967م في الأراضي الأردنية من القدس الشرقية، إذ لم يكن مسموحاً للإسرائيليين بأن يعبروا إلى المنطقة، وقد منح ذلك دو فوكس المعادي للسامية ذريعة ملائمة لاستبعاد الخبراء الإسرائيليين، مع أن فريقه من الباحثين الدوليين كان يفترض أن يضم، على الأقل نظرياً أوسع تنوع من المصالح والأساليب، ولو أن السياسة هي التي أبقت الإسرائيليين خارج القدس الشرقية، لكنه كان سهلاً تزويدهم بصور، أو الوصول بطريقة ما إلى المادة، إلا أنهم لم يحصلوا على أي من ذاك.

وعندما أثرنا الموضوع مع البروفيسور بيران محافظ الجزء الإسرائيلي من القدس في ذلك الوقت، والذي أصبح بعد ذلك مدير دائرة الآثار الإسرائيلية، قال: إن السلطات الأردنية كانت متعنتة في رفضها السماح لسوقينق أو لأي باحث إسرائيلي آخر بالدخول إلى منطقتها في القدس، ومن منصبه محافظاً كان بيران قد عرض على لجنة دو فوكس أن تجتمع في الجزء الإسرائيلي ومنحها أوضاعاً آمنة، لكن جرى رفض عرضه، ومن ثم اقترح بيران أن تُجلب مخطوطات معينة أو أجزاء من مخطوطات إلى الجزء الإسرائيلي، ليجري فحصها على يد خبراء إسرائيليين، وجرى رفض هذا المقترح أيضاً، وختم البروفيسور بيران بقوله: لقد كان يمكنهم المجيء حقاً، لكنهم شعروا بأنهم يملكون تلك المخطوطات، ولن يدعوا أحداً غيرهم يأخذها، في ظل المناخ السياسي الذي كان سائداً كانت المخطوطات لا تشكل أولوية كبرى، ولم يجرِ أي ضغط رسمي لمجابهة هذا التشدد في تلك العداوة الأكاديمية.

كان لدى الإسرائيليين، متمثلين بداية بالجامعة العبرية، ومن ثم بصرح الكتاب الذي أنشئ خصيصاً لذلك الغرض، سبع مخطوطات هامة خاصة بهم، وهي الثلاث التي اشتروها من سوقينق، والأربع التي تدبر يغايل يادين أمر شرائها في نيويورك.

وقد زاد ذلك تعقيد الموقف، ويبدو أن الإسرائيليين مضوا في بحثهم ونشر نتائجه على نحو مسؤول تقريباً، فقد كانوا كذلك على الأقل تجاه يادين وبيران والحكومة والرأي العام والعالم الأكاديمي على نحو عام، لكن فريق روكفيلر يظهر في المشهد بمظهر أقل جمالاً، إن تمتعهم بالتمويل من تبرعات جمة، وبالوقت الكافي ووقت الفراغ والحرية جعلهم يبدون وكأنهم كانوا أعضاء نادٍ ترفيهي من نوع ما، أو نخبة تتسم بسمات العصور الوسطى في أفعالها حيال المخطوطات واحتكارهم لها، لقد كان الجو الذي يلف حجرة المخطوطات يشبه تقريباً جو أديرة العصور الوسطى، ويذكّر المرء كيف كانت العلوم

محظورة في تلك العصور، وقد انتحل الخبراء ذوو حق الدخول إلى حجرة المخطوطات، سلطة ومكانة جعلتا الآخرين يقتنعون بسهولة بصواب رأيهم، وكما أخبرنا البروفيسور جيمس روبنسون، وهو قائد فريق آخر أكثر مسؤولية، قام بترجمة النصوص التي وجدت في منطقة نجع حمادي في الصحراء المصرية فإن اكتشاف المخطوطات يخرج أسوأ الغرائز الكامنة في الباحث .

لقد كان الفريق الدولي مستبد الرأي في احتكاره للمخطوطات التي كانت لديه وفي تفسيره لها أيضاً، وعندما كان الفريق يبدأ عمله في عام **1954** كان الباحث اليسوعي روبرت نورث قد تنبأ بالأخطار المحدقة، قال:

«لقد كان هناك إجماع محدود مؤخراً على تاريخ المخطوطات، أو بالأحرى تاريخ تأليف كل منها وكتابته وتخزينه، وهو إجماع يطمئن ويقلق في الوقت نفسه، إنه مطَمْئن من ناحية أنه يأتي من أدلة مختلفة، ويعطي فرضية مؤثرة أساساً للنقاش، لكن هناك خطراً من شعور مزيف بالاطمئنان، حيث من المهم التركيز على ضعف الأدلة في ذاتها ...».

لكن أحداً لم يأخذ بتحذيرات نورث، خلال العقد التالي برز فعلاً إجماع جرى فرضه من الفريق الدولي الذي يعمل بقيادة دو فوكس في روكفيلر، فقد نشأ مذهب شديد الحزم فيما يخص تفسير الكتابات، وغدا أي ابتعاد عنه بمنزلة الكفر.

أصبح هذا المذهب المتشدد في التفسير أكثر عقائدية على مرّ السنين، وقد أفصح عنه الأب ميليك علانية وبوضوح، كما جرى نشره في فرنسا سنة **1957**م، وعنوانه عشر سنوات من الاكتشافات في صحراء يهوذا، وبعد عامين تُرجم عمل ميليك إلى الانكليزية على يد عضو آخر من فريق دو فوكس الدولي هو جون سترغنيل، وفي ذلك الوقت كانت الصيغة الانكليزية الأولى عن الإجماع قد ظهرت من قبل في عام **1958**م، عنوانها «مكتبة قمران القديمة»، تأليف البروفيسور فرانك كروس أستاذ سترغنيل، أما تلخيص الإجماع وإعطاؤه لمساته الأخيرة فقد كان على يد الأب دو فوكس نفسه، وذلك خلال سلسلة من المحاضرات التي جرى إلقاؤها في الأكاديمية البريطانية سنة **1959**م، وجرى نشرها وعنوانها عشر سنوات من الاكتشافات في أرض يهوذا، ومع حلول ذلك الوقت كانت مبادئ التفسير المجمع عليه قد رُسِّخت على نحو سليم، وغدا أي شخص يفكر في تحديها يخاطر بمبادئه على نحو كبير.

عند وفاة دو فوكس في عام **1971**م حدث أمر غير اعتيادي، فمع أنه لم يكن يمتلك المخطوطات بأي حال قانوني إلا أنه تنازل في وصيته عن حقه فيها لزميله الأب بيير

بينويت، وهو دومينيكي آخر، خلفه بعد ذلك بقيادة الفريق الدولي والمدرسة الإنجيلية، إن وراثة الأب بينويت لحقوق دو فوكس وامتيازاته الخاصة كانت في الحقيقة إجراء غير مسبوق في مجتمع الباحثين، ومن ناحية قانونية كان الأمر على الأقل غير اعتيادي إطلاقاً، لكن الأكثر غرابة من ذلك هو أن مجتمع الباحثين لم يقف في وجه تلك الصفقة، ولدى سؤالنا البروفيسور نورمان غولب من جامعة شيكاغو عن سبب السماح لإجراء مشبوه كهذا بأن يحصل، أجاب بأن معارضته كانت تنتهي كقضية خاسرة.

شكل تصرف دو فوكس هذا مثالاً احتذاه أعضاء آخرون من الفريق، فعندما توفي الأب باتريك سكيهان في عام 1980م أوصى بحقوق المخطوطات التي في عهدته للبروفيسور يوجين أولريتش من جامعة نوتردام في ولاية إنديانا، كما أوصى الأب جان ستاركي بالمخطوطات التي كانت لديه للأب إيميل بويتش من المعهد الإنجيلي، وهكذا حافظت الدائرة المركزية من الباحثين الكاثوليكيين للفريق الدولي على احتكارها وسيطرتها، كما بقي الإجماع على التفاسير أمراً غير قابل للطعن فيه، وقد ظل الأمر على هذه الحال حتى عام 1987م حين توفي الأب بينويت، حيث قام أحدهم بمعارضة السبل التي انتهجها الفريق.

لدى وفاة الأب بينويت عُيِّن البروفيسور سترغنيل خلفاً له في رئاسة الفريق الدولي، وسترغنيل من مواليد مدينة بارنيت شمال لندن عام 1930م، تخرج في الكلية اليسوعية في أكسفورد سنة 1952م، وحصل منها على درجة الماجستير عام 1955م، ومع أنه قُبِلَ لدراسة الدكتوراه في كلية أكسفورد للدراسات الشرقية، إلا أنه لم يتم دراسته فيها، وانتهى قبوله في عام 1958م، قبل ذلك في عام 1954م كان سترغنيل قد قُبِل في فريق دو فوكس وذهب إلى القدس، وبقي فيها سنتين، وفي عام 1957م، وعقب فترة وجيزة من العمل في معهد الشرق في جامعة شيكاغو،عاد سترغنيل إلى القدس، ليلتحق بمتحف روكفيلر، حيث عمل خبيراً في الكتابات الأثرية حتى عام 1960م، في تلك السنة عُيِّن مساعد بروفيسور في دراسات العهد القديم في مدرسة الكهنوت في جامعة ديوك، وفي عام 1968م انتقل إلى مدرسة الكهنوت في جامعة هارفارد برتبة بروفيسور في الأصول المسيحية.

لم يكن تعيين سترغنيل رئيساً للفريق الدولي خالياً تماماً من العوائق، لقد كانت الحكومة الإسرائيلية منذ عام 1967م مخولة قانونياً بتصديق جميع التعيينات المماثلة، في حالة الأب بينويت لم يتجشم الإسرائيليون عناء ممارسة سلطتهم، أما في حالة سترغنيل فقد أكدوا أول مرة ما دعوه حقهم في المخطوطات، وبرأي البروفيسور

شيماريا هو تالمون العضو في اللجنة التي درست ملف سترغنيل فإن تعيينه لم ينل الموافقة إلا بعد أن لبيت شروط محددة مع أمور أخرى، كان الإسرائيليون قلقين من الطريقة التي نزع فيها عدد من أعضاء الفريق الدولي إلى أداء دور المالك الغائب، فمثلاً كان الأب ستاركي منذ حرب عام 1967م قد رفض أن يطأ الأرض التي تحتلها إسرائيل، كما عاش الأب ميليك، ربيب دو فوكس وبيت أسراره، سنوات عدة في باريس مع صور فوتوغرافية لبعض أهم مواد المخطوطات التي لم يكن لأحد غيره إمكان الوصول إليها، ولم يكن مسموحاً لأحد غيره أن يلتقط صوراً، كما لم يكن لأحد، حتى الفريق الدولي، أن ينشر شيئاً عن المادة التي كانت في عهدته من دون موافقته، ووفق علمنا فإن ميليك لم يعد قط منذ حرب 1967م إلى القدس للعمل على هذه المادة، وبينما تصفه مجلة التايم بأنه مراوغ، فقد نقلت مطبوعة أخرى هي مجلة بايبليكال آركيولوجي ريفيو مرتين أنه يرفض حتى الإجابة عن رسائل مديرية الآثار الإسرائيلية، لقد كان يعامل الباحثين الآخرين والعامة بما لايمكن وصفه بأنه احتقار مطلق.

كان الإسرائيليون يريدون بشدة أن يوقفوا أفعالاً كهذه، لذا أصروا على أن يمضي المدير الجديد لمشروع المخطوطات بعضاً من وقته على الأقل في القدس، وقد أذعن سترغنيل، الذي كان على كل حال يعيد النظر في منصبه في هارفارد، لهذا المطلب حيث أخذ نصف تقاعد من منصبه هناك، وشرع يمضي نصف كل سنة في القدس، وذلك في المدرسة الإنجيلية نفسها التي كان له فيها مكتبه ووسائل إقامته الخاصة، لكن سترغنيل أخفق في الوفاء بالتزامات أخرى كانت هناك، إذ إنه لم ينشر النصوص التي أوكلت إليه، وقد ظل الجميع ينتظر تعليقاته على أحد هذه النصوص، وهي جزء من مخطوط يضم 121 سطراً، أكثر من خمس سنين، ولم تظهر في النهاية، كما لم يكتب سوى مقالة واحدة من 27 صفحة عن المادة التي بحوزته، ومع ذلك نشر سترغنيل مقالاً عن النصوص السامرية، وهي ترجمة لدراسة ميليك لقمران، ونقداً مطولاً وعدائياً لأحد أعضاء الفريق الدولي لقيامه بالطعن بالتفسيرات المجمع عليها، ليست هذه سيرة مبهرة لرجل أمضى حياته يعمل في مجال يقوم على النشر، ومن ناحية أخرى اختار عدة طلاب في سنة التخرج، وسمح لهم بالعمل على نصوص أصلية معينة مشاريع لشهادات الدكتوراه، ومن ثم حصل على المكانة العالية لهم ولمشرفهم ولجامعة هارفارد.

عموماً أحرز الفريق الدولي برعاية سترغنيل قدراً لا بأس به من التقدم، كما كان قد فعل قبل ذلك، ومن المثير مقارنة تقدمه مع التقدم الذي أحرزه باحثون عملوا على كمية أخرى من النصوص، تدعى الأناجيل المعرفية التي اكتشفت في منطقة نجع حمادي في مصر.

عثر على مخطوطات نجع حمادي سنة 1945م، أي قبل عامين من اكتشاف مخطوطات البحر الميت، ومع حلول عام 1948م كان متحف القاهرة القبطي قد قام بشرائها جميعها، في بادئ الأمر حاولت مجموعة من الباحثين الفرنسيين فرض احتكار كالذي فرض على مخطوطات قمران على هذه المادة، ونتيجة لذلك فقد تباطأت وتيرة العمل عليها حتى عام 1956م، ولم يطل العمل الذي ما إن بدأ حتى قاطعته مرة أخرى أزمة قناة السويس، إلا أنه عقب هذا التأجيل جرى تسليم المخطوطات سنة 1966م لفريق دولي من أجل الترجمة والنشر، كان رئيس هذا الفريق هو البروفيسور جيمس روبنسون من معهد الآثار المسيحية في مدرسة كليرمونت في كاليفورنيا، عندما تحدثنا إلى البروفيسور روبنسون عن الفريق الذي كان مسؤولاً عن نصوص قمران قام بانتقادهم، وقال: إن باحثي قمران لم يعد عليهم صناعة السمعة، بل كل ما يستطيعونه هو تدميرها.

على خلاف ذلك تحرك البروفيسور روبنسون وفريقه بسرعة مبهرة، خلال ثلاث سنوات قام الفريق بتحضير عدد من مسودات النصوص والترجمات وتوفيرها للباحثين، ومع حلول عام 1973م كانت مكتبة نجع حمادي كاملة قد جهزت بمسودة ترجمة إلى اللغة الانكليزية، أخذت تتداول بحرية بين الباحثين المهتمين، وفي عام 1977م كانت كتب مخطوطات نجع حمادي جميعها قد نشرت بنسخة أصلية ونسخة عامة، وهكذا فإن الأمر لم يستغرق من روبنسون وفريقه سوى إحدى عشرة سنة لجعل مخطوطات نجع حمادي جاهزة للطباعة.

صحيح أن نصوص قمران كانت أكثر عدداً، وطرحت مشكلات أكثر تعقيداً من نجع حمادي، لكن مع ذلك فإن سيرة فريق دو فوكس الدولي لا تبشر تماماً بالثقة، عندما جرى تشكيل الفريق في عام 1953م كان هدفه ونيته المعلنة نشر جميع المخطوطات التي اكتشفت في قمران بنسخ نهائية كاملة، تشكل سلسلة يجري نشرها من قسم الطباعة في جامعة أكسفورد، عنوانها: اكتشافات صحراء يهوذا الأردنية.

ظهر الجزء الأول بسرعة معقولة في عام 1955م، وكان عن أجزاء المخطوطات التي عثر عليها في الكهف الأصلي في قمران، والذي يعرف رسمياً اليوم باسم الكهف 1، لكن المجلد الثاني لم يظهر قبل ستة أعوام، أي عام 1961م، ولم يتناول هذا المجلد نصوص قمران قط، بل مادة عثر عليها في كهوف منطقة مربعات المجاورة، في عام 1963م ظهر مجلد آخر تناول على نحو أساسي أجزاء مخطوطات من الكهف 2 والكهف 3 والكهوف من 5 إلى 10، ومن أجزاء المخطوطات تلك كان الأهم والأكمل هو المخطوط النحاسي

الذي وجد في الكهف 3، وعدا نص المخطوط النحاسي كان أطول نص لا يزيد على ستين سطراً، لكن أجزاء المخطوطات أثمرت أيضاً عن نسختين لنص يعرف باسم كتاب اليوبيلات [1]، وقد وجدت نسخة من النص نفسه في وقت لاحق في مسعدة، وتكشف أن المدافعين عن الحصن استخدموا التقويم ذاته الذي استخدمه مجتمع قمران، ويؤكد وجود ارتباط أوثق بين الموقعين من الذي اعترف به دو فوكس.

أما المجلد الرابع من اكتشافات صحراء يهوذا فقد نشر في عام 1965م، وقد حرره جيمس ساندرز، مع أنه لم يكن ضمن فريق دو فوكس، وكان المخطوط الذي تناوله المجلد هو كتاب من الابتهالات الدينية، عثر عليه البدو في الكهف 11 نحو عام 1956م، وجلب مع عدد من أجزاء المخطوطات إلى متحف روكفيلر، ولما لم يلح أي مشتر في الأفق فقد أقفل على المادة في خزانة من خزانات المتحف، لم يكن مسموحاً لأحد بفتحها، وقد ظلت هناك حتى عام 1961م، عندما تمكن معهد أولبرايت في النهاية من شرائها بتمويل من كينيث وإليزابيث بيتشتيل من شركة بيتشتيل، وهي أيضاً شركة إنشاء أمريكية ذات مصالح كثيرة في الشرق الأوسط، ولو أن أياً منها لم تكن في إسرائيل، ولها ارتباطات كثيرة بالحكومة الأمريكية، وبضع علاقات على الأقل في وكالة الاستخبارات المركزية سي آي إي، وهكذا نشر مجلد البروفيسور ساندرز على نحو مستقل في جدول زمني من وضع فريق دو فوكس الدولي.

لكن في الوقت نفسه ظلت المادة الأغنى والأكثر أهمية هي تلك التي وجدت في الكنز الحقيقي في الكهف 4، مخبأة عن العامة وعن مجتمع الباحثين كليهما، الآن ومرة أخرى قطع صغيرة وأجزاء مثيرة تسربت إلى المنشورات العلمية، لكن أول مطبوعة عن المادة المكتشفة في الكهف 4 لم تظهر حتى سنة 1968م وكانت عن قسم ضئيل منها، وقد حدث ذلك بتواطؤ الخائن أو المهرطق الوحيد في فريق دو فوكس وهو جون آليغرو .

مع استمرار التأجيل في نشر مادة قمران وتواصل تباعد الفترات بين صدور الكتب، شرعت الشكوك في أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام في الانتشار، وقد عبر النقاد عن ثلاثة شكوك تحديداً، فإما أن فريق دو فوكس كان يجد المادة التي بين يديه صعبة جداً

1- كتاب اليوبيلات، أو سفر التكوين الصغير: كتاب ديني يهودي قديم، يعده أكثر المسيحيين كتاباً مزوراً، وكان معروفاً لليهود وللمسيحيين جيداً، وفي وقت لاحق جرى منعه، ولكنه لا يزال يعد من الكتب المقدسة للكنيسة الأرثوذكسية الإثيوبية التي تسميه كتاب القسمة، والكتاب بحسب الآراء الأكاديمية الحديثة إعادة كتابة لسفري التكوين والخروج وفق رؤى بعض يهود القرن الثاني قبل الميلاد.

ومعقدة جداً، وإما أنهم كانوا يمضون ببطء عمداً، وذلك لمنع أو النشر أو تأخيره على الأقل لكسب الوقت، وإما أن الفريق كان ببساطة كسولاً وخاملاً، يتلقى المال من دون بذل جهد يذكر في وظيفة لن يستعجلوا في تركها، كما أشير أيضاً إلى أنه لم يحدث تأجيل كهذا بخصوص أجزاء المخطوطات القمرانية التي بأيدي الأمريكيين والإسرائيليين، وعلى خلاف فريق دو فوكس، لم يكن الباحثون الأمريكيون والإسرائيليون قد تأخروا في نشر نتائج المواد التي عملوا عليها.

لم ينشر المجلد السادس من اكتشافات صحراء يهوذا حتى عام **1977**م، أي بعد تسع سنوات من كتاب آليغرو، ولم يظهر مجلد سابع قبل عام **1982**م، بينما لم ينشر التاسع حتى عام **1990**م، ولم يتناول هذا المجلد نصوص قمران، وكما أشرنا دخلت الكتب التي حوت مسودات الترجمات لمادة نجع حمادي حيز التداول خلال ثلاث سنوات، أما في حالة مادة قمران فلم تصدر من فريق دو فوكس أي مسودات ترجمات كتلك حتى يومنا هذا، وبينما كانت كل مادة نجع حمادي في الطباعة خلال أحد عشر عاماً، فإننا الآن نقارب نحو ثمانية وثلاثين عاماً على بدء فريق دو فوكس عمله، وحتى الآن فهم لم ينتجوا سوى ثمانية مجلدات، أي إن نتاجهم يقل عن ربع المادة التي في حوزتهم، بل، إن جزءاً ضئيلاً جداً من المادة التي ظهرت في المطبوعات تحمل شيئاً من الأهمية كما سنرى.

في مقابلة نشرتها صحيفة نيويورك تايمز شرح إيسنمان كيف كانت دائرة صغيرة من الباحثين قادرة على الهيمنة على نحو كامل من البحث عدة أجيال: ولو أن بعض هؤلاء الباحثين لم يعودوا مؤثرين في هذا المجال منذ سنوات، وكيف استطاعوا الاستمرار بذلك خلال سيطرتهم على جماعاتهم من الطلاب والباحثين ووضعهم في أكثر المراكز رقياً ومكانة أكاديمياً، وقد أتت صحيفة ابيليكال آركيولوجي ريفيو، وهي نشرة ذات نفوذ واسع، يملكها محام من واشنطن، يدعى هيرشل شانكس، على وصف فريق دو فوكس الدولي بأنه محكوم كثيراً بالعُرف والتقليد وعدم الرغبة في التغيير، وذلك بحسب ما يمكن إثباته حتى الآن، وبحسب الصحيفة فإن أولئك الذين يسيطرون على المخطوطات تميزوا بالقدرة على إخراج المعلومات منها نقطة نقطة، وإن ذلك يمنحهم مكانة وسلطة أكاديمية وغروراً رائعاً، فلماذا يتخلون عنه؟، وفي مؤتمر عن المخطوطات في جامعة نيويورك في عام **1985**م استهل البروفيسور مورتون سميث، وهو أحد الأسماء الأكثر تميزاً في الدراسات الإنجيلية المعاصرة، حديثه بطريقة لاذعة ليقول: فكرت في التحدث عن فضائح وثائق البحر الميت، لكن تبين أن هذه الفضائح كثيرة جداً ومألوفة جداً ومقززة جداً.

لكن كيف رد أعضاء الفريق الدولي على انتقادات لاذعة كهذه؟، من أصل الفريق الدولي الأصلي الذي جرى جمعه سنة 1953م، ثلاثة فقط لا يزالون أحياء حتى اليوم، جوزيف ميليك الذي ترك الكهانة، ويعيش حياة منعزلة في باريس، وهناك جون سترغنيل وفرانك كروس اللذان كانا في مدرسة الكهنوت في جامعة هارفارد، ومن هؤلاء كان البروفيسور كروس الشخص الأسهل من حيث الوصول إليه، وكان هو الوحيد الذي سمح بأن يُسأل عن التأجيل في نشر المعلومات عن المخطوطات، ففي مقابلة أجرتها معه صحيفة نيويورك تايمز اعترف بأن التقدم كان يسير ببطء على نحو عام، وقد قدم تفسيرين اثنين لذلك، قال: إن معظم أعضاء الفريق انخرطوا في أعمال تدريس بدوام كامل، ولم يستطيعوا القدوم للعمل على المخطوطات في القدس سوى في العطل الصيفية، وأضاف أن المخطوطات التي لم تنشر بعد هي مخطوطات مجزأة جداً، حيث يصعب تجميعها أكثر من ترجمتها، وقد قال في مناسبة أخرى: هذه أجمل أحجية تجميع أجزاء في العالم .

سيكون من غير المعقول طبعاً أن نقلل أهمية تعقيد العمل الذي تولاه كروس وزملاؤه، إن الأجزاء الكثيرة من نصوص قمران تشكل فعلاً أجزاء لغز صعب الحل، لكن تفسيرات كروس بمجملها ليست مقنعة، صحيح تماماً أن أعضاء الفريق الدولي نشطاء في التدريس، ولديهم وقت محدود ليمضوه في القدس، لكن كروس لم يذكر أن معظم العمل الذي يجري على المخطوطات يجرى بصور فوتوغرافية، لا تتطلب من الباحث أن يسافر إلى أي مكان، كما غدا التصوير الفوتوغرافي الآن أكثر دقة، حيث جعل التعامل مع الصور أكثر سهولة وملاءمة من التعامل مع النسخ الأصلية، أما تعقيد لغز تجميع الأجزاء، فإن كروس يناقض حجته بنفسه، لقد كتب منذ عام 1958م أن معظم أجزاء المخطوطات التي كانت في ذلك الوقت بين أيدي الفريق قد جرى تحديدها، وأن ذلك حدث في صيف عام 1956م، وبحسب ما كتبه جون آليغرو في عام 1964م فقد جرى تجميع كامل المادة المكتشفة في الكهف 4 وتحديدها، وهي أكبر مجموعة من المخطوطات، بين عامي 1960م و1961م، كما لم تكن مهمة تحديد المواد دوماً صعبة على النحو الذي يدفعك كروس لتشعر بها، وفي رسالة إلى جون آليغرو بتاريخ 13 كانون الأول عام 1955م كتب سترغنيل أنه جرى مؤخراً شراء مواد مكتشفة في الكهف 4 بقيمة 3000 جنيه استرليني وتمويل من الفاتيكان، وأنه جرى تحديدها خلال نصف نهار واحد، وأضاف أن تصوير المادة بأكملها لن يستغرق أكثر من أسبوع.

لقد كان آليغرو متحمساً لتسريع الأمور، ومشككاً في الأسباب الكثيرة التي جرى التذرع بها لعدم القيام بذلك، وذلك كله حتى قبل خروجه عن إجماع الفريق الدولي، لكن

هل كان الأمر جرعة مخدرة فقط عندما كتب دو فوكس إليه في 22 آذار عام 1959م أنه سيجري نشر نصوص قمران و الاكتشافات في صحراء يهوذا كاملة مع حلول منتصف عام 1962م، وهو التاريخ الذي وضع لسترغنيل لكي ينهي مجلده، لقد صرح دو فوكس في الرسالة نفسها بأن العمل على النصوص الأصلية سينتهي مع حلول شهر حزيران عام 1960م، وبعد ذلك سيصار إلى تسليمها إلى مؤسسات عدة، دفعت من أجلها، اليوم وبعد أكثر من 30 عاماً على رسالة دو فوكس لا يزال من تبقى من فريقه، إضافة إلى أعضاء جدد فيه يتكتمون على المخطوطات التي في حوزتهم، مصرين على الحاجة إلى المزيد من البحث، ومما يجدر تكراره أن ما جرى نشره تطوعاً لم يكن في معظمه ذا أهمية تذكر.

تقسم نصوص قمران على نحو عام إلى مجموعتين، المجموعة الأولى هي نسخ قديمة لنصوص إنجيلية، وبعضها فقط يختلف على نحو طفيف عما هو موجود الآن، ويشار إلى هذه المجموعة بالمادة الإنجيلية، أما المجموعة الثانية فهي المواد غير الإنجيلية التي تتألف في معظمها من وثائق، لم يسبق أن رآها أحد من قبل، ويمكن تسميتها المادة العلمانية، ومن المألوف أن يظن معظم الناس العاديين أن المادة الإنجيلية هي ما يحمل أهمية ونتائج أكبر، فكلمة إنجيلي البسيطة تثير في الذهن ارتباطات تقود تلقائياً إلى افتراض كهذا، وفق علمنا كان إيسنمان أول من تحرى، وعلى نحو مؤكد أول من شدد على المغالطة في هذا المنهج في التفكير، وذلك لأن المادة الإنجيلية لا تحدث فرقاً كبيراً، وليست جدلية، ولا تكشف أي أمور جديدة، فهي تتألف مما لا يزيد كثيراً على نُسَخ كتبٍ من العهد القديم، تُطابق تقريباً الكتب المطبوعة الجاهزة مع تعديلات طفيفة، وما من شيء جديد جداً هنا، أما النصوص التي تضم المادة العلمانية فهي في الواقع النصوص الأكثر أهمية، فهي تضم قواعد وتعليقات على الكتاب المقدس، مع معاهدات كهنوتية وفلكية ومسيحية تتعلق، بالطائفة التي زعم أنها عاشت في قمران وبتعاليمها، إن تسمية هذه المادة العلمانية من شأنها أن يثبط على نحو بارع ومؤثر الاهتمام بها، وهكذا يجري تصويرها ملّة ذات خصوصية شاذة وشعائر غريبة، وبأنها جماعة دينية صغيرة خارجة عن التيار الرَئيس المفترض لليهودية والمسيحية القديمة، مع الارتباط الوثيق لتلك الملة بهما، ومن ثم فقد جرى التلاعب بمن هم خارج الفريق الدولي، ليقبلوا إجماع الفريق على أن مجتمع قمران كان ممن يدعون الأسينيين، وأن هؤلاء، وإن كانوا يشكلون مادة مثيرة في تطورها الهامشي، فلا علاقة لهم بأي قضاياً من نطاق أوسع، لكن الحقيقة، كما سنرى لاحقاً، غير ذلك تماماً، وستثبت النصوص التي جرى تقليل أهميتها على عجل أنها تضم مادة صاعقة فعلاً.

الفصل الثالث

فضيحة المخطوطات

من سخرية الأقدار أن أول من أدرك وجود أمر مريب فيما يخص الفريق الدولي لم يكن باحثاً في أمور الكتاب المقدّس، ولا خبيراً في هذا المجال، بل كان شخصاً لا ينتمي إلى هذا المجال أبداً، هذا الشخص هو الناقد الأدبي والثقافي الأمريكي المعروف إدموند ويلسون الذي لا بُدّ من أن معظم طلبة الجامعات البريطانية والأمريكية درسوا أعماله في مجالات بعيدة تمام البعد عن قمران وفلسطين القرن الأوّل، عُرف ويلسون بأعماله الأدبية المتفردة مثل فكرت في ديزي- **I thought of Daisy**، وذكريات مقاطعة هيكات- **Memories of Hecate County** خصوصاً، كما اشتهر بكتابه قلعة آليكس- **Alex's Castle** الفريد والرائد في دراسة تأثير الرمزية الفرنسية في أدب القرن العشرين، من كتبه أيضاً إلى محطة فنلندا- **To the Finland Station**، وهو تفصيل لـ مكائد لينين السياسية والسيطرة البلشفية على الثورة الروسية، إضافة إلى كل ما سبق، عُرف ويلسون بعدائه الأدبي الغريب وغير الخفي لصديقه السابق فلاديمير نابوكوف، وذلك في تحديه لترجمة نابوكوف لرواية بوشكين الشعرية الشهيرة إيفغيني أونيجين **Evgeny Onegin** .

وكما أثبت خلافه مع نابوكوف، فإن ويلسون لم يتردد في الخوض في مجالات بعيدة عن خبرته، لكن فعله هذا، وإن كان يُعد طائشاً، قد يكون تحديداً ما كانت أبحاث قمران تحتاج إليه: نظرة متفحصة من شخص خارج المجال، قادر على إيجاد نوع من التقويم الناقد، وعلى أي حال فقد نشر ويلسون سنة 1955م مقالاً مطوّلاً في صحيفة نيويوركر تناول مخطوطات البحر الميّت، وقد جعل هذا المقال من المخطوطات موضوعاً معروفاً للجميع أوّل مرّة، كما جعل موضوع المخطوطات يستقطب اهتمام العامّة، وفي العام ذاته وسّع ويلسون مقالته، وأعاد نشرها بصيغة كتاب اسمه مخطوطات البحر الميّت، وفي عام 1969م، أي بعد مضي أربعة عشر عاماً، جرت إعادة نشر النص، ليشمل مواد جديدة، ويصبح ما يعادل ضعف حجمه الأصلي، وحتى يومنا هذا يبقى هذا العمل أكثر الأعمال التحقيقيّة عن مخطوطات قمران شهرةً، مع أنه من تأليف شخص من خارج الفريق الدولي، لكن حتى لو كان ويلسون من خارج مجال الدراسات الإنجيلية إلا إنه على نحوٍ مؤكد ليس هاوياً أو مبتدئاً فحسب، ولم يكن للفريق الدولي بقيادة دو فوكس أن يطعن بصدقه أو جدّيته، وبناءً على ذلك كان ويلسون نيابة عن المجتمع الأدبيّ قادراً على أن يضع الفريق الدولي في موقع الحساب.

في مطلع عام 1955م استطاع ويلسون أن يستشفّ رغبة لدى الخبراء في إقصاء مخطوطات قمران عن كلٍ من اليهوديّة والمسيحيّة، وقد بدا له أن الخبراء يحتجّون بشدّة أكثر مما ينبغي، ما ولّد لديه الشكوك، يقول:

ما إن يبدأ الشخص بدراسة المجادلات التي أثارتها مخطوطات البحر الميت حتى يدرك وجود توتر من نوع ما، لكن هذا التوتر لا ينجم فقط من المشكلات المتعلّقة بتحديد التاريخ، فالخلاف في تأريخ المخطوطات قد يحمل خلفه مخاوف أخرى غير مخاوف البحث فقط.

وقد شدد ويلسون على الأفكار المشتركة التي تجمع بين المخطوطات وكلٍ من اليهوديّة الحبريّة التي ظهرت خلال القرن الميلادي الأول، ومع الأنماط الأولى للمسيحيّة، كما أشار إلى تقيد ملحوظ لدى الباحثين ذوي التوجه المسيحيّ واليهوديّ حيال الأمر، قال: يرغب المرء في أن يرى هذه المشكلات تخضع للنقاش، وفي الوقت الحالي لا يسعنا سوى السؤال: إن كان الباحثون الذين عملوا على المخطوطات لم تقيدهم التزاماتهم الدينية المختلفة على نحو ما في تعاملهم مع هذه المسائل؟، خاصّة أنّ الكثير منهم تلقّوا أوامر مسيحيّة أو درّبوا على التقاليد الحبريّة .

وانسجاماً مع معايير لباقة الباحثين فقد تميّز ويلسون بلباقة ملحوظة وبقدرة على صياغة ألفاظه بأكثر لغة دبلوماسيّة ممكنة، لكنه لم يتردد في تناول الموضوع أو وضعه في سياق تاريخيّ، يقول: إذا نظرنا بأيٍ حالة إلى يسوع المسيح من منظور المخطوطات، يمكننا عندها تتبع استمراريّة جديدة، وأن نحصل في النهاية على إحساسٍ بالدراما التي تزامنت مع نهاية المسيحيّة، فقد يكون دير قمران مهد المسيحيّة أكثر من بيت لحم أو حتى الناصرة.

ومع الأسف فإنه من النمطيّ لباحثي الكتاب المقدّس والمخطوطات أن يصل إلى هذه الارتباطات أحد المراقبين المطّلعين والمحنكين، وليس أحد الخبراء في ميدان البحث، لقد كان ويلسون هو من أعطى التعبير البليغ والدقيق لجوهر الأمور التي سعى الفريق الدولي بكدّ لأن يتجنبها .

وقد تكررت هذه الاتهامات، بميل معظم الباحثين، من فيليب ديفيز، البروفيسور في دراسات الكتاب المقدّس في جامعة شيفلد، ومؤلّف كتابين عن مواد قمران، وكما أشار البروفيسور ديفيز فإنّ معظم الباحثين الذين عملوا على المخطوطات كانوا ذوي توجّهٍ مسيحيّ مع أساس يعتمد كتاب العهد الجديد وما زالوا، وقد كان ديفيز على معرفة ببعض هؤلاء الباحثين الذين تضاربت أبحاثهم في كثيرٍ من الأحيان مع معتقداتهم الشخصيّة، وتساءل عن منطقيتهم في مثل هذه الحالات، شدد البروفيسور ديفيز على الخلط الذي بين علم اللاهوت والتاريخ، وفي رأيه فكثيراً ما يُدرّس العهد الجديد ليس

كتاباً في علم اللاهوت فقط، بل كتاب تاريخيّ أيضاً، على أساس أنه تفصيل دقيق لأحداث القرن الأوّل، وفي حال جرى الأخذ بالعهد الجديد، أي الأناجيل الأربعة وأعمال الرُسل، بأنّه واقعٌ تاريخيّ لا جدل فيه، فمن المستحيل عندها القيام بدراسة منصفة للمخطوطات، فالتعاليم المسيحيّة لا تسمح للمرء بمحاكمتها.

وحيث لم يكن إدموند ويلسون أحد أفراد الفريق الدولي، فلم يعان الفريق عواقب الموقف المتعالي الذي تبنوه تجاهه، فقد كان ويلسون مميزاً جداً، حتى إنه لا يمكن إهانته أو إساءة معاملته، ومع ذلك كان يمكنهم تجاهله أو صرف النظر عنه بعدّه هاوياً ذكياً صافي النية، لكنه غير قادر على فهم تعقيد الأمور المتضمنة ودقتها، وأنه بسذاجته المزعومة قد يعطي حقائق متسرّعة، وبناءً على ذلك فإن الكثير من الباحثين كانوا يتهيّبون قول ما يؤمنون به فعلاً، فالسمعة الأكاديمية هشّة جداً، ولا يقدم على المجازفة بها إلاّ أكثر الأفراد جرأةً وثقةً بنفسه، فهذا الأمر يتضمن المخاطرة بأن يتلقى وابلاً نقدياً من موالي رأي الإجماع، يُفقده صدقه ويعرّضه للعزل، ويرى البروفيسور الإسرائيليّ البارز شيمارياهو تالمون أن المخطوطات تُعامل كأنها ملكية خاصّة، وأن الباحثين الذين يتلاعبون بها هم بالنتيجة متآمرون.

ومع ذلك لم يكن هؤلاء المتآمرون متنفّذين على نحو يستطيعون فيه إخماد معارضة الرأي الآخر، مع أن إدموند ويلسون من خارج الفريق، إلاّ أنّ الانشقاق في الرأي العامّ لدى الفريق الدولي بدأ بالظهور ضمن المجال المعزول للدراسات الإنجيلية نفسها، ومع بداية عام **1950**م ،أي قبل خمس سنوات من كتاب ويلسون، قام آندريه دوبون سوميه، البروفيسور في علم اللغات السامية والحضارات في جامعة السوربون بنشر بحثٍ سبب ضجّة كبيرة، فقد تناول واحداً من نصوص قمران المترجمة مؤخّراً، وقد وضّح لجمهوره أنّ النصّ يصفُ طائفة الوعد الجديد ذات النمط الخاص، والتي يُدعى قائدها معلم البر، الذي عُدَّ مسيحياً اضطهد وعُذّب واستُشهدَ، وقد آمن أتباع المعلّم بأن نهاية العالم وشيكة الحدوث، ولن يلقى الخلاص إلاّ من يؤمن به فقط، مع أن حذره إلاّ أنّ دوبون سوميه لم يتوان عن الوصول إلى نتيجة واضحةٍ مفادها أنّ معلّم القيم كان بعدّة طرقٍ النموذج المبدئيّ ليسوع المسيح.

أثارت هذه الادعاءات موجة من الخلاف والاحتجاج، فقد تناول الهجوم تفرّد المسيح وأصالته، وبدأت المؤسسات الكاثوليكيّة في فرنسا والولايات المتحدة بإطلاق مدافعها النقديّة، وقد تأثّر دوبون سوميه نفسه بردة الفعل هذه، وبتصريحات لاحقة حاول استخدام عباراتٍ أكثر حذراً، كما كان أيّ شخصٍ ميّالاً لدعمه، أصبح مجبراً على البحث

عن غطاء يحتمي به، ومع ذلك كلّه فإنّ بذرة الشكّ كانت قد زُرعت، ولا بُدّ لها من أن تُثمر في النهاية، ومن وجهة نظر علم اللاهوت المسيحيّ التقليديّ، فإن هذه الثمرة تعدّ سامّةً، وذلك لنموّها في وسط الفريق الدوليّ نفسه، في نطاق قاعة المخطوطات في متحف روكفيلر.

كان جون ماركو آليغرو أحد الباحثين في فريق الأب دو فوكس، وكان معروفاً بأنه أكثرهم ديناميكيّةً وجرأةً، كما كان أكثرهم عفويّةً واستقلالاً وأكثر من قاوم حجب المواد، ولد جون ماركو آليغرو عام 1923م، وخدم في البحرية الملكيّة خلال الحرب، وفي عام 1947م، العام الذي اكتشفت فيه أول مخطوطات البحر الميّت، التحق بجامعة مانشستر لدراسة علم المنطق الروماني والعبري، بعد عامٍ من ذلك انخرط بالدراسات الساميّة، واهتم أيضاً بالدراسات التاريخيّة لأصل اللغات (الفيلولوجيا) وبنيتها وتطوّرها، وبإسقاطه لخبرته اللغويّة على النصوص الإنجيليّة أصبح مقتنعاً بأنّه لا يمكن التسليم بالمخطوط جدلاً، وأعلن نفسه أغنوسياً، أي ممن يقولون إنه ليس هناك من دليل على وجود الله، في عام 1951م حصل على الشهادة الجامعيّة بدرجة الشرف الأولى في مجال الدراسات الشرقيّة، وفي العام التالي حصل على شهادة الماجستير عن أطروحته دراسة لغوية عن بلعام في سفر العدد، في تشرين الأول من العام نفسه تقدم للدكتوراه في جامعة أكسفورد بإشراف الباحث المعروف البرفيسور غودفري درايفر، وبعد عام فقط قام درايفر بتزكية آليغرو، ليكون في الفريق الدوليّ، وبعد ذلك جرى إعطاؤه المواد التي كانت في الكهف الرابع في قمران، وفي أيلول عام 1953م غادر إلى القدس، وكان حتى ذلك الوقت قد نشر أربع مقالات في صحفٍ أكاديميّة ضمن توجّهٍ أكثر إقناعاً من أيّ توجّهٍ اتبعه أيّ من أفراد الفريق.

في عام 1956م نشر آليغرو الكتاب المشهور مخطوطات البحر الميّت، وأتبعه في عام 1968م ببحثه الخاصّ عن النصوص والأجزاء التي وجدت في الكهف الرابع، وذلك في المجلّد الخامس من سلسلة جامعة أكسفورد اكتشافات في الصحراء اليهوديّة، وعند هذا كان آليغرو يعد إحدى الشخصيات ذات التقدير والمكانة العالية في دراسات الكتاب المقدّس، ومع ذلك وخلال سنتين فقط قام بهجر زملائه في الفريق الدوليّ، وأدار ظهره للعالم الأكاديميّ، وتخلّى عن منصبه في جامعة مانشستر، كما جرى تشويه سمعته، ولم يعد يُوثق به، فما الذي حدث؟.

لم يعد خافياً على المجتمع الأكاديميّ عامّةً والفريق الدوليّ خاصّةً أن آليغرو لم يكن أغنوسياً فحسب، بل لم يكن ممكناً منعه من إثارة الأمور، فقد كان يقوم بشرح الأمور كما

كان يراها، غير مُقيّد بأيّ ميل دينيّ شخصيّ، ولم يكن يتمالك نفسه أمام رفض زملائه دعم أيٍّ من نظرياته أو الأدلة التي كان يقدّمها، والتي كانت تناقض توجّه الفريق فيما يخصّ الأصول المسيحيّة، وكان يثور غاضباً، وخصوصاً أمام محاولات فصل المسيحيّة عن مخطوطات المجتمع القمرانيّ، فقد أصرّ على وجود رابط واضحٍ بين الاثنين، واقترح أن هذا الرابط قد يكون أقرب مما ظن أيّ كان حتى الآن، أو تجرّأ على الظن.

أثار آليغرو عاصفته الأولى في عام 1956م، عندما وافق على تقديم سلسلة من ثلاث جلسات حوار عن مخطوطات البحر الميّت، ليجري بثها عبر المذياع في شمال انكلترا في 16، 23، 30 كانون الثاني، وكان واضحاً نيّته في تسريع إيقاع العمل على أبحاث المخطوطات بإدخال عنصر الإثارة والجدل، وقد كتب إلى جون سترغنيل، الذي كان في القدس حينها: أظن أنه يمكننا البحث عن أمر مثير، لم يقدّر آليغرو أن عبارته هذه قد أطلقت أجراس الإنذار في قاعة المخطوطات التي تحت السيطرة الكاثوليكيّة، ومن دون أن يدرك ذلك تابع قائلاً: إن دراستي الأخيرة للأجزاء التي لديّ قد أوصلتني إلى قناعة أن دوبون سوميه على حقّ أكثر مما يعلم هو نفسه، في هذا الوقت كان سترغنيل كما يبدو يترقّب عملاً في الكنيسة، فعلّق آليغرو على ذلك ساخراً: لو كنت مكانك لما قلقت على ذلك العمل اللاهوتيّ، فعندما أنتهي لن يبقى لك كنيسة تنضمّ إليها .

أثارت جلستا البثّ الإذاعي الأولى والثانية القليل من الانتباه في بريطانيا، إلاّ أن الجلسة الثانية، وقد نُشرت في صحيفة نيو يورك تايمز، أثارت اضطراباً كبيراً، خاصّةً أنّ الصحيفة أساءت اقتباس كلامه، أما الجلسة الثالثة التي أذيعت في 30 كانون الثاني، فقد أُردفت بمقالٍ في الخامس من شباط في صحيفة نيو يورك تايمز، أثار اهتياجاً كبيراً، فتحت عنوان إيجاد أُسس مسيحيّة في المخطوطات أعلن المقال:

من الممكن إيجاد أصول بعض الشعائر والتعاليم المسيحيّة في وثائق أكثر الطوائف اليهوديّة تطرّفاً، والتي وجدت قبل مئة عامٍ من مولد يسوع المسيح، هكذا كان تفسير مجموعة مذهلة من مخطوطات البحر الميّت على لسان واحد من الباحثين في الفريق الدولي هو جون آليغرو الذي صرّح مساء أمس في بثّ إذاعيّ بأن الأُسس التاريخيّة للعشاء الربّانيّ، ولجزءٍ على الأقل من الصلاة الإلهية، وتعاليم العهد الجديد كلّها منسوبة إلى القمرانيين.

وقد أشار المقال إلى مشكلة محتملة، عندما اقتبس قول باحث كاثوليكي: إنّ عصا صغيرة تبدو كبيرةً كفاية لتُستخدمَ ضدّ المسيحيّة، حيث يمكن أن تُستخدم لدحض الظن

بتفرّد المسيح، وفي الواقع فإنّ آليغرو قد بدأ يتعدّى الحدود في موضوعٍ حساسٍ فعلاً، ففي السادس من شباط أصدرت صحيفة تايم ماغازين مقالاً عنوانه الصلب قبل المسيح، وبعد يومين من صدور المقال نشرت صحيفة التايمز ما مفاده أن ثلاثة قادةٍ دينيين أمريكيين انضمّوا إلى القوى الهادفة لتكذيب آليغرو، وحذّروا من أي محاولةٍ لوصف الأسينيين بأنهم جذورٌ للمسيحيّة، وعلى نحو مؤكد فقد كان لكلّ هذا الجدال أن يأخذ طريقه إلى دو فوكس مثيراً المطالب بالقيام بأمرٍ ما، إلاّ أنّ آليغرو بدا غير مكترث على نحو ساذج، ففي التاسع من شباط كتب إلى دو فوكس مُدّعياً أنه اتُّهم بقول أكثر الأشياء إثارةً للدهشة، بعضها صحيح ومثيرٌ للدهشة فعلاً، أمّا بعضها الآخر فإنه من تأليف بعض المراسلين التواقين .

وبإعادة النظر في الأمر يبدو جليّاً أنّ آليغرو لم يدرك تماماً درجةَ قُدسية فكرة تفرّد المسيح، ولم يكن قادراً في النتيجة على أن يفهم إلى أيّ مدى يمكن دو فوكس والأعضاء الآخرين في الفريق الدوليّ أن يصلّوا، كي يُبعدوا أنفسهم عن توجهه الفظّ، هذا كان خطؤه الوحيد حتى الآن، حيث إنه كان يتوقع أن يتقبّل زملاؤه ادعاءاته وتأكيداته من دون أن يسمحوا لولاءاتهم الدينيّة أن تؤثر في حكمهم، وفي رأيه الخاصّ، كان يُعامل مادّته بحياديّة، وكان يأمل أن يحذو الآخرون حذوه، أمّا ملاحظته الهازئة والبريئة أنه في الوقت الذي سينتهي هو فيه، لن يكون هنالك كنيسةٌ لسترغنيل لينضمّ إليها، فإنها تفسر باقتناعه بأهمية المادة التي يعمل عليها وحصريتها وإثارته من هذا الاكتشاف.

في الحادي عشر من شباط كتب دو فوكس رداً إلى آليغرو يقول فيه إن المواد التي يملكها آلغيرو هي بحوزة باقي أعضاء الفريق في القدس، إلاّ أن أيّاً منهم لم يستطع أن يجد ما يدعم تفسيرات آليغرو .

في ردّه المُرسَل في العشرين من شباط حاول آليغرو أن يدافع عن آرائه، وأن يصلح في الوقت نفسه الشرخ الذي تشكّل بينه وبين زملائه، وأن يهدّئ الجدل العامّ، قال: ستعذرني عندما أظن أن الجميع في هذا العالم قد جُن جنونه، إني أختم حواري الإذاعي كما طلبت، وفي حال،وبعد أن تنتهي من قراءتها، بقيت مستغرباً من كلّ هذه الجلبة، عندها ستشعر تماماً بما أشعر به، وأضاف معلّقاً على أن سترغنيل وميليك يحضّران لدفاعٍ ضدّ ما صرّح به: لست أحضّر لأيّ حرب ضدّ الكنيسة، وحتى لو كنت أقوم بذلك فلك أن تتأكد من أني لن أترك أي ثغرة ضدي، إني أتمسك بكلّ ما صرّحت به في حواراتي الإذاعية الثلاثة، لكني أتقبل فكرة وجود تفسيرات أخرى لقراءاتي.

في الرابع من آذار كتب دو فوكس إلى آليغرو محذراً إياه من أن البيّنة الدفاعية كانت تُحضّر فعلاً، وأنّها لن تكون فقط من سترغنيل وميليك على أيّ حال، ولن تُحصَر بصحيفة بحث واحدة، بل على العكس ستبعث على صيغة رسالة إلى صحيفة التايمز في لندن ممهورة بتوقيع كل أعضاء الفريق الدولي.

لكن بدلاً من أن يخاف آليغرو زاد ذلك تحدّيه، وكان ردّه أنّ رسالةً إلى التايمز سوف تكون من الإثارة لعامّة لندن الذين لم يسمعوا قط بحواراتي الإذاعيّة، وقال:

لقد سبق أن أوضحت لكم أنّ خطاباتي الإذاعية قد بُثّت في المحطّة الشمالية المحليّة فقط، وما تقوم به أنت وأصدقاؤك الآن سوف يلفت انتباه الصحافة الصفراء في هذه البلاد إلى هذه النصوص التي لم يسبق لهم ولا للأكثرية من قرّائهم أن سمعوا بها، وعندها سيبدؤون بملاحقتها، إني أهنّئكم فعلاً، الآن وحيث إنّ الصحافة أحسّت بوجود بعض المتاعب فلا بُدّ من أنهم سيتهافتون عليّ، يريدون معرفة كل تفاصيل الموضوع، وعندها سيصبّون الوقود على ما يبدو ظاهرياً خلافاً بين كهنة فريق المخطوطات وأحد الأعضاء المنفصلين عنه .

وقد مضى في استثارته لإدموند ويلسون مشيراً إلى القلق الذي سيعتري فريق دو فوكس بسبب الاتهامات التي أطلقها ويلسون عنهم، في النتيجة كان يحاول أن يستخدم ويلسون رادعاً، قال: «مع الأخذ في المسميات ما سبق أن صرّح به ويلسون عن عدم رغبة الكنيسة في التعامل مع هذه النصوص منطقياً، فبإمكانك أن تتصور مقدار الجلبة التي ستحدث تبعاً لذلك، ومع كلّ الاحترام فلا بُدّ لي من أشير إلى أن ما تعدوه هراءً من ويلسون يعامل جدّياً هنا، وفي كلّ محاضرة ألقيها هنا عن المخطوطات تصادفني الأسئلة القديمة ذاتها: هل من الصحيح أنّ الكنيسة خائفة؟، هل لنا أن نتأكّد من أن كُلّ شيء سيُنشر؟، قد يبدو هذا أمراً سخيفاً لك ولي، لكنّه شكٌ بالغ الأهمية، يعتري عقول هؤلاء القوم، ولا بدّ لي من أن أُشير إلى مقدار التأثير الذي سيكون لتواقيع الكهنة الرومان الثلاثة في أسفل هذه الورقة».

إلى هذا القدر بدا واضحاً أنّ آليغرو بدأ يشعر بالتوتر، وفي السادس من آذار كتب إلى عضوٍ آخر من أعضاء الفريق الدولي، هو فرانك كروس، الذي كان قد حظي بموعدٍ في جامعة هارفارد: إني سعيد جداً لأمر هارفارد، ليس فقط لأن هذا العمل المسيحي يأخذ مكانه، إلاّ أنّه في رسالته ذاتها اعترف بأنّ هذا الوابل من النقد كان قد بدأ يضعفه، وأنّه بدأ يشعر بالوهن الشديد جسدياً وفكرياً، على نحو مؤكد لم يكن لديه الرغبة في أن

يرى نشر الرسالة التي تعني عزله علناً عن باقي أفراد الفريق، وهو ما كان يعني عدم الثقة فيه على نحو كامل.

لم يكن هنالك مجالٌ للتراجع بعد الآن، ففي السادس عشر من آذار عام 1956م ظهرت الرسالة في موعدها في التايمز، تحمل توقيع سترغنيل والأب دو فوكس وميليك وسكيهان وستاركي، وفيها:

ليس هنالك بحوزة السيد آليغرو أيّ نصّ لم ينشره الفريق، كلّ ما يملكه هو نسخة لما لدينا في متحف القدس، حيث نعمل، وبناءً على ما نُشر من مقتطفات من حديث السيد آليغرو الإذاعيّ في الصحافة، لم نستطع أن نرى في هذه النصوص أيّاً مما وجده السيد آليغرو .

لم نستطع أن نجد أيّ صلبٍ للمعلّم ولا بقايا لأيّ صليب، أو أيّ جثمانٍ لقائدهم، يبقى محفوظاً حتى يوم الحساب، وبناءً على ذلك ليس هناك أي قالب أسينيٍّ قد يحتوي على مسيح الناصرة، كما زعم السيد آليغرو أن يكون في أحد مقالاته، إننا نظن أنه إمّا قد أخطأ في قراءة النصّ أو أنه بنى زعمه على سلسلةٍ من الظنون، لا تدعمها المواد أبداً.

إن نشر هذا النوع من الاتهامات، خاصّةً في صحيفة التايمز هو سلوك جدير بالملاحظة، فهو يظهر بوضوح إجماعاً ضمنياً لمجموعة من الأكاديميين المتحدين ضدّ واحد من أعضاء فريقهم، وقد ردّ آليغرو، مجبراً على أن يأخذ وضع الدفاع، برسالةٍ لصحيفة التايمز يشرح فيها يفسر موقفه:

نجد في لغة العهد الجديد الكثير من حالات التشابه مع أدب مواد قمران، حيث إن هذه الطائفة أيضاً كانت تنتظر مجيء مسيح من سلالة الملك داوود، سيقوم مع الكاهن في الأيام الأخيرة، وفي هذا السياق وجدنا أن يسوع المسيح لا يختلف عن القالب المسيحيّ، ليس القالب الأسينيّ، كما اقتُبست خطأً، وليس هنالك ما هو جديد أو غريب في هذه الفكرة .

لقد كان منطقيّاً تماماً أن يقوم آليغرو بتقديم تصحيحٍ لما أُسيء اقتباسه منه، وهذا يدلّ على سعي زملائه لتوجيه النقد اللاذع له، ولإيجاد مسوغات لهم لتجريده من الثقة، وأضاف آليغرو : صحيحٌ أن المواد غير المنشورة والتي هي بحوزتي جعلتني أكثر رغبة في أن أعد مقترحات بعض الباحثين السابقين غير كافية .

وقد استمر هذا السجال ومشاعر البغض حتى الثامن من آذار عام 1957م عندما كتب آليغرو لسترغنيل غاضباً:

يبدو أنك لم تدرك بعد نتائج كتابتك لتلك الرسالة إلى الصحيفة لتشويه كلمات زميلٍ لك، إنه أمرٌ غير مسبوق، وحالة لم تحدث بين الباحثين من قبل، أن يطعن أحدهم الآخر في ظهره، فيا غلام، لا تقم باتهامي بتعظيم الموضوع، لقد كنت هنا في انكلترا، وتحدّث إلي مراسل رويترز بكلّ لباقة قائلاً: ظننت أنكم أيها الباحثون تبقون متحدين!، وعندما جرى إدراك أنك تقوم باقتباس ما لم أقله، عندها فقط كانت النتيجة واضحة، هذه الرسالة لم تكن ضمن اهتمامات البحث العلمي قط، بل كانت فقط لتهدئة مخاوف الروم الكاثوليك في أمريكا، وكل ما خلص إليه الأمر أنكم لم توافقوا على تأويلي لبعض النصوص مع إمكان أن أكون محقاً بقدركم، وبدلاً من مناقشة الموضوع في الصحف والأبحاث، فقد ظننتم أنه من السهل أن تؤثّروا في الرأي العام برسالة تشهيريّةٍ إلى الصحف، ولديك الجرأة على أن تدعوها بحثاً علمياً، يا غلامي العزيز، أنت يافع جداً وأمامك الكثير لتتعلمه .

وكما سبق أن أشرنا، فإن آليغرو كان أول عضو من الفريق الدولي يقوم بنشر كل المواد المعهودة إليه، ومازال الوحيد الذي قام بذلك، بالمقابل، وبالتوافق مع سياسة التمهّل التي يتّبعها الفريق، لم ينشر جون سترغنيل أياً من المواد الأساسيّة التي بحوزته فعليّاً، إن العمل الوحيد الذي تعامل معه كان عنوانه: ملاحظات على الهامش، وقد تضمّن 113 صفحة من النقد الموجّه لآليغرو .

وفي هذه الأثناء كان الأذى المتوقع من الرسالة قد تحقق، فالرسالة التي أُرسلت إلى صحيفة التايمز، والموقّعة من دو فوكس وثلاثة كهنة آخرين، أطلقت العنان لآلة الدعاية الكاثوليكيّة، حيث جرى التكثيف من ذم سمعة المعنيين وتشويهها، في حزيران عام 1956م مثلاً، نشر معلّق يسوعيّ في صحيفة آيرش دايجست مقالاً عنوانه حقيقة مخطوطات البحر الميّت، حيث هاجم كلاً من ويلسون ودوبون سوميه وآليغرو خصوصاً، وتابع بعد ذلك ليصرّح بأن المخطوطات تضيف على نحو مفاجئ القليل إلى معلوماتنا عن التعاليم الموجودة حالياً بين اليهود منذ نحو 200عام قبل الميلاد حتى العهد المسيحي، وختم بطريقة محرّضة إيجابيّاً: لم تكن هذه الطائفة حيث تعلّم يسوع أن يصبح مسيحاً، بل من أرضٍ كهذه أنبتت الأشواك التي حاولت خنق بذرة الإنجيل، ومن هنا لم يعد آليغرو يعدُ باحثاً فقط قد أخطأ، بل أصبح مناهضاً فعلياً ليسوع المسيح.

وبينما استمر هذا الجدال فيه مُستعراً، كان آليغرو قد انخرط في جدل آخر، وأساس هذا الخلاف الجديد كان ما يُدعى المخطوط النحاسي، وهو الذي وُجد في

الكهف الثالث في قمران عام 1952م، وكما سبق أن أشرنا، فإن المخطوط النحاسي كان مؤلفاً من جزأين، بقيا مغلقين ثلاث سنوات ونصفاً، وقد كثرت الظنون في مضمونهما، ولما حاول أحد الباحثين أن يقرأ أوائل الأسطر الظاهرة عبر النحاس على الأطراف الخارجية للمخطوطة بدا له أنها تخبر شيئاً عن كنز، فأثار مقترحه هذا سخرية الفريق الدولي مع ثبات صحّته بعد ذلك .

في عام 1955م، وقبل عام من نزاعه العلني ضد زملائه في الفريق الدولي، ناقش آليغرو مشكلة المخطوط النحاسي مع البروفيسور إتش رايت بيكر من جامعة مانشستر للتكنولوجيا، ابتكر رايت بيكر آلةً تستطيع أن تقطع النحاس الرفيع إلى شرائح، وبذلك تجعل النصوص مقروءةً على نحو واضح، وبناءً على ذلك جرى إرسال الجزء الأول إلى مانشستر برعاية آليغرو في صيف عام 1955م، وحيث قامت آلة رايت بيكر بمهمتها، باشر آليغرو بترجمة ما جرى استخراجه، وقد كانت محتويات الجزء الأوّل مميّزة جداً، حتى إنه أبقى على كلّ شيء لنفسه فقط، ولم يبح بما وجده لأحد، حتى كروس وسترغنيل، اللذان كتبا له يطالبان بتفاصيل، لم يكن لتكتمه علاقة بعلاقته بهما، بل كان آليغرو في الواقع ينتظر الجزء الثاني من المخطوطة، كي يصل إلى مانشستر، فقد شعر بأن أي إفصاحٍ جزئيّ وغير مكتمل قد يعرّض كلّ شيء للخطر، فمضمون المخطوط النحاسي كان قائمة بالمواقع السريّة، حيث يُزعم أن كنز معبد القدس قد دُفن.

في كانون الثاني عام 1956م وصل الجزء الثاني من المخطوطة إلى مانشستر، وبسرعة جرى تقطيعها وترجمتها، ومن ثمّ جرت إعادة كلا الجزأين مع ترجمتهما إلى القدس، وعندها فقط بدأ التأخير الفعلي، فقد كان دو فوكس والفريق الدولي قلقين من ثلاثة أمور.

الأمر المقلق الأوّل كان مشروعاً، ففي حال نُشر محتوى المخطوطة على العلن، وبدأت قصصٌ عن الكنز المدفون بالانتشار، فسيبدأ البدو عندها بحفر الصحراء اليهودية كلّها، وأكثر ما سيجده البدو قد يختفي للأبد، أو يفلت من أيدي الباحثين، لينتهي في السوق السوداء، وفي الواقع فإن أمراً مشابهاً كان يحدث، فعند الاستعلام عن موقع ما، كان البدو ينصبون خيمة سوداء كبيرة فوقه، ويبدؤون بسلب ما يجدونه، ليبيعوا غنائمهم لتجار الأنتيكات.

كما كان دو فوكس والفريق الدولي قلقين من أن يكون الكنز المذكور في المخطوط النحاسي كنزاً حقيقياً، وليس وهمياً، ففي حال كان فعلاً كنزاً حقيقياً، فسوف يلفت

انتباه الحكومة الإسرائيلية التي كثيراً ما ستستولي عليه، وهذا لن يعني فقط انتقالها من عهدة الفريق الدولي فحسب، بل إن ذلك سيشعل فتيل أزمة سياسية، فحتى لو كانت المزاعم الإسرائيلية صحيحة، فإن قسماً كبيراً من الكنز، بحسب تحديد المخطوطة لموقعه، يقع ضمن الأراضي الأردنية.

علاوة على ذلك، في حال كان الكنز حقيقياً فإن هنالك أُسساً لاهوتية، يجب أن تُؤخَذ في الحسبان، فالفريق الدولي بقيادة دو فوكس كان عازماً على تصوير المجتمع القمراني بأنه مجتمعٌ منعزل، ليس له أيّ صلة بالأحداث العامّة أو التطورات السياسية، أو التوجّه العامّ للقرن الأوّل الميلادي، وفي حال كان المخطوط النحاسي يشير فعلاً إلى المكان الذي تتوضع فيه المحتويات الفعلية للمعبد، عندها لن تبقى قمران محافظةً على صورتها، وعلى العكس من ذلك، فإن الروابط التي تجمع قمران والمعبد ستظهر بوضوح، وهذا ما تقوم عليه الشؤون اليهودية، ولن تبقى قمران ظاهرةً معزولةً، بل ستصبح ملحقاً تابعاً لموضوع أكبر، قد ينتهك على نحو خطير الأصول المسيحيّة.

أمّا المشكلة الأكبر، فإنه في حال أشار المخطوط النحاسي إلى كنز حقيقيّ، فسوف يكون كنزاً جرى نقله من المعبد في ثورة عام 66 بعد الميلاد، وهذا سيزعزع الترتيب الزمني والتأريخ الذي وضعه الفريق الدولي لكامل المخطوطات.

كل هذه العوامل مجتمعةً تطلّبت غطاءً ما، وقد كان آليغرو في البداية مشاركاً في المؤامرة، مفترضاً أن التأجيل في إطلاق معلومات المخطوط النحاسي سيكون مؤقتاً، وفي النتيجة وافق على أن لا يذكر شيئاً عن المخطوطة في الكتاب الذي كان يحضّر له، فمقدمته العامّة عن مواد قمران كان قد تقرر نشرها من دار بينغوين في أواخر عام 1956م، وفي هذه الأثناء كان قد تقرر أن يحضّر الأب ميليك ترجمةً محدّدةً للمخطوط النحاسي، ثم يُتبعها آليغرو بكتاب عامّ آخر موجّه إلى عامّة الناس.

عندما وافق آليغرو على التأجيل المؤقّت لإطلاق معلومات المخطوط النحاسي لم يكن يتوقّع أن يمتدّ التأجيل إلى أجلٍ غير محدّد، ولم يتوقّع أيضاً أن يُثبط الفريق الدولي أهميّة المخطوطة بإنكار وجود الكنز المذكور فيه، وعده خيالياً، حتى عندما بدأ ميليك بهذا الأمر لم يتوقّع آليغرو أيّ نوعٍ من المؤامرة، بتاريخ 23 نيسان عام 1956م، وفي رسالة لزميلٍ له عبّر آليغرو عن نفاد صبره، لكنّه حافظ على حماسته وتفاؤله، وأشار إلى ميليك بلا مبالاة:

وحدها السماء تعرف متى سيقوم أصدقاؤنا في القدس بإطلاق الخبر عن المخطوط النحاسي، فهي مخطوطة مذهلة، وهذا ما يؤمن به ميليك أيضاً، إلاّ أنّه شخص

أحمق، هل لك أن تتخيل الألم الذي أشعر به، حيث يجب علي أن أنشر كتابي من دون أن أكون قادراً على ذكر كلمة عن المخطوطة فيه.

بعد مضي شهر كتب آليغرو رسالة إلى جيرالد لانكستر هاردينغ، وهو المسؤول عن مديرية الآثار الأردنية وزميل دو فوكس، وذلك لأن آليغرو أحس بشيء ما يحاك في الخفاء ربما، فحاول الالتفاف على دو فوكس، ليحتكم إلى سلطة بديلة غير كاثوليكية، وقد أشار آليغرو في رسالته إلى أنه فور نشر بيان صحفي عن المخطوط النحاسي فإن الصحفيين سيحتشدون، وينبغي لهاردينغ والفريق الدولي وأي شخص مرتبط بالموضوع تبني منهج موحّد للتعامل مع الإعلام، وفي الثامن والعشرين من أيار، كتب هاردينغ يرد على آليغرو، بعد أن حذّره دو فوكس، وأطلعه على تفاصيل الموضوع، يقول: إن الكنز المذكور في المخطوط النحاسي لم يُظهر أي ارتباط بمجتمع قمران قطّ، وإن قمران لم تكن لتصلح مخبأً حقيقياً، حيث إن قيمة المواد المذكورة عظيمة جداً، وإن المخطوط النحاسي كان مجموعة منتقاة من أساطير الكنوز المخبأة، وبعد أربعة أيام أي في الأول من حزيران، جرى إطلاق البيان الصحفي الرسمي المتعلّق بالمخطوط النحاسي، وكان البيان مماثلاً لتأكيدات هاردينغ، إذ جرى عدّ المخطوط يحتوي على مجموعة من الأعراف عن كنوز مدفونة .

يبدو أن آليغرو صُدم لهذا الخداع، فكتب في الخامس من حزيران إلى هاردينغ يقول: أنا لا أفهم تماماً إن كانت نكتة الأعراف الفظيعة هذه التي خرجت بها أنت وأصدقاؤك هي للصحف أم للحكومة أم للبدو لأصدقها أنا، أو أنك أنت، باركك الله، تصدقها أيضاً، لكنه في الوقت نفسه كان لا يزال يناشد هاردينغ كحليف ممكن ضد عصبة المصالح الكاثوليكية، فقد سأله: ألا تظن أن إعطاء معلومات واضحة أكثر قليلاً عن مسألة المخطوطات قد تكون فكرة جيدة؟، إنه لمن المعروف تماماً اليوم أن المخطوط النحاسي كان قد فتح كاملاً في شهر كانون الثاني، ومع محاولاتك تحطيمه فإنه من المعروف أن ترجمتي ذهبت إليك مباشرةً، إن معلومات عامة قليلاً قد توفر الكثير من تداول الشائعات، ويضيف أنه سيسري شعور بأن الروم الكاثوليك من الفريق كانوا يحاولون إخفاء الأمور، وقد شدد آليغرو على الفكرة نفسها في رسالة إلى فرانك كروس في شهر آب، إذ قال: يظن الناس بشدة أن دو فوكس الذي ينتمي إلى الكنيسة الرومانية ورفاقه مصممون على إخفاء هذه المادة، كما كتب إلى دو فوكس شخصياً بسخرية: لاحظت أنك كنت حريصاً على إبقاء التعتيم على أن الكنز هو من ممتلكات المعبد .

كان آليغرو يظن أصلاً أنه سيجري نشر ترجمة كاملة لنص المخطوط النحاسي بسرعة مقبولة، لكن لا بد من أنه بدا واضحاً له الآن أن ذلك لن يحدث، والحقيقة مرت أربعة أعوام قبل أن تظهر ترجمة للنص، وقد نشرها في ذلك الوقت آليغرو نفسه بعد أن نفد صبره من الفريق الدولي، لكنه كان يفضل نشر كتابه المشهور بعد الترجمة الرسمية، التي كان مفترضاً أن ينفذها الأب ميليك، وقد دُفع ليظن أن ذلك ممكن، لكن فجأة وعلى غير المتوقع خضعت ترجمة ميليك للمزيد من المماطلة التي كانت على الأرجح متعمدة، وعليه طُلب إلى آليغرو أن يؤجل نشره هو الآخر، في الحقيقة عند مرحلة ما يبدو هذا المطلب الذي جرى إيصاله عبر وسيط أنه ترافق أيضاً مع شيء من التهديد من عضو من الفريق الدولي، لا يمكننا ذكر اسمه لأسباب قانونية، رد آليغرو بأنه جرى نقل المطلب إليّ مترافقاً مع تعبير مشاعر غريبة نوعاً ما، نابعة، كما قيل، منك ومن أولئك الذين كنت تعمل لحسابهم، لقد بدا أن هناك أيضاً بعض التنبؤ بالعواقب في حال لم أذعن لهذا المطلب، رد متلقي هذه الرسالة بلطف على آليغرو بأن على آلغيرو ألا يتخيل نفسه ضحية الاضطهاد، وهكذا عندما مضى آليغرو بنشره الخاص وجد نفسه في وضع حرج، إذ بدا أنه استبق عمل أحد زملائه، في الحقيقة لقد جرى التلاعب به لكي يزود الفريق بالمزيد من الذخيرة، ليستخدموها ضده، وطبعاً لكي يقصوه أبعد عنهم، في الواقع لم تظهر ترجمة ميليك حتى عام 1962م، وذلك بعد عامين من ظهور ترجمة آليغرو، وبعد ستة أعوام من فتح المخطوط النحاسي في مانشستر وعشرة أعوام منذ اكتشافه.

وفي هذه الأثناء في أواخر عام 1956م ظهر كتاب آليغرو مخطوطات البحر الميت، الكتاب الذي مُنعَ من احتواء أي معلومات عن المخطوط النحاسي، وذلك بعد خمسة أشهر من الجدل الذي أحاط بجلسات البث الإذاعي التي قام بها في بريطانيا، وقد رأى آليغرو أن هذا الجدل، وخاصّة الرسالة التي بعث بها الفريق إلى صحيفة التايمز، قد ساعد على نجاح الكتاب، فقد بيعت الطبعة الأولى من 4آلاف نسخة خلال سبعة عشر يوماً فقط، كما قام إدموند ويلسون بالتعقيب على الكتاب بحماسة عبر أذاعة بي بي سي، ومازال كتاب مخطوطات البحر الميت في الطبعة التاسعة عشرة من نسخته الثانية إحدى أفضل المقدمات التي كُتبت عن مواد قمران.

أمّا دو فوكس فلم يرَ الأمر من هذا الجانب، ووجه إلى آليغرو نقداً مطوّلاً، في السادس عشر من أيلول عام 1956م، بيّن آليغرو في ردّه على نقد دو فوكس أنه ليس باستطاعتك أن تعامل المسيحيّة بمنطقية بعد الآن، وهو أمر محزن، إلاّ أنه مُتفهّم في ظلّ

هذه الأحوال، وقد أشار في الرسالة ذاتها إلى نصّ من المخطوطات يشير إلى ابن الله، قال: إنكم تتابعون التحدث بحماسة عما ظنه المسيحيون واليهود الأوائل في القدس، من دون أن يخطر لأحدٍ أن الدليل الوحيد الذي تملكونه هو العهد الجديد، إن كان يمكننا أن ندعوه دليلاً، فهو ليس إلا مجموعة من التقاليد المكتوبة على نحو جديد، والتي لا يمكنها أن تصمد في قاعة المحكمة أكثر من دقيقتين، أمّا يسوع فهو ابن الله و المسيح، وأنا لا أشكك بذلك أبداً، فنحن الآن نعلم من مواد قمران أن مسيحهم الداوودي كان أيضاً يعد ابن الله أو نجيب الله، إلاّ أنّ ذلك لا يثبت مزاعم الكنيسة أن يسوع هو الله ذاته، ليس هنالك أي تناقض في المعنى، بل إن التناقض في التأويل والتفسير.

بعد كلّ ما حدث كان من السذاجة أن يظن آليغرو بأن زملاءه السابقين سيقبلونه عضواً في الفريق مرّة أخرى، ومع ذلك، فهذا ما حصل تماماً، ففي صيف عام **1957**م عاد آليغرو إلى القدس، وأمضى هنالك تموز وآب وأيلول، يعمل على مواده في قاعة المخطوطات، وتدلّ رسائله في تلك الفترة على أنه فعلاً كان يشعر بنفسه قد عاد جزءاً من الفريق ثانيةً، كما لم يكن لديه شك في أن كلّ شيء يسير على مايرام.

في الخريف سافر آليغرو عائداً إلى لندن، حيث اتفق مع محطة بي بي سي على تحضير برنامج تلفزيوني عن المخطوطات، في شهر تشرين الأول عاد إلى القدس مع منتج وملاك للفيلم، وقد توجهوا مباشرةً لمقابلة أحد أصدقاء آليغرو المقرّبين، وهو عوني الدجاني الأردني الجنسية والقيّم على متحف روكفيلر، وفي اليوم التالي أخذهم الدجاني في جولة لمباشرة الموضوع مع دو فوكس، بتاريخ **31** تشرين الأول وصف آليغرو الأحداث المتتابعة في رسالة إلى فرانك كروس، الذي كان لايزال يعده حليفاً له، قال:

لقد اجتمعنا، وقمنا بشرح ما كنا نرغب في فعله، لنُقابل برفضٍ تامّ من دو فوكس أن يتعاون معنا بأي طريقة ممكنة، وقد دُهشنا لردّه هذا، ومن ثمّ حاول الدجاني والمنتج أن يكتشفا سبب هذا الرفض، لقد كان هذا بمنزلة ضربة لي، وذلك لأني، بحسب ما أذكر، قد تركت زملائي الأعزاء على أفضل حال، على الأقل لم يحدث أي سوء من طرفي، لكن دو فوكس يقول إنه قد دعا إلى اجتماع للباحثين في فريقه، حيث أجمعوا على أنه لا يكون لهم أي صلة بأي شيء أقوم به، وهنا تدخّل المنتج وشرح لدو فوكس بكلمات واضحة أننا سنتجنّب في البرنامج أي مسائل جدلية في الجانب الدينيّ، إلاّ أنّ دو فوكس كان عنيداً في هذا الخصوص، وقال إنه قد لا يتمكّن من منعنا من التقاط الصور في دير قمران، إلا إنه لن يسمح لنا بذلك في قاعة المخطوطات أو في المتحف على نحو عامّ.

على أي حال بدأ عوني الدجاني يشعر بالانزعاج، ويبدو أنه رأى في البرنامج دعماً مؤكّداً للآثار والسياحة في الأردن، وأعلن استعداده لفرض سلطته، فهو مع كلّ شيء كان ممثلاً رسمياً للحكومة الأردنية التي لم يكن لدو فوكس أن يتحداها.

وحالما تبيّن لزملائي الأعزاء أن البرنامج كان سيمضي قدماً حتى من دون موافقتهم، قاموا بكشف أوراقهم والتحدث بصراحة، فلم يكن البرنامج ما اعترضوا عليه، بل كان وجود آليغرو فيه، وقدموا بعد ذلك إلى الفندق، حيث نزلنا، وقدّموا عرضاً للمنتج بأنهم سيتعاونون معه على نحو كامل في حال استغنى عن آليغرو، واتّخذ سترغنيل أو ميليك كاتباً لنص الفيلم، وفي أحد الأيام، وبعد أن عدنا من جولة مُتعبة في قمران، اتصل عوني ليخبرنا أنه تلقّى رسالة مجهولة المصدر، يُعرض عليه فيها مبلغ 150جنيهاً استرلينياً مقابل أن يمنعنا من الذهاب إلى عمّان والتصوير في المتحف هناك.

وفي الرسالة ذاتها حاول آليغرو أن يقنع كروس بأن يظهر في البرنامج، إلا أن كروس رفض، بعد أن تشاور مع دو فوكس، وفي هذه الأثناء تبيّنت الأمور لآليغرو، وأدرك تماماً موقفه مع زملائه السابقين، وفي اليوم ذاته الذي كتب فيه لكروس كتب أيضاً لباحث آخر، كان يُسمح له بالعمل على المخطوطات، مع أنه لم يكن عضواً رسمياً في الفريق الدولي، وقام آليغرو بإعادة سرد الموقف الذي وجد نفسه فيه، وأضاف أنه سيبدأ حملةً يحاول فيها كسر رابط عصبة الباحثين وإيجاد توجّه جديد، إضافةً إلى فكرة الحصول على بعض المواد التي بحوزة ميليك وسترغنيل وستاركي، لتُنشر بسرعة مؤقّتاً، وبعد شهرين من ذلك، في 24 كانون الأول عام 1957م، كتب للشخص ذاته يبيّن أنه قلقٌ، قال:

من الطريقة التي يُخطط فيها لنشر الأجزاء، فأعضاء الفريق من غير الكاثوليك يُبعدون بالسرعة المستطاعة، في الواقع أظن أن ميليك وستاركي وسترغنيل يجب أن يُبعدوا مباشرةً، وذلك بسبب تمويههم للكثير من مواد الكهف الرابع، ويجري إحضار باحثين جدد بدلاً منهم، ليقوموا بكشف فحوى المواد بسرعة.

إن هنالك وضعاً خطيراً، ينتشر بسرعة، حيث تُهمَل الفكرة الأصلية عن وجود فريق تحرير عالمي وشامل لكلّ الطوائف، كلّ الأجزاء كانت تحضر أولاً إلى دو فوكس وميليك، حيث تغلف فحوى هذه الأجزاء بالسرية، كما كان حال مواد الكهف الحادي عشر، حتى بعد فترة طويلة من دراستها من المجموعة.

كان هذا التقرير مصدراً للقلق، فالباحثون خارج الفريق الدولي كان لديهم شكوك في وجود نمط من المراقبة والانتقاء، وهنا أكّد آليغرو هذه الشكوك، ويمكن أيّاً كان أن يتساءل: ما الذي يمكن أن يحدث لأي جزء يحتوي بداخله على تعاليم تناقض تعاليم الكنيسة.

ومن ثمّ وضّح آليغرو مخططه الخاصّ الذي تضمّن في جزء منه دعوة الباحثين الذين يمكنهم توفير ستة أشهر إلى عام، على الأقل، ليأتوا إلى القدس، ويتخذوا أماكنهم في الفريق، قال:

أظن أنه يجب وضع قانون، يفرض نشراً أولياً مباشراً لأي وثيقة، مادام ذلك ممكناً، كما يجب أن توضع هذه المنشورات في صحيفة واحدة على نحو متتابع، فالامتناع عن نشر الأجزاء التي يُعثر عليها فقط من أجل تجنّب المساس بعذرية الطبعة الأخيرة يبدو لي أمراً غير أكاديميّ، وذلك إضافة إلى إبقاء الباحثين التنافسيين بعيداً عن هذه الأجزاء، ربما كان هنالك سبب وجيه في المرحلة الأولى من جمع الأجزاء، لكن الآن، وحيث جرى إنجاز معظم العمل، فإن أياً كان يستطيع العمل على هذه الوثائق، ونشر ذلك بصيغة مؤقتةٍ على الأقلّ.

قد لا يتعاطف المرء مع آليغرو مباشرة، حيث تظهر شخصيّته خلال رسائله، كأنه شخص متعالٍ وجريء ومهاجم للمعتقدات الدينيّة، لكن لا يسعنا سوى التعاطف مع استقامته الأكاديمية، لربما كان آليغرو مغروراً بإيمانه بأن تفسيراته لمواد قمران كانت صحيحة ومهمة، إلاّ أنّ العبارات المقتبسة آنفاً تشكّل مناشدة باسم البحث العلمي ذاته، طلبٌ للانفتاح والنزاهة والقدرة على الوصول والنزاهة، وخلافاً لدو فوكس والفريق الدولي فإن آليغرو لا يظهر أي نزعة إلى السر أو التعظيم الذاتيّ، وفي حال كان متآمراً فإنه يتآمر بغية جعل مخطوطات البحر الميّت متوافرة للعالم كلّه، وبسرعة لا يخون معها الثقة المعهودة إليه في البحث الأكاديمي، ولا يمكننا إلا أن نرى في ذلك أمراً شريفاً وكريماً.

على أي حال فإن نزاهة آليغرو واستقامته لم تكافأ أو حتى تُلاحظ، فالفيلم الذي اكتمل في نهاية عام **1957**م لم يُعرض لدى بي بي سي حتى صيف عام **1959**م، وضمن عرضٍ وحيد في آخر الليل يستقطب جمهوراً صغيراً جداً، وبذلك بدأ آليغرو بالتعبير عن غضبه، وهو ما كان أمراً مفهوماً حينها، في **10** كانون الأول عام **1959**م، وبعد سلسلة طويلة من التأجيلات كتب آليغرو إلى عوني الدجاني:

حسناً، لقد قاموا بالتأجيل مرة أخرى، في المرة الخامسة قامت بي بي سي بتأجيل عرض البرنامج التلفزيوني عن المخطوطات، ليس هناك مجال للشك الآن في أن أصدقاء دو فوكس في لندن استخدموا تأثيرهم لإيقاف البرنامج، كما كان يتمنى، لن يكون هناك شيء يوقف دو فوكس عن محاولته السيطرة على مواد قمران، لا بد بأي طريقة من أن يُعزل دو فوكس من منصبه الحالي، إنني على ثقة في أنه في حال حدوث أي شيء يؤثر في عقيدة الروم الكاثوليك، فإن العالم لن يُلاحظ ذلك، سيقوم دو فوكس بأخذ المال كله وإرسال المواد إلى الفاتيكان، ليجرى إخفاؤها أو التخلص منها.

في عام 1961م قام الملك حسين بتعيين آليغرو مستشاراً فخرياً للحكومة الأردنية فيما يتعلق بالمخطوطات، على أي حال فإن هذا المنصب لم يعطه أي سلطات فعلية مع اعتباراته، حيث لم تتحرك الحكومة الأردنية لتطبق مقترح آليغرو في تأميم متحف روكفيلر، إلاّ بعد خمس سنوات، وذلك في تشرين الثاني عام 1966م، إلاّ أن ذلك جاء متأخراً، فخلال العام ذاته كانت حرب الأيام الستة على وشك الانطلاق، حيث انتقل المتحف وقاعة المخطوطات وكل محتوياتها إلى أيدي إسرائيل، وفي ذلك الوقت كانت إسرائيل ،كما لاحظنا، في حاجة ماسة إلى الدعم الدولي، لتخاطر بمواجهة الفاتيكان والهرمية الكاثوليكية، فقبل أربع سنوات فقط قام البابا جون الثالث والعشرون بتبرئة اليهود رسمياً وعقائديّاً من أي مسؤولية عن موت يسوع المسيح، وأزال كل الآثار التي تشير إلى معاداة الساميّة من قانون عقيدة الروم الكاثوليك، ولم يرغب أحد في رؤية هذا العمل الاسترضائي يتهدم.

وبحلول ذلك الوقت أيضاً كان آليغرو قلقاً ومحبطاً من وضع البحث الاحترافيّ، وقد كان متحمساً لبعض الوقت، لأن يترك المجال الأكاديمي، وأن يُبقي نفسه في مجال الكتابة فحسب، كما كان متحمساً ليعود إلى المجال الذي اختاره في الأصل، الدراسات التاريخيّة لأصل اللغات فيلولوجيا، وقام بإمضاء خمس سنوات، يعمل على كتاب استقاه مما عدّه نقلة نوعيّة فيلولوجية، وقد ظهر كتابه هذا في عام 1970م، وعنوانه الفطر المقدّس والصليب، وهو العمل الذي جعل آليغرو مشهوراً إلى اليوم، وهو العمل الذي جعله منبوذاً على نحو كبير.

بنيت حجة الكتاب على فرضيات أوّليّة فيلولوجية معقّدة، يصعب علينا تقبلها، كما هو حال الكثير من المعلّقين الآخرين، إلا أن ذلك كان أمراً عرضياً على كل حال، فالباحثون يميلون دائماً إلى شرح نظرياتهم على أسس فرضيات أولية، تتفاوت في صدقها، إلا أن هذا لا يحط من قيمتهم على نحو عام، بل يجري تجاهل عملهم في أسوأ الأحوال، لكن ما جعل كتاب الفطر المقدّس والصليب فضيحةً عامّة كان النتيجة التي وصل اليها آليغرو عن يسوع المسيح، وفي محاولة إيجاد مصدر كل المعتقدات والممارسات الدينية، أكد آليغرو أن يسوع المسيح لم يوجد قطّ في الواقع التاريخي، بل كان صورة فقط، أُثيرت في العقول بتأثير عقار هلوسة يدعى سايلوكوبين، وهو العنصر المؤثر في فطر الهلوسة، وناقش آليغرو أن المسيحيّة، كما هو حال كل الأديان الأخرى، انبثقت من نوع من تجربة مخدرة، هي تقاليد انتشرت بسبب نوع من الفطر السحري.

نظراً إلى الموضوع خارج هذا المجال فإن ما وصل إليه آليغرو لم يكن ليثير كلّ هذه الجلبة، فقد تساءل الكثير من الباحثين ذوي السمعة الحسنة، وشككوا في الوجود التاريخي ليسوع المسيح، ومازال بعض منهم مستمراً في ذلك حتى الآن، مع أنهم أقلّية، هناك اليوم جدل في استخدام العقاقير المخدرة وأنواع أخرى بمقدار معين ضمن الأديان والطوائف والمذاهب في الشرق الأوسط القديم، كما كان الحال، ولا يزال في العالم كله، وليس صعباً التصور أن هذه المواد كانت معروفة ومُستخدمة من يهود القرن الأول والمسيحيين الأوائل، ولا بدّ من الأخذ في الحسبان الأحوال العامة التي سادت أواخر ستينيات القرن العشرين، وعندما يستذكر المرء الأمر اليوم تخطر على باله مجموعات معينة من الهيبيين وغيرهم في الولايات المتحدة، ممن اتبعوا أفكاراً وشعائر تتعلق بالمحبة والسلم، ولكنهم كانوا يتعاطون المخدرات والكحول، إلا أن ذلك ليس إلا جانب واحد من الصورة، وقد يحجب ما تولده المواد المخدرة من إثارة للخيال في العقول الأكثر انضباطاً وثقافة، وكان قد ساد بين الكثير من العلماء وأطباء الأمراض العصبية وعلماء الكيمياء وعلماء النفس والفلاسفة والفنانين والأكاديميين الظن أن البشرية كانت فعلاً على شفير نقلة نوعية في الأبستومولوجيا، أي علم المعرفة.

لقد لقيت كتب مثل أبواب الإدراك- **The Doors of Perception** للكاتب هكسلي رواجاً كبيراً، ليس بين الشباب المتمردين فحسب، ففي جامعة هارفارد حظي تيموثي ليري بإعلانه عن دين جديد بقدر كبير من الصدق، كما حقق كتاب تعاليم من دون خوان للكاتب كاستانيدا أفضل مبيعات، وكان أكثر بحث أكاديمي ينال التقدير في جامعة كاليفورنيا، فقد جرى استخدام المواد المخدرة على نحو اعتيادي في كلٍ من الطب والمعالجة السيكولوجية، أما طلاب الدراسات اللاهوتية في بوسطن فقد أقاموا شعائر بتأثير عقار **LSD** المخدر، وقد صرّح الكثير منهم بعد ذلك بأنهم اختبروا مثلاً شعوراً قوياً من التقارب مع الله، حتى إن عضو البرلمان كريستوفر ميهيو، الذي أصبح بعد ذلك وزير دفاع، ظهر طواعية في مقابلة على شاشات التلفاز الوطني، وهو تحت تأثير المخدر، ويمكن أياً كان أن يرى السبب في تخوف المؤسسات الأكاديمية الشديد من كتاب آليغرو، ولو أن آليغرو نبذ عقلية التعاطي للتقرب من الله، ولم يدخن، أو يشرب في حياته.

وبالقدر نفسه، ولو لأسباب غير معتادة، كان الفطر المقدس والصليب كتاباً متحرراً وعرّض صدق آليغرو باحثاً للخطر بشدة، وقد كان التعليق النقدي الذي تناول الكتاب في مجلة التايمز أقرب ما يكون إلى النقد الشخصي، وتناول عدم النضج في التحليل النفسي لدى آليغرو بغية تشويه سمعته، أما ناشرو الكتاب فقد اعتذروا علناً عن موافقتهم على

الكتاب، معترفين بأنه عدواني على نحو غير مسوغ، وفي 26 أيار عام 1970م في رسالة إلى صحيفة التايمز قام أربعة عشر باحثاً بريطانياً برفض النتائج التي خَلُصَ اليها آليغرو، ومن بين هؤلاء كان الباحث غيزا فيرميز من جامعة أوكسفورد الذي سبق أن تعاون مع آليغرو في أعماله السابقة في عدد من مواد قمران، كما وافقه في تذمره من تباطؤ الفريق الدولي، كما ضمت هذه المجموعة من الباحثين البروفيسور غودفري درايفير المرشد السابق لآليغرو، الذي خَلُصَ إلى تأويلات لمواد قمران أشد تطرفاً مما حاول آليغرو الوصول إليه.

تابع آليغرو محاولاته لجذب انتباه العامّة إلى تلكؤ الفريق الدولي في نشر المخطوطات، وفي عام 1987م، أي قبل عام من وفاته، صرّح آليغرو بأن تأجيلات الفريق الدولي غير مسوغة، كما أضاف أن زملاءه السابقين ظلوا سنوات عدة يحتفظون بالمواد التي لا تتميز فقط بأهميتها الكبيرة، بل بدلالاتها الدينية الحساسة، وقال:

لا شك في أن الدليل الذي تحمله المخطوطات يقوض تفرد الطائفة المسيحية، بل في الواقع إننا جميعاً نعرف أصول المسيحية، على أي حال فإن هذه الوثائق ستزيل الستار.

بحلول ذلك الوقت كانت المبادرة قد انتقلت إلى جيلٍ جديد من الباحثين، وكان آليغرو قد غادر عالم البحث في المخطوطات، ليتابع بحثه في أصول الأسطورة والدين، ومع أن أعماله التي تلت الفطر المقدس والصليب كانت على قدر لا بأس به من الاعتدال، إلا أنه ظل منفياً في رأي الكثير من القرّاء والمؤسسات الأكاديمية، والرجل الذي وصفته صحيفة التايمز بأنه اعاد أصول المسيحية إلى فطرٍ غير سام، توفي آليغرو على نحو مفاجئ سنة 1988م، ومع أنه كان حينها منبوذاً من زملائه، إلاّ أنه ظل نشيطاً ومتحمساً ومتفائلاً بالأعمال الفلسفية التي كان يعمل عليها، ولا بد من أن ما عزّاه قبل وفاته كان أنه رأى تحديه للفريق الدولي وقلقه من مماطلتهم في نشر المواد قد لقي صدىً لدى الآخرين.

في عام 1956م كان إدموند ويلسون قد أجرى مراجعة لكتاب آليغرو الشهير عن مخطوطات البحر الميت، وفي عام 1969م عندما أصدر نسخة جديدة من تأليفه عن الكتاب، كانت ضعف حجم الكتاب الأصلي، كان أمر المخطوطات قد أمسى لويلسون أكثر من قضية توتر وتقييد فقط، بل إن الأمر أخذ الآن يتخذ حجم التكتم والفضيحة، إذ قال: لقد أخبرني باحثٌ كاثوليكي أنه في البداية كان هنالك سياسة رسمية لتوجيه الباحثين إلى تقليل أهمية المخطوطات، وفي منتصف السبعينيات شرع باحثو الكتاب

المقدس يتحدثون علناً عن وجود فضيحة، كما أخذت الشكوك تساور أكثر الباحثين انصياعاً، بينما كان أعضاء الفريق الدولي يقصون الآخرين من دون رغبة في الانخراط في جدالات أكاديمية، وأحد الأمثلة المقصاة، كان الدكتور غيزا فيرميز وهو من أكثر الأسماء شهرة في الدراسات الساميّة المعاصرة، ومنذ عام 1951م كان فيرميز ينشر كتباً ومقالات عن المخطوطات، ومع أنه لم يكن بداية في خلاف مع الفريق الدولي وعمله غير أنه كحال الكثيرين، أخذ تدريجياً يفقد صبره من المماطلة في نشر المواد، وفي عام 1977م نشر كتابه مخطوطات البحر الميت، نظرة تقييمية لقمران، وهو الكتاب الذي أطلق غيرميز في القسم الأول منه تحديه علناً للفريق، بقوله:

في الذكرى الثلاثين للظهور الأول لمواد قمران يحقّ للعالم أن يُسائل السلطات المسؤولة عن نشر هذه المواد، وعمّا ينوون فعله بشأن هذه المسألة التي تبعث على الأسى، ففي حال لم تُتخذ إجراءات صارمة مباشرة، فإن أعظم اكتشافٍ لمخطوطات آرامية وعبرية وأقيمها سيتحول إلى فضيحة أكاديمية بامتياز في القرن العشرين .

وعلى عادته لم يكلف الفريق الدولي نفسه أن يبدي أي ملاحظة، وبعد نحو عقد من الزمن في عام 1985م طالب الدكتور غيزا فيرميز مرة أخرى بالحصول على تفاصيل عن المخطوطات، لكن هذه المرة في مقال في الملحق الأدبي لصحيفة التايمز، حيث قال:

منذ ثماني سنوات عرّفت هذه الحالة بأنها مسألةٌ تبعث على الأسى، وحذّرت من أنها ستصبح فضيحةً أكاديمية بامتياز في القرن العشرين، ما لم تُتخذ إجراءات صارمة في الحال، لكن ذلك للأسف لم يحدث، بل إن المسؤول الحالي عن تحرير المخططات قد مضى قدماً في رفضه المجحف وغير المسوغ لأي انتقاد يتناول التأجيل .

وفي التصريح ذاته أثنى فيرميز على يغائيل يادين الذي كان قد توفي حديثاً، وذلك لإصرار يادين على إرسال المادة القمرانية التي بحوزته إلى الطباعة، قال: إلاّ أن ذلك تذكيرٌ لنا جميعاً بأن الوقت ينفد منا، وخاصةً أولئك الذين تباطؤوا في النهوض بالمسؤوليات التي تفرضها عليهم مهمتهم النبيلة .

ورغبةً منه في تفادي أي نزاعات سخيفة لم يتابع فيرميز في هذا المجال، فكما في السابق، لم يُبد الفريق الدولي أي ملاحظة على تعليقاته، وقد كان الأمر مزعجاً جداً للدكتور فيرميز، فهو خبير متميز في الميدان، وقد قام بنشر ترجماته لمثل هذه المخطوطات التي وجدت طريقها إلى العلن، برعاية إسرائيلية، وهو على نحوٍ مؤكد يمتلك المؤهلات للعمل على مواد قمران غير المنشورة كأي عضو من الفريق الدولي، إن لم يكن أكثر، ومع ذلك فقد مُنع من الوصول إلى المواد غير المنشورة، بل لم يُسمح له برؤيتها حتى.

أما في الوقت الحالي فلا تزال الأدلة ذات القيمة طي الكتمان، ويمكننا أن نشهد شخصياً أن بعض المواد الأساسية، إن لم تُحجب على نحوٍ كامل، لم تُدرج للنشر أيضاً، في تشرين الثاني عام 1989م قام مايكل بيجينت بزيارة القدس، والتقى هناك بأعضاء الفريق الدولي الحالي، أحد هؤلاء الأعضاء كان الأب إيميل بوتش وهو ولي العهد الشاب للمدرسة الإنجيلية، والذي ورث أجزاء المخطوطات التي كانت منسوبة من قبل إلى الأب جان ستاركي، وقد تضمن هذا الإرث مواد ذات مصدر مجهول، وفي حوار شخصي، كشف الأب بوتش عن ثلاثة اكتشافات مهمة كانت سريّة:

1- إنه وجد ملامح التقاء جديدة بين المخطوطات وعظة الجبل، وذلك من دلالات جديدة وذات دلالة على الفقراء في الروح .

2- في رسالة برنابا، وهي نص مسيحي من القرن الثاني بعد الميلاد مشكوكٌ في صحته، وجد بوتش اقتباساً لم يُتتَبَع حتى اليوم، بل نُسبَ إلى رسولٍ غير معروف، وفي الواقع جرى إثبات أن هذا الاقتباس جاء مباشرةً من إحدى مخطوطات البحر الميّت، وهذا ما يُفضي إلى أن كاتب رسالة برنابا كان عضواً، أو على صلةٍ بمجتمع قمران وتعاليمه، وقد كان هذا رابطاً لا يقبل الجدل بين قمران والتقاليد المسيحية.

3- وجد بوتش اقتباساً آخر مُشتقاً مباشرةً من مخطوطات قمران، وذلك في أعمال الكاتب المسيحي من القرن الثاني الميلادي جستن مارتير.

قال بوتش بإصرار: إننا لا نخفي أي شيء، وسنقوم بنشر كلّ شيء لدينا، لكن بحسب معرفتنا فإن أياً مما صرّح به بوتش في حواره السابق لم يظهر مطبوعاً قط، ولا يبدو هنالك أي نية للقيام بذلك، في المقابل كان هنالك تسريب لهذه الدلالات في بعض المواد التي ما زالت ممنوعة، وقد بدا هذا التسريب واضحاً للعلن عام 1990م في صفحات مجلة بايبليكال آركيولوجي ريفيو، وجرى الإفصاح عنها من باحث مجهول الاسم كان ضميره يؤنبه، وقد احتوت هذه التسريبات على أجزاء من مواد قمران مشابهه كثيراً لنصٍ في إنجيل لوقا، مشيراً إلى الولادة الوشيكة ليسوع المسيح[1]، يتكلم عن طفل سيُدعى ابن الأعلى و ابن الله، كما تتحدث أجزاء مخطوطة قمران من الكهف الرابع أيضاً عن مجيء طفل، سيُمجّد اسمه على أنه ابن الله، وسوف يُدعى أيضاً ابن الأعلى .

وكما تُشير مجلة بايبليكال آركيولوجي ريفيو فإن هذا اكتشاف غير مسبوق، فهي المرة الأولى التي يجري فيها إيجاد مصطلح ابن الله في نصٍ فلسطينيّ خارج الإنجيل، مهما كانت الأحوال التي اتصلت بنشر هذا الجزء، فإنه يأتي من صُلب المواد التي مازالت تحت السيطرة حتى اليوم، ومازالت ممنوعة دينياً من الأب المراوغ ميليك.

---

1 - إنجيل لوقا :32 . 5 .

الفصل الرابع

معارضة الإجماع

استنكر إدموند ويلسون وجون آليغرو وغيزا فيرميز سرية الفريق الدولي ومماطلته في الكشف عن مادة قمران، بل واحتكاره البحث في مخطوطات البحر الميّت، وقد احتج كل من ويلسون وآليغرو على نحو خاص على ما رأياه محاولات جاهدة من الفريق الدولي لفصل مجتمع قمران عمّا يُدعى بدايات المسيحيّة.

غير أن الباحثين الثلاثة وافقوا على ما أجمع عليه الفريق الدولي من تفسير للمادة القمرانية، فهم وافقوا مثلاً على التاريخ الذي وضعه الفريق للمخطوطات بأنها تعود إلى ما قبل المسيحيّة، كما وافقوا على رأي الفريق بأن القمرانيين كانوا من الأسينيين، وأن هؤلاء الأسينيين كانوا من النوع التقليديّ، أي ممن وصفهم بليني وفيلوني ويوسيفوس بالزهد والنسك والمسالمة والنأي عن التيارات الفكرية الاجتماعيّة والسياسيّة والدينيّة العامّة.

لكن إذا كانت المسيحيّة ترتبط فعلاً بالمجتمع القمرانيّ على نحوٍ ما، وكان القمرانيون أسيني ين تقليديين زاهدين وناسكين ومسالمين، فإن هذا الارتباط يجعل المسيحية تبدو أقل تأصلاً مما كان يظن حتى ذلك الوقت، فهي تبدو تبعاً لذلك قائمة على مبادئ قمران، تماماً كما سبق عدّها مبنيةً على يهودية العهد القديم التقليدية، وما عدا ذلك لم يكن هناك من سبب محدّد يدعو المرء إلى تغيير فهمه أو تصوره للمسيحية.

لكن مع ستينيات القرن العشرين كانت معارضة علمية لما أجمعَ عليه الفريق الدولي قد بدأت بالظهور في مكان آخر، وكان تشكيكها في هذا الإجماع أكثر تطرفاً من أي طرحٍ قدمه ويلسون أو آليغرو أو فيرميز، فهذا التشكيك لم يطعن في صحة التاريخ المثبت للمخطوطات من الفريق الدوليّ فحسب، بل إنه طعن في الصفات التي زعمها الفريق عن أسينيي قمران، وكان وراء هذا النقد كل من سيسل روث وغودفري درايفير.

ربما كان سيسل روث أبرز مؤرّخ يهوديّ في عصره، فبعد أن خدم في الجيش البريطانيّ خلال الحرب العالمية الأولى، حصل روث على شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة ميرتون في أكسفورد، وعمل عدة أعوام بعدها محاضراً في الدراسات اليهوديّة في تلك الجامعة، وهذا المنصب شغلهُ بعده غيزا فيرميز، وكان روث كاتباً خصباً، إذ يعزى إليه أكثر من ستمئة مؤلَّف، كما اشتغل رئيس تحرير للموسوعة اليهوديّة، وتميز بتقدير كبير ضمن المجتمع الأكاديميّ، بينما تميز على نحو خاصّ بخبرته في التاريخ اليهوديّ.

وكان غودفري درايفير ذا مكانة أكاديمية مماثلة، فقد خدم هو الآخر في الجيش البريطانيّ خلال الحرب العالميّة الأولى، حيث شهد الأحداث في منطقة الشرق الأوسط تحديداً، كما عمل مدرساً أيضاً بجامعة ماغدالين في أكسفورد، ليصبح في عام 1938م

بروفيسوراً في علم اللغات الساميّة، وأستاذاً للغة العبرية قدم درايفير حتى عام 1960م ثلاثة أبحاث في ذلك المجال، كما أدار جزئياً الفريق الذي ترجم العهد القديم من أجل الإنجيل الانكليزيّ الجديد، وكما أشرنا سابقاً فقد كان درايفير المستشار الخاصّ لجون آليغرو ومن أوصى به للفريق الدوليّ.

كان درايفير قد دعا منذ الاكتشافات الأولى لمخطوطات البحر الميت إلى توخي الحذر من التواريخ القديمة والسابقة للمسيحية التي قد تنسب إليها، وفي رسالة وجهها إلى صحيفة التايمز في 23 آب عام 1949م حذّر درايفير من أن التاريخ السابق للمسيحيّة والذي نسب إلى مخطوطات قمران يبدو مرجحاً لنيل قبول واسع قبل إخضاعه للفحص الناقد الدقيق، لكنه أوضح في الرسالة نفسها أن الدليل الخارجيّ على أن المخطوطات تعود إلى ما قبل المسيحيّة يفتقر إلى التأكيد، على حين تبدو جميع الأدلة الداخليّة مناقضةً تماماً لهذه الحقيقة، وأكد خطورة الاعتماد الكبير لما سماه الدليل الخارجيّ، أي علمي الآثار والكتابات القديمة، موصياً بالمقابل بالتفحّصٍ الدقيق للدليل الداخليّ، أي محتوى المخطوطات ذاتها، وخَلُصَ درايفير إلى أنه علىً أساس هذا الدليل فإن المخطوطات كانت تعود إلى القرن الأوّل من الحقبة المسيحيّة.

في تلك الأثناء كان سيسل روث يدير بحثه الخاصّ، ونشر في عام 1958م نتائج ذلك البحث، وعنوانه الخلفية التاريخيّة لمخطوطات البحر الميّت، وفيها ناقش روث أن الأصل التاريخي للمخطوطات لم يكن قبل المسيحيّة، بل إنها، وعلى العكس من ذلك، كانت تعود إلى وقت الثورة في أرض يهوذا، أي بين عامي 66 و74 بعد الميلاد، ومثلما فعل درايفير أصر روث على أن نصوص المخطوطات ذاتها كانت دليلاً أكثر دقّة من علمي الآثار والكتابات القديمة، وباعتماد هذا الدليل قام روث بوضع عدد من الأفكار التي لم تناقض إجماع الفريق الدوليّ فحسب، بل أغضبت بشدة الكاثوليكيين منهم، فمثلاً، أثبت روث، بالاستشهاد بنصوص من إحدى المخطوطات، أن الغزاة الذين عُدوا أعداء المجتمع القمرانيّ لم يكن ممكناً أن يكونوا سوى الرومان، بل إنهم الرومان الإمبراطوريون أي من الفترة الإمبراطورية لا الجمهورية، كما أكد أن ما ورد في كثيرٍ من المخطوطات من عسكرية القومية وحماسة عنفوانية مسيحية كانت أقل تشابهاً مع الأسينيين التقليديين مما لها مع الغيورين، كما وصفهم يوسيفوس، ومع تقبله احتمال أن يكون الأسينيون التقليديون هم من نمط المجتمع الأصلي في منطقة قمران، لكن روث أكد أنهم لابد من أن يكونوا قد تركوا المنطقة عندما دُمّرت في عام 36 قبل الميلاد، وتبعاً لرأيه فإن من شغلوا المنطقة

بعد ذلك، أي بعد السنة الرابعة قبل الميلاد، ومن وضع المخطوطات، لم يكونوا أسينيين قط، بل الغيوريون، ومستفيضاً في فكرته حاول روث إيجاد روابط بين المجتمع القمرانيّ والمدافعين الأشدّاء عن مسعدة التي تبعد ثلاثين ميلاً في الجنوب.

وطبعاً أثارت هذه التأكيدات نقداً ساخطاً من فريق الأب دو فوكس، وقد احتج أحد رفاقه، وهو جون كارميغناك في نقد نشره عن كتاب روث: بأنّ روث لا يفوّت أي فرصة، ليربط بين مسعدة وقمران، وهذا يشكل حالة ضعفٍ أخرى في أطروحته، وحتى عندما وجد يغائيل يادين في مسعدة مخطوطات مطابقة لبعض مخطوطات قمران، وذلك خلال تنقيبه في مسعدة بعد ثماني سنوات، لم يرض الفريق الدوليّ قبول أُطروحة روث، ومع اتضاح وجود رابط ما بين قمران ومسعدة أصر الفريق الدولي على تفسير واحد للأمر، لا بد من أنّ بعض الأسينيين تركوا مجتمعهم في قمران، ورحلوا للدفاع عن مسعدة حاملين معهم بعضاً من نصوصهم المقدّسة، وهذه نظرية أخذت الآن بالاضمحلال.

فيما يخصّ قضية مسعدة كان تنقيب يادين لاحقاً سيبرّئ ساحة روث، لكن روث نفسه كان قادراً أيضاً على خوض معاركه الخاصّة، ففي عام 1959م نشرَ روث مقالاً تناول فيه طرحاً كان دو فوكس قد أكده استناداً إلى ما يُفترض أنها أدلة من علم الآثار القديمة، كان دو فوكس قد أكد أنه كان من غير الممكن للمخطوطات أن تكون قد أودعت الغار بعد صيف عام 68 بعد الميلاد، وهو العام الذي جرى فيه احتلال قمران من الفيلق العاشر، لكن روث أثبت على نحو مؤكد أن الفيلق العاشر لم يكن على أي مقربةٍ من قمران في صيف عام 68 ميلادي.

ربما أثارت نقاشات روث غضبَ فريق دو فوكس الدوليّ، لكنها توافقت وآراء زميله غودفري درايفير، وبعد أن عمل الاثنان معاً على نحوٍ مقرّب نشر درايفير عمله الضخم والمفصّل عن مادة قمران في عام 1965م، وعنوانها مخطوطات أرض يهوذا، وتبعاً له فإنّ الآراء التي تنسب المخطوطات إلى الفترة قبل المسيحيّة غير صحيحة أساساً، وأشار درايفير في بحثه ذاك إلى أن الأسباب الوحيدة التي قد ترجع المخطوطات إلى تاريخ كهذا هي أسباب ترتبط بعلم اللغات القديمة، وهي أسباب لا يمكن أن تُعتَمَدَ وحدها، وقد اتفق درايفير مع روث على أن المخطوطات تشير إلى فترة الثورة في أرض يهوذا، أي بين عامي 66 إلى 74 بعد الميلاد، وعليه فقد كانت هذه المخطوطات بحال أو بآخر متزامنة مع العهد الجديد، كما أنه توافق في الرأي مع روث على أن المجتمع القمراني لا بدّ من أنه قد تألف من الغيورين لا الأسينيين التقليديين، وتبعاً لحساباته فإن المخطوطات ربما

أودعت في قمران في وقت ما بين ذلك الوقت ونهاية الثورة الثانية في أرض يهوذا، وهي تمرد شمعون بار كوكبا[1] الذي اندلع بين عامي 132 و135 ميلادي، وبذلك كان درايفير يطيح بأكاديمية الفريق الدولي، التي كان دو فوكس أحد رموزها.

كان كل من روث ودرايفير يتميز بشهرة واسعة واعتراف ووزن في مجاله، وهي مكانة لم يكن لأحدٍ أن يتجاهلها أو يرفضها بسهولة، وهكذا كان يستحيل على أحد أن يشكك في قدرهما وعلمهما أو أن يقوم بعزلهما، وكان الاثنان أمهر في المناقشة الأكاديمية من أن يقعا في الفخ الذي كان آليغرو قد وقع فيه من قبل، لكنهما كانا مع ذلك غير منيعين أمام أسلوب المسايرة الذي اتبعه دو فوكس وفريقه الدولي في توحيد الصف أمام إجماعهم بشأن المخطوطات، فمع القدر الكبير لروث ودرايفير إلا أنه جرى تصويرهما كأنهما كانا يتصرفان خارج طبيعتهما في قضية دراسة قمران، إذ كتب دو فوكس في تعليق على كتاب درايفير عام 1967م: إنه لمن المحزن أن نجد هنا مرة أخرى ذلك التناقض في المنهج والعقليّة بين الناقد النصيّ وعالم الآثار، بين الرجل الذي يجلس خلف مكتبه والرجل العامل في الميدان، وطبعاً لم يعن ذلك أن دو فوكس نفسه كان أمضى وقتاً طويلاً جداً في الميدان، فكما رأينا، كان دو فوكس وكثيرون غيره من أعضاء الفريق الدوليّ يكتفون بالبقاء في قاعة المخطوطات، تاركين مشقة العمل الميدانيّ للبدو، لكن ربما يقال إن قاعة المخطوطات كانت على الأقل أقرب إلى قمران مما كانت عليه أكسفورد، بل إنه كان ممكناً لدو فوكس وفريقه أن يدعوا معرفةً أصلية بكامل نصوص قمران، افتقر إليها روث ودرايفير بعد أن مُنعا من الوصول إلى محتوى المخطوطات، ومع أن روث ودرايفير شككا في المنهجية التاريخيّة للفريق الدوليّ، إلا أنهما لم يجابها فعلياً اعتماد الفريق الزائد لعلمي الآثار والكتابات القديمة.

بدا علما الآثار والكتابات القديمة مصدر قوة للفريق، فقد مكّنا دو فوكس من أن يختم نقده لكتاب مخطوطات أرض يهوذا بالقول بثقةٍ وعلى نحو نهائي: إن نظرية درايفير كانت مستحيلة، كما استطاع ورجوعاً إلى هذين العلمين أن يضعف رؤية شخصيات أخرى في هذا المجال، وأن يخطف دعمهم بنجاح، فقد اقتنع البروفيسور أولبرايت بأن يلقي بثقله

---

1 - بار كوكبا: بار تعني ابن وكوكبا أو كوخبا تعني الكوكب، قاد تمرد اليهود المتعصبين عام 66م، فما كان من القائد الروماني تيطوس إلا أن هاجم القدس وحرقها، وذبح قسماً كبيراً من أهلها، لذلك أخذ بار كوكبا بشن حرب عصابات ضد الرومان، وفي عام 135م قام الإمبراطور الروماني إليوس هدريان نتيجة الاضطرابات بهدم مدينة القدس وسواها بالتراب، ثم أسس جانبها مستعمرة رومانية سماها إيليا كابوتيلينا، ومنع اليهود من دخولها، وكانت عقوبة الموت تنتظر من يخالف هذا الأمر منهم، وانتظروا حتى جاء الإمبراطور قسطنطين، فسمح لهم بالدخول للبكاء على حائط الهيكل.

في وجه درايفير معلناً أن نظرية درايفير أخفقت تماماً، وتابع أولبرايت أن إخفاق نظرية درايفير جاء من تشكيكه الواضح فيما يتعلّق بمنهجيّة البحث لدى علماء الآثار، وخبراء المسكوكات وعلماء الكتابات القديمة، وطبعاً كان حظّ درايفير عاثراً، إذ اصطدم رأساً برأس مع أحد أبرز الباحثين في يومنا وهو رونالد دو فوكس.

وبعد ذلك انتقل أعضاء الفريق الدولي وزملاؤهم إلى مرحلة الهجوم، فمضوا يمطرون روث ودرايفير بوابل من النقد المفعم بالتهكم، وكما لاحظ إيسنمان، فقد واجه الاثنان السخرية بطريقة غير لائقة بمكانتهما، وبضراوة شديدة تدعو إلى التعجّب، ولم يجرؤ أحد على دعمهما بعد ذلك، فإن أحداً لم يتجرأ على المخاطرة بإغضاب أصحاب الإجماع الذي غدا معزّزاً بقوة الآن، وكما قال إيسنمان: فقد اجتمعت خراف حجرة المخطوطات كلها في قطيع واحد .

ولما كانت اهتمامات روث ودرايفير وسمعتهما لا تقتصر على أبحاث قمران حصراً، فإنهما وببساطة انسحبا من الأمر عادّين إياه غير جدير بالمزيد من المتابعة، وإن دل السماح بحدوث مثل هذا الأمر على شيء فهو يدل على تردد الباحثين الآخرين وخضوعهم في قضية المخطوطات، ويبقى هذا الأمر علامةً سوداء في سجل أبحاث قمران.

مع أن الفريق الدوليّ كان قد مارس الاحتكار من قبل، إلا أن موقفه الآن بدا حصيناً تماماً، فقد تمكّن أعضاؤه من المناورة لاستبعاد اثنين من أكثر خصومهم قوّة، وبدا بذلك نصرهم كاملاً، لقد جرى دفع روث ودرايفير إلى الصمت أمام الأمر، كما جرى تجريد آليغرو من مكانته، على حين أرغم على الإذعان أي شخصٍ آخر سيشكل خطراً، ومع أواخر ستينيات القرن العشرين وأوائل سبعينياته كانت هيمنة الفريق الدولي مطلقةً فعليّاً.

حتى منتصف الثمانينيات برز معارضون آخرون للفريق الدولي، لكن معارضة هؤلاء كانت مفرّقة وغير منظمة، وقد وجد معظمهم مجالاً للتعبير عن معارضتهم في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وذلك خلال صحيفة واحدة فقط هي مجلّة بايبليكال آركيولوجي ريفيو، ففي عددها الصادر شهري أيلول وتشرين الأول عام 1985م نقلت الصحيفة تغطية لمؤتمر عقد في جامعة نيويورك في أيار السابق عن مخطوطات البحر الميّت، ونشرت المجلة في تقريرها تصريحات البروفيسور مورتون سميث في المؤتمر، إذ قال: فكّرت في التحدث عن فضائح وثائق البحر الميّت، لكن تبين أن هذه الفضائح كثيرةً جداً، ومألوفة جداً ومقززة جداً، وورد في كلمة سميث أن الفريق الدوليّ كان محكوماً بالعُرف والتقاليد وعدم الرغبة في التغيير، وذلك بحسب ما يمكن إثباته حتى الآن، وقد خلص التصريح إلى النتيجة التالية:

إن المطلعين، وهم الباحثون الموكل إليهم البحث في النصوص، والذين يدعوهم تي.اتش، غاستر البروفيسور في كلية برنارد بجامعة كولومبيا الجماعة السحريّة، يتميزون بنعمة تقطير المعلومات للآخرين قطرة قطرة، وهذا يعطيهم مكانة وقوّة علميّتين واعتزازاً رائعاً بالنفس، فلمَ قد يضيّعون أمراً كهذا؟.

ولفتت الصحيفة الانتباه إلى الاستياء والامتعاض اللذين تناميا بين الباحثين من ذوي الكفاءة ممن لم يُقبَلوا في عضوية الدائرة السحرية، كما لفتت الانتباه أيضاً، ولو بطريقة ضمنيّة، إلى المنافع التي حصدتها بعض المؤسسات كجامعة هارفارد التي كان يعمل فيها كلٌ من كروس وسترغنيل، فنال فيها بعض الخريجين المدللين فرصة الاطلاع على مادة قمران، وهو ما لم يتسن لباحثين أكثر خبرة وكفاءة، وختمت الصحيفة تقريرها بالمطالبة بنشرٍ فوري لصور النصوص التي لم تُنشر، مكررةً نداء مورتون سميث الذي دعا زملاءه لأن يطالبوا الحكومة الإسرائيليّة التي كانت آنذاك تتميز بسلطة مطلقة على تلك المخطوطات، بأن تنشر مباشرة صوراً عن جميع النصوص غير المنشورة، لكي تصبح متوافرة لجميع الباحثين.

ولم يكن تجاهل دعوة سميث مرة أخرى سوى دليل على التراخي الأكاديمي، وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن دعوة سميث أخطأت، إذ مررت اللوم ضمنياً من الفريق الدولي، وهم المذنبون الحقيقيون، إلى الحكومة الإسرائيلية التي كان لديها من المشكلات ما هو أكثر إلحاحاً، كان الإسرائيليون قد وفوا بالتزامهم من الصفقة التي جرت عام **1967**م، وذلك بالسماح للفريق الدولي بأن يستمر في احتكاره للمخطوطات شريطة أن يجري نشرها، لكن الفريق الدولي لم يفعل، ربما تصرفت الحكومة الإسرائيلية على نحو غير مسؤول عندما سمحت باستمرار الحال، لكنها لم تكن من يلام على قيام ذلك الحال ذاته، وكما أدرك إيسنمان بعد فترة وجيزة فإن معظم الإسرائيليين من باحثين وصحفيين كانوا مع شخصيات حكومية يجهلون الواقع الحقيقي، ولا بد من القول إنهم لم يبالوا حياله، وخلال هذا الجهل وعدم المبالاة جرى السماح لحال قديم بأن يستمر.

إلا أنه في عام **1985**م، وهي السنة التي نقلت فيه صحيفة بايبليكال آركيولوجي ريفيو المؤتمر، أخذ عضو بارز في البرلمان الإسرائيلي، هو يوفال نيحيمان يهتم بالأمر، وقد أظهر بعد ذلك أنه كان عارفاً على نحو جيد بالأمر، كان نيحيمان عالم فيزياء مشهوراً في العالم، لقد كان بروفيسوراً في الفيزياء ورئيس قسمها في جامعة تل أبيب، وظل كذلك حتى عام **1971**م، حيث أصبح رئيساً للجامعة، قبل ذلك كان واضع خطط

عسكرية، أي أحد أولئك المسؤولين عن وضع تفكير استراتيجي رئيس للجيش الإسرائيلي، وقد شغل بين عامي **1961**م و**1963**م منصب مدير لمؤسسة سوريق للأبحاث، وهي الهيئة الإسرائيلية للطاقة الذرية، أثار نيحيمان قضية المخطوطات في الكنيسست معلناً أن عدم قيام الحكومة الإسرائيلية باستعراض الواقع أو تغييره يشكل فضيحة، وذلك في إشارة لتركها الفريق الدولي مفوضاً ومحتكراً للمخطوطات منذ أيام النظام الأردني السابق، وقد أرغم هذا مديرية الآثار الإسرائيلية أخيراً على تحري قيام مجموعة من الباحثين ذوي الميول الكاثوليكية بممارسة سيطرة كاملة وحصرية على ما كان يشكل للإسرائيليين كنزاً، تعود ملكيته إلى الدولة.

مضت مديرية الآثار في مواجهة الفريق الدوليّ في مسألة النشر، ما أسباب المماطلة والتأجيل؟، وما الجدول الزمنيّ المتوقّع للنشر؟، كان المسؤول عن الفريق في ذلك الوقت هو الأب بينوت، الذي كتب إلى زملائه في **15** أيلول عام **1985**م رسالة يذكّر فيها بنداء مورتون سميث لنشر الصور حالاً، كما احتج، كما لو كان الطرف المضطّهد في العمليّة، على استخدام كلمة فضيحة، ليس من مورتون سميث فحسب، بل من نيحيمان في الكنيسست، وقد تابع ليقرّ رغبته في تزكية جون سترغنيل، ليكون محرراً لما سينشر في المستقبل، كما طالب بجدولٍ زمني للنشر من كلّ واحد من أعضاء الفريق.

كانت الاستجابة لطلب الأب بينوت بطيئةً وغير منتظمة، وقد قام قسم علم الآثار مَدفوعاً من نيحيمان، بمراسلة الأب بينوت مرّة أخرى في **26** كانون الأوّل عام **1985**م مُكرّراً طلبه في الحصول على تقرير وإجابة للأسئلة التي طرحها من قبل، لا يُمكن أحداً التحقق ما إذا كان بينوت قد اعتمد في ردّه معلومات موثقة مُستقاة من زُملائه، أم إنه ببساطة ارتجل ردّاً ليكسب بذلك الوقت، إلا أنّه كتب إلى قسم علمٍ الآثار القديمة يَعِدُ على نحوٍ قطعيٍ أن كلّ شيء يمتلكه الفريق الدوليّ سيجري نشره خلال سبع سنوات، أَي حتى عامٍ **1993**م، وقد قُدّم هذا الجدول الزمنيّ مكتوباً كتعّهدٍ مُلزمٍ، إلا أنّ أحداً لم يأخذه على محمل الجدّ، وفي حوارٍ خاصّ معنا صرّحَ نيحيمان بأنّه قد سمع من مصدرٍ سريّ للمعلومات أنّ الجدول الزمنيّ للنشر قد عدّ على نحوٍ عام مزحة لا أكثر، وجرى فعلاً إثبات أنها مزحة فقط، وليس هنالك أيّ احتمالٍ لأيّ من مواد قمرانٍ أو حتى لجزءٍ معقولٍ منها أن يَظهَر عام **1993**م، ولم يجري نشر حتى مواد الكهف الرابع، وبعد الجزء الذي نشره آليغرو عام **1968**م عن اكتشافات في الصحراء اليهوديّة لم يُنشَر إلا ثلاثة أجزاء في الأعوام **1977**م، و**1982**م، و**1990**م، ليصل العدد بذلك إلى ثمانية أجزاء.

وعلى ذلك، فإنّ الضغط المكثّف على الفريق ولّد حالةً من الذعر بين أعضائه، وعلى نحو متوقّع بدأت عمليّة بحث عن كبش فداء، من الذي أدخل الحكومة الإسرائيليّة في خضمّ القضيّة؟، من الذي أطلع نيحيمان على معلوماته، ومكّنه من أن يطرح الموضوع في الكنيست؟، قد يكون تكرار كلمة فضيحة من غيزا فيرميز هو الذي جعل الفريق يلقي باللوم عليه، الحقيقة أنه لم يكن لفيرميز أي علاقة بالموضوع، بل إن روبرت إيسنمان هو من كان مصدر معلومات نيحيمان.

تعلّم إيسنمان مما غفل عنه روث ودرايفير، فقد قدّر أنّ كامل بنيان الفريق الدولي وافتراضاته قد بُنيت على ما يُفترض أن يكون بيانات دقيقة لعلم الآثار وعلم دراسة الكتابات القديمة، فقد نبذ روث ودرايفير هذه البيانات على أنها غير ذات صلة، لكن هذا النبذ جاء دونما مواجهة لهذه البيانات، أمّا إيسنمان فقد عزم على تحدّي الفريق الدولي على أرضه، بلعب لعبته ذاتها، وذلك بكشف منهجيتهم، وتبيان أن البيانات الناتجة لم تكن ذات صلة.

وقد بدأ حملته في كتابه الذي لفت الأنظار المكابيون والصدوقيون والمسيحيون وقمران، والذي نشره إي.جي.بريل في هولندا عام 1983م، وفي هذا الكتاب طرحَ إيسنمان أوّل تحدٍ خطيرٍ واجهه الفريق الدوليّ فيما يخصّ علم الآثار القديمة ودراسة الكتابات القديمة، وفي مقدّمة كتابه وجّه تحديه إلى المجموعة الصغيرة من الاختصاصيين الذين يعملون معاً، والذين وصلوا إلى رأي إجماعيّ، ولأن النص لم يحظ بجمهور ومتابعة كبيرة فإنّ الفريق الدولي كان قادراً طبعاً على تجاهل التحدي بكلّ بساطة، وفعلاً فإن الاحتمال الأكبر أن أحداً من أعضاء الفريق لم يقرأ الكتاب، عاداً إياه أمراً عابراً لمترهبنٍ مبتدئ.

إلا أن إيسنمان رفض أن تؤول جهوده إلى النسيان والتجاهل، ففي عام 1985م أصدر كتابه الثاني **James the Just in the Habakkuk Pesher** الذي ظهر في إيطاليا، ومن المفارقة أن الكتاب نُشرته دار نشر الفاتيكان الطوبوغرافيا الغريغورية، وقد تضمّن الكتاب مقدّمةً باللغة الإيطاليّة، أمّا في العام التالي فقد صدر الكتاب مُتضمناً بعض الإضافات ومُلحقاً مُنقّحاً من إي.جي.بريل، وفي العام ذاته جرى تعيين إيسنمان أستاذاً مقيماً في معهد أولبرايت الفخري في القدس، وهنا بدأ إيسنمان العمل وراء الكواليس، ليُطلع الحكومة الإسرائيليّة على الحالة، وليرفع المخطوطات إلى أولوياتها.

أدرك إيسنمان أن قوّة الفريق الدولي لا يُمكن أن تُهزَم بالاحتجاجات اللائقة، ولا حتى الحاد منها، والتي تُطرَح في الصحف، بل لا بدّ من الحصول على قوّة ضغطٍ

خارجيّة، ويفضّل أن تكون من القوى العليا، وتبعاً لذلك التقى إيسنمان بالبروفيسور نيحيمان وأطلعه على الأمور، حيث قام نيحيمان نفسه بطرح القضية في الكنيست.

وفي العام ذاته، التقى إيسنمان بالأب بينوت، وطلب منه الاضطلاع على المخطوطات، وكما هو متوقّع فقد رفض الأب بينوت ذلك على نحو مهذّب، مقترحاً أنه على إيسنمان أن يتقدّم بطلبٍ للسلطات الإسرائيليّة، وفي هذه المرحلة كان إيسنمان لا يزال جاهلاً بالخدع التي وظّفها الفريق الدوليّ، ليعوق أي طلبٍ للوصول إلى المخطوطات، إلا أنه لم يكن ليقبل أن يُبعَدَ بسهولة.

يجب على كلّ باحث عضو في معهد أولبرايت أن يقدّم محاضرة في العلن ضمن فترة ولايته، وقد تحدّدت محاضرة إيسنمان في شباط عام 1986م، واختار عنواناً لها هو مجتمع القدس وقمران، مع عنوانٍ فرعيّ مثير ومستفزّ هو مشكلات علم الآثار القديمة، دراسة الكتابات القديمة، التاريخ والتسلسل الزمنيّ، وكما كان الحال في كتابه الأخير، فإن العنوان قد صُمّمَ ليكون مُثيراً للأعصاب، وبمقتضى العادة فإن معهد أولبرايت أرسل دعواتٍ لكلّ الباحثين المهمّين في مجال القدس، ومن اللباقة أن تُمثّلَ المعاهد الأخرى في المحاضرة، كالمدرسة الإنجيلية الفرنسيّة، وقد حضر نحو خمسة أو ستة منهم، فكان العدد أكثر من أي مرّة أخرى.

ولأنّ الجمع لم يكن على معرفةٍ بإيسنمان وبأعماله، فلم يتوقّعوا أي شيءٍ خارجٍ عن المألوف، على أي حال فإن رضاهم بدأ ينهار تدريجياً، وتابعوا الاستماع لنقاشه بصمت، كما رفضوا أن يطرحوا أيّ أسئلة في نهاية المحاضرة، وغادروا من دون تقاليد اللباقة المتّبعة عادةً بتهنئة المحاضر، وأول مرة تجلى لهم الخطر الحقيقيّ المتمثّل في شخصيّة إيسنمان، وقد حاولوا تجاهل الأمر على أمل أنه سيتلاشى وينتهي.

في الربيع التالي وصل إلى القدس أحد أصدقاء إيسنمان وزملائه، البروفيسور فيليب ديفيز من جامعة شيفيلد، وقد ذهب هو وإيسنمان إلى ميغان بروشي مدير متحف صرح الكتاب، ليناقشوا معه رغبتهم في رؤية أجزاء المخطوطات التي لم تُنشَر بعد، ومازالت محجوزةً لدى الفريق الدولي، أمّا بروشي فضحك مما بدا أنه طلبٌ غريب، وعقب قائلاً: لن تروا هذه الأشياء في حياتكم، في حزيران وقرب انتهاء فترة إقامته في القدس، دُعيَ إيسنمان إلى تناول الشاي في منزل أحد زملائه، وهو بروفيسور في الجامعة اليهودية في القدس، أصبح بعد ذلك عضواً في اللجنة الاسرائيلية لتفحّص المخطوطات، وفي هذه المرة أيضاً قام إيسنمان باصطحاب ديفيز معه، وهناك حضر عددٌ من

الاكاديميين، منهم جوزيف بومغارتن من كلية بالتيمور العبرية، ولاحقاً في ذلك المساء ظهر جون سترغنيل مستشار آليغور القديم ورئيس الفريق الدولي لاحقاً، وبدأ سترغنيل، بنيّة مبيّتةٍ من قبل كما يبدو، بالتشكّي من أولئك غير المؤهلين الذين يطالبون بإلحاح بالوصولٍ إلى موّاد قمران، فقام إيسنمان بالردّ في الوقت الملائم، ما تعريف سترغنيل لكلمة مؤهّل؟، إضافة إلى مهاراته المُفترضة في تحليل الخطوط الكتابية، هل كان له أي معرفةٍ بالتاريخ؟، وعلى نحو ظاهر كان النقاش بمنحى المزاح، وكان نقاشاً حضارياً، إلا أنه كان يأخذ طابعاً شخصياً مُستفزاً.

في العام التالي 1986م - 1987م عُيّن إيسنمان باحثاً في مركز أكسفورد للدراسات العبرية وعضواً زائراً في كليّة ليناكر، لكنه استطاع الحصول على وثيقتين سريّتين من بعض معارفه في القدس، إحدى هذه المخطوطات كانت نسخة مصوّرة لمخطوطة يعمل عليها سترغنيل، وهي جزء من منطقة نفوذه الخاصة، وقد عُرفَ هذا النص بين من عملوا في هذا المجال باسم وثيقة م.م.ت، وقد كُتبت كما يبدو من أحد قادة المجتمع القمراني القديم، وهي تبيّن عدداً من المبادئ التي سادت المجتمع القمرانيّ، وقد أظهر سترغنيل هذه المخطوطة في مؤتمر عام 1985م، لكنه لم ينشرها حينها، ولم ينشرها حتى الآن مع أن النص كلّه لا يتجاوز 121سطراً.

أمّا الوثيقة الثانية فكانت ذات دلالة حديثة أكثر من الأولى، فقد احتوت على قائمة مطبوعة، تشمل كل نصوص قمران التي بحوزة الفريق الدولي، إن ما يعطي هذه الوثيقة أهميتها هو إنكار الفريق الدولي الدائم لحيازتهم هذه المطبوعة أو القائمة، وبذلك كانت لإثبات أن مقداراً كبيراً من مواد قمران لم تُنشر بَعد، ومازالت تحت حجز الفريق.

لم يكن لدى إيسنمان أي تردد أمام ما سيفعله، قال:

حيث إنني أعد أن إحدى المشكلات الرئيسة بين الباحثين، والتي أدّت إلى الحالة الراهنة في المقام الأوّل، كانت فرط الحماية والسرية الشديدة، فقد قرّرت نشرَ أي مادّة بين يديّ دونما أي شروط، هذه هي الخدمة التي يمكن أن أقدّمها، إضافة إلى ذلك، فهذا الأمر يمكن أن يقوّض الاحتكار الدوليّ لهذه الوثائق .

وتبعاً لذلك قام إيسنمان بتوفير نسخة مصوّرة من وثيقة م.م.ت لأيّ شخصٍ رغبَ برؤيتها، وقد انتشرت هذه النسخ المصوّرة بسرعةٍ كبيرة، حتى إن إيسنمان نفسه تلقّى منها نسخةً بعد مرور سنة ونصف، وذلك من فريقٍ ثالث، كان يتساءل إن كان إيسنمان قد اطلع على الوثيقة، وتمكّن إيسنمان من تمييز النسخة المصوّرة بأنها واحدة من النسخ التي سمح بنشرها أصلاً.

وكذلك الأمر مع الوثيقة المطبوعة التي نُشرَت كما ينبغي، مؤديةً إلى التأثير الذي كان إيسنمان يتوقّعه، أرسل إيسنمان نسخةً مصوّرةً من الوثيقة لهيرشل شانكس من مجلّة بايبليكال آركيولوجي ريفيو، مُعطياً الصحيفةَ بذلك ذخراً من المعلومات لإعادة شنّ حملتها.

وفي هذا الوقت كانت علاقات إيسنمان بالفريق الدولي في تدهورٍ مستمرّ ظاهرياً، اتّبع كُلٌّ منهما سلوكاً أكاديمياً مُحترماً تحت قناع حضاري مزيف، فلم يكن ممكناً على كلّ حال للفريق الدوليّ أن يشُنَّ هجوماً علنياً على أفعال إيسنمان، إلا أن الشرخ بينهما كان يكبر أكثر فأكثر، ولم يستغرق الأمرُ وقتاً طويلاً حتى ظهرت محاولة مدروسة للحدّ من نشاطاته.

في كانون الأوّل من عام 1989م زار إيسنمان المسؤول الجديد لقسم الآثار القديمة في إسرائيل عمير دروري، وعن غير قصد قام دروري بإبلاغ إيسنمان أنه في طور توقيع اتفاقية مع المحرّر المسؤول للفريق الدولي جون سترغنيل، ووفقاً لهذه الاتفاقية سيجري السيطرة على تلاعب الفريق، وسيجري إلغاء الموعد النهائي لنشر المخطوطات والذي سبق أن حدّده الأب بينوت، وبذلك أصبح الموعد النهائي لنشر المخطوطات عام 1996م، وليس عام 1993م.

وعلى نحو مألوف أُصيب إيسنمان بقلق شديد، وباءت كلّ المحاولات لثني دروري عن قراره بالإخفاق، وعند مغادرته للاجتماع عَزَم َإيسنمان على وضع خطط جديدة وأكثر تأثيراً لتحقيق هدفه، فقد كانت الوسيلة الوحيدة للضغط على الفريق الدولي وعلى قسم الأثريات القديمة، وحتى لإيقاف دروري عن المتابعة في موضوع الاتفاقية هي اللجوء إلى محكمة العدل العليا في إسرائيل التي تعاملت مع مواضيع إساءة تطبيق أحكام العدالة والدعاوى الفردية.

استشار إيسنمان عدداً من المحامين، وكان الجواب إمكان إقناع المحكمة العليا بالتدخّل، ولتحقيق ذلك على أيّ حال، كان لا بدّ لإيسنمان من تقديم إثبات للمحكمة عن إساءة تطبيق أحكام العدالة، وكان الأفضل أن يقدّم إثباتاً خطياً، يبيّن فيه رفض طلب باحث مُجاز بالاطلاع على المخطوطات، في الوقت الحالي لم يتوافّر هذا الإثبات، أو على الأقلّ ليس بالطريقة القانونية التي تطلبها المحكمة، طبعاً كان هنالك عدد من الباحثين الذين رُفضَ طلبهم بالاطلاع على المخطوطات، إلا أنّ بعضهم كان قد توفّي، وتفرّق الآخرون في أنحاء العالم، ومن أجل ذلك كان لا بُدّ من التقدّم لسترغنيل بعددٍ من الطلبات الجديدة للاطلاع على مواد معيّنة من المخطوطات التي لا بدّ من أنه سيرفضها في النتيجة، وعندها ستصبح مهمّة إيسنمان أسهل كثيراً لامتلاكه أرقام لائحة الطلبات.

لم يرغب إيسنمان في تقديم الطلب وحده، فقد شعر بأن موقفه سيكون أكثر تأثيراً إن كان مُعَزّزاً بدعم باحثين آخرين، فطلب المساعدة من فيليب ديفيز من جامعة شيفيلد الذي وافق على تقديم كامل الدعم الضروري في معركةٍ داخل المحكمة الإسرائيليّة العليا، أدرك الاثنان أنها ستكون طويلةَ الأمد، في 16 آذار عامٍ 1989م تقدّم كلا البروفيسورين برسالة رسميّة لجون سترغنيل، طلبا فيها الاطلاع على بعض الأجزاء الأصلية، وصور لبعضٍ الأجزاءٍ التي وُجِدَت في موقعٍ معيّن من الكهف الرابع لقمران، والتي أُدرجت في القائمة المطبوعة التي سبق أن سرّبها إيسنمان، ولتجنّب أي سوء فهم لطلبهما قاما بإرفاق أرقام الإحالات، أي أرقام القيد المتّبعة في المطبوعة إلى مسودات الصور، كما طلبا الاطلاع على عدد من التعليقات المرافقة للمخطوطات أو حتى أجزاء منها فقط، وعرضا دفع كل التكاليف المطلوبة، مع تعهّد بعدم نشر أي كتابات ذات صلة أو أي ترجمة للمواد المطلوبة، وعدم استخدامها إلا فيماً يتعلّق بأبحاثهما، كما تعهّدا بالتزام كل الإجراءات الاعتياديّة بشأن حقوق النشر.

وفي رسالتهما أقرّ إيسنمان وديفيز بالوقت والجهد الذي بذله الفريق على مرّ السنوات، إلا أنّهما يعدان الفريق قد عُوّض من قبل عن هذا الجهد باستمتاعه وقتاً طويلاً بالاطلاع الحصريّ على مواد قمران، ففي رأيهما تعدّ مدة 35 إلى 40 عاماً كافية لينتظر باقي الباحثين الحصول على هذا الامتياز بالاطلاع على مواد قمران، والذي لن نستطيع من دونه متابعة أبحاثنا على نحوٍ مؤثر، وتابعت الرسالة:

لقد تمثّلت مهمّتكم الأصليّة بنشر هذه المواد بالسرعة القصوى، وذلك لما فيه مصلحة مجتمع الباحثين على نحوٍ عام، ولم تكن تعني أن تتحكّموا بها، ولكان اختلف الأمر لو كنتم أنتم من اكتشف هذه المواد في المقام الأوّل، لكنكم لستم من قام بذلك، بل إن المواد عزيت إليكم، فالحالة التي نحن عليها وصلت إلى أقصى حدود التطرّف، ولذلك ولأننا باحثون ناضجون، وفي أقصى حدود طاقاتنا، رأينا أنه سيكون عبئاً علينا، وأمراً صعباً أن يُطلب إلينا الانتظار بعد 40 عاماً من اكتشاف هذه المواد .

توقّع إيسنمان وديفيز أن يرفض سترغنيل طلبهما، إلا أن سترغنيل على أي حال لم يكلّف نفسه عناء الرد قط، وفي الثاني من أيار كتب إيسنمان إلى عمير دروري، الذي سبق أن جدّد في مطلع العام احتكار الفريق الدولي للمواد بتمديد الموعد النهائي للنشر إلى عام 1996م، وقد أرفق إيسنمان رسالته بنسخة إلى سترغنيل، يذكر فيها أنّه جرى إرسال الرسالة إلى عنواني سترغنيل في هارفارد وفي القدس، وكتب عن عدم ردّ سترغنيل على

طلبه ما يلي: بصراحة لقد سئمنا من معاملتكم لنا بهذا الازدراء، وإنّ هذه المعاملة المتعجرفة ليست ظاهرةً جديدة، لكنها جزءٌ من العمليّة التي استمرّت مدّة 20 إلى 30 عاماً أو أكثر .

وحيث إنّ سترغنيل لم يمنح الإذن بالاطلاع على مواد قمران، فقد طلب إيسنمان تدخّل دروري، لأنه أعلى سلطةً لمنحه الإذن، ومن ثمّ قام بإبداء فكرتين مهمّتين، ما دام الفريق الدوليّ يتميز بسيطرةٍ مُستمرة على نصوص قمران، فلن يكون عندها كافياً تسريع الجدول الزمني لعمليّة النشر فقط، ولن يكون كافياً ومُرضياً أقلّ من فتح مجال كامل لكل الباحثين للاطلاع على النصوص، والتحقق من النتائج التي خَلُصَ إليها الفريق، والسماح بتنوّع الترجمات والتحليلات، ومحاولة تبيّن أي صلات قد يكون الفريق أغفلها:

لا يمكننا التأكّد من أنهم قاموا بمعالجة كل الأجزاء التي يمكن أن تتعلّق بوثيقة ما، أو أنهم يقومون بترتيب هذه الأجزاء بطريقة صحيحة، كما لا يمكننا التأكّد إن كانت كل الاكتشافات تامّة، وأنّ أياً من الأجزاء لم تُفقَدْ أو تُخرّب أو تُغفَل بطريقة ما أو لسببٍ ما، ولا يمكننا أن نكون واثقين إلا في حال عمل مجتمع الباحثين المهتمّين بالموضوع يداً واحدة.

الفكرة الثانية ستظهر ولو استرجاعيّاً كأنها مألوفة، فالفريق الدولي ركّز على علم الآثار القديمة ودراسة الكتابات القديمة، وعلى أساس دراساتهم الدقيقة، بحسب زعمهم في هذين المجالين جرى افتراض تواريخ النصوص القمرانية ومن ثمّ اعتمادها، ومع ذلك فإنّ النصوص ذاتها أُخضعَت لاختبارات الكربون التي كانت متوافرة في فترة اكتشاف المخطوطات، ولم تكن هذه الاختبارات حينها دقيقةً، وكانت تستهلك الكثير من مواد المخطوطات، ومخافة فقدان قسم كبير من النصوص جرى فحص بعض المخطوطات فقط من تلك التي كانت في بعض الجرار التي فُحصت أيضاً، وهذه الاختبارات أثبتت تواريخ تعود إلى بداية العهد المسيحي، ولم يجرِ فحص أي من المواد باستخدام التكنولوجيا الحديثة من أجهزة اختبار الكربون كربون ـ14، على أنّ كربون ـ 14 قد جرى تحديثه بتقنيّة التحليل الطيفي المتسارع للمادّة، وهنا لا يُفقَد إلا جزء صغير من المادة، وتكون النتائج أكثر دقّةً، ولهذا اقترح إيسنمان أن يقوم دروري باستخدام سلطاته وأداء اختبارات أحدث، كما أوصى بالسماح لمن هم خارج الفريق بمتابعة الاختبار لضمان دقته، وقد ختم رسالته بطلبه التالي: الرجاء التحرّك لإطلاق هذه المواد لكلّ الباحثين المهتمّين الذين هم في أمسّ الحاجة إلى هذه المواد في بحوثهم، وذلك من دون أيّ ميلٍ أو تفريق وعلى نحوٍ سريع .

ولا بدّ أن دروري قد حث سترغنيل في القدس على تقديم ردٍ في 15 أيار، مع أنّ إيسنمان وجّه رسالته لسترغنيل إلى كلا عنوانيه في هارفارد وفي القدس، إلا أنّ سترغنيل عزا تأخيره في الرد إلى أن الرسالة قد أُرسلت أصلاً إلى البلد الخطأ.

وتبعاً لمجلّة بايبليكال آركيولوجي ريفيو فإنّ ردّ سترغنيل الجائر على طلب إيسنمان يبيّن عجرفةً فكريّة متطرّفة، وتدنياً بالمستوى الأكاديميّ لديه، وقد كشف عن حيرته من السبب الذي دفع إيسنمان وديفيزٍ لإظهار رسالتهما لنصف المجتمع الاسرائيليّ، وقد اتهمهم بعدم اتباع أساليب مقبولة.

ولم يكن احتيال سترغنيل على الأمر من أجل رفض طلب إيسنمان وديفيز فحسب، بل من أجل تفادي كل الأفكار الملحوظة التي طرحوها، ووجه إليهما نصيحةً باتباع طريقة بعض النماذج السابقة التي قُدّمَت في الماضي، مُتجاهلاً حقيقة أنّ كل الطلبات السابقة قد رُفضَت، كما اشتكى من أنّ المطبوعة التي استخدمها إيسنمان وديفيز للإشارة إلى أرقام الإحالة لمسودات الصور كانت قديمة وغير مُحدّثة، وبذلك أيضاً تجاهل أن يذكُرَ أن هذه المطبوعة، من دون ذكر وجود أي واحدة جديدة، لم تكن متوافرة لغير أعضاء الفريق الدولي، حتى قام إيسنمان بنشرها.

وقد استجاب إيسنمان لرفض سترغنيل بنشر الموضوع على العلن قدر الإمكان، وفي منتصف عام 1989م أصبح الأمر القضية الأشهر في الصحف الأمريكية والإسرائيلية، وأقلّ منه في الصحف البريطانية، وكان لإيسنمان بعد ذلك الكثير من الاقتباسات في صحفٍ مثل نيويورك تايمز، و واشنطن بوست، و لوس أنجلس تايمز، و شيكاغو تريبيون، و تايم ماغازين، و كندا ماكلينز ماغازين، وقد أكّد خمس أفكار أساسيّة:

1- إن كل الأبحاث التي تناولت مخطوطات البحر الميّت قد احتكرت على نحوٍ غير عادل من مجموعة صغيرة ومحدّدة من الباحثين، مع مصالح محدّدة وتوجهات متحيّزة.

2- إن مقداراً ضئيلاً من مواد قمران وجدت طريقها إلى الطباعة، بينما لا يزال قسمٌ كبير منها قيد الكتمان.

3- إنه لأمرٌ مضلّلٌ الادعاء أن هذا المقدار المزعوم من النصوص الإنجيليّة قد أطلق، وذلك لأن المواد الأكثر أهميّة المتضمنة للنصوص الذهبية المزعوم أنها نصوص جديدة لم تُرَ من قبل، مع الأخذ في الحسبان الحياة التاريخية والدينية في القرن الأوّل.

4- بعد مضيّ أربعين عاماً وَجَبَ توفير الاطلاع على المخطوطات لكل الباحثين المهتمّين.

5- لا بدّ من وضع كل وثائق قمران تحت اختبار التحليل الطيفي المتسارع للمادّة، وأن تُراقب من مخبريين وباحثين مُستقلّين.

وكما كان متوقّعاً فإن معرفة وسائل الإعلام بالخبر أدّت إلى تدهور الأمور، حيث اقتُبِسَ إيسنمان بطريقة خاطئة في مناسبتين مختلفتين، كما انطلق تبادلٌ للإهانات بين كلا الطرفين، أما وراء النزاعاتٍ الشخصية فبقي جوهر المسألة كما هو، ولم يظهر له حلّ، وكما كتب فيليب ديفيز عام 1988م:

إن أي عالم آثار أو باحث ينقّب ويجد نصاً ما من دون أن ينشره للآخرين يستحقّ أن يعامل عدواً للعلم، فبعد أربعين عاماً لم نتمكن من الحصول على تقرير كامل ووافٍ لما جرى التنقيب عنه، كما لم نحصل على أي نشرٍ لهذه المخطوطات.

الفصل الخامس

السياسة الأكاديمية

والجمود البيروقراطي

في أوائل عام 1989م جرى توجيه دعوة لإيسنمان لتقديم بحث في مؤتمر عن المخطوطات، كان مقرراً عقده في جامعة غرونينجين ذلك الصيف، وكان منظم المؤتمر ورئيسه هو المدير العام لمجلة ريفيو دو قمران، المجلة الرسمية الناطقة باسم المدرسة الإنجيلية، مدرسة الآثار الفرنسية الدومينيكية في القدس، حيث إن معظم أعضاء الفريق الدولي هم أعضاء وزملاء في هذه المدرسة، ووفقاً للترتيبات فإنه سيجري نشر جميع الأبحاث التي ستقدم في المؤتمر في المجلة، وبحلول موعد المؤتمر كُشف للعلن تعارض إيسنمان مع الفريق الدولي والخلاف الناجم منه، وطبعاً لم يكن ممكناً سحب دعوة إيسنمان، ومن ثم فقد جرى السماح له بتقديم بحثه، لكن هذا البحث منع من النشر في مجلة ريفيو دو قمران .

وقد شعر رئيس المؤتمر بالخجل كثيراً، وأخذ بالاعتذار لإيسنمان شارحاً، أنه لم يستطع فعل شيء، حيث أصر رؤساؤه في تحرير المجلة على استبعاد بحث إيسنمان، وبذلك كشفت مجلة ريفيو دو قمران صراحةً أنها ليست منتدى حيادياً للفكر العلمي، وإنما صنف من الناطقين باسم الفريق الدولي.

ومع ذلك كانت كفة الميزان تميل لمصلحة إيسنمان، فمثلاً رصدت صحيفة نيويورك تايمز الجدال كاملاً، وقيّمت حجج الأطراف المتناحرة، وفي يوم 9 تموز عام 1989م أطلقت حكمها بافتتاحية عنوانها زهو العلماء، تقول:

تستغرق بعض أعمال المعرفة مثل تأليف القواميس عمر المرء كله، لكن لدى الآخرين ربما تكون أسباب التأخير أقل نبلاً، الطمع في الشهرة، أو المفاخرة، أو كسل واضح قديم لا أكثر.

فتأمّل مثلاً قصة مخطوطات البحر الميت المحزنة، هذه الوثائق التي قد تلقي ظلالاً جديدة مذهلة على بداية تاريخ المسيحية والتطور المذهبي لليهودية، لقد جرى اكتشاف المخطوطات في عام 1947م، لكن لم يجرِ نشر الكثير من المخطوطات غير الكاملة، وبعد أربعين عاماً لا تزال زمرة من العلماء المتراخين يطيلون العمل، على حين ينتظر العالم، ويأكل الغبار القطع الثمينة.

وطبعاً رفضوا السماح للآخرين بالاطلاع على المواد إلى أن يجري نشرها بأسمائهم، إن جدول النشر الزمني لدى جيه.تي.ميليك، وهو فرنسي مسؤول عن أكثر من خمسين وثيقة، يشكل مصدر إحباط استثنائي للعلماء الآخرين، إن علم الآثار خصوصاً عرضة لعلماء يسيطرون على مواده، ومن ثم يرفضون نشرها .

ومع الشجار غير اللائق، والقيل والقال عن عزة النفس المتصدعة، والكلام الحافل بالادعاءات والاستياء، والغضب الكبير الواضح، بدأت جدالات إيسنمان تكتسب أهميةً بغية إقناع الناس، وكان هناك أيضاً تطور آخر له الأهمية نفسها، فقد بدأ الغرباء، أعداء الفريق الدولي بتنظيم أنفسهم وبتوحيد جهودهم، وبدؤوا بإجراء مؤتمرات خاصة بهم، فقد كان مقرراً إجراء مؤتمرين من هذا القبيل في الأشهر التي تلت افتتاحية نيويورك تايمز .

وقد رتب الأستاذ كابيرا من كراكوفيا بمساعدة فيليب ديفيس أول مؤتمر من المؤتمرين، وجرى عقده في موغيلاني في بولندا، خلُص هذا المؤتمر إلى ما أصبح يعرف باسم قرار موغيلاني، باثنين من المطالب الرئيسة، ينبغي للسلطات المعنية في إسرائيل الحصول على لوحات فوتوغرافية لجميع المخطوطات غير المنشورة، وتقديمها إلى مطبعة جامعة أكسفورد للنشر المباشر، وينبغي إصدار البيانات التي جرى الحصول عليها من حفريات دو فوكس في قمران بين عامي 1951م و1956م، حيث إن أكثرها لم يظهر بعد، على نحو منشور وواضح.

وبعد سبعة أشهر ونصف الشهر جرى عقد مؤتمر ثان في منطقة إيسنمان في جامعة ولاية كاليفورنيا في منطقة لونغ بيتش، فقد قدم عدد من الأكاديميين أبحاثاً، وكان من ضمن الأكاديميين إيسنمان نفسه، والأستاذ لودفيغ كونين، والأستاذ ديفيد نويل فريدمان من جامعة ميتشيغان، والأستاذ نورمان غولب من جامعة شيكاغو، والأستاذ جيمس م، روبنسون من جامعة كليرمونت، الذي ترأس الفريق المسؤول عن نشر مخطوطات نجع حمادي، وقد جرى التوصل إلى قرارين، الأول ينبغي إصدار نسخة طبق الأصل لجميع أجزاء مخطوطات قمران غير المنشورة حتى الآن مباشرةً، وهي خطوة أولية وضرورية لفتح المجال أمام العلماء بغض النظر عن رأيهم ونهجهم، القرار الثاني ينبغي إنشاء بنك معلومات لنتائج الفحص بالكربون الخاصة بالمخطوطات المعروفة لتسهيل التأريخ المستقبلي لجميع النصوص والمخطوطات غير المؤرخة في السابق، سواء كانت على ورق البردي، أم رق جلدي، أم أي مواد أخرى.

على كل حال، لم تكن أي من القرارات، سواء الصادرة من موغيلاني أم لونغ بيتش بأي طريقة من الطرق ملزمة قانونياً، ومع ذلك فإن لهذه القرارات أهمية كبيرة في الأوساط الأكاديمية وفي وسائل الأعلام، وعلى نحوٍ متزايد كان الفريق الدولي يجد نفسه في موقف الدفاع، وعلاوة على ذلك بدؤوا، وإن ببطء، بإفساح المجال، فمثلاً، بينما كانت المعارك العلنية مستعرة، سلّم ميليك بهدوء أحد النصوص للأستاذ جوزيف باومغارتن في

الكلية العبرية في بالتيمور، وهذا النص هو النص نفسه الذي طلب إيسنمان وديفيس رؤيته في رسالتهما إلى سترغنيل، على كل حال رفض باومغارتن الذي أصبح عضواً في الفريق الدولي شخصياً السماح لأي شخص آخر بمشاهدة النص المطلوب، ولم يتكلف سترغنيل، الذي كان مفروضاً أنه رئيس للفريق ومعني بالسماح ومراقبة هذه العمليات، عناء إعلام إيسنمان أو ديفيس بما حدث، إلا أن الحقيقة الوحيدة في تسليم ميليك المواد مهما كانت تظهر بعض التقدم، وقد شعر تقريباً بأنه مكره على التخلي عن جزء على الأقل من أملاكه الخاصة، ومعها بعض من عبء المسؤولية.

ولا يزال الأمر واعداً، فقد سلم ميليك نصاً ثانياً، وهذه المرة للأستاذ جيمس فاندركام من جامعة ولاية كارولاينا الشمالية، وقد سمح فاندركام، معارضاً قواعد الفريق الدولي، بوصول النص إلى علماء آخرين، وأعلن: سوف أُظهر الصور لأي شخص يهمه رؤيتها، ولا عجب، فقد وصف ميليك سلوك فاندركام بغير المسؤول، وبعدها سحب فاندركام عرضه.

أدّت مجلة الآثار التوراتية التابعة لهيرشيل شانك دوراً مهماً في حملة الحصول على حرية الوصول إلى مخطوطات البحر الميت، كما أوضحنا سابقاً، لقد كانت بايبليكال آركيولوجي ريفيو هي من فتح وابلاً من الأسئلة لحملة وسائل الإعلام الحالية، عندما نشرت مقالاً طويلاً وقوياً في عام 1985م عن التأخير بنشر مواد قمران، وعندما حصل إيسنمان على نسخة من النماذج المطبوعة من الكمبيوتر، تضم جميع أجزاء المخطوطات التي في حوزة الفريق الدولي، سرب هذه الوثيقة إلى بايبليكال آركيولوجي ريفيو، وهكذا قدم إلى بايبليكال آركيولوجي ريفيو ذخيرة لا تقدر بثمن، في المقابل كانت بايبليكال آركيولوجي ريفيو حريصة جداً على توفير الدعاية ومنتدى مفتوح له.

ومع ذلك وكما لاحظنا أيضاً، كان هجوم بايبليكال آركيولوجي ريفيو، على الأقل جزئياً، موجهاً إلى الحكومة الإسرائيلية التي حملتها المسؤولية عن التأخير، والتي يتحمل مسؤوليته أيضاً الفريق الدولي نفسه، كان إيسنمان حريصاً على أن ينأى بنفسه عن موقف بايبليكال آركيولوجي ريفيو في هذا الصدد، وقد رأى أن هدف الهجوم على الحكومة الإسرائيلية كان صرف الانتباه عن المشكلة الحقيقية لا أكثر، وهي حجب المعلومات.

لقد كانت مساهمة بايبليكال آركيولوجي ريفيو هائلةً على هذا الاختلاف الأولي في النهج، فمنذ ربيع عام 1989م خصوصاً دعمت المجلة وابلاً مستمراً من المقالات، لا هوادة فيها، موجهةً إلى تأخير أعمال قمران البحثية وعيوبها، حيث إن موقف بايبليكال

آركيولوجي ريفيو الأساسي أنه تبقى مخطوطات البحر الميت في النهاية كنوزاً عامة، أما *الفريق الدولي فقد أصبح فريق المحررين الآن عقبةً أمام النشر أكثر من أن يصبح* مصدراً للمعلومات، عموماً لقد تجنبت بايبليكال آركيولوجي ريفيو تقريباً الهزيمة، والحقيقة غالباً ما تقترب من الحدود القانونية المسموح بها للطباعة، على حين قد لا يكون إيسنمان جزءاً من حرص بايبليكال آركيولوجي ريفيو على مهاجمة الحكومة الإسرائيلية، فإنه ما من شك في أن تلك الهجمات قد ساعدت على الأقل في التوصل إلى بعض النتائج.

وهكذا، جرى إقناع السلطات الإسرائيلية باتخاذ بعض التدابير للتحكم بمواد قمران غير المنشورة، ففي شهر نيسان من عام **1989**م عين مجلس الآثار الإسرائيلي لجنة رقابة المخطوطات للإشراف على نشر جميع نصوص قمران، وللتأكد من أن أعضاء الفريق الدولي يقومون فعلاً بالمهام الموكلة إليهم، في البداية ربما كان تشكيل هذه اللجنة نوعاً من عملية تجميلية، قُصد بها نقل الانطباع لا أكثر أن شيئاً بناءً يجري على الأرض، لكن من الناحية العملية واصل الفريق الدولي عمله ببطء، على حين تولت اللجنة المزيد والمزيد من السلطة.

كما لاحظنا، فقد حل جدول سترغنيل الزمني الجديد، الذي هو، نظرياً على الأقل، الأكثر واقعية بموعد نهائي في عام **1996**م، محل جدول الأب بينوا الزمني، ووفقاً لجدل بينوا فإنه سيجري نشر جميع مواد قمران بحلول عام **1993**م، وقد ظل إيسنمان متشككاً على نحو كبير في نيات الفريق، لكن بايبليكال آركيولوجي ريفيو كانت أكثر صخباً، فقد أعلنت المجلة أن الجدول الزمني المقترح كان خدعة واحتيالاً، وأشارت بايبليكال آركيولوجي ريفيو إلى أن الجدول الزمني لم يوقع عليه، ولا يلزم أحداً من الناحية الفنية القيام بأي شيء، ولا ينص البتة على وجود تقدم في التقارير أو وجود دليل على أن الفريق الدولي يؤدي فعلاً وظيفته، وقد سألت بايبليكال آركيولوجي ريفيو دائرة الآثار الإسرائيلية: ماذا سيحدث في حال لم يجرِ التزام المواعيد المنصوص عليها؟.

لكن إدارة الآثار لم ترد على هذا السؤال مباشرةً، ففي **1** تموز عام **1989**م، في مقابلة مع صحيفة لوس آنجلس تايمز أصدر عمير دروري مدير الإدارة ما يمكن عده تهديداً غامضاً، قال: أول مرة لدينا خطة، وفي حال لم ينجز شخص ما عمله في الوقت المحدد فلدينا الحق في تقديم المخطوطات لشخص آخر، ومع ذلك أوضح سترغنيل نفسه في مقابلة مع صحيفة إنترناشونال هيرالد تريبيون كيف قلل أهمية هذه التهديدات، وقال:

نحن لا ندير خط سكك حديدية، وفي مقابلة مع تلفزيون إيه بي سي كان أكثر وضوحاً: في حال لم ألتزم الموعد خلال سنة أو سنتين، فلن أكون قلقاً إطلاقاً، خلال ذلك بقي ميليك كما كتبت مجلة تايم ماغازين: حائراً، مع أن المجلة حاولت الحصول منه على عبارة تعبر شخصياً عن غطرسته، حيث قال: سيشاهد العالم المخطوطات عندما أقوم بالعمل الضروري.

وعلى نحو ثوري له ما يسوغه، واصلت بايبليكال آركيولوجي ريفيو حملتها، وفي مقابلة مع تلفزيون إيه بي سي اشتكى سترغنيل بسخرية خرقاء تقريباً وازدراء واضح من الهجمات الأخيرة التي أصابت زملاءه، وقال: يبدو أننا حصلنا على حفنة من براغيث تعمل على إزعاجنا، وقامت بايبليكال آركيولوجي ريفيو مباشرةً ببث صورة واضحة بشعة للأستاذ سترغنيل محاطاً بما يسمى البراغيث، إضافة إلى إيسنمان وديفيس، ضمت قائمة ما يسمى البراغيث كلاً من الأساتذة: جوزيف فيتسماير من الجامعة الكاثوليكية، وديفيد نويل فريدمان من جامعة ميتشيغان، وديتير جورجي من جامعة فرانكفورت، ونورمان غولب من جامعة شيكاغو، وزد، جيه، كابير من كراكوف، وفيليب كينغ من كلية بوسطن، وتي. إتش، غاستر ومورتن سميث من كولومبيا، وغيزا فيرميس من جامعة أكسفورد، كما دعت بايبليكال آركيولوجي ريفيو جميع علماء التوراة الآخرين الذين رغبوا في أن يطلق عليهم اسم براغيث على الملأ للكتابة فيها، فقد أثارت هذه الدعوة عدداً كبيراً من الرسائل، ومن تلك الرسائل رسالة من الأستاذ جاكوب نويسنر من معهد الدراسات المتقدمة في برينستون، وهو مؤلف عدد من الأعمال الهامة التي تعنى بأصول الديانة اليهودية وسنوات التأسيس للديانة المسيحية، وفي أثناء حديثه عن أعمال الفريق الدولي وصف الأستاذ نويسنر تاريخ بحث مخطوطات البحر الميت بالإخفاق الذريع، وهو ما عزاه إلى الغطرسة وأهمية الذات.

بحلول خريف عام 1989م كنا قد بدأنا نتدارس هذا الكتاب في أثناء العملية، ليزج به، وإن كان بهدوء، في الخلاف، وفي أثناء القيام برحلة إلى إسرائيل لجمع بعض المواد وإجراء بعض المقابلات مع عدد من العلماء قرر مايكل بيجنت أن يتحقق مما يدعى لجنة الرقابة التي جرى تشكيلها مؤخراً للإشراف على عمل الفريق الدولي، فمن الناحية النظرية قد تكون اللجنة أي شيء، أما من الناحية الأخرى قد تكون نمراً من ورق، أي وسيلة لإضفاء الطابع المؤسساتي على التقاعس الرسمي، ومن ناحية أخرى قد توفر اللجنة مجالاً حقيقياً لسحب السلطة من الفريق الدولي ووضعها في أيد أكثر اجتهاداً، فهل من شأن اللجنة فقط أن تسوغ مزيداً من التأخير؟، أم إنها امتلكت السلطة والإرادة على السواء للقيام بشيء بناء أمام الوضع القائم؟.

كان بين الأفراد الذين يشكلون اللجنة عضوان من دائرة الآثار الإسرائيلية، هما عمير دروري رئيس الدائرة، والسيدة أيالا سوسمان، في البداية رتب بيجنت الوضع للتحدث مع دروري، وعند وصوله إلى دائرة الآثار طلب منه التحدث مع السيدة سوسمان بدلاً من دروري، حيث إن السيدة سوسمان ترأس الدائرة الفرعية المكلفة نصوص قمران، كان لدى دروري عدد من المسائل، يجب عليه القيام بها، فقد تركزت أنشطة السيدة سوسمان تحديداً على المخطوطات.

لقد جرى الاجتماع بالسيدة سوسمان يوم 7 تشرين الثاني عام 1989م، وقد عدت السيدة سوسمان الاجتماع بكل وضوح، وربما على نحو مفهوم، اقتحاماً غير مرغوب فيه لجدول أعمالها المزدحم من قبل، وفي الوقت الذي كانت فيه مهذبة جداً، إلا أنها كانت ضيقة الصدر أيضاً، لا مبالية وغامضة، تقدم بعض التفاصيل، وتسعى إلى إنهاء المحادثة بأقرب وقت ممكن، على كل حال كان بيجنت مهذباً، إلا أن الواقع أثبت أنه ضروري أن يصبح ملحاً حتى الإزعاج، ناقلاً الانطباع بأنه على استعداد للانتظار في المكتب طوال النهار، حتى يجري الحصول على بعض الإجابات عن تساؤلاته، وفي النهاية استسلمت السيدة سوسمان.

لقد كانت أسئلة بيجنت الأولى تتعلق بتشكيل لجنة الرقابة ومقاصدها، في تلك اللحظة لم تُعدَّ السيدة سوسمان الشخص الذي يجري معها المقابلة باحثاً يمتلك بعض المعلومات الأساسية عن هذا الموضوع، لكن صحفي عرضي، يتزلج على سطح قصة، فقد أفضت إليه بكل حماقة بأن اللجنة جرى تشكيلها للرد على الانتقادات الواردة من دائرة الآثار، في الواقع كان الانطباع لدى بيجنت أنه ليس لدى اللجنة أي مصلحة حقيقية في المخطوطات ذاتها، وإنما هي نوع من الغطاء البيروقراطي لا أكثر.

فقد سأل بيجنت عن دور اللجنة الرسمي، وعن السلطة الفعلية التي تمارسها هذه اللجنة؟، لكن السيدة سوسمان حافظت على غموضها، وأجابت بأن مهمة اللجنة كانت لإسداء المشورة لعمير دروري مدير دائرة الآثار في معاملاته مع الأستاذ سترغنيل رئيس تحرير نشر أي مادة من مواد قمران، وأضافت السيدة سوسمان أن اللجنة عزمت على العمل عن كثب مع سترغنيل وكروس وأعضاء آخرين من الفريق الدولي، حيث شعرت دائرة الآثار نحوهم بالالتزام، وقد قالت السيدة سوسمان: لقد أنجز بعضهم عملهم على نحوٍ كبير، ولا نريد انتزاع هذا العمل منهم .

وسأل بيجنت ماذا عن مقترح بايبليكال آركيولوجي ريفيو والقرار الذي اتخذته في الاجتماع الذي جرى عقده في موغيلاني قبل شهرين، وهو توفير صورة طبق الأصل أو

صور فوتوغرافية، يحصل عليها جميع العلماء المهتمين؟، لقد بدا تلميح السيدة سوسمان وكأن امرأة تقوم برمي رسالة غير مهمة في سلة المهملات، وقالت: لم يناقش أحد الأمر جدياً، وعلى الجانب الآخر، على قدر يدعو لمزيد من الطمأنينة أشارت السيدة سوسمان إلى أن الجدول الزمني الجديد الذي يقضي بنشر جميع وثائق قمران بحلول عام 1996م كان صحيحاً، فقد أكدت: مثلاً يمكننا إعادة تحديد التاريخ في حال لم يلتزم ميليك المواعيد المحددة، كما أكدت كل نص في حوزة ميليك يحمل تاريخ نشر محدداً في الجدول الزمني، في الوقت نفسه اعترفت السيدة سوسمان بتعاطفها مع موقف سترغنيل، وكشفت أن زوجها، وهو أستاذ في الدراسات التلمودية، كان يساعد سترغنيل في ترجمة إحدى الوثائق التي تأخرت كثيراً، وكانت تتألف من 121 سطراً.

كما كانت السيدة سوسمان قلقة، بدا كل شيء عموماً منظماً، واستمر على نحو مقبول، ومع ذلك بدا انشغال السيدة سوسمان الكبير بالدعاية المعادية التي تستهدف دائرة الآثار أكثر من انشغالها بمواد قمران ذاتها، وهذا ما سبب لها قلقاً شديداً، وسألت بنبرة حزينة تقريباً: «في النهاية، ليست المخطوطات من مهامنا، لماذا تتسبب في هذه المشكلات؟، لدينا أعمال أكثر أهمية، علينا القيام بها».

لقد غادر بيجنت الاجتماع مرتبكاً، فالحكمة المسلم بها في إسرائيل هي لو أراد شخص دفن أي موضوع، فإنه يشكل لجنة لدراسته، والحقيقة التاريخية فقد احتال كل من دو فوكس و بينوا على كل محاولة رسمية سابقة للإشراف على عمل الفريق الدولي، فهل هناك أي سبب يجعلنا نفترض أن الحال سيتغير؟.

في اليوم التالي التقى بيجنت بالأستاذ شيمارياهو تالمون، وهو أحد العالمين في الجامعة العبرية اللذين كانا أيضاً أعضاءً في لجنة الرقابة، وقد أثبت الأستاذ تالمون أنه رفيق اجتماعي حقاً، فهو ساخر، بارع، كثير السفر، دقيق، وعلى عكس السيدة سوسمان، بدا الأستاذ تالمون أن لديه لمحة عامة عن المشكلة، مع معرفة كاملة بأدق التفاصيل، وأعرب عن تعاطفه مع العلماء المستقلين الذين يسعون للوصول إلى مواد قمران، والواقع أنه قال إنه هو نفسه وجد مصاعب في الماضي، لم يتمكن من الوصول إلى النصوص الأصلية، واضطر إلى العمل بنسخ وبمصادر ثانوية، حيث كانت دقتها في بعض الأحيان مشكوكاً فيها.

وقال الأستاذ تالمون في بداية حديثه مع بيجنت: «الجدل هو شريان الحياة في البحث، وأوضح الأستاذ تالمون أنه عد عضويته في لجنة الرقابة فرصة طيبة للمساعدة

ـ2 تغيير الحال، وقال: ـ2 حال كانت اللجنة كلب حراسة فقط، فإنني حينها سأستقيل، وقد أكد أنه تحتم على اللجنة أن تكون قادرة على تحقيق بعض النتائج الملموسة، إذا أرادت تسويغ وجودها، واعترف بالمشكلات التي واجهوها مع الفريق الدولي، وقال: إن العلماء دائماً تحت الضغط، ودائماً يواجهون الكثير، وإن المواعيد دائماً ما يُخلف بها» وأضاف أنه إذا كان بحوزة باحث معين نصوص كثيرة، لا يمكنه التعامل معها على نحو جيد، يجب عليه حينها التنازل عن بعض منها، فاللجنة تشجع الباحثين على القيام بهذا العمل تماماً، وقد ذكر تالمون أيضاً على نحو عابر أنه وفقاً لبعض الشائعات، لا يزال هناك أجزاء كثيرة من المخطوطات ـ2 الأرشيف غير معروفة حتى الآن، ولم يجرِ تكليف أحد إياها بعد، ولاحقاً ثبت أن هذه الشائعة صحيحة.

ومن ثم سأل بيجنت الأستاذ تالمون عن الجلبة الناجمة من طلب إيسنمان ديفيس ـ2 رؤية وثائق معينة، وأجاب تالمون بأنه كان مع منحهم حق الوصول إلى تلك الوثائق، وقال: «كان هناك حاجة إلى مساعدة الناس ـ2 الاستفادة من المعلومات التي لم تنشر، هذا مطلب مشروع»، وخلُص إلى القول إنه ينبغي أن تكون المخطوطات متاحة لجميع الباحثين المهتمين والمؤهلين، وـ2 الوقت ذاته اعترف بأن بعض الصعاب الفنية ـ2 حاجة إلى تسوية، وتندرج هذه الصعاب التي نتعامل معها الآن تحت ثلاثة عناوين، العنوان الأول القائمة القديمة الموجودة الآن ـ2 حاجة إلى تنقيح وتحديث، العنوان الثاني: ليس هناك حتى الآن حصر كامل لجميع المخطوطات وأجزائها، حيث لم يجرِ تكليف أحد بعض تلك الأجزاء، الشخص الوحيد الذي يعرف الأمكنة هو سترغنيل، العنوان الأخير: هناك حاجة ملحة إلى فهرس أبجدي عام يشمل جميع النصوص المعروفة.

لقد ساور تالمون الشك ـ2 الجدول الزمني الذي يقضي بنشر كل شيء بحلول عام 1996م، وبغض النظر سواء التزم الفريق الدولي مواعيدهم أم لم يلتزم، فقد تساءل تالمون: هل ستكون مطابع جامعة أكسفورد قادرة على إنتاج عدد كبير من المجلدات ـ2 هذا الوقت القصير، وعندما نظر تالمون إلى الجدول الزمني لاحظ أنه كان مقرراً أن يظهر ما لا يقل عن تسعة مجلدات بين عامي 1990م و1993م، فهل يمكن مطابع جامعة أكسفورد التعامل مع هذا الأمر؟ هل يمكن سترغنيل تحرير هذا العدد الكبير ـ2 الوقت الذي لا يزال فيه يعمل على أبحاثه الخاصة؟

وـ2 حال ظهرت هذه المشكلات فإنها ستكون على الأقل عقبات مشروعة، ولا يمكن نسبتها إلى التعطيل أو الحجب المتعمد للمواد، والواقع كانت تلك العقبات الوحيدة التي

كان تالمون على استعداد لتحملها، وكان هذا مطمئناً جداً، لقد بدا أن لجنة الرقابة وجدت في تالمون العالم الجاد والقادر على تحمل المسؤولية وفهم المشكلات، والعالم الذي عقد العزم على مواجهة تلك المشكلات، والذي لن ينثني عن موقفه نتيجةً لذلك القلق.

علم بيجنت أنه كان مقرراً أن تلتقيه لجنة الرقابة في اليوم التالي في الساعة العاشرة، لذلك فقد رتب لقاءً في الساعة التاسعة بالأستاذ جوناس غرينفيلد، وهو عضو آخر في اللجنة، وكان مسؤولاً عن الموظفين في الجامعة العبرية، فقد طرح بيجنت على غرينفيلد السؤال الذي أصبح الآن سؤالاً اعتيادياً، وهو: هل ستتحلى لجنة الرقابة بالسلطة الكافية؟، فأجاب غرينفيلد: نحن نود أن تتحلى اللجنة بالسلطة الكافية، لكن ستتحتم زيادة تأثير هذه السلطة، وحيث إن بيجنت ليس لديه ما يخسره، فقد قرر جعل الموقف أكثر إرباكاً، فكرر للأستاذ غرينفيلد ما كانت أيالا سوسمان قد قالته له، وهو أن اللجنة جرى تشكيلها للرد على الانتقادات الواردة من دائرة الآثار، وطمع بيجنت بهذا الفعل في أن يستطيع انتزاع بعض ردود الفعل.

إن هذه الحركة حقاً قد أدت عملها، فقد اتصلت السيدة سوسمان في صباح اليوم التالي ببيجنت، حيث بدت السيدة سوسمان عصبية في البداية، وقالت إنها منزعجة من بيجنت، لأنه أخبر الأستاذ غرينفيلد بالملاحظة الفظة التي كانت قد صدرت منها، وقالت إن تلك الملاحظة لم تكن صحيحة، ومن غير الممكن أن يكون قد صدر منها أي شيء من هذا، وأكدت السيدة سوسمان قائلةً: نحن حريصون جداً على قيام اللجنة بأعمالها، فطلب منها بيجنت إذا كانت ترغب في أن يقرأ لها ما كتبه من ملاحظات، فعندما وافقت قام فعلاً بقراءة ذلك، لكن السيدة سوسمان أصرت على رفضها، وقالت: قد جرى تشكيل اللجنة لتقديم المشورة لدائرة الآثار بشأن المسائل الدقيقة.

أما ملاحظات السيدة سوسمان الفظة فقد ظنت أنها كانت تتحدث معه بكلام ليس للنشر، فرد بيجنت بأنه كان أصلاً قد رتب مقابلة مع عمير دروري مدير الدائرة للحصول على بيان من جهة رسمية بشأن هذه المسألة بغية نشره بكل دقة، وأن دروري قد أرسله إلى السيدة سوسمان، حيث ظن بيجنت أن السيدة سوسمان لن تدلي أي شيء غير الموقف الرسمي، فكانت النتيجة أنه جرى تسجيل كل ما قيل في المقابلة ليجري نشره.

حينها بدأ بيجنت بتهدئة الوضع، شارحاً أسباب قلقه، حيث قال: لقد كان تشكيل لجنة الرقابة أفضل عمل حدث في القصة المؤسفة كاملة لبحث مخطوطات البحر الميت، لقد قدمت لجنة الرقابة أول مرة فرصة حقيقية للخروج من الورطة، ولتجاوز المشاحنات

الأكاديمية، ولضمان الإفراج عن النصوص التي كان مقرراً الإعلان عنها قبل أربعين عاماً، وهكذا كان محبطاً جداً سماع أن هذه الفرصة الفريدة يمكن تبديدها، وأن اللجنة قد لا تكون أكثر من آلية بيروقراطية للإبقاء على الواقع الراهن، على صعيد آخر، اختتم بيجنت الحديث، وقد تلقى تطمينات خلال محادثاته مع الأساتذة تالمون وغرينفيلد، حيث أبدى كلاهما رغبة صادقة، لا لبس فيها، في أن تكون اللجنة نشيطة ومؤثرة، حينها سارعت السيدة سوسمان للاتفاق مع آراء زملائها قائلةً: «نحن حريصون على الحصول على هذه الحركة، إننا نبحث عن سبل لتحقيق ذلك، ونريد أن يتقدم المشروع كاملاً بأسرع وقت ممكن».

لقد تحركت لجنة الرقابة لتسوي الأمر تقريباً، وذلك نظراً إلى تصميم الأساتذة تالمون وغرينفيلد من جهة، وخجل السيدة سوسمان من جهة أخرى، ومع ذلك بقي هناك السؤال المقلق الذي أثاره الأستاذ تالمون، وهو: هل يمكن تقنياً وآلياً مطابع جامعة أكسفورد إنتاج المجلدات المنصوص عليها وفقاً لجدول سترغنيل الزمني، في حال جرى طرح البرنامج الزمني بمعرفة تامة بأنه لا يمكن إنجاز العمل بالموعد المحدد؟، لعل ذلك قد يكون مخططاً آخر لتأخير الأمور، في الوقت نفسه يُعفى الفريق الدولي من أي لوم؟.

لقد اتصل بيجنت هاتفياً بمحررة سترغنيل في مطابع جامعة أكسفورد بعد عودته إلى المملكة المتحدة، وسألها: هل كان يمكن تحقيق ما ورد في الجدول الزمني؟، هل يمكن إنتاج ثمانية عشر مجلداً عن الاكتشافات في الصحراء اليهودية بين عامي 1989م و1996م؟، لو كان ممكناً سماع اصفرار وجه شخص ما عبر الهاتف لسمع بيجنت ذلك، فقد ردت محررة سترغنيل بأن الأفق يبدو مستحيلاً، وقالت إنها قد أنهت اجتماعاً حالاً بسترغنيل، وإنها قد استلمت حالاً فاكساً بشأن هذه المسألة من دائرة الآثار الإسرائيلية، وقالت: «عموماً، لقد جرى الإقرار بأن المواعيد كانت غامضة جداً، وقد جرى اتخاذ كل موعد على نحو مشكوك في أمره، لن نتمكن من إنتاج أكثر من مجلدين أو ثلاثة على الأكثر في السنة الواحدة».

لقد ذكر بيجنت أن كل من دائرة الآثار و لجنة الرقابة شعرتا بالقلق مما إذا كان سيجري التزام مواعيد الجدول الزمني، فردت محررة مطابع جامعة أكسفورد: إنهما على حق في أن يقلقوا بشأن المواعيد، ومن ثم أعربت عما بدا كأنه رغبة في المماطلة في المشروع برمته، وقالت المحررة أيضاً إن مطابع جامعة أكسفورد لم ترَ حاجة إلى الطلب منها أن تحتفظ بكامل السلسلة لنفسها، فربما يكون هناك مطابع أخرى جامعية أو غير

جامعية ترغب في النشر المشترك؟، حتى إن المحررة لم تكن على يقين من أن مطابع جامعة أكسفورد قد غطت تكاليفها لكل مجلد.

خلال الأشهر الأربعة الأخيرة من عام 1990م بدأت التطورات المتعلقة بالفريق الدولي واحتكاره تحدث بوتيرة متسارعة، فقد واجهت انتقادات العلماء الذين حرموا من الوصول إلى مواد قمران دعاية وتداولاً متزايداً، وبدا أن الحكومة الإسرائيلية كانت عرضة للضغط المتزايد، وقد ازداد هذا الضغط بسبب مقالة نشرت في مجلة ساينتيفيك أميركان ـ العلم الأمريكي، في شهر تشرين الثاني، تدين بشدة التأخير والواقع العام، وقد منحت العلماءَ المستقلين مساحة يعبرون فيها عن شكواهم.

في منتصف شهر تشرين الثاني تسربت أخبار أن الحكومة الإسرائيلية قد عينت عالماً من أجل مخطوطات البحر الميت، هو إيمانويل توف للعمل رئيس تحرير مشتركاً للمشروع لترجمة مجموعة مواد قمران كاملة، ويبدو أن هذا التعيين قد جرى من دون التشاور مع رئيس التحرير الموجود جون سترغنيل، وقيل إن سترغنيل قد عارض ذلك، وبحلول ذلك الوقت كان سترغنيل مريضاً في المستشفى، ولم يكن متيسراً له التعليق، أو كما يبدو القيام بأي معارضة جدية، في ذلك الوقت أيضاً بدأ زملاؤه السابقون مثل فرانك كروس بالنأي بأنفسهم عنه وانتقاده علنياً.

وكانت هناك أيضاً أسباب أخرى لتسلسل الأحداث هذا، ففي وقت سابق من شهر تشرين الثاني أجرى سترغنيل من مسكنه في المدرسة الإنجيلية مقابلة مع صحفي، يعمل في صحيفة هآرتس، وهي إحدى الصحف الرائدة في تل أبيب، لكن السياق الدقيق لتصريحاته ليس واضحاً تماماً في الوقت الراهن، غير أن تصريحاته، كما نقلتها الصحافة العالمية، تبدي أنه لم يكن يخطب ود السلطات الإسرائيلية، كما تبدي لرجل في مكانته افتقاراً كبيراً إلى اللباقة، ووفقاً لصحيفة نيويورك تايمز الصادرة في 12 كانون الأول من عام 1990م قال سترغنيل، وهو شخص ينتمي إلى الطائفة البروتستانتية، وقد تحول إلى الطائفة الكاثوليكية، عن اليهودية: إنها ديانة رهيبة، إنها هرطقة مسيحية، ونحن نتعامل مع الزنادقة بطرق مختلفة، بعد يومين نشرت صحيفة التايمز المزيد من تصريحات سترغنيل: «أعتقد أن اليهودية ديانة عنصرية، وهي أمر بدائي جداً، ما يزعجني من اليهودية هو أن اليهود يكونون في مجموعة».

ووفقاً لصحيفة إندبندنت اللندنية قال سترغنيل أيضاً: «إن لحل الكلمة المشؤومة، لليهودية هو التحول كلياً إلى المسيحية».

على كل حال ليست هذه التعليقات في ذاتها ذات صلة مباشرة بمسألة بحث مخطوطات البحر الميت، وحجب مواد قمران عن الباحثين الآخرين، والمماطلة في الإفراج عن تلك المواد، لكن كان متوقعاً أن تعزز هذه التصريحات صدق رجل مسؤول عن ترجمة نصوص يهودية قديمة ونشرها، وليس مستغرباً أن يعقب ذلك الأمر فضيحة كبرى، وقد غطتها الصحف البريطانية، وقد نُشرت على الصفحات الأولى للصحف في إسرائيل، وفرنسا والولايات المتحدة، فقد سعى زملاء سترغنيل السابقون للتبرؤ منه بلباقة، لكن في الوقت نفسه بأسرع وقت ممكن، بحلول منتصف شهر كانون الأول جرى الإعلان عن أن سترغنيل فُصل من وظيفته، وكما يبدو اشترك زملاؤه السابقون والسلطات الإسرائيلية في هذا القرار، وقد ذُكر أن التأخير في النشر ومشكلات صحية كانت عوامل ساهمت في إقالته.

القسم الثاني

ممثلو الفاتيكان

الفصل الأول

مهاجمة العلم

حتى الآن أشار هذا الكتاب إلى مجموعة الأنذال باسم الفريق الدولي، وفي خضم حديثنا معهم سيشير روبرت إيسنمان وآخرون إلى المدرسة الإنجيلية بمدرسة الآثار الفرنسية الدومينيكية في القدس، والحقيقة أنه قد جرى استخدام الفريق الدولي والمدرسة الإنجيلية بطريقة تبادلية متكررة، وسيشير آليغرو في رسائله أيضاً إلى الفريق الدولي باسم عصابة المدرسة الإنجيلية، تسألنا: لمَ يجري استخدام هذا الارتباط باستمرار؟، لمَ جرى التعامل مع الفريق الدولي والمدرسة الإنجيلية كأنهما كانا الشيء نفسه؟، ما العلاقة التي كانت تجمعهما؟، هل جرى تعريف العلاقة ووصفها رسمياً؟، هل كان الفريق الدولي رسمياً ملحقاً بالمدرسة الإنجيلية؟، أم هل كان التداخل بينهما كبيراً جداً، حتى إن أي علامة مميزة يمكن وصفها بغير الضرورية؟، لقد سعينا لتوضيح هذه المسألة مع بعض النصائح والتلميحات من إيسنمان.

وكما لاحظنا لقد سيطر الأب دو فوكس منذ البداية على الفريق الدولي، ثم قام مدير المدرسة الإنجيلية بالمهمة، ومن ثم صديقه، وتابعه المقرب في وقتها الأب ميليك، وقد اشتكى آليغرو من أن كلا الرجلين يعزو إلى نفسه الأحقية الأولى بالنصوص القادمة، قال: جرى جلب جميع أجزاء المخطوطات في البداية إلى دو فوكس أو ميليك، ومن ثم جرى التكتم على طبيعة تلك الأجزاء فترة طويلة، بعد أن قامت هذه المجموعة بدراسة تلك الأجزاء، حتى إن سترغنيل قال إنه عندما كانت تأتي المواد مباشرة، كان ميليك ينقض عليها دائماً، ويدعي أنها تخص مهام وظيفته، وليس مستغرباً حصول ميليك على نصيب الأسد من أهم المواد، خاصة المواد الطائفية المثيرة للجدل، وقد أدت إقامته الدائمة في القدس في ذلك الوقت إلى تسهيل خلق ذلك الاحتكار الذي قام به، إضافة إلى اثنين من أشد المؤيدين له، وهما دو فوكس والأب جان ستاركي، ومن ثم رمى الأب سكيهان بثقله على هذا الثلاثي مع أنه ليس مقيماً دائماً في القدس، كذلك فعل الأستاذ كروس الذي جرى تكليفه تقريباً المواد الإنجيلية بدلاً من المواد الطائفية، وطبعاً قام آليغرو بدور المتمرد، لكن وجوده المتقطع في القدس أدى إلى عرقلة معارضته، فقد كان جميع المقيمين في القدس خلال فترة التنقيب الحاسمة، وشراء المواد، وتوزيع النصوص، ومقارنة أجزاء المخطوطات، عدا الشاب جون سترغنيل الذي كان قد تحدى دو فوكس بطريقة أو بأخرى، فلم يكن سترغنيل كاثوليكياً، وقد تحول إلى الكاثوليكية لاحقاً، لكن الآخرين كانوا قساوسة في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، يتبعون ويقيمون في المدرسة الإنجيلية، ومن الأعضاء الحاليين الآخرين في الفريق، إضافة إلى أولئك الذين يكتبون عما يخص دراسات مواد قمران، ويعملون في المدرسة الإنجيلية، كان الأب إيميلي بويتش والأب جيروم موريف أوكونور.

لم تكن سيطرة الاجتماع السري الكاثوليكي على أبحاث قمران بسبب الواقع الحرج فقط، وعلى نحوٍ مؤكد لم تكن تلك السيطرة بسبب أي تفوق بارز في هذا المجال، في الواقع لم يكن هناك أي نقص في ملاك العلماء المختصين أو الكفوئين الذين جرى استبعادهم كما لاحظنا، لقد كان العامل الرئيس والحاسم هو المدرسة الإنجيلية نفسها، التي تعهدت بطريقة منهجية بأن توفر لنفسها وظيفة، تتصف بالتفوق المنقطع النظير، حيث تمتلك المدرسة الإنجيلية مجلة خاصة بها، هي مجلة ريفو بايبليكال، ويشغل دو فوكس منصب رئيس التحرير، حيث نشر في صفحاتها بعض أهم المواد المبكرة والأكثر تأثيراً فيما يتعلق بمسألة قمران، وهي مواد تحمل ختم السلطة المباشرة، وفي عام 1958م أطلقت المدرسة الإنجيلية مجلة ثانية اسمها ريفيو دو قمران، وهي مخصصة حصراً للمخطوطات البحر الميت والمسائل ذات الصلة، وهكذا سيطرت المدرسة الإنجيلية رسمياً على اثنين من أبرز المنتديات وأفضلها سمعةً لمناقشة مواد قمران، فيمكن محرري المدرسة الإنجيلية قبول أي مقالة يرونها ملائمة، أو رفضها، ومن ثم كان يمكنهم ممارسة تأثير حاسم في مسار أبحاث قمران كاملاً، وقد جرى افتتاح هذه الوظيفة مع البداية الأولى لدراسة مواد قمران.

إضافة إلى المواد التي تنشرها المدرسة الإنجيلية أنشأت هذه المدرسة مكتبة أبحاث خاصة، موجهة خصيصاً إلى دراسات قمران، حيث جرى تجميع مجموعة من البطاقات المفهرسة، توثق كل كتاب، وكل مادة علمية، وكل تقرير عن مخطوطات البحر الميت جرى نشره في الصحف أو المجلات بأي مكان في العالم، كما جرى تجميع كل المنشورات المتعلقة بهذا الموضوع وأرشفتها داخل ملفات، ووضعها في مكتبة تُمنع العامة من دخولها، ومع الاحتفاظ ببعض مواد المخطوطات السرية وغير المصنفة، والتي لم يكلفها أحد بعد داخل المدرسة الإنجيلية، إلا أن متحف روكفيلر ضم معظم تلك المواد، ومع ذلك جرى تخفيض منزلة متحف روكفيلر ليصبح مكان عمل، وقد أصبحت المدرسة الإنجيلية المقر الرئيس، والمكاتب، و المدرسة، و المركز العصبي، وهكذا فقد رسمت المدرسة الإنجيلية خطةً، لتنصب نفسها وكأنها مركز أبحاث قمران الفعلي المعترف به من الجميع، ومركز جميع الأبحاث الشرعية والأبحاث الأكاديمية الحسنة السمعة في هذا المجال، والواقع أنه يمكن ختم التصديق الخاص بالمدرسة الإنجيلية مهر سمعة العالِم وتصديقها وضمانها، وكان حجب هذاالتصديق بمنزلة تدمير صدق أي عالِم.

على كل حال كان مفترضاً أن تكون الدراسات التي ترأستها المدرسة الإنجيلية غير طائفية، وغير حزبية، ومحايدة وغير متحيزة، فقد قدمت المدرسة الإنجيلية للعالم صورة

من الحيادية العلمية، لكن هل يمكن توقع تلك الحيادية من مؤسسة دومينيكية، تحمل على عاتقها حماية المصالح الكاثوليكية؟، وقد قال دو فوكس ذات مرة لإدموند ويلسون: ليس في معتقداتي ما يخشى من أبحاثي، تلك الجملة لا شك فيها أبداً، لكن ذلك السؤال لم يكن في الواقع السؤال الحقيقي، السؤال الحقيقي هو هل كان في بحثه وصدقه ما يخشاه من إيمانه.

عندما أصبحنا نحن ملمين بالأمر، بدأنا نتساءل إذا جرى طرح الأسئلة الصحيحة فعلاً، في حال ألقي باللوم عليهم على نحوٍ عادل، مثلاً، ركزت مجلة الآثار الإنجيلية النقدية بايبليكال آركيولوجي ريفيو على الحكومة الإسرائيلية بأنها المتهم الأول، ولكن إذا كانت الحكومة الإسرائيلية مذنبةً بأي شيء، فإن ذلك الذنب هو خطيئة الإغفال المنطقية، فبسبب نجاح جون آليغرو في إقناع الحكومة الأردنية بتأميم متحف روكفيلر، وبسبب الأحوال السياسية والعسكرية، حرب الأيام الستة وآثارها، وجدت إسرائيل نفسها فجأةً تسيطر على القدس الشرقية التي كانت في أيدي العرب، وحيث يقع متحف روكفيلر والمدرسة الإنجيلية، ولأنها غنائم حرب، أصبحت مخطوطات البحر الميت إسرائيلية فعلياً، لكن إسرائيل كانت في ذلك الوقت تقاتل من أجل بقائها، وفي لحظة الاضطراب، كانت هناك مسائل أكثر إلحاحاً لمعالجتها أكثر من تصنيف الخلافات العلمية أو تدارك المظالم، ولم تستطع إسرائيل تحمل المزيد من السياسة الرامية إلى عزل نفسها على الساحة الدولية باستعداء مجموعة من الباحثين المرموقين، ومن ثم إثارة ردة فعل من المجتمع المثقف، وأيضاً من الممكن جداً أن تثار ردة فعل من الفاتيكان، ونتيجة لذلك اتخذت الحكومة الإسرائيلية إجراءً ملائماً، وهو عدم القيام بأي شيء، والإقرار بالأمر الراهن ضمناً، وببساطة جرى الطلب من الفريق الدولي الاستمرار في عمله.

طبعاً كان الأمر أكثر دقة في إلقاء المسؤولية على كاهل الفريق الدولي نفسه، في الوقت الذي لم يتردد عدد من المعلقين في القيام بذلك، لكن هل كانت الدوافع المنسوبة إلى الفريق دقيقة جداً؟، هل كان ذلك مسألة سمتها صحيفة نيويورك تايمز غرور العلماء، وقد دعاها الأستاذ نويسنر في بايبليكال آركيولوجي ريفيو الغطرسة وتعظيم الذات، مما لا شك فيه، أدت هذه العوامل جزءاً في ذلك، لكن كان السؤال الحقيقي هو المساءلة، فمن الذي كان يحاسب الفريق الدولي في نهاية المطاف؟، نظرياً كان ينبغي أن يكون كذلك لأقرانه، أي علماء آخرين، لكن هل كان ذلك هو الواقع فعلاً، والواقع أنه يبدو أن الفريق الدولي لم يعترف بأي مرجعية للمحاسبة، عدا المدرسة الإنجيلية، ومن كان

يحاسب المدرسة الإنجيلية؟، مع أن إيسنمان لم يتحقق من المسألة، إلا أنه دفعنا لاستكشاف العلاقة بين المدرسة الإنجيلية والفاتيكان.

لقد تناولنا غيره من العلماء في هذا المجال، حيث ذهب بعضهم إلى إدانة الفضيحة علناً، وليجري نشر ذلك، وقد تبين أن الجميع لم يفكروا في التحقق من خلفية المدرسة الإنجيلية وولائها الرسمي، وعلى كل حال أقر العلماء بأن المدرسة الإنجيلية كانت كاثوليكية، لكنهم لم يعلموا إذا كان لها علاقة مباشرة أو رسمية بالفاتيكان، فمثلاً، اعترف الأستاذ ديفيس من شيفيلد بأنه وجد المسألة المثيرة للاهتمام، فلقد تأمل في الأمر، وقال إنه وجد الأمر لافتاً للنظر في أن النقد كان قد انحرف في كثير من الأحيان وباستمرار عن المدرسة الإنجيلية، وكما قال الأستاذ غلوب من جامعة شيكاغو: يشير الناس إلى علاقات بين المدرسة الإنجيلية والفاتيكان، هناك الكثير من الأحداث تتفق مع صحة نظرية العلاقة، لكن لم يتحقق الأستاذ غلوب من الموضوع أكثر من ذلك مثل زملائه.

نظراً إلى الهيمنة الواضحة التي تقوم بها المدرسة الإنجيلية على أبحاث قمران، بدا لنا أنه من المهم جداً التأكد من توجه المؤسسة الرسمي، والتأكد من مواقفها، وولاءاتها، ومسؤولياتها، فقد قررنا أن نقوم هنا بالتحقق من الأمر بالتفصيل، وكانت أهداف ذلك التحقق التوصل إلى كشف رئيس عما يجري، ليس فقط لنا، بل لباحثين مستقلين آخرين في هذا المجال أيضاً.

اليوم في أواخر القرن العشرين يُسلم الجميع بإجراءات البحث التاريخي والأثري ومنهجيته تقريباً، ومع ذلك، حتى منتصف القرن التاسع عشر، لم تكن الأبحاث التاريخية والأثرية قط كما نفهمها اليوم، لم يكن هناك طرق أو إجراءات مقبولة، ولم يكن هناك نظام أو تدريب ثابت، ولم يكن هناك وعي حقيقي بأن هذا البحث يمثل بأي حال من الأحوال نوعاً من العلوم الذي يتطلب الدقة، والمنطقية، والمنهجية المنظمة التي تتبعها جميع العلوم، لم يظهر هذا الميدان، كما كان في حينه، مجالاً من الدراسة الأكاديمية الرسمية، لكنه ظهر مصدر معلومات للهواة المتعلمين وأحياناً للأشخاص العاديين، لقد كانت المنطقة حتى ذلك الوقت غير معروفة، لكي تستوعب أي شيء يمكن تسميته المهنية.

وهكذا في أوائل القرن التاسع عشر مثلاً نقب أشخاص أغنياء من أوروبا في أثناء رحلاتهم التعليمية بطريقة عشوائية عن تحف يونانية أو رومانية لشحنها إلى القصور الفرنسية أو الألمانية أو البيوت الريفية في بلادهم، وفي أثناء البحث عن الآثار غامر عدد قليل أبعد من ذلك، ونقبوا في جميع أنحاء المناطق الخصبة المترامية الأطراف للإمبراطورية العثمانية المحتضرة، والواقع لم ترقَ هذه المشاريع إلى أي شيء يمكن أن

يخص علم الآثار، لكن يمكن عد تلك المشاريع مشاريع اصطياد الكنوز، لقد عدت معرفة الماضي أقل أهمية من أي مكسب ينتج من ذلك، وقامت متاحف مختلفة بتمويل عمليات نهب هذه الغنائم بحثاً عن تماثيل كبيرة ومذهلة لعرضها، فقد كان الطلب العام على قطع أثرية من هذا النوع كبيراً، وكانت الحشود تتدفق على المتاحف لمشاهدة أحدث النصب التذكارية، وكان الإعلام يجد في ذلك سبقاً صحفياً، لكن النصب التذكارية ذاتها كانت إلهاماً للخيال وللتأملات الخيالية أكثر من كونها إلهاماً لأي نمط من أنماط المنهج العلمي، مثلاً يمثل كتاب سالامبو الذي كتبه فلاوبيرت ونشر عام 1862م عملاً استثنائياً في علم الآثار الأدبي، فهو محاولة خيالية عظيمة لإعادة بناء روعة قرطاجة[1] القديمة بدقة علمية فائقة، لكن لم يلحق العلم ذاته في ذلك الوقت بأهداف فلاوبيرت الجمالية، ومن المؤكد أن أي مؤرخ لم يحاول قط استخدام البيانات العلمية المتعلقة بالآثار لإعادة الروح إلى قرطاجة القديمة بكل وضوح.

حتى منتصف القرن التاسع عشر كان ما جرى عده متعلقاً بعلم الآثار في أكثر الأحيان عملاً يُرثى له في حقيقة، فقد كانت اللوحات الجدارية والمنحوتات وغيرها من التحف تتفكك أمام أعين مكتشفيها المرتبكة، والذين لم يكن لديهم علم حقيقي للحفاظ على تلك التحف، فقد كانت تماثيل، لا تقدر بثمن، تُدمر بحثاً عن بعض الكنوز المفترض أنها خبئت في تلك التماثيل، أو ربما جرى تقسيم تلك التماثيل إلى أجزاء، ليسهل نقلها، ومن ثم كانت تُفقد، عندما تغرق المراكب التي كانت تنقلها، حتى إنه جرت مزاولة جميع أساليب التنقيب المنظم تقريباً، لكن لم يجر ربط أعمال التنقيب تلك بالتاريخ، ولا بمبدأ إلقاء الضوء على الماضي، لقد افتقد المنقبون أنفسهم إلى المعرفة والمهارة والتكنولوجيا الضرورية لتحويل اكتشافاتهم إلى أعمال ذات قيمة.

لقد كان والد علم الآثار الحديث المجاز هو هاينريش شليمان، وهو ألماني المولد 1822 م -1890م، وقد اكتسب الجنسية الأمريكية في عام 1850م، فمنذ صباه أعجب هاينريش شليمان كثيراً بعمل هوميروس، الإلياذة والأُوديسَّة، لقد كان مقتنعاً تماماً بأن

---

1 - قرطاجة: كلمة فينيقية، أصلها قَرْتْ حَدَشْتْ، أي القرية الحديثة، ووفقاً لروايات قدماء المؤرخين يرجع تأسيسها إلى الأميرة الفينيقية أليسا أو عليسة أخت بغماليون ملك صور في القرن التاسع قبل الميلاد، وذلك عندما جاءت الأميرة هاربة مع أصحابها من لبنان، فأصبحت قرطاجة مركز انطلاق الفينيقيين لاجتياح أوروبا، والمركز التجاري لغرب البحر المتوسط كله قبل القرن الخامس قبل الميلاد، وعاصمة لإمبراطورية كبرى، حكمت شواطئ المغرب وصقلية وإسبانيا حتى سقوطها في نهاية الحرب البونية الثالثة ضد الرومان، فبعد حصار دام ثلاث سنوات دخلوها، فذبحوا معظم المدنيين، وباعوا من تبقى عبيداً، وحرقوا المدينة ودمروا جدرانها، ويقال إنهم حرثوا الأرض بالملح، لكي لا ينمو فيها أي نبات بعد ذلك، ولا يسكنها أحد، تقع أطلالها الآن قرب تونس العاصمة.

تلك الملاحم لم تكن أساطير فحسب، بل تاريخ جرى سرده في أساطير ووقائع ربما جرى تضخيمها، حتى وصلت إلى الأساطير، لكنها لا تزال تشير إلى أحداث وأشخاص وأماكن كانت حقيقة في يوم من الأيام، ويصر هاينريش شليمان، مقارنة بسخرية معاصريه وتشكيكهم، على القول إن حرب طروادة[1] حدثت حقيقة في الماضي، فلم تكن مدينة تروي نسجاً من خيال شاعر ما، على العكس من ذلك كانت تروي مدينة حقيقية ذات يوم.

يمكن المرء استخدام عمل هوميروس نوعاً من المصورات يمكنه معرفة بعض السمات الجغرافية والطوبوغرافية التي يمكن تمييزها، كما يمكن المرء حساب سرعة السفر التقريبية في ذلك الوقت، ومن ثم تقدير المسافة بين منطقة وأخرى، كان هوميروس قد ذكرها، وخلص شليمان إلى أنه من هذه الوسائل يمكن المرء أن يسلك مسار الأسطول اليوناني في الإلياذة، ويمكنه كذلك تحديد الموقع التاريخي الحقيقي لمدينة تروي، وبعد أداء الحسابات المطلوبة اقتنع شليمان تماماً بأنه وجد الموقع الذي حُدد على المصور.

وبعد أن جمع ثروة من التجارة، شرع شليمان فيما عده معاصروه المشروع الوهمي، وهو إجراء أعمال تنقيب واسعة النطاق عن المنطقة س التي حددها، ففي عام 1868م توجه شليمان إلى اليونان، وشرع باستخدام قصيدة تعود إلى قبل ألفين وخمسمئة عام، حسبما أشار دليله، يسلك الطريق المزعوم للأسطول اليوناني، وفي الموقع الذي ظن أنه الموقع ذو الصلة في تركيا بدأ شليمان بالحفر، وهناك عثر شليمان على مدينة تروي، أو على أي حال من الأحوال المدينة التي تتفق مع وصف هوميروس لمدينة تروي، وهو ما أثار الاستغراب والدهشة والإعجاب في العالم، وفي واقع الأمر عثر شليمان على عدد من المدن، ففي أربع حملات من التنقيب، كشف شليمان عما لا يقل عن تسع مدن، كل واحدة منها تربض على أنقاض المدينة التي سبقتها، وبعد هذا النجاح الباهر والأولي، لم يقتصر شليمان على مدينة تروي، فبعد سنوات قليلة بين عامي 1874م و1876م، بدأ بالتنقيب في مدينة ميسيناي التاريخية في اليونان، فقد عدت اكتشافاته ذات أهمية أكبر من أهمية تلك الاكتشافات التي حققها في تركيا.

أوضح شليمان منتصراً أن علم الآثار يمكن أن يقوم بما هو أكثر من إثبات أمر حدث عبر التاريخ أو دحضه، وشكل أساس أساطير قديمة، كما بين شليمان أيضاً أن علم

---

1 - طروادة- **TROY**: مدينة قديمة على شاطئ البوسفور في آسيا الصغرى، اشتهرت بقصة الحصان الخشبي الذي اختبأ داخله الجنود، وتسللوا ليلاً لفتح أبواب المدينة أمام جيوش الملك مينلاوس بقيادة أخيه أجاممنون الذي حاصر المدينة المنيعة مدة تقارب عشر سنوات، وما كان ممكناً إسقاطها إلا بهذه بالخدعة، وقد خلد حرب طروادة هوميروس الشاعر الإغريقي الذي عاش في القرن التاسع أو السابع قبل الميلاد بملحمته الشهيرة الإلياذة والأوديسة.

الآثار يمكنه أن يبعث الروح في أحداث تاريخية، عادة ما تكون مجردة، ويمكنه أن يشكل محيطاً إنسانياً واجتماعياً واضحاً لتلك الأحداث، ويمكنه تقديم مصفوفة من الحياة والممارسات اليومية التي تمكّن المرء من فهم العقلية والبيئة التي انحدر منها، وأكثر من ذلك أظهر شليمان قوة المنهج والإجراءات العلمية الدقيقة، والمراقبة وتسجيل البيانات الدقيقة، فعندما انكب شليمان على أعمال التنقيب في المدن التسع الرابضة فوق بعضها، استخدم التقنيات نفسها التي أيد العلماء استخدامها في الدارسات الجيولوجية مؤخراً، وقد مكنته هذه التقنيات من التوصل إلى ما يبدو للعقل الحديث مألوفاً، في أن طبقة واحدة من الرواسب يمكن تمييزها من غيرها وفقاً للفرضية الأساسية القائلة إن الطبقة الأدنى هي الطبقة الأقدم، وهكذا أصبح شليمان رائد النظام الأثري المعروف باسم علم طبقات الصخور، لقد قام وحده تقريباً بإحداث ثورة في فكر دراسة الآثار ومنهجيتها.

وطبعاً انتشر إدراك سريع أن أسلوب شليمان العلمي يمكن تطبيقه بسهولة في مجال علم الآثار المستند إلى النصوص الإنجيلية، في عام 1864م، أي قبل أربع سنوات من اكتشاف طروادة كان السير تشارلز ويلسون قائد رويال إنجينيرز قد أرسل إلى القدس، ليقوم بمسح المدينة ورسم مصور نهائي لها، وخلال هذا العمل كان ويلسون أول باحث معاصر يقوم بالتنقيب والاستكشاف تحت المعبد، حيث اكتشف ما كان يظن أنه إسطبلات كانت لسليمان، لقد ألهمته مساعيه تلك ليساعد في المشاركة بتأسيس صندوق الاستكشاف الفلسطيني، والذي لم يكن الراعي الرئيس له أقل من شخص الملكة فيكتوريا ذاتها، في البداية سار عمل هذه المنظمة بأسلوب يفتقر إلى التنسيق، ولكن في الاجتماع السنوي في عام 1886م أعلن ويلسون أن بعض أغنياء انكلترا سيتبعون خطا الدكتور شليمان وسيطبقون أسلوبه العلمي على موقع إنجيلي محدد، وقد أوكل هذا المشروع إلى عالم الآثار البارز ويليام ماثيو فليندرز بيتري الذي كان يعمل في ذلك الوقت في مصر، تبنى فليندرز بيتري طرائق شليمان، وبعد بدايتين غير ناجحتين اكتشف تلاً يحتوي على آثار إحدى عشرة مدينة متراكمة فوق بعضها.

في أثناء عمل فليندرز بيتري في مصر قام بإيجاد تقنية أخرى لتحديد تاريخ الآثار الغابرة، مبنية على نمط من التطور والتغير التدريجي في شكل الأواني الفخارية المنزلية وتصميمها وتزيينها، وقد مكّنه ذلك من إنشاء سلسلة مرتبة زمنياً، لا للمصنوعات الفخارية التي وجدها وحسب، بل للأكوام الحجرية المحيطة بها كذلك، ومع أنه من دون شك غير معصوم من الخطأ، إلا أن أسلوب بيتري قدّم دليلاً آخر على إمكان تطبيق المنهجية العلمية والمراقبة في أبحاث التنقيبات الأثرية، وقد بات أحد الإجراءات التقليدية

التي كان يقوم بها فريقه في فلسطين، ذاك الفريق الذي انضم إليه الشاب جيرالد لانكستر هاردينغ في عام 1926م، وكما أسلفنا، فإن جيرالد الذي ترأس بعد ذلك دائرة الأردن للأثريات كان له دور أساسي في الحفريات الأولية وفي تجميع مخطوطات البحر الميت.

وبينما قام علماء الآثار البريطانيون في مصر وفلسطين بتتبع خطوات شليمان، كان الألمان قد حسّنوا واستفاضوا في إجراءاته، والواقع أن علم الآثار الألماني سعى جاهداً للقيام بما قام به فلوبرت في الخيال في سالامبو، أي إعادة تكوين البيئة والمجتمع الذي حصلنا منه على مصنوعات أثرية معينة إعادة كاملة بأدق التفاصيل، من نافل القول إنها كانت عملية بطيئة ومجهدة، وتتطلب حذراً كبيراً وصبراً لا ينفد، لم ينطو الأمر على التنقيب عن الكنوز أو النصب التذكارية وحسب، بل تضمن كذلك التنقيب عن الأبنية الإدارية والتجارية والسكنية وإعادة بنائها، باستخدام هذا الأسلوب قام روبرت كولدواي بين عام 1899م وعام 1913م بالتنقيب عن آثار بابل، ومن عمله ذاك نشأت لدينا صورة متماسكة، تشتمل على تفاصيل ما كان يعد فيما مضى حضارة ضائعة بكل دقة في المعنى.

إن التقدم الذي شهده القرن التاسع عشر في مجال علم الآثار يعود في جزء كبير منه إلى الدراسة الدقيقة التي قام بها شليمان لملحمة هوميروس، وذلك بإصراره العلمي المنهجي على فصل الحقيقة عن الخيال، وكان واضحاً أنها مسألة وقت لا أكثر قبل أن يجري إخضاع الكتاب المقدس نفسه للنوع نفسه من هذه الدراسة الشديدة الدقة، وقد كان أكبر المسؤولين عن هذه العملية عالم اللاهوت والمؤرخ الفرنسي آرنست رينان المولود في سنة 1823م، بدأ رينان بخوض مهنة الكهنوتية، مدرجاً اسمه في معهد القديس سولبيس لتعليم اللاهوت، ولكنه في عام 1845م تخلى عن هذا العمل الذي قصده في البداية، مدفوعاً من منحة ألمانية إنجيلية للتحقق من الحقيقة الحرفية لتعاليم المسيحية، وفي عام 1860م انطلق رينان إلى فلسطين وسورية في رحلة تنقيب أثري، وبعد ثلاث سنوات نشر كتابه الشهير، أو المشهّر به حياة المسيح الذي ترجم إلى الانكليزية في العام الذي تلاه، لقد سعى كتاب رينان إلى إزالة الغموض عن المسيحية، فقد صور عيسى بصورة إنسان لا يضاهى، ولكنه يبقى إنساناً، أي إنساناً فانياً، وشخصية غير إلهية، كما شكل مراتب للقيم، تدعى في يومنا هذا نمطاً من أنماط الإنسانية العلمانية، لم يكن رينان شخصاً أكاديمياً مغموراً، أو كاتباً عابراً من كتّاب الإثارة، بل على العكس، كان واحداً من أكثر رجال الفكر احتراماً وهيبة في عصره، ونتيجة لذلك كان كتاب حياة المسيح يشكل واحداً من أكبر الاضطرابات في التاريخ لفكر القرن التاسع عشر، وقد صار واحداً من ستة كتب أو أكثر من أكثر الكتب مبيعاً خلال القرن كاملاً، ومن ثم لم تكن

نسخه لتنفد من الأسواق قط، فلدى الطبقة المثقفة في ذلك الوقت صار اسم رينان اسماً مألوفاً بين الناس، كما هو اسم فرويد[1]، أو يونغ[2] في يومنا هذا، ومع عدم وجود تلفاز في ذلك الزمن فإن كتابه قد قرئ على نطاق واسع جداً، لقد حقق كتاب حياة المسيح بسرعة نقلة نوعية في النظرة إلى الدراسات الإنجيلية، ولقد ظل رينان خلال السنوات الثلاثين التي تلت من حياته مصدر إزعاج للكنيسة، إذ إنه نشر أعمالاً لاحقة عن الحواريين، وعن بولس وعن المسيحية الأولى في ظل الثقافة والفكر الروماني الإمبراطوري، كما ألف سلسلتين من الملاحم، هما قصة أصول المسيحية أعوام 1863م - 1883م، وقصة شعب إسرائيل أعوام1887م - 1893م، من غير المبالغ فيه أن نقول إن رينان قد حرر المارد من المصباح، ومنذ ذلك الحين لم تستطع المسيحية إعادته إلى المصباح أو ترويضه.

وفي الوقت نفسه كانت روما تواجه الهجمات من أركان أخرى، فقبل أربع سنوات من ظهور كتاب «حياة المسيح» كان تشارلز داروين قد نشر كتابه أصل الأنواع، وألحقه في عام 1871م بكتاب آخر هو سلالة الإنسان، وهو عمل ذو نزعة دينية أكبر، يشكك فيه بالنصوص الإنجيلية التي تناولت قصصاً عن الخلق، وعلى إثر أعمال داروين ظهر بعده العصر الأكبر لحركة لا أدري[3] الانكليزية، متمثلة بتوماس هاكسلي وهيربرت سبينس، وكذلك كان الفلاسفة المؤثرون والذين انتشرت كتاباتهم في مجال واسع أمثال شوبنهاور[4]، ونيتشة[5] خصوصاً يطعنون، بل يقوّضون على نحو كبير الافتراضات

---

1 - سيغموند فرويد (1856م – 1939م): طبيب نمساوي، يعد مؤسس التحليل النفسي الحديث، من مؤلفاته: تفسير الأحلام، قلق في الحضارة، موسى والتوحيد، الشذوذ الجنسي، الأنا والهو.
2 - كارل يونغ (1875م – 1961م): طبيب نفسي سويسري، يعد مؤسساً لعلم النفس التحليلي.
3 - لا أدرية: -Agnosticism: من اليونانية، وتعني «بلا معرفة»، وهي توجه فلسفي يقول إن القيمة الحقيقية للقضايا الدينية أو الغيبية غير محددة، ولا يمكن أحداً تحديدها، وإن قضايا وجود الله موضوع غامض كلية، ولا يمكن تحديده في الحياة الطبيعية للإنسان، وأتباعها يؤمنون باستحالة التعرف على وجود الله، والتوصل إلى الإيمان به ضمن شروط الحياة الإنسانية.
4 - آرثر شوبنهاور (1788م – 1860 م): فيلسوف ألماني، معروف بفلسفته التشاؤمية، يرى في الحياة شراً مطلقاً، وهو يبجل العدم، ويرى في الانتحار شيئاً جيداً، له كتاب «العالم فكرة وإرادة»، وقد وضع فيه خلاصة فلسفته، حيث يبين فيه العلاقة بين الإرادة والعقل، فيقول إن العقل أداة بيد الإرادة وتابع لها.
5 - فريدريك نيتشه (1844م – 1900م): فيلسوف وشاعر ألماني، يعد من أهم فلاسفة أوروبا إطلاقاً، ومن الفلاسفة الأكثر شيوعاً بين القراء، وهو من أبرز الممهدين لعلم النفس، وكان عالم لغويات متميزاً، كتب عن المبادئ الأخلاقية، والنفعية، والفلسفة المعاصرة بلغة ألمانية بارعة، وفي مجال الفلسفة والأدب يعد نيتشه في أغلب الأحيان إلهاماً للمدارس الوجودية وما بعد الحداثة، كما يعد أول من درس الأخلاق دراسة تأريخية مفصلة، كتابه الأشهر «هكذا تكلم زرادشت» الذي أعاد فيه النظر إلى المبادئ الأخلاقية الفلسفية، ولم تعد بعده الفلسفة الأخلاقية كما كانت، من كتبه الإرادة الحرة و القدر، حياتي، هو ذا الإنسان، المسافر وظله، ما وراء الخير، عدو المسيح.

اللاهوتية والأخلاقية المسيحية المتفق عليها، ووفق مذهب الفن لأجل الفن صارت الفنون تتشكل بعدها ديناً مستقلاً في ذاته، منتقلة إلى الأراضي المقدسة التي كان دينها المنظّم قد بات على نحو متزايد آيلاً إلى السقوط، والحقيقة أن مدينة بايروث الألمانية تحولت إلى معبد لعبادة جديدة وأسس عقدية جديدة، وقد كان الأوروبيون المثقفون يعدون أنه من المقبول جداً أن تكون من أتباع فاغنر[1]، كما يمكنك أن تكون من أتباع المسيح.

كذلك كانت الكنيسة تحت هجوم سياسي دائم، ففي أعوام **1870**م - **1872**م أدى انتصار بروسيا[2] الساحق في حربها على فرنسا، وتشكيل الإمبراطورية الألمانية الجديدة أول مرة في التاريخ المعاصر، إلى ظهور قوة عسكرية عظمى في أوروبا، لا تدين بأي ولاء لروما، حتى إن الإمبراطورية الجديدة لم تكن مسيحية، بل كانت لوثرية [3]، ولكن الكنيسة اللوثرية كانت بدقة أكثر من ملحق للمؤسسة الحربية فقط، والصدمة الأكبر كانت في أن الجيش الموالي لغاريبالدي[4] قد قام أخيراً بحلول عام **1870**م بالتأثير في وحدة إيطاليا، فقد استولى على روما، وانتزع الأراضي البابوية وكل المناطق الخاضعة لسلطة الكنيسة، وقلص الكاثوليكية إلى مرتبة سلطة دينية غير دنيوية.

---

1 - ريتشارد فاغنر: مؤلف موسيقى وكاتب مسرحي ألماني، ولد عام **1813**م، وتوفي في البندقية عام **1883**م، كان معلماً للجوقة الموسيقية في الكنيسة المُلحقة بالبلاط الأميري في درسدن، ولما اعتنق الأفكار الثورية اضطر إلى الهرب إلى سويسرا، تجنب التأنق الصوتي الذي اشتهرت به الأوبرا الإيطالية، وفضل أن يعطي الدور الأول للأداء الأوركسترالي، أيد المسرح الأسطوري، واستطاع أن يجمع بين النص والموسيقى، وأن يوافق بين الأصوات والآلات الموسيقية، كما مكنته طريقته في إعادة تكرار الفكرة الرئيسية عبر المشاهد المختلفة من أن يحافظ على تماسك الموضوع، ويعد رائد النزعة الرومانسية في الموسيقى الألمانية، كان فاغنر أحد الموسيقيين المفضلين لدى هتلر، ولذلك قامت إسرائيل بحظر غير معلن على عزف مؤلفاته الموسيقية.

2 - بروسيا: في الأصل اسم مقاطعة ألمانية دعيت باسم سكانها الأصليين ذوي الأصول البلطيقية، أصبحت منذ عام **1225**م مركز دولة، ثم قسمت إلى جزأين، وعاد فاتسع نطاق مملكة بروسيا، وارتقت إلى مرتبة قوة أوروبية عظمى، أزاحت مملكة النمسا القيصرية عن قيادة الدول الألمانية، وأسست عام **1871**م الإمبراطورية القيصرية الألمانية، تحولت بروسيا عام **1918**م إلى جمهورية، ثم جاءت نهايتها على يد الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية، حيث حلت الدولة البروسية، تتقاسم ألمانيا اليوم أراضي بروسيا عام **1871**م مع ست دول أخرى من فرنسا إلى روسيا.

3 - لوثرية: أسسها مارتن لوثر الذي حاول في القرن السادس عشر القيام بحركة إصلاحية في الكنيسة الكاثوليكية، ثم انفصل عنها، وأسس كنائس مستقلة ذات تنظيم وإدارة جديدة، عرفت بالكنائس الإنجيلية أو البروتستانتية، كانت ألمانيا والبلدان الاسكندينافية أبرز مواطن انتشارها، يتبع هذا المذهب اليوم نحو **70** مليون مسيحي، ينتمون إلى الكنيسة اللوثرية العالمية، وهناك علاوة على ذلك أربعمئة مليون مسيحي بروتستانتي، يتبعون هذا المذهب جزئياً في كنائسهم المختلفة في جميع أنحاء العالم.

4 - جوزيبي غاريبالدي (**1807** م- **1882**م): قائد عسكري ووطني إيطالي، يعد بطلاً قومياً لإيطاليا، قاد الكثير من الحملات العسكرية التي حققت الوحدة الإيطالية، و يعد أحد أبرز رجال حرب العصابات في العصر الحديث، كما لُقّب ببطل العالمين تقديراً لبعثاته العسكرية في أمريكا الجنوبية وأوروبا.

بعد أن حوصرت روما بالكثير من الهجمات من العلم والفلسفة والفنون والقوى السياسية العلمانية، كانت روما قد وصلت إلى وضع مزعزع، لم تختبره في أي وقت مضى منذ قيام حركة الإصلاح اللوثرية قبل ثلاثة قرون ونصف، وقد ردت على ذلك بعدد من الوسائل الدفاعية اليائسة، فكما كان واضحاً، كانت قد سعت عبثاً إلى تشكيل ولاءات سياسية مع قوى كاثوليكية، أو على الأصح كاثوليكية بالاسم فقط، مثل إمبراطورية هابسبرغ[1]، وفي الثامن عشر من شهر تموز سنة 1870م، وبعد التصويت في أول مجمع كنسي للفاتيكان، أعلن البابا بايوس التاسع مبدأ عصمة البابا، وكان مترنيخ[2] قد وصف بايوس التاسع بأنه طيب القلب، ضعيف العقل، ومفتقر تماماً إلى التفكير المنطقي، ولصد التخريب الذي سلطه على الكتاب المقدس كل من رينان والدراسات الإنجيلية الألمانية بدأت الكنيسة بإعداد ملاكها الخاص من الباحثين الشديدي الدقة، وهم النخبة المثقفة الذين يشكلون قوات المواجهة التي يفترض بها أن تتصدى لخصوم الكاثوليكية الذين على أرضها، ومن هنا ظهرت حركة المجددين الكاثوليك.

كان الغرض الأساسي من المجددين أن يستفيدوا من صرامة المنهجية الألمانية ودقتها، لا للطعن في الكتاب المقدس، بل لدعمه، وهكذا جرى إعداد جيل من العلماء الكهنوتيين وتدريبهم بعناية فائقة لتزويد الكنيسة بقوة أكاديمية جاهزة للهجوم، وفيلق معد خصيصاً للدفاع عن الحقيقة الحرفية للكتاب المقدس، مجهّز بأحدث المعدات الثقيلة لآخر الدراسات النقدية، ولكن لمزيد من الخزي والغم لروما أعطى هذا البرنامج نتائج عكسية، فكلما سعت إلى تسليح رجال الدين الشباب بالأدوات الضرورية للنزال في الميدان الجدلي، أخذ رجال الدين أولئك بالتخلي عن القضية التي جرى تجنيدهم لأجلها، لقد كشفت دراسة مركزة ودقيقة للإنجيل عن عدد كبير من التناقضات والتباينات والدلالات غير الملائمة لعقيدة كنيسة روما، وعلى نحوٍ لا يقبل الجدل، بل إن المجددين أنفسهم قد بدؤوا سريعاً بالتشكيك وبتقويض ما كان يفترض بهم أن يدافعوا عنه.

---

1 – هابسبرغ، هابسبورغ: من أهم الأسر الأوروبية الحاكمة، كانت واحدة من أسر الأشراف القوية والمسيطرة في العصور الوسطى عدة قرون، وكان منها معظم ملوك الرايخ الروماني المقدس للأمة الألمانية وقياصرتها، كما تحدر منها عدة من ملوك إسبانيا وحكام النمسا، وملوك المجر، والبرتغال وبوهيميا وغيرها، وعرفت الأسرة برجعيتها الشديدة وبتأييدها المطلق للكاثوليكية، واسمها مستمد من: «**habichtsburg** – قلعة الصقر» في سويسرا، حيث كانت مقراً للأسرة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

2 – مترنيخ، الأمير كلمنز فنزل فون مترنيخ (1773م – 1859م): مستشار النمسا، كان سياسياً ورجل دولة ألمانياً، نمساوياً، وأحد أهم دبلوماسيي عصره، كان يأمل ويخطط لإضعاف الإمبراطوريتين الفرنسية والروسية، فهذا يمكن النمسا من استعادة الأراضي التي فقدتها، واستعادة مكانتها العالية وسط القوى المتصارعة،

فمثلاً، قام ألفرد لويزي، وهو أحد أبرز المجددين وأشهرهم بالتساؤل علناً، ووفق التنقيبات الأثرية والتاريخ الإنجيلي الحديث: كيف يمكن الكثير من معتقدات الكنيسة أن تبقى مسوغة؟، فقد قال لويزي: لقد نادى عيسى بقيام المملكة، ولكن ما قام عوضاً منها كان الكنيسة، كما قال لويزي: إن الكثير من أفكار العقيدة كانت قد تبلورت منها بعدّها ردود أفعال، تكيفت تاريخياً مع وقائع محددة في أماكن وأزمنة معينة، وبناء على ذلك ما كان مفترضاً أن تعد حقائق ثابتة وغير قابلة للتغيير، بل في أحسن حالاتها يمكن أن تعد رموزاً، وبحسب كلام لويزي فإن بعض هذه المعتقدات الأساسية في تعاليم المسيحية، مثل الولادة العذرية، وألوهية المسيح، لم يعد ممكناً الدفاع عنها .

وعندما حاولت روما أن تؤدي دور فرانكشتاين[1] قامت بخلق وحش في مخابرها الخاصة، ففي سنة 1902م قام البابا ليو الثالث عشر قبل وفاته فترة قصيرة بإنشاء اللجنة الإنجيلية الأسقفية لمراقبة عمل الدراسات الإنجيلية الكاثوليكية والإشراف عليها، ولاحقاً في السنة نفسها قام البابا بايوس العاشر، خليفة البابا ليو، بإدراج أعمال لويزي في فهرس محاكم التفتيش للكتب الممنوعة، وفي عام 1904م أصدر البابا الجديد رسالتين بابويتين، يعارض فيهما كل الدراسات التي تبحث وتستفسر عن أصول المسيحية وتاريخها القديم، أما الأساتذة الكاثوليكيون الذين كان يشتبه بأنهم ذوو ميول تجديدية فقد جرى فصلهم من مناصبهم بسرعة.

وطبعاً هؤلاء المجددون الذين يشكلون نخبة المثقفين وأفضل المتعلمين وكياناً متحدثاً في وسط الكنيسة لم يترددوا في الدفاع عن أنفسهم، كما كانوا مدعومين من مفكرين بارزين وشخصيات ثقافية وأدبية شهيرة، ومن هذه الشخصيات في إيطاليا أنطونيو فوغازارو، الذي أصبح عضواً في مجلس الشيوخ سنة 1896م، كما كان يعد فوغازارو الرجل الكاثوليكي الأول من رجال الدين في عصره، كما يعد أعظم روائي بين أقرانه المعاصرين على أقل تقدير، ظهر في إيطاليا منذ مانزوني[2]، كان فوغازارو قد كتب في كتابه القديس : إن الكنيسة الكاثوليكية التي تدعو نفسها ينبوع الحقيقة تعارض اليوم

---

1 – فرانكشتاين: قصة مرعبة كتبتها ماري شيلي، ونشرت عام 1818م، وهي عالم يدعى فرانكشتاين نجح في جمع أعضاء بشرية، وحولّها إلى وحش مخيف مرعب، كان له قوة رهيبة، استغلها فرانكشتاين ضد الأشخاص المقربين منه.

2 – مانزوني ألساندرو فرانشيسكو مانزوني: (1785م – 1873م): كاتب و شاعر إيطالي، يعد أحد أكبر روائيي إيطاليا عبر العصور، خصوصاً روايته «المخطوبون- **I promessi sposi**»، وهي أشهر أعماله، ولا تزال تشكل علامة فارقة في الأدب الإيطالي.

البحث عن الحقيقة، عندما تكون مؤسساتها وكتبها المقدسة وصيغ عقائدها وعصمتها المزعومة موضع الدراسة لدينا، فإن هذا يوضح أنها لم تعد تؤمن بنفسها .

لا حاجة لنقول إن عمل فوغازارو نفسه وضع في فهرس الكتب الممنوعة مباشرة، واستمرت كثافة حملة الكنيسة ضد الحركة التي رعتها وغذتها في البداية، وفي عام 1907م أصدرت محكمة التفتيش مرسوماً ينكر رسمياً محاولات المجددين المشككة في عقيدة الكنيسة والسلطة البابوية والدقة التاريخية للنصوص الإنجيلية، وبعد أقل من شهرين، وفي شهر أيلول جرى الإعلان على نحو لا لبس فيه أن حركة المجددين هي حركة هرطقة، ومنعت الحركة كاملة رسمياً، وفجأة وبتسارع كبير ازداد عدد الكتب المدرجة في فهرس الكتب الممنوعة، وجرى تشكيل رقابة جديدة، أشد صرامة من ذي قبل، وقد قام مفوضون كهنوتيون بمراقبة التعليم بصرامة عقائدية، لم يعرف لها مثيل منذ العصور الوسطى، أخيراً وفي عام 1910م جرى إصدار مرسوم يتطلب من كل المنخرطين في التعليم والوعظ أن يؤدّوا قسماً على إنكار كل أخطاء المجددين، وقد جرى حرمان عدد من الكتّاب المجددين من العضوية الكنسية، كما كان الطلاب في المعاهد والجامعات اللاهوتية ممنوعين من قراءة الصحف.

في الثمانينيات من القرن التاسع عشر كان كل ذلك لا يزال يلقي بعبئه على المستقبل، فقد كان رجال الدين المجددين الذين كانوا في عمر الشباب في ذلك العقد يشعرون بتفاؤل وبساطة ساذجة، وإيمان متقد الحماسة بأن الأبحاث الأثرية والتاريخية المنهجية ستثبت، الحقيقة الحرفية للكتاب المقدس أكثر مما ستناقضها، كانت المدرسة الإنجيلية والأثرية الفرنسية في القدس، والتي أشرفت بعد ذلك على دراسة مخطوطات البحر الميت، متأصلة في الجيل الأول من التجديد، قبل أن تدرك الكنيسة مقدار قربها من الانقلاب على نفسها، كانت هذه المدرسة قد أنشئت سنة 1882م عندما كان أحد الرهبان الفرنسيين الدومينيكانيين في رحلة حج إلى القدس، وكان قد عزم على إنشاء دار دومينيكانية هناك، تحتوي على كنيسة ودير، اختار موقعاً على طريق نابلس، حيث كانت الحفريات قد كشفت عن بقايا كنيسة في ذلك الموقع، وبحسب التراث المتناقل يقال إن ذاك المكان هو المكان ذاته الذي رُجم فيه القديس ستيفن[1] حتى الموت، والذي يعد أول شهيد مسيحي.

---

1 - استفانوس: كان واحداً من الشمامسة السبعة الذين اختارهم الرسل لمساعدتهم بعد العنصرة، وأصبح أول شهيد مسيحي، عندما قرر المجمع اليهودي رجمه بحجة الهرطقة عام 36م، فتحمل الرجم بصبر وثبات، وصلى من أجل راجميه.

لم توافق روما على هذه الفكرة وحسب، بل نمقتها وتوسعت فيها، فقد اقترح البابا ليو الثالث عشر إنشاء مدرسة إنجيلية أيضاً، هذه المدرسة أنشأها الأب ألبرت لاغرانغ في عام 1890م، وجرى افتتاحها في عام 1892م، وقد اشتملت على غرف للمعيشة، تتسع لخمسة عشر طالباً مقيماً، كانت هذه المنشأة واحدة من عدة مؤسسات، جرى إنشاؤها في ذلك الوقت لتزويد الباحثين الكاثوليكيين بالخبرة الأكاديمية الضرورية للدفاع عن إيمانهم ضد التهديد الذي يخلقه التقدم في الأبحاث التاريخية والأثرية.

ولد الأب لاغرانغ عام 1855م، وبعد دراسته للحقوق حصل على شهادة الدكتوراه عام 1878م، ومن ثم التحق بمعهد القديس سولبيس لتعليم اللاهوت، والذي كان مركزاً لدراسات التجديد في ذلك الوقت، وفي عام 1879م صار دومينيكياً، وفي السادس من تشرين الأول عام 1880م وتحت سلطة الجمهورية الفرنسية الثالثة نُفيت كل الجماعات الدينية خارج فرنسا، وهكذا توجه لاغرانغ البالغ من العمر 25 عاماً إلى مدينة سالامنكا في إسبانيا، حيث درس اللغة العبرية، وعلّم التاريخ الكنسي والفلسفة، وفي سالامنكا جرى تنصيبه كاهناً في عيد القديس داغوبيرت في الثالث والعشرين من شهر كانون الأول، وفي سنة 1888م أُرسل إلى جامعة فيينا لدراسة اللغات الشرقية، وبعد سنتين وفي العاشر من آذار عام 1890م، حيث كان عمره خمسة وثلاثين عاماً، وصل إلى دار القديس ستيفن الدومينيكانية في القدس، وأنشأ هناك مدرسة إنجيلية في الخامس عشر من تشرين الثاني، كان اسم المدرسة في البداية المدرسة العملية للدراسات الإنجيلية، كما أنشأ لاغرانغ لهذه المدرسة صحيفة خاصة سماها المجلة الإنجيلية التي بدأ إصدارها عام 1892م، ولا تزال تصدر حتى يومنا هذا، كان يسعى طبعاً خلال هذه المجلة وخلال برنامج الدراسات كذلك إلى صبغ هذه المؤسسة الجديدة بصبغة معينة تجاه الأبحاث الأثرية والتاريخية، التي يمكنه إيجازها على نحوٍ أفضل ما يكون بكلماته الخاصة، وبحسب قول الأب لاغرانغ فإن: المراحل المختلفة للتاريخ الديني الخاص بالبشرية تشكل قصة، وهي تاريخ يوجهه الرب مباشرة وغيبياً، ليوصل في النهاية إلى مرحلة حاسمة، ألا وهي عصر مسيحي يفتتحه يسوع المسيح، ويضيف أن العهد القديم مجموعة من الكتب التي تتضمن سجلاً عن المراحل المختلفة لتراث شفهي استخدمه الرب، ووجهه في عملية التحضير لحقبة العهد الجديد النهائية، لقد كان التوجه واضحاً كفاية حتى جعل لاغرانغ يوظف المنهجية الحديثة كاملة، إذ إنه يوظفها ليثبت ما كان قد قرر من قبل أنه من المسلّمات، أي متفق على صحته، ألا وهو الصحة الحرفية للكتاب المقدس، كما وضعته الطبيعة الحاسمة للعهد الجديد والأحداث التي يوصّفها تاريخياً في الواقع خارج مجال التدقيق والبحث.

عندما أنشأ لاغرانغ المدرسة الإنجيلية عام 1890م لم تكن حركة التجديد قد صارت موضع شك، ومع حلول عام 1902م كانت قد أصيبت بسوء السمعة رسمياً، وعلى نحو خطير، وكما ذكرنا سابقاً، قام البابا ليو الثالث عشر في ذلك العام بإنشاء اللجنة الإنجيلية الأسقفية لمراقبة عمل الدراسات الإنجيلية الكاثوليكية والإشراف عليها، وفي السنة نفسها عاد لاغرانغ إلى فرنسا ليحاضر في تولوز، حيث اتُّهم هناك بأنه من المجددين، وقوبل بمعارضة حانقة، في ذلك الوقت كان مقترح القيام ببحث أثري وتاريخي كفيلاً بوصم الشخص بالعار.

إلا أن البابا نفسه أدرك أن إيمان لاغرانغ لا يزال سليماً، وأن قلبه لا يزال يميل إلى المكان الصحيح، وهذا ما كان يهم الكنيسة، والواقع أن معظم أعمال لاغرانغ كانت تشتمل على دحض منهجي لألفرد لويزي والمجددين الآخرين، وبناء على ذلك أصبح لاغرانغ عضواً، بل مستشار في اللجنة الإنجيلية الأسقفية، كما صارت المجلة الإنجيلية المجلة الرسمية للجنة، وقد ظل الوضع على ما هو عليه حتى عام 1908م، عندما أصدرت اللجنة مجلة خاصة بها سمتها نشاط الكرسي الرسولي [1].

وقد استمرت الاتهامات بالانتماء إلى حركة التجديد في المراتب الكنسية الدنيا، ومن شدة الإحباط الذي كانت تتسبب به هذه الاتهامات ترك لاغرانغ مؤقتاً عمله في دراسات العهد القديم عام 1907م، وفي عام 1912م عزم على هجر الدراسات الإنجيلية كاملة ومغادرة القدس، ولكن وفي الوقت الملائم، استدعي إلى فرنسا، وقام البابا مرة أخرى بالاستنجاد بدعمه، وأعاده إلى منصبه في القدس، وطلب إليه أن يستمر في عمله، وهكذا فإن المدرسة الإنجيلية التي تأسست في البداية قاعدة للتجديد باتت الآن حصناً ضده.

من ضمن الفريق الأساسي للباحثين الدوليين الذين حشدهم الأب دو فوكس في عام 1953م المونسنيور المتوفى باتريك سكيهان، كان الأب سكيهان رئيس كلية اللغات المصرية والسامية والآداب في الجامعة الكاثوليكية في واشنطن، ولاحقاً صار عضواً في اللجنة الإنجيلية الأسقفية، وفي سنة 1955م صار مديراً لمعهد أولبرايت في القدس، بكل هذه الكفاءات التي يمتلكها كان أداة مفيدة في المناورات السياسية التي وطدت لهيمنة المدرسة الإنجيلية على أبحاث مخطوطات البحر الميت، وفي سنة 1956م أدى دوراً أساسياً في تنظيم رسالة لصحيفة التايمز، كانت تهدف إلى عزل جون آليغرو وتشويه سمعته.

---

1 - The Acta Apostolicae Sedis.

كـان الأب سـكيهان أحـد البـاحثين القلائـل الـذين كـانوا مخـولين بالوصـول إلى المخطوطات، وقد قدمت مواقفه بعض الأدلة على توجه البـاحثين الكـاثوليكيين المـرتبطين بالمدرسة الإنجيلية، كتب الأب سكيهان عـام 1966م معلنـاً أن العهـد القـديم لـيس رسمـاً تصويرياً مصغراً عن تـاريخ وقبـل تـاريخ الجـنس البشـري، عنـد حلـول الوقت الملائـم جـاء ربنا، والجزء القويم الملقى على عاتق كل عـالم في العهـد القـديم هـو أن يبحـث في التـاريخ المقـدس مقتفيـاً أثـر التقـدم في وجـود الجاهزيـة لمعرفـة المـسيح عنـدما يـأتي.. .، أي إن المسؤولية الأولية لكل عالم إنجيلي هـي أن يستنبط مـن العهـد القـديم التوقعـات المفترضـة لعقيـدة مـسيحية مقبولـة، أمـا إذا نظرنـا إلى العهـد القـديم بـأي طريقـة أخـرى، فـسيبدو مفتقراً إلى القيمة والارتباط بهذا الـشأن، إنـه لتعريـف غريـب للدراسـة الموضـوعية، ولكـن الأب سكيهان كان أكثر وضوحاً، حيث قال:

يبدو أنه في يومنا هـذا يجـب علـى المختصين الإنجيليين أن يبيّنـوا بأفـضل الوسـائل الممكنة الخطوط العريضة للتقدم الذي قـاد الـرب إليـه بخطـا ثابتـة، كمـا كـان حقـاً، فمـن إنسان العصر الحجري إلى النحاسي، ثم الإنسان الوثني القديم إلى القـدرة علـى التماشـي تقريباً مع الحقيقة الاجتماعية المتمثلة في الكنيسة المسيحية.

لم يقدم الأب سكيهان طبعـاً أي حجـة حقيقيـة للدراسـة الموضـوعية، بـل عـدّهـا في الواقع خطيرة، على نحو لا يقبل الجـدل، وخاصـة تلـك الـتي تجـري علـى أيـدي الناشـرين، يمكنـها أن تـؤدي إلى إفـراط في التبـسيط أو المبالغـة أو الإهمـال أو إلى أمـور أكثـر تعقيـداً وأخيراً يجب على عمل الدارس الإنجيلي أن يكون تابعاً لعقيـدة الكنيـسة ومحـدداً بهـا، وأن يكون خاضعاً على الدوام للسلطة القويمة لكنيـسة الأم المقدسـة، لتشهد علـى مـا ينـسجم والتعاليم التي تلقتها من المسيح على نحو دقيق.

إن دلالات كل هذا صـاعقة جداً، فكل بحث أو استقصاء، بغض النظر عن النتائج التي يمكن أن يكشفها، يجب أن يخضع وأن يتكيف مـع المصطلحات الـتي لـدى تعـاليم الكنيـسة الرسمية، أي يجب تنقيح تلك النتائج أو تعديلها أو تحريفها، حتى تطابق المعايير الأسـاسـية المطلوبة، ولكن ما العمل إن ظهر شيء يلقي الضوء على جزء ما، لا يمكن جعله مطابقـاً لمـا سـلف ذكـره؟، يبـدو لنـا الجـواب واضـحاً مـن كـلام الأب سـكيهان، إن أي مـادة لا يمكنـها أن تخضع أو أن تتلاءم مع العقيدة التي يجب أن يجري إخفاؤها على نحو لا مفر منه.

لم يكن موقف الأب سكيهان فريداً في ذاته، بل تكرر الكلام نفسه علـى لـسان البابـا بـايوس الثـاني عـشر الـذي حـافظ علـى قولـه: إن لـدى مفـسري الإنجيـل مهمـة ومـسؤولية

كبيرتين ليقوموا بهما، وهما على قدر كبير من الأهمية للكنيسة، أما المدرسة الإنجيلية وبحثها المتعلق بمخطوطات البحر الميت فيقول عنها سكيهان:

أليس هناك عناصر من العناية الإلهية في الحقيقة الغريبة التي تنص على أن الأرض المقدسة هي أنسب مكان على الأرض، ليكون مختبراً لدراسة الحياة البشرية على نحو مستمر، ومن دون وجود فترات انقطاع أساسية؟، أظن أن الجواب بلى.

ولهذا يبدو لي أن هنالك قيمة دينية، لا يمكننا قياسها، ولكن هناك عناية إلهية من ورائها هي حقيقة أن بيري لاغرانغ قد أسس معهداً على أرض فلسطين .

سنوات عدة لم يكن معظم الباحثين المستقلين على دراية بشيء من هذه الوصاية الإلهية التي كانت تمتلكها المدرسة الإنجيلية، أو بالتفكير المؤمل للفاتيكان في هذه المسألة، بل على العكس، فقد كانت المدرسة كمعهد علمي موضوعي مكرسة نفسها، من بين الأمور الكثيرة الأخرى، لجمع مخطوطات البحر الميت ومقارنتها، وإجراء الأبحاث عليها وترجمتها وتفسيرها، لا أن تقوم بإخفائها أو تحويلها إلى دعاية مسيحية موجهة، ولذلك فإن أي باحث أو طالب متخرج، مثلاً في بريطانيا أو الولايات المتحدة أو أي مكان آخر، ممن كان قد حقق شيئاً من الثقة الأكاديمية خلال أطروحة أو كتاب نشره في أي ميدان من ميادين الدراسات الإنجيلية كان سيتقدم بطلب للاطلاع على مواد قمران، ولن يكون لدى أحدهم سبب يدعوه ليتوقع أن طلبه سيرفض، بل سيتوقع أن المخطوطات متاحة، ليتدارسها أي شخص حاصل على شهادات أكاديمية قانونية، ولكن ما وجدناه في كل الحالات التي اطلعنا عليها أن كل الطلبات المقدمة لأجل الاطلاع على المخطوطات كانت قد رفضت مباشرة، ومن دون أي اعتذار أو تفسير، مع الإشارة المحتومة والمتزامنة إلى أن مقدم الطلب نفسه غير مؤهل للوصول إلى هذه المخطوطات.

ولنذكر واحداً من هذه الأمثلة الكثيرة، سنذكر حالة البروفيسور نورمان غولب من جامعة شيكاغو، كانت رسالة الدكتوراه التي قدمها البروفيسور غولب تتناول موضوع قمران والمواد المتعلقة بهذا الموقع، والتي وجدت في مصر، ونظراً إلى أنه قد راكم سنوات من الخبرة في هذا المجال، فقد باشر مشروعاً بحثياً للتأكد من تاريخ كتابة هذه المخطوطات، وقد كان البروفيسور كروس العضو في الفريق الدولي قد أنشأ هذا المشروع سابقاً، وشعر غولب بأنه يمكنه تطوير العمل فيه، كان البروفيسور غولب في حاجة طبعاً ليرى بعض النصوص الأصلية لإثبات أطروحته، إذ إن النسخ المصورة فوتوغرافياً لم تكن لتفي بالغرض، وفي سنة 1970م كان في القدس، ومن ثم كتب إلى دو فوكس الذي كان

يترأس المدرسة الإنجيلية والفريق الدولي طالباً الإذن بالاطلاع على المخطوطات، وشارحاً له أنه يحتاج إلى ذلك لكي يؤيد مشروعاً بحثياً، كان قد استغرق منه عدة سنوات، وبعد ثلاثة أيام وصله رد من دو فوكس يقول فيه: إنه لا يمكن أحداً الاطلاع على المخطوطات من دون إذن صريح من العالم المسؤول عنها، وقد كان هذا العالم المقصود في ذلك الوقت هو الأب ميليك الذي لم يكن مستعداً لأن يسمح لأي أحد بأن يرى أي شيء، وهذا ما كان دو فوكس يدركه تماماً، وهكذا وبعد كل الوقت والجهد الذي استثمره غولب في هذا المشروع كان مجبراً على التخلي عنه، وقد قال لنا: منذ ذلك الحين صار لدي سبب وجيه لأرتاب بكل أعمال كروس في تحديد تاريخ النصوص من دراسة الخط.

ومن ناحية أخرى كانت بعض أجزاء مواد قمران ستطرح لتكون متاحة للباحثين المنتسبين إلى المدرسة نفسها، من باحثين شباب ممن هم برعاية الفريق الدولي، وطلاب متخرجين ممن يكون في وصاية أحد أعضاء الفريق، والذين يمكن التأكد من تبعيتهم للسياسة الرسمية السائدة، وهكذا ورث يوجين أولريخ مثلاً من نوتردام الذي كان أحد تلامذة كروس المخطوطات التي كانت في الأصل موكلة للأب باتريك سكيهان، كما يبدو أنه قد ورث شيئاً من موقف سكيهان من الباحثين الآخرين، فعندما سئل عن سبب عدم إصدار نسخ مصورة فوتوغرافياً للمخطوطات أجاب بأن الأكثرية العظمى من الأشخاص الذين سيستخدمون هذه النسخ، ومنهم أساتذة الجامعات العاديون، غير قادرين على الحكم على النصوص البالغة الصعوبة.

ولهذا فقد وجد الباحثون المستقلون من بريطانيا والولايات المتحدة وغيرهما أنه من المستحيل الوصول إلى المخطوطات غير المنشورة، أما الدارسون الإسرائيليون فقد كان الوصول إلى هذه المخطوطات أمراً لا يمكن حتى تخيله، فكما أسلفنا، كان الأب دو فوكس، الذي كان عضواً سابقاً في حركة المبادرة الفرنسية السيئة السمعة، صريحاً في عدائه للسامية، ويبدو أن أعضاء المدرسة الإنجيلية حتى يومنا هذا معادون لإسرائيل، مع أنه من المفترض نظرياً أن تكون المدرسة كياناً محايداً للدراسة الموضوعية، وملجأً للانقسامات الدينية والسياسية التي تمزق القدس اليوم، وعند سؤاله عن عدم مشاركة علماء من جامعة تل أبيب في مراجعة المخطوطات ودراستها أجاب: إننا نسعى إلى النوع الجيد في دراسة مخطوطات قمران، وهذا النوع لا نجده هناك، لقد قام الأب الراحل سكيهان بفصاحته المتميزة والمورطة له في الواقع بتبيان انحيازه وانحياز زملائه المعادي للسامية في رسالة نشر نصها في مجلة جيروزيليم بوست:

أشعر بأنني مجبر على إخباركم بأنه لا يجب علي في أي حال كان أن أمنح أي موظف إسرائيلي أي تصريح، مهما كانت الغاية أو حجم التصريح، للوصول إلى أي شيء

من المحتويات الممتلكة قانونياً في متحف فلسطين للآثار، فأنا أرى أن الدولة الإسرائيلية بكل موظفيها لا تملك أي سبب قانوني يتعلق بالمتحف ومحتوياته .

وكما ذكرنا سابقاً، فقد كان هذا الموقف أيضاً عند الأب الراحل ميليك، لم يعد هو وزميل له، هو الأب الراحل ستاركي، إلى القدس بعد حرب عام **1967**م، عندما انتقلت المخطوطات إلى أيد إسرائيلية، ومرة أخرى بعد ذلك كان موقفهما يماثل موقف الفاتيكان الذي لا يعترف بدولة إسرائيل حتى اليوم، ولكن يتساءل المرء إذا كان تحيزهما قد صادف ببساطة سياسة الكنيسة الرسمية، أم إنه قد أملي عليهم رسمياً من هيئة الكهنوت الكنسية.

الفصل الثاني

محكمة التفتيش المعاصرة

أنشأ البابا ليو الثالث عشر في سنة 1902م اللجنة الإنجيلية الأسقفية للمراقبة والإشراف على سير، أو بالأحرى بطء سير، الدراسات الإنجيلية الكاثوليكية علاجاً لمواجهة العدوى المنتشرة للحداثة، كانت تتألف في البداية من عشرة كاردينالات أو أكثر معينين من البابا نفسه، وعدد من المستشارين، وكلهم ممن يعدون خبراء في مجالاتهم البحثية والدراسية، وفقاً للموسوعة الكاثوليكية الحديثة فإن العمل الرسمي لهذه اللجنة كان ولا يزال السعي بكل الدقة الممكنة، لكي تكون كلمات الرب محمية من كل نفس خاطئة، بل من كل رأي طائش، حتى إن اللجنة أخذت على عاتقها ضمانة أن الدارسين سيسعون بكل ما أوتوا من جهد لحماية سلطة الكتب المقدسة وللرقي بالتفاسير الصحيحة لها.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن الأب لاغرانغ مؤسس المدرسة الإنجيلية كان أحد الأعضاء الأوائل في اللجنة الإنجيلية الأسقفية، كما كانت مجلة المدرسة الإنجيلية، المجلة الإنجيلية حتى عام 1908م المجلة الرسمية للجنة، وعند النظر إلى الارتباط الوثيق بين المؤسستين يبدو لنا بوضوح أن المدرسة الإنجيلية الأولى كانت ملحقاً للآلة الدعائية للجنة، أي إنها كانت أداة لنشر العقيدة الكاثوليكية في زي البحث الأثري والتاريخي، أو لترسيخ مناصرة البحث الأثري والتاريخي لمبادئ العقيدة الكاثوليكية.

قد يخطر على بال المرء أن هذا الحال قد تغير خلال النصف الماضي من القرن، خصوصاً منذ انعقاد المجلس الكنسي الفاتيكاني في بداية الستينيات من القرن المنصرم، في الواقع لم يتغير شيء، فالمدرسة الإنجيلية اليوم لا تزال مرتبطة ارتباطها الوثيق باللجنة الإنجيلية الأسقفية تماماً، كما كانت في الماضي، فمثلاً الشهادات في المدرسة تمنحها اللجنة على نحو خاص، ومعظم خريجي هذه المدرسة يعينون من اللجنة أساتذة في المعاهد اللاهوتية والمؤسسات الكاثوليكية الأخرى، من الاستشاريين التسعة عشر الرسميين للجنة اليوم هناك عدد منهم، لهم دور مؤثر في تحديد ما يمكن العامة أن يعرفوه عن مخطوطات البحر الميت، ولهذا مثلاً فإن الأب جان لوك فيسكو المدير الحالي للمدرسة الإنجيلية والعضو في رئاسة تحرير المجلة الإنجيلية هو عضو كذلك في اللجنة الإنجيلية الأسقفية، وكذلك أيضاً هناك عضو واحد على الأقل من أعضاء رئاسة تحرير المجلة هو خوسيه لوزا، وكذلك أحد الكتّاب البارزين في موضوع المخطوطات اليسوعي المدعو جوزيف فيتزماير الذي عمل تصنيفاً أبجدياً رسمياً لمعظم مخطوطات قمران.

في عام 1956م ظهر أول مرة اسم الأب رونالد دو فوكس مدير المدرسة الإنجيلية على لائحة استشاريي اللجنة، وكان قد جرى تعيينه في السنة التي قبلها، أي عام

1955م، وبقي على حاله استشارياً حتى وفاته في سنة 1971م، لقد كان زمن تعيين دو فوكس مثيراً للاهتمام، فلا بد من أن نتذكر أنه في عام 1955م كانت أكثر المواد الطائفية خطورة وإثارة للجدل والتي استخرجت من الكهف الرابع، لا تزال تشترى وتجمع للدراسة، وفي شهر كانون الأول من ذلك العام فعلياً أنفق الفاتيكان كمية من المال على عدد من الأجزاء الهامة، وفي عام 1955م أيضاً جرى فتح المخطوطة النحاسية في مانشستر برعاية جون آليغرو، وحتى آليغرو نفسه كان قد بدأ يصرح علناً بأسلوب يمكن أن يكون محرجاً، وهكذا أصبح الفاتيكان واعياً، أول مرة بنوع المشكلات التي قد يواجهها بشأن مواد قمران التي ترى النور في حينها، لا بد من أن هيئة الكهنوت الإكليركية شعرت بحاجتها إلى نوع من سلسلة للقيادة، أو على الأقل سلسلة للمسؤولية، والتي يمكن خلالها فرض نوع من السيطرة على دراسات قمران، على أي حال من المهم، إن لم يكن من المفاجئ، أنه منذ عام 1956م كان كل من استلم إدارة المدرسة الإنجيلية عضواً في اللجنة الإنجيلية الأسقفية كذلك، عندما مات دو فوكس في سنة 1971م جرى تحديث لائحة مستشاري اللجنة، لتضم اسم من خلفه في إدارة المدرسة، وهو الأب بيير بينويت، وعندما توفي بينويت سنة 1987م صار المدير الجديد للمدرسة جان لوك فيسكو استشارياً في اللجنة.

وحتى في يومنا الحاضر لا تزال اللجنة الإنجيلية الأسقفية مستمرة في مراقبتها وإشرافها على كل الدراسات الإنجيلية التي تنفذ برعاية الكنيسة الكاثوليكية، كما تصدر مراسيم رسمية عن الطريقة الصحيحة لتعليم الكتاب المقدس، وفي عام 1907م جعل البابا بيوس العاشر التزام هذه المراسيم إجبارياً، فمثلاً قررت اللجنة بمرسوم أصدرته أن موسى هو المؤلف الحقيقي للأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، وفي عام 1909م أكد مرسوم مشابه الدقة التاريخية وصحة أول ثلاثة أجزاء من السفر الأول سفر التكوين، ومنذ عهد أقرب، وفي تاريخ 21 نيسان عام 1964م أصدرت اللجنة مرسوماً تقضي فيه بسيطرتها على دراسات الإنجيل على نحو عام و الصحة التاريخية للأناجيل على نحو خاص، لقد كان المرسوم جلياً تماماً، وينصّ على أن المفسر في كل زمان يجب أن يتحلى بروح من الطاعة الحاضرة دائماً لسلطة تعاليم الكنيسة، وقد أعلنت، إضافة إلى ذلك، أن أولئك المسؤولين عن أي ارتباطات إنجيلية مجبرون على أن يراعوا على نحو مقدس القوانين التي وضعتها اللجنة الإنجيلية الأسقفية، ولهذا فإن كل دارس يعمل تحت رعاية اللجنة، وهذا يتضمن طبعاً أولئك العاملين في المدرسة الإنجيلية، في الواقع سيكون خاضعاً لمراسيم اللجنة، فمهما كانت النتائج التي قد يتوصل إليها، ومهما كانت الاكتشافات التي قد يتوصل إليها خلال بحثه، فسيجب عليه أن يناقض السلطة العقائدية للجنة لا في كتاباته ولا في تدريسه.

واليوم يترأس اللجنة الإنجيلية الأسقفية الكاردينال جوزيف راتزينجر، وهو كذلك رئيس مؤسسة كاثوليكية أخرى، هي المحفل الكنسي لعقائد الإيمان، إن هذا الاسم جديد تقريباً، يعود تاريخه إلى عام **1965**م، وقد لا يكون معروفاً للعوام، ولكن المؤسسة نفسها تنحدر من أصل عريق، بل تمتلك في الواقع تاريخاً فريداً ورناناً وراء هذا الاسم، يعود إلى القرن الثالث عشر، ففي سنة **1542**م كانت تعرف رسمياً باسم المقر المقدس، وقبل ذلك كانت تدعى محكمة التفتيش المقدسة، ومن ثم فإن الكاردينال راتزينجر هو كبير المحققين في الكنيسة العصرية.

إن الرئيس الرسمي للمحفل الكنسي لعقائد الإيمان على الدوام هو البابا الذي في الحكم، أما المدير التنفيذي للأبرشية فيدعى اليوم أمين سر الأبرشية، مع أنه كان في الماضي يعرف باسم كبير المحققين، ويعد المحفل الكنسي لعقائد الإيمان المؤسسة الأقوى بين باقي أقسام الإدارة البابوية، كما قد يكون راتزينجر هو الأقرب إلى البابا من باقي الكاردينالات في الإدارة البابوية، وعلى نحو مؤكد فإن لكليهما مواقف مشتركة، فكل منهما يود أن يستعيد الكثير من قيم ما قبل الفاتيكان الثانية، وكلاهما لا يحب علماء اللاهوت، ينظر راتزينجر إلى علماء اللاهوت أنهم مَنْ فتح الكنيسة لتأثير القوى العلمانية الهدامة، إنه شخص شديد التشاؤم، فهو يشعر بأن الكنيسة تنهار، وأن الحل الوحيد الكفيل لنجاتها ديانة موحدة هو قمع أي انشقاق عنها، ويعد أن أولئك الذين لا يشاركونه في تشاؤمه عمياناً أو مضللين.

إن المحفل الكنسي لعقائد الإيمان شبيه بمحاكم التفتيش التي كانت قائمة في الماضي، فهو محكمة في جزء كبير منها، لها قضاتها الخاصون، ورئيس القضاة يسمى المحكّم، ويساعده مفوّض وراهبون دومينيكانيون، مهمة هؤلاء الأشخاص هي تحضير أي تحقيقات تقرر الأبرشية أن تقوم بها، وكثيراً ما تتصل هذه التحقيقات عموماً بالخروق العقائدية التي قد يرتكبها رجال الدين، أو أي أمر آخر، وهو ما قد يهدد وحدة الكنيسة، وقد كانت كل هذه التحقيقات، كما كانت مثيلاتها في العصور الوسطى، تجري وتمارس في شروط من السرية الكاملة.

كان مفروضاً أن تكون اللجنة الإنجيلية الأسقفية والمحفل الكنسي لعقائد الإيمان مؤسستين مستقلتين حتى عام **1971**م، ولكن الواقع كان أن استقلال هاتين المؤسستين عن بعضهما كان استقلالاً شكلياً تقريباً، فقد كانتا تتداخلان في بعضهما في عدد من الجوانب، بدءاً من عملهما ووصولاً إلى عضوية هيئاتهما الناظمة، فمثلاً، كان في عام

1969م ثمانية كاردينالات من أصل اثني عشر كاردينالاً يترأسون الأبرشية، إضافة إلى أنهم كانوا يترأسون اللجنة، والكثير من الشخصيات كانوا يؤدون دوراً استشارياً في المؤسستين، وأخيراً بتاريخ 27 حزيران عام 1971م قام البابا بول السادس في محاولة منه لتنظيم البيروقراطية بدمج اللجنة والأبرشية في كل شيء تقريباً سوى الاسم، فكلتاهما تشغل المكاتب نفسها، ولها العنوان نفسه، وهو قصر الأبرشية في ساحة المقر المقدس في روما، وكلتاهما كانت تخضع لإدارة الكاردينال نفسه، وقد استلم هذا المنصب بتاريخ 29 تشرين الثاني عام 1981م الكاردينال جوزيف راتزينجر.

لقد كان الكثير من القسيسين والوعاظ والأساتذة والكتّاب المعاصرين قد طردوا أو جرّدوا من مناصبهم بقرار من الهيئة التي يترأسها راتزينجر اليوم، وقد كان من الضحايا بعض ألمع علماء اللاهوت وأكثرهم تميزاً في الكنيسة في يومنا هذا، ومن هؤلاء كان الأب إدوارد شيليبيكس من جامعة نيغميغن في هولندا، وقد أصدر شيليبيكس كتابه يسوع: تجربة في الكريستولوجيا عام 1974م، وقد ظهر في عيون خصومه أنه في هذا العمل يشكك في الحقيقة الواضحة لعقائد معينة، مثل عقيدة القيامة وعقيدة الحبل بلا دنس، وفي شهر كانون الأول من عام 1979م مثل شيليبيكس أمام محكمة المحفل الكنسي لعقائد الإيمان، حيث اتهمه أحد القضاة علناً بالهرطقة، وقد نجا من تحقيقات هذه المحاكمة، ولكن في سنة 1983م استدعي مرة أخرى إلى محكمة الأبرشية، ولكن هذه المرة من أجل كتابه الأخير الكهنوت: قضية للتغيير .

ولكن ما انتهاكات شيليبيكس؟، يا ليتها كانت مؤقتة، ولكنه شكك في موقف الكنيسة من اعتزال الزواج، وقد تعاطف مع النقاشات التي تتناول تنصيب النساء في مناصب الكهنة، إلا أن أخطر التهم كانت أنه قال: إن على الكنيسة أن تتغير مع تقدم الزمن بدل بقائها مقيدة بالعقائد المصكوكة على نحو جامد، وقد جادل في أن الكنيسة يجب أن تتجاوب مع حاجات رعاياها، وأن تتطور معها عوضاً من فرضها قوانين صارمة عليهم، وباختصار فقد نادى باتباع أسلوب كهنوتي حيوي، مقارناً ذلك بالأسلوب الجامد الذي فضله البابا جون بول الثاني والكاردينال راتزينجر، وهكذا نجا شيليبيكس مرة أخرى من تحقيقات الأبرشية واستجواباتها، إلا أنه حتى اليوم يرزح تحت رقابة لصيقة، وكل كلمة يقولها أو يكتبها تخضع لمراقبة دقيقة، من المألوف أن هذه المراقبة اليقظة والدؤوبة ستمارس تأثيراً مثبطاً على نحو كبير.

ومن الحالات الأكثر إيضاحاً قصة عالم اللاهوت السويسري البارز الدكتور هانس كونغ، الرئيس السابق لكلية اللاهوت في جامعة توبينغن، كان كونغ معروفاً على نحو عام

بأنه واحد من ألمع الكتّاب الكاثوليكيين في عصرنا، وأوسعهم دقة موضوعية، وأكثرهم تأثيراً، كان يبدو على هذا الرجل الذي تتبع خطا البابا جون الثالث والعشرين أنه سيقدم اتجاهاً جديداً وإنسانية جديدة وتكيفاً ومرونة جديدة، ولكنه كان موضع خلاف أيضاً، أصدر كتابه أمعصوم من الخطأ؟، الذي نشر أول مرة باللغة الألمانية عام **1970**م، وباللغة الانكليزية في السنة التي تليها، وفيه شكك في عقيدة العصمة البابوية التي يجب علينا أن نتذكر أنها لم تظهر في الكنيسة قط حتى عام **1870**م، وحينها فقط جرى اعتمادها بالتصويت، وقد كتب كونغ في كتابه: ما من أحد معصوم من الخطأ غير الله نفسه، وقال أيضاً: إن العقيدة التقليدية للعصمة في الكنيسة تعتمد أسساً لا يمكن عدها متينة، وكذلك أدرك كونغ الفرق بين اللاهوت والتاريخ، ونزعة اللاهوت للتباهي بنفسها والظهور بمظهر التاريخ، كما هاجم سفسطة بعض الدارسين الكنسيين مثل الكاردينال جان دانيلو الذي أصدر في عام **1957**م كتابه مخطوطات البحر الميت والمسيحية الأولى، الذي يعد دعاية لاهوتية من الدرجة الأولى، ويقول كونغ في ذلك: إن علماء اللاهوت مثل دانيلو، والذين يضيفون اليوم هالة من التعليم الزائف إلى دور أكبر المحققين، يعيّنون كاردينالات في كنيسة روما المقدسة، ويحققون ما هو متوقع منهم .

بعد أن جرى انتخاب جون بول الثاني كان كونغ منتقداً لصرامة البابا الجديد في الأخلاق والعقيدة، ويطرح سؤاله قائلاً: هل سيسمح لعالم اللاهوت الكاثوليكي بأن يطرح أسئلة حرجة؟، ويتساءل كونغ: إذا كان جون بول الثاني حقاً متحرراً من نزعة عبادة الشخصية التي تملكت من قبله الباباوات السابقين؟، أوليس يشغل نفسه بإفراط، بالعقيدة ربما على حساب رسالة المسيح المحررة؟.

هل يمكن البابا والكنيسة في يومنا هذا أن يحدثوا الناس بصدق، موجهين الخطاب إلى ضمائرهم، ما لم تقم الكنيسة وقادتها بتفحص نقدي ذاتي للضمير في الوقت نفسه؟.

إن صراحة كونغ جعلته هدفاً مغرياً لمحاكم التفتيش التابعة للمحفل الكنسي لعقائد الإيمان، وبعد تقييم تصريحاته قامت المحكمة بناء على ما اطلعت عليه بإقرار الحكم، وبتاريخ **18** كانون الأول عام **1979**م، قام البابا بناء على التوصية الرسمية للأبرشية بتجريد كونغ من منصبه، وأعلن أنه لم يعد مؤهلاً ليدرس عقيدة الروم الكاثوليك، ومن ثم جرى إعلامه بأنه لم يعد له وصف عالم اللاهوت الكاثوليكي، وبعد ذلك منع من الكتابة والنشر، وقد أجمل كونغ نفسه ما حصل له قائلاً: لقد أدانني الحبر الذي رفض نظريتي اللاهوتية من دون أن يقرأ أي كتاب من كتبي، والذي كان على الدوام يرفض مقابلتي، فالحقيقة أن روما لا تنتظر الحوار بل تنتظر الإذعان .

أصبحت الأبرشية خلال العقد الماضي، بإدارة الكاردينال راتزينجر، راسخة الدعائم وصلبة ورجعية على نحو متزايد، كان راتزينجر منتقداً بعنف للتغييرات التي طرأت على الكنيسة منذ انعقاد المجمع الكنسي الثاني للفاتيكان في عام 1962م، لقد أكد أن تعاليم الكنيسة قد تلطخت بالشك والتساؤل، بناء على أقوال أحد المعلقين فإن راتزينجر يسعى إلى العودة إلى الأصولية الكاثوليكية، وتأكيد الصحة المحضة للعقيدة المحددة بابوياً، إن مواقف راتزينجر تحدد مواقف اللجنة الإنجيلية الأسقفية التي يترأسها هو أيضاً، وذلك عبر المحفل الكنسي لعقائد الإيمان، ومن هناك تنتقل المواقف كذلك إلى المدرسة الإنجيلية.

خدمت هذه المواقف خلال أحداث عام 1990م في ظهور الأبرشية في الأخبار على نحو بارز، ففي شهر أيار أصدرت الأبرشية مسودة تمهيدية جديدة، منقّحة ومحدّثة للتعاليم التلقينية الشاملة للكنيسة الكاثوليكية، وهي الصيغة الرسمية للمبادئ التي يجب أن يلتزم جميع الكاثوليكيين الإيمان بها رسمياً، إن هذه التعاليم التلقينية الجديدة التي لا تسمح بأي مرونة مهما صغرت تدين على نحو كامل الطلاق، والشذوذ الجنسي، والاستمناء، وكل العلاقات الجنسية التي تجري قبل الزواج أو خارجه، مع قائمة من الأمور الأخرى، كما تحدد من بين المبادئ الأساسية للعقيدة الكاثوليكية العصمة البابوية، والحبل بلا دنس، وتولي مريم العذراء، إضافة إلى السلطة العالمية للكنيسة الكاثوليكية، وهي تؤكد، أي التعاليم التلقينية الحديثة في أحد النصوص العقائدية على نحو خاص، أن مهمة تقديم تفسير حقيقي لكلمة الرب كانت منوطة فقط بمركز التعليم الفعال التابع للكنيسة.

كما ظهرت في شهر حزيران وثيقة أخرى نشرها المحفل الكنسي لعقائد الإيمان، وكتبها الكاردينال راتزينجر نفسه، يتوجه مضمون هذه الوثيقة على نحو خاص إلى أعمال عالم اللاهوت والتزاماتهم، وقد صار هذا الاسم يشمل المؤرخين وعلماء الآثار الإنجيليين، وبناء على كلام هذه الوثيقة التي أقرها وصدقها البابا، فإن علماء اللاهوت الكاثوليكيين لا يملكون الحق في الانشقاق عن تعاليم الكنيسة الراسخة، بل في الواقع الانشقاق نفسه قد نزلت مرتبته إلى مقام خطيئة حقيقية، فتذكر الوثيقة أن الاستسلام لإغواء الانشقاق، يؤدي إلى خيانة الروح القدس، فإذا ما بدأ عالم اللاهوت بالتشكيك في عقيدة الكنيسة، ومن ثم، وبدافع سيطرة نفسية بليغة، فسيشعر بفساده أخلاقياً لقيامه بذلك، إن أي نزعة للتشكيك ستنقلب في الواقع على المشكك، وستتحول إلى ذنب، وطالما كان ذلك الأمر يشكل أربح تجارة للكنيسة.

وفي هذه الوثيقة نفسها يذكر الكاردينال راتزينجر ما يلي:

لا يمكن حرية ممارسة العقيدة أن تسوغ الوصول إلى حق الانشقاق، فهذه الحرية لا تتضمن الحرية المتعلقة بالحقيقة، وإنما تعني الثبات الحر للشخص، على نحو يتطابق مع التزاماته الأخلاقية لقبول الحقيقة.

وهذا يعني وفق معنى آخر أن الشخص حر تماماً في قبول تعاليم الكنيسة، ولكنه ليس حراً في التشكيك فيها أو رفضها، ولا يمكن إظهار الحرية أو التعبير عنها بالخضوع، إن هذا التعريف غريب للحرية.

إن هذا التقييد شنيع جداً عندما يفرض على الكاثوليكيين وحدهم، شنيع من حيث التخريب العاطفي والنفسي الذي سيسببه، ومن حيث الذنب والتعصب الأعمى وعدم التسامح الذي سيغذيه، ومن حيث آفاق العلم والفهم التي سيضيقها، على كل حال عندما تكون القيود مقتصرةً على عقيدة ما، لا تطبّق إلا على أولئك الذين يرضخون لها طواعية، أما سكان العالم الآخرون من غير الكاثوليكيين فلهم حرية رفضها، على كلٍ فمخطوطات البحر الميت لا تشكل بنود الإيمان، بل هي وثائق تاريخية وأثرية هامة، لا ينبغي أن تكون ملكاً للكنيسة الكاثوليكية، وإنما تنتمي إلى الإنسانية جمعاء، إن الفكرة التي سأطرحها هي فكرة مزعجة جداً، وتدعو للوعي، فلو سارت الأمور كما يريد لها الكاردينال راتزينجر فإن كل شيء سيصلنا من نصوص قمران ستكون خاضعة لآلية رقابة المحفل الكنسي لعقائد الإيمان، ومن ثم ستكون مرشحة ومنقحة لنا من محاكم التفتيش.

نظراً إلى ولاء المدرسة الإنجيلية الإلزامي للأبرشية، فمن المسوغ للمرء أن يتساءل بكل بساطة إذا كان يمكن الوثوق فيها، حتى لو قامت الحكومة الإسرائيلية بالتشديد عليها، وأمرت بنشر كل مواد قمران، كيف يمكننا أن نكون واثقين في أن المواد التي يمكن أن تفضح الكنيسة قد ترى الضوء في يوم ما؟، ونحن شخصياً، في هذا الكتاب، نود أن نطرح علناً بعض الأسئلة الأساسية على المدير الحالي للمدرسة الإنجيلية، الأب جان لوك فاسكو.

– إذا كانت المدرسة الإنجيلية مسؤولة أمام اللجنة الإنجيلية الأسقفية والمحفل الكنسي لعقائد الإيمان، فما مسؤولياتها عن الأبحاث؟.

– كيف يمكن أي مؤسسة أكاديمية ذات سمعة حسنة أن تعمل تحت ضغط مثل هذه الولاءات شبه المنقسمة، والمتبادلة العداء؟.

– ما الذي ستفعله المدرسة الإنجيلية تحديداً لو ظهر بين مواد قمران التي لم تنشر، أو ربما التي لم تكتشف بعد، ما لا يتوافق مع عقيدة الكنيسة؟.

القسم الثالث

مخطوطات البحر الميت

الفصل الأول

معضلة للمسيحية الأرثوذكسية

هناك اتفاق جماعي بين جميع الأطراف المعنية، طبعاً ما عدا الفريق الدولي والمدرسة الإنجيلية، على أن تاريخ دراسة مخطوطات البحر الميت ينطوي على فضيحة على نحو مؤكد، ويبدو أن هناك مجالاً للشك في وجود شيء غير مألوف، وقد يكون قانونياً، إلا أنه يفتقر إلى الإقرار الأكاديمي أو الأخلاقي، وقد يكون هو ما يكمن وراء التأخيرات والمماطلات والمراوغة والقيود التي تفرضها على تلك المواد، طبعاً قد تكون هذه الحالة غير القياسية نابعة ببساطة من دوافع تتعلق بالرشاوى، من حيث الغيرة والمنافسة الأكاديمية، أو من حيث حماية المصالح الشخصية، ففي النهاية لتستعيد السمعة إما أن تصنع وإما تدمّر، وفي العالم الأكاديمي ليس هناك ما هو أثمن من السمعة، ولهذا فالمخاطر كبيرة جداً، على أولئك العاملين من الداخل على الأقل.

على كل حال، ستكون المخاطر كبيرة في أي ميدان يجري فيه استدراك الافتقار إلى شهادة موثقة ومباشرة من المصدر بالبحث الأثري والتاريخي، وستكون المخاطر كبيرة مثلاً، لو كانت مجموعة من الوثائق المرتبطة ببريطانيا أيام الملك آرثر قد ظهرت إلى العلن فجأة، ولكن هل ستخضع هذه الوثائق للكتمان نفسه الذي يحيط بمخطوطات البحر الميت؟، وهل سيلحظ المرء الحضور الباهت لمؤسسة كنسية مثل المحفل الكنسي لعقائد الإيمان، إذ تبدو وسيطاً ساماً قابعاً في الخلفية؟، ومثال لذلك لدينا قضية مخطوطات نجع حمادي، من المؤكد أنهم أتاحوا فرصة كبيرة لتأخذ الدوافع المتعلقة بالرشاوى مكاناً لها، ولربما قامت هذه الدوافع بذلك فعلياً بطريقة أو بأخرى، إلا أن الفرصة لم تسنح للكنيسة، لتفرض سيطرتها على النصوص التي وجدت في موقع نجع حمادي مع دوافع الرشاوى، إلا أن مجموع المواد المستخرجة من نجع حمادي وصلت سريعاً إلى الطبع وإلى الرأي العام.

لا بد من أن التدخل الكبير للكنيسة في دراسة مخطوطات البحر الميت قد عزز ظهور عنصر خطير للشك، فهل يمكن المرء أن يتجاهل إمكان وجود ارتباط عفوي بين هذا التدخل والفوضى التي وصلت إليها البحوث في قمران؟، يشعر المرء بأنه مجبر على طرح سؤال، كما فعل الكثير من المطلعين ممن هم خارج العملية، عما إذا كانت هناك مصلحة شخصية أخرى على المحك هنا؟، مصلحة شخصية أكبر من سمعة العلماء أفراداً، وهي المصلحة الشخصية للمسيحية كلها مثلاً، ومصلحة العقيدة المسيحية، على الأقل، كما تعرض الكنيسة وأحاديثها للموضوع، منذ اكتشاف مخطوطات البحر الميت هناك سؤال واحد واسع الانتشار، يتردد في المخيلة، ويثير الحماسة والقلق، وربما الجزع كذلك، هل يمكن هذه النصوص، بصدورها أقرب ما يمكن من نسخة المصدر الأصلية،

وكونها لم تنقّح أو تعدّل قط على عكس العهد الجديد، أن تلقي ضوءاً جديداً بالغ الأهمية على أصول المسيحية، وعلى ما يدعى الكنيسة الأولى في القدس؟، بل ربما على المسيح نفسه؟، هل يمكن أن تحتوي على شيء يطعن أو يدحض النواميس الراسخة؟.

لقد أكدت التفسيرات الرسمية من دون أي شك أن هذه النصوص لا تؤدي إلى أي شيء مما ذكر، طبعاً ليس هناك أي شيء يشير إلى تحريف مقصود أو منهجي للأدلة من الفريق الدولي، ولكن الأب دو فوكس كانت أكثر قناعاته الشخصية حدة متجذرة وملازمة لبذل بعض التأثير، إن العامل الأساسي في تحديد أهمية المخطوطات وعلاقتها، أو بالأحرى، عدم وجود علاقة لها بالمسيحية يتمثل بتاريخها، هل كانت قبل ظهور المسيحية أم بعدها؟، إلى أي قدر كانت متزامنة مع نشاطات المسيح نحو عام 30 ميلادي؟، ومع رحلات بولس ورسائله بين الأعوام40 و65 ميلادي تقريباً؟، ومع كتابة الأناجيل بين الأعوام 70 و95 ميلادي؟، أياً كان الزمن الذي ستنسب إليه هذه المخطوطات، فقد تكون مصدراً لإحراج محتمل للنصرانية، ولكن مقدار الإحراج هو الذي سيتفاوت، فمثلاً لو جرى إرجاع تاريخ هذه المخطوطات إلى ما قبل الحقبة المسيحية فترة جيدة، فقد تهدد أصالة المسيح وتميزه بالخطر، وقد تظهر أن بعض كلماته ومبادئه لم تكن كلها له، بل سيتبين أنها مأخوذة من تيار فكري وتعاليم وأعراف موجودة قبلاً، وبلا هوية، وإذا جرى تحديد تاريخها في فترة حياة المسيح أو ما بعد قليلاً، فقد تكون أكثر إحراجاً، فمن الممكن أن تجادل هذه النتيجة في أن معلم البر الذي يظهر في هذه المخطوطات ليس إلا المسيح نفسه، ومن ثم لم يكن يراه أبناء عصره كياناً إلهياً، وعلاوة على ذلك فقد اشتملت المخطوطات أو أوحت بفرضيات معينة، لا تتلاءم مع الصورة المتكونة لاحقاً للمسيحية الأولى، فمثلاً كان هناك كلام عن وجود قومية مسيحية مقاتلة، كانت مرتبطة من قبل بطائفة الزيلوت اليهودية فقط، كان هذا في وقت يفترض أن المسيح لم يكن سياسياً، ويعطي لقيصر ما هو لقيصر، ومن الممكن أيضاً أن يظهر أن المسيح لم يحلم قط بتأسيس دين جديد وانتهاك الناموس اليهودي.

يمكن تفسير الدليل بناء على عدد من الطرق المقبولة، وهي بعض الطرق الأقل خطورة على النصرانية من غيرها من الطرق، من غير المفاجئ في الأحوال المتاحة أن يكون دو فوكس قد مال إلى التفسيرات الأقل خطورة وأذاعها، ومن ثم، مع العلم أنه لم يجر ذكر ذلك صراحة، فقد ظهرت حاجة إلى قراءة الدليل أو تفسيره وفق مبادئ سائدة معينة، فمثلاً، يجب أن تبقى المخطوطات ومؤلفوها مفصولة قدر المستطاع عن المسيحية الأولى، كما هي مصورة في العهد الجديد، ومفصولة عن نمط التفكير السائد ليهودية

القرن الأول، والتي انبثقت منها المسيحية الأولية، لقد أنشأت أصالة التفسيرات مكاناً لها بالتزام هذه العقائد، كما تولد إجماع أكاديمي على ذلك أيضاً، وهكذا جاءت النتائج التي وصل إليها فريق الأب دو فوكس في تفسيراتهم للمخطوطات متطابقة مع بعض العقائد العامة، والتي يمكن أن نجمل أهمها في الأفكار التالية:

1- كان ينظر إلى نصوص قمران بأنها تعود تاريخياً إلى ما قبل الحقبة المسيحية فترة طويلة.

2- كانت هذه المخطوطات تعد عمل مجتمع وحيد ومنعزل، هذا المجتمع كان يشكل طائفة غير قويمة، قامت على أطراف اليهودية، منفصلة عن تيارات ذلك العصر الرئيسة من أفكار اجتماعية وسياسية ودينية، وقد انفصلت على نحو خاص عن الثورية المقاتلة والقومية المسيحية، كما كانت متمثلة بالمدافعين عن حصن مسعدة.

3- لا بد من أن مجتمع قمران قد جرى تدميره خلال الثورة التي ظهرت في أرض يهوذا بين أعوام 66 – 73 ميلادي، حيث تركوا كل وثائقهم وراءهم مختبئين في الكهوف القريبة منهم بحثاً عن الأمان.

4- لقد جرى إظهار معتقدات مجتمع قمران مختلفة كلياً عن المسيحية، وحيث إن معلم البر لم يصوَّر كياناً إلهياً، لا يمكن أن يعدّ أنه هو عيسى المسيح.

5- ونظراً إلى أن يوحنا المعمدان كان على نحو عام قريباً جداً من تعاليم مجتمع قمران، فقد قيل إنه لم يكن فعلياً مسيحياً، وإنما مبشر فقط.

وكانت هناك كذلك أفكار كثيرة، حيث كانت نصوص قمران والمجتمع الذي أتت منه هذه النصوص تتماثل مع نصوص المسيحية الأولى، وما يدعى الكنيسة الأولى، ويظهر الكثير من هذه التماثلات مباشرة.

أولاً، كان هناك تقليد شبيه بالتعميد، يمارس في مجتمع قمران، وهذا التقليد هو أحد الأسرار المقدسة المركزية للمسيحية، وبحسب النص الوارد في نصوص البحر الميت والمعروف باسم قانون المجتمع : على الملتزم الحديث العهد أن يتطهر من جميع خطاياه بوساطة روح القداسة التي توحده بحقيقتها، وعندما ينضح جلده بالماء الطاهر، ويتطهر من الخطايا بالماء المطهّر، يجب أن ينظف نفسه بالخضوع الذليل لروحه أمام كل وصايا الرب .

وثانياً، كما يذكر في أفعال الحواريين، فقد كان يقال إن أعضاء الكنيسة الأولى كانوا يتشاركون جميعاً في كل الأمور، لقد عاش المؤمنون جميعاً مع بعضهم، وكانوا يملكون كل

شيء على نحو مشترك، فقد كانوا يبيعون بضائعهم وممتلكاتهم، ويتقاسمون عائداتها بينهم بحسب حاجة كل واحد منهم، كانوا يذهبون إلى المعبد كالجسد الواحد كل يوم، لقد كان التشريع الأول لقانون المجتمع في قمران ينص على أنه على الجميع أن يجلب معه علمه وطاقاته وممتلكاته إلى المجتمع، وبحسب تشريع آخر يجب أن يأكلوا مشتركين، وأن يصلّوا مشتركين، وتشريع آخر يذكر أن التابع الجديد يجب أن تدمج ممتلكاته في المجتمع، وأن يقدم للمجتمع نصحه ورأيه.

تروي الآيات 5 : 1ـ 11 قصة واحد من الأنانيا **Ananias** وزوجته، كانا قد أبقيا لنفسيهما بعض ممتلكاتهما التي يفترض أن يقدموها للكنيسة الأولى في القدس، لقي كلاهما مصرعه، وذلك بقوة إلهية مقتصة، في قمران كانت العقوبة لمثل هذه الخطيئة أقل صرامة، كانت تتمثل بحسب قانون المجتمع بكفارة من تعذيب الذات مدة ستة أشهر.

ثالثاً، بناء على ما يذكر في كتاب الأفعال، فقد كانت القيادة في الكنيسة الأولى في القدس تتكون من الحواريين الاثني عشر، ومن هؤلاء كما يذكر في كتاب «الغالاتيون» ثلاثة، وهم يعقوب أخو المسيح، ويوحنا وبطرس كانوا قد مارسوا سلطة مميزة، أما ما يذكر في قانون المجتمع فنجد أن قمران كانت تحكم من مجلس يتألف من اثني عشر شخصاً، وهناك ثلاثة كهنة، يشار إليهم على نحو خاص، ولكن النص لا يوضح إذا كان هؤلاء الثلاثة بين أعضاء المجلس الاثني عشر، أم إنهم منفصلون عنهم.

رابعاً، والأهم من كل ما ذكر، أن كلاً من مجتمع قمران و الكنيسة الأولى كانا مسيحيين على نحو دقيق في توجههما، ومحكومين بالمجيء الوشيك لمسيح جديد واحد على الأقل، وكلاهما طرح مسلمة بوجود شخصية مركزية فاتنة ومشعة، تقوم بتحفيزهم وترسي تعاليمه الأساسية لعقيدتهم، طبعاً في الكنيسة الأولى كانت هذه الشخصية هي عيسى المسيح، أما في نصوص قمران فكانت تعرف هذه الشخصية باسم معلم البر، وقد يظهر أيضاً أن نصوص قمران قد تشير إلى عيسى المسيح، والواقع لقد أشار الكثير من العلماء إلى ذلك، من المسلمات أن معلم البر لم يكن مصوراً كإله، كذلك عيسى المسيح لم يكن مصوراً كتلك الصورة، حتى فترة قصيرة بعد وفاته.

إذا كانت نصوص قمران والنصوص الواردة من الكنيسة الأولى تشترك في أفكار ومصطلحات ومبادئ معينة، فهي كذلك متشابهة على نحو مدهش في أسلوب التراكيب والتشبيهات، فمثلاً يقول المسيح: طوبى للضعفاء، فهم من سيرثون الأرض، ماثيو **5:5**، وتعد هذه من أشهر كلماته في موعظة الجبل، وهذا التأكيد مأخوذ من المزمور **37 : 11 :**

ولكن الضعفاء سيتملكون الأرض، وسيمتعون أنفسهم برفاهية وفيرة، لقد كان هذا المزمور نفسه يشكل اهتماماً خاصاً لمجتمع قمران، إذ نجد في مخطوطات البحر الميت تعليقاً على معناه، وهو عند تفسير ذلك سيكون موضع اهتمام جموع الفقراء، لقد كانت جموع الفقراء أو الحليمين واحدة من الأسماء التي كان يشير بها مجتمع قمران إلى نفسه، وكذلك الآية التالية التي قالها المسيح ليست التماثل الوحيد : طوبى لفقراء الروح، إذ إن لهم مملكة السماء، متى 5 : 3، أما في مخطوطة الحرب المأخوذة من الكهف الأول فنقرأ: إن فقراء الروح يملكون قوة، والواقع أن إنجيل متّى كاملاً، وعلى الأخص الجزأين العاشر والثامن عشر، فيه تشبيهات ومصطلحات تتقاطع أحياناً مع تلك التي في قانون المجتمع، فمثلاً في إنجيل متى 5 : 48 يؤكد المسيح معنى الكمال: لذلك يجب أن تبلغ الكمالَ، تماماً كما هو أبوك السماوي كامل، و قانون المجتمع يتكلم عن أولئك الذين يسلكون درب الكمال، كما أمرهم الرب، ويؤكد النص أنه لن تكون هناك رأفة بأولئك الذين يبتعدون عن الدرب، ولا راحة، حتى يبلغ دربهم الكمال، وفي إنجيل متى 21 : 42 يناشد عيسى المسيح إسحاق 28 : 16، ويكرر ما في المزمور 118 : 22: ألم تقرأ قط في الكتب المقدسة: الحجر الذي رفضه البناؤون صار حجر الأساس، وكذلك قانون المجتمع يناشد بالتوصية نفسها، حيث يذكر أن مجلس المجتمع، يجب أن يكون ذلك الحائط المجرب، وحجر الأساس الثمين .

إذا كانت مخطوطات قمران والأناجيل تردد كلام بعضها، فإن هذا التكرار نجده ظاهراً أكثر بين مخطوطات بولين، أو أفعال الحواريين ورسائل بولس، فمعنى القداسة مثلاً، بل في الواقع كلمة قديس شائعة جداً في المسيحية اللاحقة، ولكنها مذهلة في نصوص مخطوطات البحر الميت، بحسب الجملة الافتتاحية في قانون المجتمع نجد أن على المعلم أن يعلم القديسين أن يعيشوا وفقاً لكتاب قانون المجتمع، وفي رسالة بولس إلى الرومانيين 15:25– 7 يستخدم المصطلحات المستخدمة نفسها في الكنيسة الأولى : يجب أن آخذ هدية مالية للقديسين في القدس .

حقيقة نجد أن بولس مكثر في استخدامه لتعابير قمران وتصويراتها، مثلاً، أحد نصوص قمران يتكلم عن كل أولئك الذين يراقبون الناموس في دار يهوذا والذين سيخلصهم الرب نتيجة لمعاناتهم ولإيمانهم بمعلم البر، طبعاً نجد أن بولس يعزو قوة الافتداء تلك إلى الإيمان بعيسى المسيح، فيقول في رسالته الإنجيلية إلى الرومانيين 3.3:21: إن الخلاص يحصل لكل من يؤمن بيسوع المسيح، وفي خطابه للغالاتيين 2 16 – 17: يعلن أن ما يجعل

الإنسان رجلاً صالحاً ليس خضوعه للقانون، وإنما الإيمان بيسوع المسيح، من الواضح أن بولس مطلع على الاستعارات، والمحسنات البديعية، والتعابير الاصطلاحية، واللغة المنمقة التي استخدمت في مجتمع قمران في تفسيرها لنصوص العهد القديم، كما سنرى، على كل حال، أن بولس قد استفاد من اطلاعه على ذلك لخدمة هدف مختلف تماماً.

نجد في الاقتباس المذكور من رسالة بولس إلى الغالاتيين أنه لا يعطي القانون أهمية مفرطة، بينما نجد في نصوص قمران أن الناموس ذو أهمية كبيرة، يبدأ كتاب قانون المجتمع بالقول: يجب على المعلم أن يعلم القديسين أن يعيشوا وفقاً لكتاب قانون المجتمع، إذ إنهم قد يقصدون الرب، وأن يقوموا بما هو جيد وصالح أمامه، كما أمر على يدي موسى وعلى يدي كل خدمه من الأنبياء، ويذكر لاحقاً قانون المجتمع أن أي شخص ينتهك كلمة واحدة من قانون موسى، مهما كان المجال، يجب أن يطرد، وأن الناموس سيستمر مادام استمر عمل الشيطان، نجد في التزام عيسى المسيح الدقيق للناموس، وعلى نحوٍ لافت جداً للنظر، أنه كان أقرب في ذلك إلى نصوص قمران من كلام بولس.

في خطبة الجبل متى 5: 17- 19 يحدد عيسى موقفه بوضوح، لا لبس فيه، وهو موقف كان بولس قد خانه لاحقاً:

إياكم أن تتخيلوا أنني أتيت لأهدم الناموس أو أقوال الأنبياء، لم أبعث لأهدمها، وإنما لأكملها، وها أنا أقول لكم علانية: يجب ألا تزول أي نقطة، أو أي حرف صغير من الناموس، حتى يجري تحقيق أهدافه، ولهذا فإن الرجل الذي يخرق أصغر هذه الأوامر، ويعلم الآخرين أن يحذوا حذوه سيجرى عدّه ذا المقام الأدنى في ملكوت السماء .

فإذا كان التزام عيسى الناموس قد التقى بالتزام مجتمع قمران به، وكذلك لتوقيت العشاء الأخير، فمنذ قرون والمعلقون على الإنجيل حائرون من الروايات المتضاربة بكل وضوح في الأناجيل، ففي إنجيل متى 26: 17-19 يصوّر العشاء الأخير بأنه عشاء يوم العبرانيين، وفي اليوم التالي جرى صلب عيسى، وفي الإنجيل الرابع 13: 1 و18: 28 يذكر أن الصلب حصل قبل يوم العبرانيين، وقد سعى بعض العلماء إلى الوصول إلى صيغة منسجمة بين هذه التناقضات بالتسليم بأن العشاء الأخير كان في الواقع وليمة يوم العبرانيين، ولكن أقيمت وليمة عيد العبرانيين هذه تبعاً لتقويم مختلف، لقد استخدم مجتمع قمران تقويماً مشابهاً له، وهو التقويم الشمسي، مقارنة بالتقويم القمري الذي كان يتبعه كهنة الهيكل، وفي كل تقويم من هذين التقويمين يقع يوم العبرانيين في يوم مختلف، ومن الواضح أن عيسى كان يستخدم التقويم نفسه المستخدم في مجتمع قمران.

لا بد من أن مجتمع قمران قد رصد وليمة تبدو صفات شعائرها شبيهة جداً بالعشاء الأخير، كما هو موصوف في الأناجيل، يقول قانون المجتمع إنه: عندما يجري إعداد المائدة، لا بد من أن يكون الكاهن هو أول من يرفع يده، ليبارك باكورة الخبز والنبيذ الجديد، ويضيف نص آخر من نصوص قمران المسمى الناموس المسيحي ما يلي: يجب أن يجتمعوا إلى الطاولة المشتركة، ليأكلوا ويشربوا نبيذاً جديداً، يجب أن لا يمد أحد منهم يده إلى باكورة الخبز والنبيذ قبل الكاهن، بعدئذ يمد مسيح إسرائيل يده إلى الخبز.

لقد كان هذا النص كفيلاً بإقناع روما نفسها، وبحسب قول الكاردينال جان دانيلو من الفاتيكان: لا بد من أن يسوع المسيح قد احتفل بالعشاء الأخير في ليلة الفصح بحسب التقويم الإسيني .

يمكن المرء أن يتصور ردة فعل الأب دو فوكس وفريقه عند اكتشافهم للتقاربات الاستثنائية الظاهرة بين نصوص قمران وما كان معروفاً باسم الكنيسة الأولى، لقد كان معتقداً حتى يومنا هذا أن تعاليم عيسى المسيح لم يكن لها نظير، أي إنه وبإجماع الجميع كان قد اعتمد مصادر العهد القديم، إلا أنه حاك وصاياه في رسالة، أو كتاب مقدس، كلام تبشيري لم يلفظ مثله من قبل في العالم، ولكن الآن، تظهر أصداء تلك الرسالة، بل ربما حالة عيسى المسيح نفسها إلى النور في مجموعة من المخطوطات الغابرة المحفوظة في صحراء أرض يهوذا، صحراء شرق فلسطين.

في رأي مؤرخ غير مؤمن يتبع مذهب لا أدري، أو حتى في رأي مسيحي غير مؤمن بالعقيدة، سيكون هذا الاكتشاف مثيراً حقاً، والأرجح أن الأمر يحمل بين تفاصيله رعباً قدسياً معيناً، إذ إن المرء يتعامل مع وثائق، يعود تاريخها فعلياً إلى أيام كان عيسى وأتباعه يجوبون أرض فلسطين القديمة، ويخوضون في الأوحال بين الجليل وأرض يهوذا، سيشعر المرء، من دون أدنى شك، بشيء من الإثارة، إنه أقرب من عيسى المسيح نفسه، إن التفاصيل الناقصة لحياة المسيح والبيئة المحيطة به قد برزت في الطباعة بعد أن كانت محتجزة أكثر من عشرين قرناً، كما كانت تفترض كثافتها، وتركيبها وصلابتها، إن مخطوطات البحر الميت ليست كأي كتاب عصري يشرح فرضية خلافية، بل تشكل دليلاً مباشراً، مدعوماً بركائز راسخة من دراسات وعلومه القرن العشرين، حتى لدى غير المؤمنين كانت تظهر لديهم بعض الأسئلة عن المسؤولية الأخلاقية، ومهما كان مبدأ الشك لديه، فهل يمكنه عرضياً وبضربة واحدة أن يقوض الإيمان الذي يتعلق به الملايين من أجل العزاء والسلوان؟، ولدى دو فوكس وزملائه، وخلال عملهم ممثلين لكنيسة الروم الكاثوليك، لا بد من أن الأمر كان يبدو لهم، كأنهم يتعاملون مع المعادل الروحي والديني للديناميت، الذي يمكنه، كما يمكننا أن نتخيل، أن يدمر صرح تعاليم المسيحية وعقائدها كاملاً.

الفصل الثاني

المخطوطات

غير مقبول أو منطقي أن نقوم في هذا الكتاب بإدراج كل النصوص المعروف أنها قد كانت في موقع قمران، أو حتى تلك التي ترجمت ونشرت، فالكثير منها لا تهم سوى المختصين، ونصوص عدة لا تحتوي إلا على أجزاء صغيرة، لا يمكن الآن إعادة تشكيل سياقها وأهميتها، وهناك عدد مهم منها هو شروح على كتب عدة من أسفار العهد القديم، إضافة إلى أعمال يهودية أخرى معروفة بالكتب الأبوكريفية والمزيفة، ولكن المهم في هذه المرحلة أن نشير إلى بعض وثائق قمران التي تحتوي على مواد ذات صلة خاصة، وخصوصاً اينثن منها، والتي لن تبرهن على أنها أكثرها تنويراً وحسب، بل أكثرها إثارة للجدل فعلياً.

المخطوطة النحاسية:

وجدت المخطوطة النحاسية في كهف قمران المشار إليه بالرقم ثلاثة، تدرج هذه المخطوطة ببساطة، وبأسلوب بال، أربعة وستين موقعاً، يزعم أنها تحتوي على كنز من الأواني الدينية القيمة من الذهب والفضة مخبأ فيها، معظم هذه المواقع في أراضي القدس، وبعضها تحت الهيكل أو ملاصق له، وبعضها الآخر في الريف المحيط بالمدينة، ربما بعيدة بعد قمران نفسها، إن كانت الأرقام التي في المخطوط دقيقة، فسيصل مجموع أوزان الخبايا المختلفة المتناثرة إلى خمسة وستين طناً من الفضة، وستة وعشرين طناً من الذهب، ستبلغ قيمتها 30 مليون جنيه استرليني بحسب أسعار يومنا هذا، لا يشكل هذا المبلغ شيئاً مذهلاً، كما يكون الحال في هذه الأمور، فمثلاً سفينة كنز إسبانية غارقة ستقيّم بأكثر من هذا، ولكنها لن تسترعي انتباه الكثيرين، إضافة إلى أن الأهمية الدينية والرمزية لكنز كهذا ستضعه طبعاً فوق أي قيمة مالية، مع أنه لم يجر الإفصاح عن هذا عندما أميط الغطاء عن محتويات هذه المخطوطة في البداية، إلا أن النص برهن بوضوح على أن الكنز مأخوذ من الهيكل، حيث نقلت منه وخبئت، وذلك لحمايتها من الغزاة الرومان بحسب ما هو مفترض، ومن ثم يمكن المرء أن يستنتج أن تاريخ المخطوطة النحاسية يعود إلى زمن الغزو الروماني سنة 68 ميلادي، كما ذكرنا، فإن أعضاء معينين من الفريق الدولي أمثال البروفيسور كروس والأب السابق ميليك، كانوا يظنون أن الكهف ليس إلا خرافة كاملة، ولكن معظم العلماء المستقلين اليوم يوافقون على أن الكنز كان موجوداً، ومع ذلك فقد أثبتت المخابئ أنه من المستحيل إيجادها، فكل الاتجاهات والمواقع ومناطق الاستدلال المذكورة قد اتخذت أسماء محلية منذ ضياعها منذ وقت طويل، كما تغير الترتيب والتخطيط العام للمنطقة التي مرت عبر ألفي سنة، وأعداد لا تعد ولا تحصى من الحروب، حتى صارت مستحيلة معرفته.

على كل حال، في عام 1988م جرى الوصول إلى اكتشاف في شمال الكهف الذي وجدت فيه المخطوطة النحاسية، وهناك في كهف آخر على عمق ثلاثة أقدام تحت السطح الحالي جرى نبش وعاء فخاري صغير، يعود تاريخه إلى عهد هيرود وخلفه الذي تلاه مباشرة، وقد عدت الآنية طبعاً قيمة جداً، وقد جرى إخفاؤها بعناية فائقة، بعد لفها بغطاء واق من ألياف شجر النخيل، كما بدا عليها زيت أحمر سميك القوام، وبعد تحليله كيميائياً تبين أنه لا يشبه أي زيت نعرفه اليوم، ولكن على نحو يظن أن هذا الزيت هو زيت البلسم، وهي سلعة ثمينة، علمنا أنها كانت تنتج قرب هذه المنطقة في أريحا، وكانت تستخدم تقليدياً ليدهن بها ملوك إسرائيل الشرعيون، لا يمكن إثبات الأمر على نحو قاطع على كل حال، لأن شجرة البلسم قد انقرضت منذ ألف وخمسمئة عام تقريباً.

إن كان هذا الزيت هو فعلاً زيت البلسم، فقد يكون جزءاً من الكنز المذكور في المخطوطة النحاسية، بكل الأحوال هذا الزيت هو سلعة مكلفة وغير ملائمة، لتكون قد استعملها أفراد مجتمع من المفترض أنه متقشف وانعزالي في الصحراء، وكما ذكرنا، فإن أحد أهم ملامح المخطوطة النحاسية أنها ترينا أن قمران لم تكن منعزلة على ذلك النحو المتخيل، بل على العكس، يبدو أنها كانت تقيم روابط بين مجتمع قمران والطوائف المرتبطة بالهيكل في القدس.

قانون المجتمع:

لقد عثر على قانون المجتمع في الكهف الأول، كما رأينا، وهو يشير إلى الشعائر والتشريعات التي تحكم الحياة في المجتمع الصحراوي، وهي تؤسس هيكلية للسلطة في المجتمع، كما تضع توجيهات لمعلم المجتمع وللمسؤولين المتعددين التابعين له، وتحدد كذلك مبادئ السلوك والعقوبات التي تفرض عند خرق هذه المبادئ، لهذا مثلاً يذكر أن «أي شخص يكذب متعمداً فعليه أن يكفر عن ذنبه بتعذيب نفسه مدة ستة أشهر»، يبدأ النص بالإعلان عن الأسس التي يحددها المجتمع، ويميز نفسه بها، فكل أعضاء المجتمع يجب أن يدخلوا في عهد أمام الرب للامتثال لكل أوامره، ومن يمارس هذه الطاعة فسيكون قد تطهر من كل خطاياه، وقد أعطي التزام الناموس موقعاً بالغ الأهمية، نجد بين الأسماء العديدة التي تميز أعضاء المجتمع حماة العهد وآخرين ممن لديهم تعصب للقانون.

ومن الشعائر المدرجة أيضاً نجد التطهير والتنقية من الذنوب بالتعميد، وهذا لا يجري مرة واحدة، وإنما كل يوم كما يبدو، وكذلك تحدد الصلوات اليومية عند الفجر وعند المغرب، وتتضمن الصلوات تلاوة من الناموس، وهناك أيضاً وجبة الجماعة المهذبة شعائرياً، وهي وجبة شبيهة جداً، كما تشهد المخطوطات الأخرى على ذلك، بالعشاء الأخير، عند ما يسمى الكنيسة الأولى.

ويتكلم قانون المجتمع كذلك عن مجلس المجتمع، الذي يتألف من اثني عشر رجلاً، وربما ثلاثة كهنة آخرين، لقد ناقشنا سابقاً هذه المحاكاة المثيرة لصورة حجر الأساس أو حجر الزاوية لمجلس المجتمع، ولكن المخطوطة تذكر أيضاً أن المجلس يجب أن يحافظ على الإيمان في الأرض بحزم وصبر، ويجب أن يكفر عن الخطيئة بممارسة العدل وبخوض معاناة أحزان المحنة .

وفي خضم حماسة العلماء لإبعاد مجتمع قمران عن عيسى المسيح والمحيطين به قام هؤلاء العلماء الذين يدعمون إجماع الفريق الدولي بتأكيد أن معنى التكفير عن الخطايا ليس له ظهور في تعاليم قمران، وعليه يجب أن يجري تمييز عيسى المسيح معلم البر عند قمران على نحو كبير بفضل عقيدته الخاصة بالتكفير عن الخطيئة، ولكن قانون المجتمع يظهر أن التكفير عن الخطيئة أمر بارز في قمران، كما هو عند عيسى المسيح وأتباعه فيما يسمى الكنيسة الأولى .

وأخيراً يقدم قانون المجتمع لنا المسيح، أو بالأحرى المسيحيين بالجمع، إن أعضاء المجتمع السالكين درب الكمال يجب عليهم أن يخلصوا ولاءهم بتعصب للقانون حتى يأتي النبي ومسيحيو هارون وإسرائيل، عادة يجري تفسير هذه الإشارة إلى وجود شخصيتين اثنتين مختلفتين من المسيح، شخصيتين لهما الشرعية نفسها، أحداهما من نسل هارون، والأخرى من النسل الراسخ لإسرائيل، أي من نسل داوود وسليمان، ولكن قد تكون تلك الإشارة كذلك إلى سلالة مسيحيين واحدة، تنحدر من كلتا السلالتين وتوحدهما، في ذلك السياق الزمني، نجد طبعاً أن كلمة المسيح لا تعني ما صارت تعنيه لاحقاً في الأعراف المسيحية، فهي ببساطة تعني المدهون بالزيت، وهذا يشير إلى تقديسه باستخدام الزيت، يبدو لنا في العرف الإسرائيلي أن كلا الملكين والكاهنين، وأي مطالب بمنصب رفيع في الواقع، كان يدهن بالزيت، ومن ثم يدعى مسيحاً .

مخطوطة الحرب:

عثر على نسخ من مخطوطة الحرب في الكهف الأول والرابع في قمران، فعلى أحد المستويات تمثل مخطوطة الحرب كتيباً بالغ الدقة للاستراتيجية والتخطيط، ومن الواضح أنه معد لأحوال خاصة، وفي زمان ومكان خاصين أيضاً، ولهذا مثلاً نقرأ فيها : يجب على سبعة من جنود الخيالة أن يتمركزوا على يمين التشكيل ويساره، يجب أن تقف قواتهم على هذا الجانب، وعلى مستوى آخر نجد أن المخطوطة تحتوي على نصائح ودعاوى تنبؤية، المقصود منها أن تحفز المعنويات ضد العدو الغازي، سواء كان الكيتيم أم

الرومان، وقد كان القائد الأعلى لإسرائيل ضد قوات كيتيم يدعى المسيح، على نحو لا لبس فيه، مع أن بعض المعلقين كانوا قد سعوا إلى إخفاء هذا الاسم وستره بالإشارة إليه باسم جلالة المدهون بالزيت، إن قدوم المسيح مذكوراً كنبوءة إلهية في الأرقام **24: 17**، حيث تذكر أن نجمة من يعقوب تستلم الحكم، ويظهر صولجان الحكم من إسرائيل، وهكذا تصبح كلمة نجمة اسماً مستعاراً لكلمة مسيح، المحارب الملكي والملك الكاهن الذي سيقود قوات إسرائيل إلى النصر، كما أكد روبرت إيسنمان إذ يقول إن هذه النبوءة تربط شخصية المسيح بصورة النجم التي تذكر في مكان مختلف في كتابات قمران، وهي ذات أهمية حاسمة، ومن المهم أيضاً أن هذه النبوءة نفسها مشار إليها في مصادر مستقلة تماماً عن كل من نصوص قمران والعهد الجديد، والتي كتبها المؤرخون ومؤرخو الأحداث في روما في القرن الأول، أمثال يوسيفوس، وتاكيتوس، وسوتونيوس، كما كان شمعون بار كوكبا الذي حرض على الثورة الثانية ضد الرومان بين الأعوام **132** و**135** ميلادي، يعني ابن النجم.

تنقل لنا مخطوطة الحرب معنىً عجائبياً ودينياً للصراع ضد الكيتيم، وذلك بتصويرها بأنه صدام بين أبناء النور و أبناء الظلام، ولكن يبقى المهم أن المخطوط يحتوي على دليل حيوي على تاريخها الخاص والتسلسل الزمني لها، فعند الحديث عن الكيتيم، تشير النصوص بوضوح كبير إلى ملكهم، ومن ثم لا يمكن أن يكون الكيتيم المعنيون جنود روما الجمهورية، الذين غزوا فلسطين سنة **63** قبل الميلاد، ولم يكن لديهم ملك، بل على العكس، يجب أن يكونوا جنود روما الإمبراطورية، الذين غزوا الأرض في زمن صحوة التمرد عام **66** ميلادي، طبعاً مع أن قوات الاحتلال كانت في فلسطين منذ استلام الحاكمين والنواب في روما الإمبراطورية للحكم في عام **6** ميلادي، ولهذا فمن المألوف أن ننظر إلى مخطوطة الحرب في السياق الزمني للقرن الأول الميلادي، لا في سياق المرحلة قبل المسيحية، وكما سنرى لاحقاً فإن هذا الدليل الداخلي للتسلسل التاريخي، والذي يؤيد التلفيق المجمع عليه للتجاهل، سيتوضح على نحو مقنع أكثر في مخطوط آخر أكثر حسماً من نصوص قمران، وهو تعليق على حبقوق .

مخطوطة الهيكل:

من المعتقد أن مخطوطة الهيكل كان قد جرى العثور عليها في الكهف الحادي عشر في قمران، مع أن هذا لم يجرِ إثباته فعلياً قط، وكما يوحي الاسم، فإن هذه المخطوطة تناقش، ولو في جزء منها على الأقل، موضوع هيكل القدس، بتصميمه وأثاثه وتجهيزاته ولوازمه من البناء، كما يعرض المخطوط تفاصيل معينة من الشعائر التي كانت تمارس في الهيكل، ولكن في الوقت نفسه الاسم الذي منحه لمخطوطة يغائيل يادين مضلل تقريباً .

فعلياً، فإن مخطوطة الهيكل هي صنف من أصناف التوراة، أو كتاب الناموس، وهو نوع من البدائل للتوراة، كانت تستخدم في مجتمع قمران وبعض الطوائف في أماكن أخرى من فلسطين، تشكل التوراة اليهودية الرسمية الأسفار الخمسة الأولى للعهد القديم، وهي سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر الليفيين، وسفر الأعداد، وسفر التثنية، كانت هذه الأسفار تعد كتب القوانين التي تلقاها موسى على جبل سيناء، وبالعرف يعزى تأليف هذه الأسفار إلى موسى نفسه، وبطريقة أو بأخرى فإن مخطوطة الهيكل تحتوي على سفر سادس من أسفار الناموس.

إن القوانين المذكورة فيها غير محدودة في شعائر للعبادة والاحتفالات في الهيكل، هناك قوانين أخرى ذات علاقة بأمور أكثر عمومية، كالتطهير الشعائري، والزواج، والممارسة الجنسية، ولكن الأكثر أهمية وإثارة من كل شيء آخر هو أن هناك قوانين تضبط نظام الملك في إسرائيل، من حيث الشخصية، والسلوك والتصرف، وواجبات الملك، مثلاً، يحرم على نحو صارم أن يكون الملك غريباً، ويحرم عليه أن يكون لديه أكثر من زوجة واحدة، ومثل باقي اليهود يحرم عليه أن يتزوج أخته أو عمته أو خالته أو زوجة أخيه أو بنات إخوته.

ليس هناك شيء جديد أو مثير للدهشة في هذه المحرمات، يمكن أن تجدها في سفر الليفيين 18-20 في العهد القديم، ولكن واحداً منها الذي ينص على حرمة زواج الملك من بنات إخوته هو الجديد، وليس إلا في مكان آخر وحيد، وهو واحد من مخطوطات البحر الميت، وهي وثيقة دمشق، وكما أشار إيسنمان فإن هذا النقد اللاذع يقدم دليلاً هاماً على تاريخ كل من مخطوطة الهيكل ووثيقة دمشق، وطبعاً ينطبق ذلك على باقي مخطوطات البحر الميت، وكما ذكرنا سابقاً فإن الفريق الدولي بالإجماع يعد مخطوطات البحر الميت تعود إلى الفترة قبل المسيحية، في حقبة ملوك إسرائيل المكابيين، ولكن ما من دليل على أن الملوك المكابيين، أو أي ملك إسرائيلي قبلهم، كان قد تزوج بإحدى بنات إخوته، أو حتى خضع للانتقاد لفعله ذلك، ولذلك يبدو الموضوع غير متصل ببعضه نهائياً، فإما أن الزواج بإحدى بنات الإخوة كان مقبولاً، وإما أنه لم يكن ممارساً قط، في كلتا الحالتين لم يكن محرماً.

لقد تغيرت الحالة على نحو متسارع مع ارتقاء هيرود وسلالته للعرش، فأولاً كان هيرود بحسب المقاييس اليهودية في ذلك العصر غريباً، ومن سلالة عربية تقطن في منطقة إيدومايا **idumaea**، وهي منطقة جنوب أرض اليهودية **Judaea**، وثانياً قام الملوك

الهيروديون بجعل الزواج من بنات الإخوة ممارسة منتظمة، كما تزوجت الأميرات الهيروديات اعتيادياً من أعمامهن، ومثال لذلك، أخت الملك أغريبا الثاني (48 ـ 53 م) المدعوة بارنيس تزوجت عمها، وهيروديياس أخت أغريبا الأول (37 ـ 44 ميلادي) قد وصلت إلى ما هو أكثر من ذلك بزواجها من عمين من أعمامها بالتعاقب، ولهذا فإن الانتقاد الوارد في مخطوطة الهيكل ذو علاقة خاصة بفترة زمنية محددة، وتشكل انتقاداً مباشراً للسلالة الحاكمة الهيرودية، وهي سلالة ملوك صوريين من أصول غريبة، فرضتهم روما الإمبراطورية على إسرائيل بالقوة وأبقتهم في السلطة.

إجمالاً إن الدليل الذي تعرضه مخطوطة الهيكل يعارض إجماع الفريق الدولي في ثلاثة مبادئ:

1- بحسب الإجماع لم يكن لمجتمع قمران أي صلة أو اهتمام بالهيكل أو باليهودية الرسمية في ذلك الوقت، ولكن كما وجدنا في المخطوطة النحاسية فإن مخطوطة الهيكل تثبت أن مجتمع قمران كان فعلياً مشغول البال بشؤون الهيكل وشؤون الحكومة الدينية الحاكمة.

2- بحسب الإجماع كان الأسينيون المفترضون في قمران يعيشون في فترة ودية مع هيرود، إلا أن مخطوطة الهيكل تبتعد عن مسلكها، لتتضمن بعض الانتقادات المحددة، وهي انتقادات كانت مقصودة لتلعن هيرود وسلالته، ومن ثم ستكون هذه الانتقادات من دون أي معنى في أي سياق زمني آخر.

3- بحسب الإجماع يعود تاريخ مخطوطة الهيكل وباقي النصوص المستخرجة من قمران إلى الفترة قبل المسيحية، ولكن الدليل الداخلي في المخطوطة يشير إلى أمور لن تكون ذات معنى إلا خلال فترة حكم الهيروديين، أي خلال القرن الأول من الحقبة المسيحية.

وثيقة دمشق:

لقد كانت وثيقة دمشق معروفة لدى العالم قبل فترة طويلة من اكتشاف مخطوطات البحر الميت في قمران، ولكن في غياب السياق التاريخي لم يعرف العلماء كيف يستفيدون منها، ومع نهاية القرن الماضي عثر في سقيفة كنيس يهودي قديم في القاهرة على جنيزة[1]، وهي مخزن لرمي النصوص الدينية الزائدة والمهترئة، يعود تاريخه إلى القرن التاسع الميلادي، وفي سنة 1896م عهد بأجزاء من محتويات هذه الجنيزة إلى شليمان

1- عثر عليها في معبد بن عزرا في القاهرة، وتعد جنيزة هذا الكنيس من أهم مجموعات الجنيزا في العالم، وعن معنى الجنيزة راجع التقديم.

شيختر، وهو محاضر في جامعة كامبردج، صادف وجوده في القاهرة في ذلك الوقت، أحد الأجزاء أثبت احتواءه على النسخة العبرية الأصلية لنص لم يكن مدة ألف سنة يعرف إلا خلال نسخ ثانوية مترجمة، وقد دفع ذلك شيختر ليبحث أكثر، وفي شهر كانون الأول عام 1896م، جمع كامل محتويات الجنيزة، وهي 164 صندوقاً من المخطوطات اليدوية، تحتوي على ما يقارب مئة ألف قطعة، وأحضرها معه إلى كامبردج، ومن هذا الخليط من المخطوطات ظهرت نسختان عبريتان لما صار يعرف وثيقة دمشق، الواضح أن النسخ المأخوذة من هذا المخزن القاهري كانت نسخاً لاحقة لعمل أقدم كثيراً، وقد كانت هذه النصوص غير كاملة، وتنقصها النهايات، وربما أجزاء كبيرة من المنتصف، كما كان ترتيب هذه النصوص مختلطاً، والتسلسل المنطقي لمواضيعها مضطرباً، ولكن حتى في هذا الشكل المضطرب كانت وثيقة دمشق استفزازية وقابلة للتهييج، وقد نشرها شيختر أول مرة عام 1910م، وفي سنة 1913م أعاد ر. هـ. تشارلز طباعتها في مجموعته المسماة الكتب الأبوكريفية والمزيفة للعهد القديم .

عندما أعطي إيسنمان، ونقل ما أعطيه إلى مجلة الآثار الإنجيلية، كانت النسخ المسحوبة من الكمبيوتر والتي تحتوي على قائمة كاملة من المواد المستخرجة من قمران على أيدي الفريق الدولي، تحتوي بين تلك المواد على نسخ إضافية أو أجزاء من وثيقة دمشق، وحيث إنها قد عثر عليها في قمران، فمن الواضح أنها أقدم كثيراً من تلك التي عثر عليها في جنيزة القاهرة، وربما أكثر اكتمالاً، لقد طلب إيسنمان وفيليب ديفيس من شيفيلد في رسالتهما الرسمية إلى جون سترغنيل أن يريا نسخ وثيقة دمشق وأجزائها المماثلة لتلك المأخوذة من الجنيزة والمستخرجة من قمران، معجلين بذلك بالخلاف العنيف والانتقامي الذي قام عام 1989م، ولكن لماذا تشكل هذه الوثيقة قضية خلاف؟.

تتكلم وثيقة دمشق أولاً عن بقايا من اليهود الذين كانوا على عكس نظرائهم من المتدينين لا يزالون مخلصين للقانون، وقد ظهر عندهم معلم للإصلاح، وكما فعل موسى، أخذهم إلى البراري، إلى مكان يدعى دمشق، حيث دخلوا هناك في ميثاق جديد مع الرب، توضح الكثير من المصادر النصية أن هذا الميثاق هو نفسه الذي يشير إليه قانون المجتمع في قمران، وليس هناك أي عالم يجادل في أنه من الواضح جداً أن وثيقة دمشق تتكلم عن المجتمع نفسه الذي تتكلم عنه باقي مخطوطات قمران، وعلاوة على ذلك، يقال إن موقع ذلك المجتمع كان في دمشق.

من الواضح لنا خلال سياق الوثائق أن المكان الذي في الصحراء والمسمى دمشق لا يمكن أن يكون هو المدينة نفسها التي يحكمها الرومان في سورية، فهل يمكن أن يكون

الموقع المسمى دمشق هو حقيقة قمران؟، إن سبب بقاء موقع ذاك المكان مخفياً إلى هذه الدرجة لا يزال غير معروف، مع أن حالة البقاء البسيطة التي أملاها الاضطراب الذي تلا ثورة عام 66 ميلادي، قد يكون شرحاً كافياً لذلك، كما لم تكن قمران تملك اسماً خاصاً بها في ذلك الوقت، في كل الأحوال، وبناء على النسخ الكمبيوترية التي طبعها الفريق الدولي، من الصعب أن يكون العثور على ما لا يقل عن عشر نسخ من أجزاء من وثيقة دمشق في كهوف قمران مصادفة.

تحتوي وثيقة دمشق على قائمة من التشريعات، مثلما كان يحتوي عليه قانون المجتمع، وبعض هذه التشريعات متطابقة مع تلك التي في قانون المجتمع، ولكن هنالك بعض التشريعات الإضافية كذلك، اثنان منها يستحقان الوقوف عندهما، أحدهما يتعلق بالزواج والأولاد، وهذا يدل على أن مجتمع قمران لم يكن مجتمعاً أسينياً بتولاً، كما ذكر الأب دو فوكس، والآخر يشير إلى المجتمعات المترابطة بالنسب والمتناثرة في أرجاء أرض فلسطين، وقد أشار إلى ذلك على نحو متواصل، كما لو كان من المسلّمات، أي إن قمران لم تكن معزولة عن العالم في زمنها، كما أكد ذلك دو فوكس.

إن وثيقة دمشق تستنكر ثلاث جرائم، خصوصاً، تلك الجرائم التي كان مزعوماً أنها تمارس بكثرة بين أعداء الصالحين الذين اعتنقوا الميثاق الجديد، وقد حددت هذه الجرائم بالغنى، وتدنيس الهيكل، وهي تهمة تذكرها مخطوطة الهيكل كذلك، إضافة إلى تعريف محدود للزنا، أي الزواج بأكثر من امرأة أو الزواج ببنات الإخوة، إذاً كما بيّن إيسنمان فإن وثيقة دمشق تردد ما ذكر في مخطوطة الهيكل بالإشارة إلى قضايا لا صلة لها إلا بفترة حكم سلالة الهيروديين، وكما سنرى لاحقاً فالوثيقة تكرر ذكر نزاع في المجتمع، تصوره على نحو أوضح مخطوطة أخرى من مخطوطات البحر الميت، وهي تعليق حبقوق، يتضمن هذا النزاع شخصاً يوصف بأنه الكذاب، وهو شخص ينشق عن مجتمعه، ويصبح عدواً له، تدين وثيقة دمشق أولئك الذين دخلوا في الميثاق الجديد في أرض دمشق، والذين خانوه مرة أخرى ورحلوا، وبعد ذلك قليلاً تتكلم الوثيقة عن أولئك الذين رحلوا لينضموا إلى الكذاب .

تحاكي وثيقة دمشق أيضاً ما ذكر في قانون المجتمع و مخطوطة الحرب بكلامها عن شخصية مسيحية، أو ربما شخصيتين، ستأتي إلى دمشق، وهو نبي أو مفسر للقانون، اسم النجم، وهو أمير من سلالة داوود ويدعى الصولجان، ونجد في خمس مناسبات لاحقة في النص أن هناك تركيزاً على شخصية واحدة، ألا وهي مسيح هارون وإسرائيل.

سيجري اكتشاف أهمية شخصية هذا المسيح لاحقاً، أما الآن فمن الجدير بنا أن نأخذ في الحسبان الإشارة التي تدل عليها دمشق تسمية لقمران، إن دمشق معروفة لكثير من المسيحيين طبعاً في الجزء التاسع من أفعال الحواريين، حيث إنه من المتعارف عليه أنها تشير إلى المدينة التي تحكمها روما التي في سورية، وهي العاصمة الحالية لذلك البلد، وفي واحد من أكثر النصوص المعروفة والحرجة في العهد الجديد كله نقرأ عن أن شاؤول الطرسوسي قد خاض عملية تحوله إلى بولس في طريقه إلى دمشق.

بحسب ما ورد في كتاب الأفعال، الجزء التاسع، كان شاؤول تقريباً محققاً إضافة إلى أنه منفذ، وقد أرسله كبير كهنة الهيكل في القدس، ليضع حداً لمجتمع اليهود الابتداعي، أي المسيحية الأولى، القائم في دمشق، كانت جماعة الكهنوت متعاونة مع الرومان المحتلين، وكان شاؤول إحدى أدواتهم، ويقال إنه في القدس كان قد شارك عملياً في الهجمات التي جرت على الكنيسة الأولى، بل إن كتاب الأفعال كان صحيحاً، فقد كان منخرطاً شخصياً في الأحداث المحيطة برجم الشخصية المعروفة باسم ستيفن حتى الموت، والذي صار يسمى في الأحاديث اللاحقة أول شهيد مسيحي، بل هو نفسه قد اعترف طواعية بأنه كان يعذب ضحاياه حتى الموت.

وهكذا انطلق شاؤول إلى دمشق مندفعاً بحماسته المتعصبة، ليتصيد الأعضاء الفارين من الكنيسة الأولى المقامة هناك، وقد كان بصحبته مجموعة من الرجال المسلحين، كما يظن، وكان يحمل معه مذكرات اعتقال صادرة من كبير الكهنة في القدس.

لم تكن سورية في ذلك الوقت جزءاً من إسرائيل، وإنما منطقة رومانية منفصلة، يحكمها مندوب روماني من دون أي اتصال إداري أو سياسي بفلسطين، فكيف يمكننا أن نتصور إذاً أن أوامر كبير الكهنة قد وصلت إلى هناك؟، ما كان للإمبراطورية الرومانية أن تجيز إيجاد قوة مداهمة معينة ذاتياً، تنتقل من إقليم إلى إقليم آخر ضمن ملكيتها، لتقوم باعتقالات واغتيالات، وتهدد الاستقرار المزعزع للنظام المدني، وفقاً للسياسة الرسمية يمكن السماح لأي دين شريطة أن لا يفرض أي تحد على السلطة الدنيوية أو البنية الاجتماعية، ولذلك فإن وجود قوة مداهمة منطلقة من القدس، تقوم بعملها في سورية كانت ستثير انتقاماً بشعاً وخاطفاً من الإدارة الرومانية، انتقاماً لا يمكن أي كاهن يعتلي منصب كبير الكهنة الذي يعتمد تأييد روما أن يجلب وباله على نفسه، وهكذا، وبناء على هذه الملابسات، كيف يمكن شاؤول الطرسوسي، المسلح بمذكرات اعتقال موقعة من كبير الكهنة أن يخوض هذه الحملة التأديبية إلى دمشق، إذاً كانت دمشق تلك هي المدينة التي في سورية؟.

ولكن إذا فهمنا دمشق بأنها هي قمران، فجأة يصبح لحملة شاؤول معنىً تاريخي ممتاز، فعلى عكس سورية، كانت قمران تتوضع ضمن الإقليم الذي كانت تسري فيه سلطة كبير الكهنة، ومن ثم فمن الملائم جداً لكبير الكهنة أن يبعث بمنفذي القانون لديه لاستئصال اليهود الصابئين في قمران، والتي على بعد عشرين ميلاً فقط قرب أريحا، إن هذا العمل يطابق سياسة روما كاملة، والتي بذلت جهدها في عدم التطفل على الشؤون الداخلية المحضة، أي إن اليهود كانوا يتميزون بحرية اضطهاد اليهود الآخرين ومضايقتهم، ما داموا ضمن حدود مناطق سلطتهم، وما دامت هذه النشاطات لا تتطاول على الإدارة الرومانية، وحيث إن كبير الكهنة كان ألعوبة بيد الرومانيين، فقد كانت جهوده في إبادة المتدينين المتمردين موضع ترحيب كبير.

ولكن، وبغض النظر عن إمكان قبول هذا التفسير تاريخياً، فإنه يثير بعض الأسئلة البالغة الخطورة، بحسب إجماع الفريق الدولي كان مجتمع قمران يضم أعضاء طائفة يهودية، يدعون الأسينيين، وهي طائفة مسالمة ومتقشفة، وليس لها أي صلات بالمسيحية الأولى أو بالتيار السائد لليهودية في ذلك الوقت، ومع ذلك، بناء على ما ذكر في كتاب الأفعال، فإن شاؤول قد توجه إلى دمشق ليلاحق أعضاء الكنيسة الأولى، ومن هنا إذاً، هناك تحد مستفز لكل من العرف المسيحي، والمناصرين للإجماع، والذين تجنبوا بأسلوب دراسي النظر في الموضوع على نحو متكامل، إما أن أفراد الكنيسة الأولى كانوا قد وجدوا الملاذ في مجتمع قمران، وإما الكنيسة الأولى ومجتمع قمران كانا الكيان نفسه، في كلتا الحالتين، فإن وثيقة دمشق تؤكد أن مخطوطات البحر الميت لا يمكن أن تكون بعيدة عن أصول المسيحية.

تعليق حبقوق:

عثر على تعليقات حبقوق في الكهف الأول في موقع قمران، وربما تمثل هذه المقاربة الأكبر بين كل أجزاء مخطوطات البحر الميت لتسجيل تسلسل تاريخي للمجتمع، أو على أي حال، لبعض التطورات الرئيسة في تاريخها، تركز هذه المخطوطة على نحو خاص على النزاع نفسه المذكور في وثيقة دمشق، يبدو أن هذا النزاع الذي شارف على الوصول إلى انشقاق كان حادثة مؤثرة في حياة مجتمع قمران، فهذه الحادثة لا تظهر في وثيقة دمشق و تعليق حبقوق وحسب، بل نجدها في أربعة نصوص أخرى من قمران، كما يبدو أن هناك إشارة إليها في أربعة نصوص غيرها كذلك.

وكما وجدنا في وثيقة دمشق، فإن تعليق حبقوق يسرد كيف انسحب بعض أعضاء المجتمع، بتحريض شرير من شخصية كانت تعرف باسم الكذاب، من المجتمع، ونقضوا

الميثاق الجديد، وانقطعوا عن التزام الناموس، وقد دفع ذلك إلى صراع بينهم وبين قائد المجتمع، أي معلم البر، وهناك ذكر لخصم دنيء أيضاً كان يعرف باسم الكاهن اللعين، لقد نزع مناصرو الإجماع على نحو عام إلى عد الكذاب و الكاهن اللعين لقبين مختلفين للشخص نفسه، ولكن في وقت لاحق أثبت أينزمان بقوة أن الكذاب و الكاهن اللعين هما شخصيتان مستقلتان ومختلفتان، وقد أوضح أن الكذاب، على عكس الكاهن اللعين يظهر من قلب مجتمع قمران، بعد أن احتضن في المجتمع، وقُبل عضواً ذا مواقف جيدة قام بالانشقاق عنه، ولهذا لم يكن خصماً، بل خائن أيضاً، في المقابل فإن الكاهن اللعين من خارج المجتمع، وممثل عن مؤسسة الهيكل الكهنوتية، ولذلك فهو خصم، وليس خائناً، تبرز أهمية هذا الشخص لخدمة أهدافنا خلال الدليل الذي يقدمه لتحديد تاريخ الأحداث التي تسردها مخطوطة تعليق حبقوق، فإذا كان الكاهن اللعين عضواً في مؤسسة الهيكل، فهذا يعني أن الهيكل لا يزال قائماً، وأن المؤسسة لا تزال سليمة، أي إن نشاطات الكاهن اللعين تسبق تاريخ تدمير الهيكل من القوات الرومانية.

وكما وجدنا في مخطوطة الحرب، نجد هنا، ولكن بوضوح أكبر، إشارات لا يمكن إلا أن تكون لروما الإمبراطورية لا الجمهورية، أي لروما في القرن الأول الميلادي، فمثلاً تشير مخطوطة تعليق حبقوق إلى ممارسة معينة، وهي أن القوات الرومانية المنتصرة تقدم قرابين بحسب معاييرهم، يقدم يوسيفوس دليلاً مكتوباً على هذه الممارسة في زمن سقوط الهيكل عام 70 للميلاد، والواقع أن هذه الممارسة لن تكون ذات معنى في ظل الجمهورية، حيث كانت القوات المنتصرة تقدم القرابين لآلهتها، فمع تكوين الإمبراطورية فقط، وعندما كان الإمبراطور يمنح نفسه منزلة القداسة، ويصبح أعظم إله لشعبه، هل ستحتاج صورته أو إمارته أو حروف اسمه إلى أن تتجمل وفق معايير جنوده، ولهذا فإن مخطوطة تعليق حبقوق مثل مخطوطة الحرب و مخطوطة الهيكل و وثيقة دمشق تشير إلى العصر الهيرودي تحديداً.

الفصل الثالث

العلم في خدمة العقيدة

وفقاً لإجماع الفريق الدولي فإن الأحداث التاريخية التي ظهرت في كل مخطوطات البحر الميت ذات الصلة كانت قد حدثت في عهد المكابيين بين منتصف القرن الثاني ومنتصف القرن الأول قبل الميلاد، وإن الكاهن اللعين الذي جاء لاحقاً قد عذّب، وربما قتل معلم البر، وهو محدد من الفريق الدولي بأنه جوناثان ماكابوس [1]، أو ربما أخوه شمعون، وكلاهما حظي بمناصب ذات أهمية في ذلك العصر، كما جرت العادة أن يكون أي غزو أجنبي يعني أن يشن من الرومان بإمرة بومبي في عام 63 قبل الميلاد، وهكذا فإن الخلفية التاريخية للمخطوطات قد أرجئت على نحو آمن في العهود قبل المسيحية، حيث أصبحت مجردة من أي تحديات محتملة لتعاليم العهد الجديد وتقاليده من الكتاب المقدس.

وبينما تشير بعض مخطوطات البحر الميت، بلا شك، إلى عهود ما قبل المسيحية، فإنه لخطأ فاحش لبعض التعتيمات المدروسة أن تنتهي بالقول إن كل هذه المخطوطات تشير إلى الأمر ذاته، وطبعاً كان بومبي[2] الذي قام بغزو الأرض المقدسة في عام 63 قبل الميلاد معاصراً ليوليوس قيصر[3]، وفي عهد بومبي ويوليوس قيصر كانت روما لا تزال جمهورية وقد أصبحت إمبراطورية فقط في عام 27 قبل الميلاد بقيادة ابن قيصر بالتبني أوكتافيان[4] الذي أخذ المنصب الإمبراطوري من أغسطس، وإذا كان الغزو الروماني المشار إليه في المخطوطات هو غزو بومبي ذاته، فلا بد من أنه قد أشرك جيوش روما

1 – جوناثان المكابي: بعد مقتل يهوذا المكابي عام 161 ق.م تولى قيادة اليهود يوناثان أخو يهوذا، ونجح في كسب ثقة أنطيوخوس السادس، فعينه رئيساً للكهنة، ونائباً للملك في اليهودية، قتله القائد تريفون عام 143 ق.م.

2 – بومبي: هو ابن القائد الكبير جاليونيوس بومينيوس، ولد عام 106 ق.م في روما، وتوفي عام 46 ق.م في الاسكندرية، أحد القادة العسكريين الذين برزوا في أواخر عصر الجمهورية، قاد جيوشه من دون تكليف من مجلس الشيوخ الروماني، واستولى على سوريا سنة64 ق.م، اتحد مع مجلس الشيوخ والنبلاء ضد يوليوس قيصر الذي انتصر على جيش بومبي، ففر إلى الاسكندرية، وكانت تربطه بحكامها علاقات جيدة، فقام مستشارو بطليموس الثالث عشر بقتل بومبي لتحسين علاقتهم بقيصر، لكنه قتل المسؤولين عن اغتيال بومبي، وقام بتنحية بطليموس الثالث عشر عن الحكم وتقليد كليوباترا السابعة.

3– غايوس يوليوس قيصر: ولد عام 100 ق.م لعائلة رومانية عريقة، يعد أبرز الشخصيات العسكرية الفذة في التاريخ، انضم قيصر إلى المعترك السياسي في وقت مبكر، ثم انضم إلى الجيش الروماني ضابط محاسبة، حتى قاد جيشه الخاص المعروف بأكثر جيوش روما انضباطاً، وقف قيصر جانب بومبي عام 71 ق.م، وشكل قيصر وبومبي وكراسوس أول حكومة ثلاثية، ثم تولى الحكم، فحول روما من جمهورية إلى إمبراطورية، غير أن أعداءه الكثيرين دبروا له مؤامرة لاغتياله عام 44 ق.م.

4 – غايوس يوليوس قيصر أوكتافيانوس: ولد في روما عام 44 ق.م، وتولى الحكم بعد مقتل يوليوس قيصر الذي كان قد تبناه، أعلن أوكتافيان الحرب على أنطونيو عام 32 ق.م، وتمكن أسطوله من هزيمة أسطول أنطونيو وكليوباترا في معركة أكتيوم البحرية قرب سواحل اليونان عام 31 ق.م، ولحق بهما إلى مصر، فانتحر أنطونيو وكليوباترا عام 30 ق.م، حققت روما مجداً عظيماً في أثناء حكمه، وأصبحت تلك الفترة تعرف باسم العهد الأوغسطي، وكانت العصر الذهبي للأدب والفن والعمارة.

الجمهورية، وعلاوة على ذلك فإن قانون الحرب لوح بالإشارة إلى ملك أو سلطان للغزاة، وكانت تعليقات حبقوق أكثر وضوحاً في إشارتها إلى تضحيات الغزاة المنتصرين من أجل مبادئهم، ولذلك سيبدو واضحاً أن الغزو الذي نحن بصدده كان غزو روما الإمبراطورية، وهو الغزو الذي حرضته ثورة سنة 66 ميلادي، وجد البروفيسور غودفري درايفر من جامعة أكسفورد عدداً كبيراً من المراجع النصية ضمن المخطوطات التي تمثل مفاتيح لتأريخها، ومركزاً على تعليقات حبقوق خصوصاً انتهى إلى أن الغزاة يمكن فقط أن يكونوا حشود الرومان في عهد الثورة في عام 66 ميلادي، وأضاف أن هذه النتيجة ليست موضع شك بالإشارة إلى تضحياتهم من أجل مبادئهم العسكرية، لكن عباراته أثارت هجوماً ضارياً من الأب دو فوكس الذي أدرك أنهم اقتيدوا على نحو متعنت إلى النتيجة القائلة إن: الخلفية التاريخية للمخطوطات كانت هي الحرب على روما، وهذا ما لم يكن دو فوكس ليقبله طبعاً، وفي الوقت ذاته لم يستطع أن يدحض دليلاً دقيقاً كهذا، وبالنتيجة استنبط فكرة أن يصرف النظر عن الدليل ويهاجم فقط فرضية درايفر العامة، لقد بدأ درايفر من فكرة ذات تصور سابق، تقول إن كل المخطوطات كانت من فترة بعد المسيحية، وإن هذه الفكرة كانت مبنية على الشهادة المضللة لقواعد الإملاء والتهجئة واللغة والمفردات، وأوضح أن الأمر يعود إلى المؤرخين المحترفين، ليقرروا إذا كان تاريخ درايفر ذو الأطياف المتعددة يتميز بأسس كافية في النصوص، وإنه لأمر مميز أن يقوم دو فوكس الذي درَس التاريخ التوراتي فجأة، أو على الأقل عندما وجب عليه الرد على البروفيسور درايفر، بالاختباء وراء ستار من الحشمة المزيفة والإحجام عن عدّ نفسه مؤرخاً ملتجئاً، بدلاً من الاحتماء وراء المتراس المزعوم لعلم الآثار وعلم الكتابات القديمة، في الحقيقة لقد عززت البيانات الأثرية دلالات التأريخ المقدمة من البيانات الداخلية للمخطوطات ذاتها، وقد تزامن وجود دليل خارجي مع وجود دليل داخلي، وهو الدليل الذي يبدو أن الإجماع لا يزال غافلاً عنه، وفي بعض الأحيان أدى هذا إلى حدوث زلة محرجة.

باشر دو فوكس عملية تنقيب أولية عن آثار موقع قمران في عام 1951م، وهو أمر سيبقى في الذاكرة، وقد كانت مكتشفاته مترابطة منطقياً على نحو كافٍ لتشكل مسوغاً لمشروع أكثر طموحاً، إلا أن نوعاً من الفتور كان قد بدأ، ولم يجرِ أي تنقيب شامل حتى عام 1953م، وبعد ذلك استمر بتنقيبات سنوية حتى عام 1956م، وفي عام 1958م جرى تنقيب موقع مضموم في منطقة عين فيشكا الذي يبعد أقل من ميل واحد جنوباً، وفي تلهفه إلى إبعاد تجمع قمران عن أي صلة بالمسيحية القديمة سارع دو فوكس إلى طباعة نتائج التأريخ التي توصل إليها، وفي بعض الحالات لم ينتظر إيجاد الدليل الأثري

الذي يدعم نتائجه، ومنذ عام 1954م لاحظ البروفيسور اليسوعي روبرت نورث أربع حالات على الأقل، أجبر فيها دو فوكس على التراجع عن تأريخه، كما وجد نورث الأمر مزعجاً ألا يطلب من أي اختصاصيين مستقلين عن سلطة دو فوكس أن يساهموا في نتائجهم حتى في المسائل الحاسمة، إلا أنه لم يكن من عادة فوكس أن يدعو لسماع آراء من شأنها أن تتعارض مع آرائه، وأن تسلط ضوءاً جدلياً على مادته، كما لم يكن تواقاً إلى الإعلان عن أخطائه عندما تحدث، ومع أنه يسارع في نشر النتائج التي تؤكد فرضيته وترويجها فقد كان متوانياً، على نحو واضح، عن التراجع عن تلك النتائج، عندما يثبت خطؤها.

كانت طبقة الرماد الكثيفة التي تغطي محيط الآثار عنصراً هاماً لفوكس، وكانت هذه الطبقة شاهداً جلياً على وجود حريق من نوع ما، أدى بوضوح إلى دمار هائل، أدى إلى بقاء قمران مهجورة جزئياً، إن لم يكن كلياً، بضع سنوات، وكشفت دراسة عن القطع النقدية التي جرى العثور عليها في الموقع أن الحريق قد حدث في وقت قريب من بداية حكم هيرود العظيم، الذي احتل العرش عام 37 قبل الميلاد وحتى عام 4 قبل الميلاد، كما أشارت البيانات ذاتها إلى أن إعادة الإعمار قد بدأت في ظل حكم ابن هيرود ويدعى أركيلوس، الذي حكم برتبة حاكم وليس برتبة ملك منذ عام 4 قبل الميلاد وحتى عام 6 ميلادي.

وبحسب فرضية دو فوكس كان مجتمع قمران يتكون ربما من نساك من الأسينيين الذين يمتازون بالهدوء وحب السلام، وقد كانوا على صلات جيدة بهيرود مثل صلاتهم بأي جهة أخرى، و إذا كانت هذه هي الحال، فإن الحريق لم يكن ناتجاً من فعل بشري متعمد، مثل الحرب مثلاً، بل كان نتيجة حادث أو كارثة طبيعية، ولحسن حظ دو فوكس فقد وجد تشققاً كبيراً يمر عبر حوض، ومع أن الباحثين المستقلين لم يجدوا أي دليل على امتداد هذا التشقق أبعد من ذلك، زعم دو فوكس أنه قد تتبعه في كامل الآثار التي في مجتمع قمران، وحتى إن كان موجوداً فعلاً فقد توصل عدد من الخبراء إلى أنه من المحتمل أن يعزا إلى التعرية، أما لدى دو فوكس فقد كان التشقق نتيجة لواحد من الزلازل التي شهدتها المنطقة عبر القرون، وبدلاً من أن يحاول تحديد سبب التشقق بحث دو فوكس، إن صح التعبير، عن زلزال من شأنه أن يكون السبب، وكما حدث، كان هناك زلزال ملائم تقريباً في السجل، فقد ذكر يوسيفوس زلزالاً كان قد حدث تقريباً في بداية فترة حكم هيرود في عام 31 قبل الميلاد، وانتهى دو فوكس إلى أن هذا الزلزال كان السبب في اندلاع الحريق الذي أدى إلى عزلة ذلك المجتمع، ولم يكترث لأن يشرح السبب الكامن وراء عدم إعادة الإعمار ربع قرن من الزمن، وتقدمه فجأة بسرعة ملحوظة.

أشار روبرت إيسنمان إلى توقيت إعادة الإعمار الذي يتسم بدقة مدهشة، حيث تزامن تماماً مع فترة حكم هيرود، وحالما توفي بدأت عملية إعادة الإعمار بسرعة، وقد كان جزء من الإعمار يعنى بتقوية الأبراج الدفاعية إضافة إلى تشييد حصن، وهكذا سيبدو واضحاً، لأسباب قرر دو فوكس تجاهلها، أنه لم يجرؤ أحد على أن يباشر إعادة الإعمار ما دام هيرود يعتلي العرش، ولكن التساؤل هنا : لماذا يجب أن تكون هذه القصة حقيقية؟، إذا كان ذلك المجتمع على وفاق مع هيرود، كما أكد دو فوكس!، وكذلك إذا كان الدمار الحاصل ناتجاً من زلزال ؟، فسيبدو من الأكثر احتمالاً أن يكون ذلك المجتمع قد دمر عمداً بأوامر من هيرود!، وأن تكون عملية إعادة الإعمار قد أرجئت حتى وفاته، ولكن لماذا يقوم هيرود بتدمير مجتمع هادئ جداً، ومحبب للعموم، وبعيد عن النشاط السياسي؟.

بقي دو فوكس متناسياً هذه التساؤلات، سواء كان ذلك مقصوداً أم سهواً، وأخيراً أصبح المنطق الذي جنده دو فوكس ليدعم زلزاله الافتراضي مرهقاً حتى لدى أقرب الأشخاص الذين يدعمونه، وهو الأب ميليك الذي جاء لاحقاً، فقد كتب ميليك في عام 1957م عن الحريق والزلزال المزعوم ما مفاده:

كان الدليل الأثري المأخوذ من قمران مبهماً، وكذلك الأمر لترتيب هذين الحدثين، فالطبقات السميكة من الرماد تقتضي حدوث حريق هائل وعنيف جداً، ومن الأفضل تفسيرها بأنها نتيجة محاولة متعمدة لإحراق البناء كاملاً، ومن ثم ربما يظهر الرماد آثار تدمير متعمد لقمران.

ويبقى التأكد من أن الحريق كان ناجماً من زلزال أو فعل بشري متعمد غير ممكن، وبلا شك يشكل هذا الدليل دعماً أقل لدو فوكس من الدعم الذي يقدمه لميليك وإيسنمان اللذين كانا في هذه المناسبة الفريدة على توافق معاً، ومع ذلك ظل الكثير من مؤيدي الإجماع يذكرون الزلزال، ولا يزال يصور بتواتر منتظم في نصوصهم.

لكن سوء تفسير دو فوكس، أو تفكيره المتمني حيال الدليل كان في النهاية مفضوحاً، ففي المراحل الأولى لتنقيباته وجد قطعة نقدية متأكسدة على نحو كبير، ما دعاه للظن، بحسب تعبيره، أنه استطاع أن يتبين إشارة تدل على الفيلق الروماني العاشر، وللاستشهاد بقول يوسيفوس، قال أيضاً: إن الفيلق العاشر قد فتح جيريشو التي تبعد ثمانية أميال في تموز عام 68 ميلادي، وبدا كل شيء على ما يرام، وبناءً على قطعته النقدية تلك حاول دو فوكس أن يثبت أن قمران لا بد من أنها دمرت من الفيلق العاشر في عام 68 ميلادي، وصرح لاحقاً: ليس هناك مخطوطات في الكهوف يمكن أن تكون بعد تموز عام 68 ميلادي .

لقد وصف دو فوكس أولاً اكتشافه للقطعة النقدية عام 1954م في صحيفة بايبليكال ريفيو، وكرر تقريره بعد خمس سنوات عام 1959م في الصحيفة نفسها، وبذلك أصبحت حقيقة القطعة النقدية وتأريخات دو فوكس المؤكدة على أساسها ذخراً في صلب الدليل الذي كان يذكر اعتيادياً من مؤيدي الإجماع، حتى إن فرانك كروس كان مثلاً يكتب أن القطعة النقدية كانت ممهورة بإشارة الفيلق العاشر، ما يشكل تأكيداً قاطعاً.

لكن دو فوكس ارتكب خطأين غريبين، أولاً تلاعب نوعاً ما بفهم يوسيفوس، ناسباً إليه نقيض ما كان يقصد بقوله، حيث إن يوسيفوس قطعياً لم يؤكد أن الفيلق العاشر احتل جيريشو في عام 68 ميلادي، وكما وضح البروفيسور سيسيل روث عن الفيالق الرومانية الثلاثة في المنطقة المجاورة، كان الفيلق العاشر هو الوحيد الذي لم يشارك في فتح جيريشو، فقد كان مرابطاً على مسافة بعيدة جداً شمالاً حارساً أعلى وادي الأردن، وثانياً ثبت أن القطعة النقدية التي عثر دو فوكس عليها لم يكن لها أي صلة بالفيلق الروماني العاشر، ولا أي فيلق آخر، فمع أنها مخربة ومتأكسدة على نحو سيئ فقد أثبت بعد خضوعها لفحص الخبراء الدقيق أنها أتت من أشكلون أو عسقلان بتاريخ عام 72 أو 73 ميلادي.

و هنا كان الخطأ الفادح الذي لا مهرب منه، لم يكن أمام دو فوكس خيار آخر سوى أن ينشر تراجعاً رسمياً، وظهر هذا الانسحاب حاشية في كتابه «مخطوطات البحر الميت» الذي نشر في فرنسا عام 1961م، وترجم إلى الانكليزية عام 1973م، وقال دو فوكس موجزاً: «كان ذكر ذلك غير ملائم، هذه القطعة النقدية لم تكن موجودة».

إجمالاً، كان دو فوكس أقرب إلى أن يكون متعجرفاً من دون خجل في نتائجه عن القطعة النقدية، فعندما لم يكن يجد ما لا يتطابق مع نظرياته كان يستبعدها ببساطة، فمثلاً وجد تأريخاً يعود إلى الفترة التي بين عامي 138 ميلادي و161 ميلادي، و لم يبال بإمكان صلته، وذلك عندما علق بأنه لا بد أن عابر سبيل قد أضاعه، وطبعاً بالطريقة نفسها يمكن قطعة نقدية أقدم كان يحاول أن يبني عليها تأريخه لقمران أن تكون قد فقدت من أحد عابري السبيل، ولكن يبدو أن دو فوكس لم يقم شأناً لهذا الاحتمال.

أما الدليل الأثري الذي جرى العثور عليه في قمران، فكان القطع النقدية ذات الأهمية خاصة للفريق الدولي ولمؤيدي تجمعهم، والحقيقة لقد استنتجوا الفترة الزمنية لهذا المجتمع على أساس هذا الدليل، وخلال تفسيراتهم لهذا الدليل قاموا بوضع تأريخهم وتقسيمهم للتأريخات، ولكن لم يأبه أحد قبل إيسنمان بالمساءلة عن سوء تفسيرهم، وكما

رأينا فقد سعى كل من روث ودرايفر إلى تأسيس تأريخ قائم على أساس دليل داخلي للمخطوطات ذاتها، وكان دو فوكس والفريق الدولي قادرين على تكذيبهم ببساطة، وذلك باستحضار الدليل الخارجي المؤمن افتراضياً بالقطع النقدية، ولم يلاحظ أحد أن هذا الدليل قد فسر أسطورياً، وقد أدرك إيسنمان أن روث ودرايفر، اللذين كانا يحاجان على أساس دليل داخلي، كانا في الواقع على صواب، ولكن، لكي يثبت ذلك، كان عليه أولاً أن يكشف أمر التفسير الخاطئ للدليل الخارجي، وبدأ بمسألة توزيع القطع النقدية، مشيراً إلى أنها تكشف عن فترتين من ذروة النشاط.

لقد جرى اكتشاف 450 قطعة نقدية برونزية تقريباً في قمران خلال التنقيب، وتغطي هذه القطع ما يقارب قرنين ونصف قرن من الزمن، منذ عام 135 قبل الميلاد إلى عام 136 ميلادي، ويصنف الجدول التالي هذه القطع في مجموعات بحسب فترات الحكم التي سكت فيها :

1 قطعة نقدية	من	104.135 قبل الميلاد
1 قطعة نقدية	من	104 قبل الميلاد
143 قطعة نقدية	من	76.103 قبل الميلاد
1 قطعة نقدية	من	67.76 قبل الميلاد
5 قطع نقدية	من	40.67 قبل الميلاد
4 قطع نقدية	من	37.40 قبل الميلاد
10 قطع نقدية	من	4.37 قبل الميلاد
16 قطعة نقدية	من	4 قبل الميلاد. 6 ميلادي
91 قطعة نقدية	من	41.6 ميلادي - زمن النواب
78 قطعة نقدية	من	44.37 ميلادي . فترة حكم أغريبا الأول
2 قطعتان نقديتان رومانيتان	من	68.54 ميلادي
83 قطعة نقدية	من	67 ميلادي - السنة الثانية للثورة
5 قطع نقدية	من	68 ميلادي - السنة الثالثة للثورة
6 قطع نقدية إضافية من فترة الثورة، وهذه القطع متأكسدة على نحو كبير، يصعب معه تحديدها بدقة		

13 قطعة نقدية رومانية	من	8.67 ميلادي
1 قطعة نقدية رومانية	من	79.69 ميلادي
2 قطعتان نقديتان	من	3.72 ميلادي
4 قطع نقدية	من	81.72 ميلادي
1 قطعة نقدية رومانية	من	87 ميلادي
3 قطع نقدية رومانية	من	117.98 ميلادي
6 قطع نقدية	من	6_132 ميلادي . ثورة شمعون بار كوكبا

سيظهر توزيع القطع النقدية أنه يشير إلى فترتين زمنيتين عندما كان مجتمع قمران في أوج نشاطه، وهي بين عامي 103 و76 قبل الميلاد، وبين عامي 6 و67 ميلادي، وهناك ما مجموعه 143 من القطع النقدية، تعود إلى فترة سابقة، و254 تعود إلى الأخيرة، أما مؤيدو الإجماع فلم يتناغم هذا مع الإتقان الذي كانوا ينشدونه في نظرياتهم، وبحسب قراءاتهم للمخطوطات فإن الكاهن اللعين كان أكثر احتمالاً، لأن يكون هو الكاهن الأعلى جوناثان الذي عاش في الفترة التي بين عامي 160 و142 قبل الميلاد، أي نصف قرن قبل المجموعة الأولى من القطع النقدية، ولكي يدعم فرضيته احتاج الأب دو فوكس إلى تاريخ باكر جداً للعثور على مجتمع قمران، ولذلك أجبر على أن يدعي أن التأريخ المفرد للقطع النقدية من الفترة التي بين عامي 135 و104 قبل الميلاد ساعد على إثبات صحة الفرضية، مع أن الإحساس العام كان يفترض أن تاريخ المجتمع ينحصر بين عامي 103 و76 قبل الميلاد، وهي الفترة التي كان فيها تركيز على 143 قطعة نقدية، و من الممكن جداً أن تكون القطعة النقدية الأقدم التي استند إليها دو فوكس في جدله قطعة فقط بقيت بضع سنوات بعد سكها.

أولى دو فوكس أهمية خاصة لاختفاء قطع جودايك النقدية بعد عام 68 ميلادي، وللقطع الرومانية التسع عشرة التالية في ذلك العام، وأكد أن هذا يثبت أن قمران كانت قد دمرت في عام 68 ميلادي، ويشير إلى أن القطع النقدية الرومانية تدل على أن تلك الآثار كانت قد احتلت من فصيلة من القوات الرومانية، وعلى هذا الأساس تابع ليحدد تاريخاً محدداً لإيداع المخطوطات ذاتها: «نتيجتنا أنه ليست هناك أي من المخطوطات التي تنتمي إلى ذلك المجتمع جاءت بعد آثار خربة قمران في عام 68 ميلادي».

من المألوف أن يكون هذا التسويغ أسطورياً، ففي المقام الأول وجدت قطع جودايك النقدية التي تعود إلى تاريخ ثورة شمعون بار كوكبا في الفترة التي بين عامي 132 ميلادي و136، وفي المقام الثاني تشير هذه القطع فقط إلى أن الناس كانوا يطوفون حول قمران، ويسقطون هذه النقود، بطريقة أو بأخرى، إنها لا تدل على شيء فيما يتعلق بإيداع المخطوطات التي يمكن أن تكون قد دفنت في قمران منذ عهد بار كوكبا، وأخيراً إنه من المفاجئ أن تكون القطع النقدية التي جاءت بعد عان 68 ميلادي قطعاً رومانية، ففي السنوات التي تلت الثورة كانت النقود الرومانية تشكل العملة الوحيدة في الأرض اليهودية، وإذا كان هذا هو الواقع فيجب أن تكون قد وقعت بندرة وعلى نحوٍ إفرادي من الرومان.

كان إيسنمان متشدداً في مسألة سحب نتاجات دو فوكس الأثرية، فهو يقول إنها إن كانت تثبت شيئاً فهو تماماً عكس ما يتوصل إليه دو فوكس، فهي تثبت أن آخر تاريخ أقرت فيه المخطوطات في قمران لم يكن عام 68 ميلادي، بل 136 ميلادي، وإن أي تاريخ حتى ذلك التاريخ سيكون متوافقاً تماماً مع الدليل الأثري، ويضيف إيسنمان أن الإجماع أيضاً ليس على صواب في افتراضه أن الدمار الذي أصاب الأبنية الرئيسة في قمران يعني ضرورة دمار الموقع كاملاً، وحقيقة هناك إشارات إلى حدوث بعض عمليات إعادة الإعمار الخاطفة والبدائية على الأقل، وتتضمن قناة بسيطة لتغذي الحوض بالماء، وتقريباً كان دو فوكس واهناً بادعائه أن هذه القناة كانت من صنع الحامية الرومانية المزعوم على أساس القطع النقدية احتلالها للموقع، إلا أن البروفيسور درايفر أشار إلى أن إعادة البناء غير المكتملة لا توحي بعمل روماني، بينما أكد دو فوكس أن نظريته، كما سبق أن تطابقت مع الدمار الحاصل في قمران في عام 68 ميلادي، تتطابق مع المعطيات التاريخية المقبولة، وكما لاحظ البروفيسور درايفر بطريقة جافة أنه قد نسي أن السجلات التاريخية لا تذكر شيئاً عن دمار قمران في عام 68 ميلادي من قبل الرومان، و باختصار توصل درايفر إلى أن المعطيات التاريخية المقبولة، هي خيال تاريخي فقط.

وهناك جزء حاسم آخر للدليل الأثري، يتناقض بدقة مع تفسيرات الإجماع، لقد تجنب دو فوكس بجد وبطريقة مسوغة الإشارة إلى الآثار التي في قمران بأنها دير، وكما شرح فهو لم يستخدم هذه الكلمة قط لدى كتابته عن التنقيبات في قمران، وتحديداً لأنها تمثل استنتاجاً، لا يستطيع علم الآثار أن يثبته وحده، ومن الواضح أنه ومع ذلك كان قد فكر في قمران، كأنها أصناف من الأديرة، وهذا يظهر باستخدامه المستهتر لهذه المصطلحات الرهبانية مثل: حجرة الكتابة في الدير، و حجرة الطعام في الدير، ليصف

أبنية محددة، وإذا كان لدى دو فوكس نفسه بعض التحفظات على تلقيب قمران بدير، فإن مؤيدي الإجماع الآخرين لم يكن لديهم هذا النوع من التحفظ، وفي كتابه مخطوطات البحر الميت مثلاً يتمتم كاردينال دانييلو بسعادة عن رهبان قمران، ويذهب بعيداً ليقر بأن رهبانية قمران يمكن عدها مصدر الرهبانية المسيحية .

لقد اختار دو فوكس مع زملائه ومؤيديه في الإجماع بإصرار أن يغضوا الطرف عن السمة العسكرية الواضحة التي لا مجال للخطأ فيها لبعض الآثار، فعندما يزور المرء قمران اليوم فإنه سيصاب حتماً بالصدمة أول وهلة لدى رؤية البرج الدفاعي الرئيس ذي الجدران التي تبلغ سماكتها بضع أقدام، وبوجود مدخل فقط في الطبقة الثانية، وهناك بناء آخر أقل وضوحاً، ويمكن المرء أن يصل إليه عبر ممر صغير من البرج، ووظيفته يمكن أن لا تبدو جلية مباشرة، والحقيقة أنه كير حدادة ذو بناء متقن، ملحق به خزان ماء خاص لمعالجة الأدوات والأسلحة التي تصنع فيه، وليس الأمر مفاجئاً أن يكون هذا الكير مصدر إحراج لعلماء الفريق الدولي المتمسكين بالصورة التي رسموها عن الهدوء في ذلك المكان المسالم ايسينس، وهكذا سارع دو فوكس إلى التهرب من القضية بالسرعة القصوى.

كانت هناك مكان يشتمل على فرن في الأعلى، وهو منطقة مجصصة مزودة بأنبوب تصريف، ويقتضي هذا التركيب أن العمل الذي كان ينجز هناك كان يتطلب ناراً قوية، إضافة إلى مزود ماء غزير، ولا أجرؤ على تحديد الغاية المرجوة منه على نحو أكثر دقة من ذلك.

وقد أشار البروفيسور كروس متبعاً نهج دو فوكس، مع عدم قدرته على ممارسة القدر نفسه من الخداع، إلى ما بدا أنه كان كير حدادة، حقيقةً وجدت سهام داخل حطام قمران، وبينما يستطيع المرء أن يجادل في أنها ربما تكون قد فقدتها قوات الرومان المهاجمة، كما يؤكد البروفيسور درايفر: يرجح أن تعود ملكيتها إلى السكان، وإذا لم يكن ذلك صحيحاً فهو الأكثر احتمالية، وعلى نحوٍ عام إن السمة العسكرية للآثار فاضحة كثيراً، حتى إن البروفيسور غولب من جامعة شيكاغو، وهو عالم مستقل آخر، وصل إلى عدها موقعاً عسكرياً كاملاً، وبحسب غولب فإن المخطوطات لم تنضد أو تنسخ في قمران، ولكنها أحضرت إلى هناك من القدس، وتحديداً لحمايتها، وأشار غولب إلى أنه لم يجرِ العثور قط على أي قطعة صغيرة من ورق البرشمان أو البردي في الحطام، ولا على أي من أدوات النساخ.

بعيداً عن القطع النقدية والأنقاض المادية، فإن المجسد الأهم للدليل الخارجي المستخدم من الفريق الدولي لتأريخ مخطوطات البحر الميت قد استمد من علم الكتابات

القديمة الضعيف، وهو الدراسة المقارنة للخطوط القديمة، وحيث إن هذا العلم يفترض بصرامة تقدماً ذا ترتيب زمني في تطور الكتابة، أي الخط اليدوي، فهو يسعى جاهداً ليضع التطورات في مخطط على نحو محدد للأحرف، وبذلك يحدد تواريخ لكامل المخطوطات، وربما يجد المرء مثلاً عقداً قديماً أو وثيقة من نوع آخر لدى أحدهم، وعلى أساس الخط الذي كتبت فيه فقط، لا على أساس محتواها، يمكنه ربما أن يخمن أن تاريخها يعود إلى القرن السابع عشر، لا إلى القرن الثامن عشر، وحتى تلك الدرجة سيمارس المرء أصنافاً من علم الكتابات القديمة للهواة، ومن غير الضروري أن نذكر أنه حتى عندما توظف الإجراءات مع الدقة الأكثر علمية، فإنها ستكون بعيدة عن الحسم، وعندما تطبق على النصوص التي وجدت في قمران ستصبح في الواقع غير مفيدة، وأحياناً تتحول إلى أمر فكاهي، إلا أن دو فوكس سخّر هذا العلم جزءاً آخر من دليل خارجي، ليشكك في النتائج، معتمداً دليلاً داخلياً من نتاج روث ودرايفر، ولذلك كان الدليل المزعوم المستوحى من علم الكتابات القديمة المتعلق بـ قمران هو التالي الذي سوف يدمره إيسنمان.

وبحسب فرانك كروس من الفريق الدولي، فإن علم الكتابات القديمة ربما يكون الوسيلة الأدق والأكثر موضوعية في تحديد عمر المخطوطات، ويتابع موضحاً: يجب أن نقارب المشكلات المتعلقة بالتفسيرات التاريخية للنصوص التي بين أيدينا، أولاً بتحديد الفترة الزمنية الموضوعة من البيانات الأثرية، ومن الدليل الآتي من علم الكتابات القديمة، ومن طرق أخرى منطقية، قبل تطبيق التقنيات غير المنطقية للنقد الداخلي.

لم يأبه كروس بتوضيح مسألة يجب على الدليل الداخلي أن لا يكون أكثر لا منطقية من الدليل الأثري والكتابي، فحقيقة تكشف هذه العبارة سهواً لماذا يجب عد علم الكتابات القديمة هاماً جداً لدى مؤيدي الإجماع، ويمكن استخدامها لمواجهة الدليل الداخلي للوثائق، الدليل الذي يكون ذا معنى فقط ضمن سياق القرن الأول الميلادي.

كان العمل الأبرز المتعلق بعلم الكتابات القديمة فيما يخص مخطوطات البحر الميت قد جرى من البروفيسور سولومون بيرنبام من جامعة لندن للدراسات الشرقية، وقد لقيت جهود بيرنبام موافقة مقيتة من البروفيسور كروس الذي نعتها بأنها محاولة تذكارية للتعامل مع كل مراحل الكتابات العبرية، وفي محاولة لتفادي النقد الغزير الذي كانت تفسيرات بيرنبام عرضة له، طلب كروس من قرائه أن يتذكروا: أنها قد كتبت من عالم كتابات محترف، واجه أقصى درجة من هجمات تافهة من غير المختصين، وكذلك كانت كثافة الذم الأكاديمي الآتي من المساءلة عن الدليل المتعلق بعلم الكتابات القديمة.

أقل ما يمكن قوله عن طريقة بيرنبام هو أنها كانت غريبة، فهي تتعلق بخفايا علم الأرقام أكثر من تعلقها بالمنهج العلمي الحديث الذي ادعى أنه استخدمه في طريقته، وهكذا، مثلاً، افترض من قبل، وكل إجراءاته التالية لم تعتمد أكثر من هذا الافتراض غير المؤكد، أن سلسلة النصوص كاملة التي وجدت في قمران تمتد بدقة من عام 300 قبل الميلاد إلى عام 68 ميلادي، وهكذا مباشرة أخذ نص صموئيل الذي جرى العثور عليه في الكهف 4 في قمران، وحيث إنه فند هذا النص بطريقة منهجية، ذكر 45 عينة من نص خطي معين و11 عينة من نص آخر، ولأسباب، حتى الآلهة نفسها قد تجدها محيرة، تابع بيرنبام ليشكل معادلة: مقدار 56 إلى 11 يساوي 368 إلى س، حيث 368 تمثل عدد سنوات الفترة الزمنية للنصوص، وس تمثل التاريخ الذي يأمل أن يحدده للنص المقصود، إن قيمة س، بعد أن جرى حسابها بطريقة مشروعة كافية وبطرق رياضية بحتة، هي 72، وهي القيمة التي يجب أن تطرح من عام 300 قبل الميلاد، وهذه هي مرحلة البداية الافتراضية لبيرنبام، ثم بلغ عام 228 قبل الميلاد، مدعياً بطريقة المنتصر: أن النتيجة ستكون أقرب إلى التاريخ المطلق، مخطوطة صموئيل، إن الحديث عن «أقرب...» و «تاريخ مطلق» هو شبيه بالحديث عن تاريخ مطلق تقريباً، وطريقة بيرنبام بعيدة تماماً عن هذه الهفوات الأسلوبية، وكما يقول إيسنمان، هي طريقة منافية للعقل، إلا أن بيرنبام قام بتوظيف تقنيته، كما هي، وذلك ليؤسس تاريخاً مطلقاً لكل النصوص المكتشفة في قمران، وكانت الحقيقة المرعبة بين كل الحقائق هي أن مؤيدي الإجماع لا يزالون يقبلون بهذه التواريخ المطلقة كأنها غير قابلة للتشكيك في صحتها.

صرح البروفيسور فيليب ديفيز من شيفيلد بأن معظم الناس الذين يأخذون وقتاً لدراسة القضية يوافقون على أن استخدام علم الكتابات القديمة في بحث قمران هو أمر غير علمي، مضيفاً أنه قد أجريت محاولات لاقتراح ضبط للتاريخ السخيف، كان إيسنمان تقريباً أشد لذعاً في وصفه مساعي بيرنبام بأنها في أي مجال آخر ستكون بمنزلة تزوير علمي وطرق طفولية، وليوضح ذلك قدم الأمثلة التالية:

لنفترض وجود اثنين من النسّاخ من أعمار مختلفة، ينسخان النص ذاته في الوقت ذاته، وأن النسّاخ الأصغر قد تدرب قريباً في مدرسة نسخ أكثر حداثة، ولنفترض أن النسّاخ الأكبر سناً يستخدم عمداً أسلوباً خطياً كان قد تعلمه في شبابه، ولنفترض أن أحد النسّاخين أو كليهما، باختلاف العرف أو قدسية هذا العمل، قد حاول عمداً أن يحاكي أسلوباً يعود إلى عدة قرون مضت، كما هي حال بعض الوثائق المعينة اليوم، مثل الإجازات

أو شهادات المكافآت التي يمكن أن تنفذ على طبق نحاسي قديم، عندها ما التاريخ الذي يمكن أن يحدد على نحو نهائي لنسخهم؟.

في افتراضاته المتعلقة بعلم الكتابات القديمة يتغاضى بيرنبام عن واحدة من الحقائق ذات الأهمية الخاصة، فإذا كانت وثيقة ما قد أنتجت فقط لنقل المعلومات فإنها، بكل الاحتمالات، ستظهر التقنيات الأكثر حداثة، وهذه هي حال التقنيات المستخدمة في الصحف الحديثة مثلاً، عدا الصحف في انكلترا إلى وقت قريب، ولكن كل شيء يفترض أن مخطوطات البحر الميت لم تكن قد أنتجت فقط لنقل المعلومات، وكل شيء يفترض وجود وظيفة شعائرية أو شبه شعائرية أيضاً لهذه المخطوطات، وأنها كانت تنتج برفق، لكي تحافظ على عنصر العرف، لذلك فإنه من الممكن كثيراً أن يحاول النسّاخ الحديثون عمداً إعادة إنتاج نمط سلفهم، وحقيقة من التاريخ المسجل كان النسّاخ محافظين بكل إصرار، ومن ثم فإن المخطوطات المزخرفة في العصور الوسطى كانت قد استنبطت لتظهر قدسية القدم، وليس لإظهار آخر التطورات التكنولوجية، ولذلك فإن الكثير من الكتب المقدسة الحديثة الإنتاج يجري إنتاجها بطباعة ذات نمط قديم، وهكذا فإن المرء لن يتقبل أن يجد كتاب توراة يهودياً يستخدم نمطاً أو تقنيةً مستخدمة في طباعة علامة أو شعار على قميص، فيما يتعلق بالخطوط في مخطوطات البحر الميت، انتهى إيسنمان إلى أنها تمثل ببساطة تعدد أنماط خطوط الناس الذين عملوا في الوقت نفسه ضمن مجال العمل ذاته، وهي لا تخبرنا عن أي شيء له علاقة بعلم التاريخ إطلاقاً.

كان سيسيل روث من جامعة أكسفورد متشدداً أكثر في القول: إنه مثلاً فيما يتعلق بالسجلات الانكليزية، مع وجود كتلة هائلة من المواد المخطوطة المؤرخة التي تغطي مجمل العصور الوسطى، فإنه من المستحيل أن تقوم بدقة، وضمن إطار جيل واحد، بتثبيت تاريخ أي وثيقة باعتماد علم الكتابات القديمة وحده، وحذر من أن هناك دوغماتية جديدة انبثقت في مجال علم الكتابات القديمة، وأنه من دون أي فكرة مثبتة نرتكز عليها أساساً، فمن المنتظر منا من قبل أن نقبل تأريخاً دقيقاً لهذه المخطوطات العبرية المجهولة حتى الآن معياراً تاريخياً، وفي سخطه على رضا الفريق الدولي وتصلبه التجأ إلى الكتابة بالأحرف الكبيرة، وهي طريقة غير علمية، قائلاً :

يجب أن يُقر هنا مرة واحدة بأن الدليل المزعوم المتعلق بعلم الكتابات القديمة هو شيء مرفوض كاملاً في هذا النقاش .

الفصل الرابع

الأسينيون

من الآن فصاعداً سيكون القارئ على معرفة بنتائج نظرة إجماع الفريق الدولي، وبكيفية التوصل إلى هذه النتائج، وقد حان الوقت الآن للعودة إلى الدليل، لنرى إذا كانت هناك أي بدائل ممكنة، ولكي نقوم بذلك هناك عدد من التساؤلات الأساسية، لا بد من أن يجري طرحها ثانية من سكان قمران الغامضين تحديداً الذين بنوا مجتمعهم؟، ونسخوا وخلفوا نصوصهم المقدسة، ومن ثم اختفوا على نحو واضح عن مسرح التاريخ؟، هل هم فعلاً الأسينيون؟، وإذا كانوا كذلك، فما المعنى الحقيقي لهذا المصطلح؟.

تأتينا الانطباعات التقليدية عن الأسينيين من بليني وفيلو ويوسيفوس الذين وصفوهم بأنهم طائفة، أو طائفة فرعية من الديانة اليهودية في القرن الأول، وكما رأينا فقد وصف بليني الأسينيين بأنهم نساك معتزلة، يقطنون مع أشجار النخيل في منطقة، ربما بنيت لتكون قمران، أما يوسيفوس الذي كان فيلو يكرر مقولاته، فقد فصّل هذه الصورة، وبحسب رأيه فإن الأسينيين كانوا معتزلة مع وجود فئة ثانية منهم تقوم بالزواج، مع سعادتهم وثرائهم فقد جعلوا ممتلكاتهم مشاعاً بينهم، وكان يجب على من ينضم إلى مقامهم أن يهجر أملاكه الخاصة، لقد كانوا ينتخبون قادتهم من بين صفوفهم، وقد استوطنوا في كل مدينة في فلسطين في مجتمعات منعزلة، وحتى في محيطهم المتمدن كانوا يحافظون على عزلتهم،

لقد صور يوسيفوس الأسينيين بأنهم مثل نظام رهباني أو مدرسة سرية قديمة، وأن المرشحين للدخول في مقاماتهم كانوا يخضعون لفترة تجريبية مدتها ثلاث سنوات، هي بمنزلة فترة الإعداد للرهبنة، ولم يكن المرشح ليقبل رسمياً قبل أن يجتاز بنجاح فترة التلمذة هذه، أما كبار الأسينيين مقاماً فقد كانوا يصلّون قبل بزوغ الفجر، ثم يعملون خمس ساعات، وبعدها يقومون بارتداء مآزر نظيفة ويغتسلون، وهو برنامج للطهارة ينفذ يومياً، وهكذا يجتمعون على طهارة في غرفة مشتركة خاصة، ويتشاطرون وجبة بسيطة مشتركة معاً، وعلى عكس الظن الخاطئ الذي شاع قريباً، لم يصف يوسيفوس الأسينيين بأنهم نباتيون، فقد قيل إنهم كانوا يتناولون اللحم.

يقول يوسيفوس: إن الأسينيين كانوا ضليعين في كتب العهد القديم التوراة وتعاليم الأنبياء، وقد كانوا مدربين على الكهانة العرافة، وكان يمكنهم التنبؤ بالمستقبل بدراسة نصوص مقدسة متعلقة بشعائر معينة للطهارة، وتنص عقيدتهم، بحسب ما يقول يوسيفوس، على سرمدية الروح، فالروح خالدة، إلا أنها محتبسة في سجن الجسد الفاني والقابل للفساد، وعند الموت تطلق الروح وتحوم مبتهجة في الأعالي، لقد قارن يوسيفوس

تعاليم الأسينيين بتعاليم الإغريق، وكان في نواح أخرى يشبهها بمبادئ المدارس الفيثاغورسية.

يذكر يوسيفوس امتثال الأسينيين لأوامر التوراة، «كتاب ناموس موسى»، فيقول: كان المشرع هو أكثر ما يبجله الأسينيون بعد الله، ويعد الكفر بهذا المشرع جريمة عظمى، وإجمالاً صوِّر الأسينيون دعاة سلم ذوي علاقات طيبة بالسلطة الحاكمة، وقد قيل عنهم حقيقة إنهم كانوا المفضلين لدى هيرود الذي دأب على احترام كل الأسينيين، لقد عامل هيرود هؤلاء الأسينيين باحترام كبير، ورفع شأنهم بقدر أكثر مما تستحقه طبيعتهم الفانية بشراً، إلا أن يوسيفوس يناقض نفسه في فكرة معينة، فيقول: لقد استهان الأسينيون بالمخاطر وآلام الفتوح بتحليهم بقوة الإرادة الصرفة، فالموت لديهم، إذا كان مشرفاً، تفوق قيمته قيمة الحياة الأبدية، فقد امتحنت أرواحهم أعظم امتحان خلال حربهم ضد الرومان الذين أذاقوهم ألوان العذاب من قتل وحرق وتدمير، وأخضعوهم لأنواع التعذيب المختلفة التي لم تبتدع بعد، لكي يغصبوهم على الكفر بالمشرع، أو ليجبروهم على تناول بعض أنواع الطعام المحرم،

في هذا الشأن، وخلافاً لأي شيء آخر، يقول يوسيفوس: إن الأسينيين بدؤوا يظهرون على نحو مريب مثل حماة مسعدة، أو الغيورين، أو حملة الخناجر السيكاري.

عدا ذلك كانت رواية يوسيفوس هي تشكيل انطباعات عامة عن الأسينيين في الألفي سنة التالية، وعندما بدأ ما يسمى التنوير اليهودي أو الهاسكلاه بتشجيع اختبار حرية الفكر للتقاليد المسيحية بدأ المعلقون بتشكيل روابط بين تلك التقاليد والأسينيين الذين تكلم عنهم يوسيفوس، حتى إنه في عام **1770**م كتب فريدريك العظيم: إن يوسيفوس كان حقاً أسينياً، لقد كان مشبعاً بأخلاق الأسينيين، وقد تواصلت هذه التأكيدات الفاضحة لتحقق انتشاراً متزايداً خلال النصف الأخير من القرن التالي، وفي عام **1863**م قام رينان بنشر عمله المشهور فاي دي جيسوس الذي أشار فيه إلى أن المسيحية كانت مذهباً أسينياً اتبع على مجال واسع.

وفي أواخر القرن التاسع عشر أدى انبعاث الاهتمام بذلك الاعتقاد الدفين إلى تدعيم فكرة وجود رابط بين المسيحية والأسينيين، أما الثيوصوفية [1] فقد سلَمت بوساطة تعاليم اتش بي بلافاتسكي بأن يسوع كان ساحراً، أو ربما جهبذاً، وبأنه كان

1- الثيوصوفية: علم معرفة الله بوساطة التأمل الفلسفي.

يجسد مبادئ كل من الأعراف الأسينية والغنوصية[1]، كما قامت آنا كينغسفورد، وهي من أتباع بلافاتسكي، بتطوير معنى المسيحية الباطنية الذي صور يسوع صانع المعجزات الغنوصي، الذي عاش وتلقى العلم مع الأسينيين قبل بعثه التبشيري المعروف، وفي عام 1889م انتقلت هذه الأفكار لتعم القارة بأسرها خلال كتاب ألفه العالم الثيوصوفي الفرنسي إدوارد شور، وعنوانه المطلع العظيم، ومن هنا بدأ الغموض الذي يلف الأسينيين يتجه إلى ربطهم بالإشفاء، وينسب إليهم مهارات طبية خاصة، ويعدهم النظير اليهودي لحكماء الطب الإغريق، كما ظهر عمل آخر، لاقى انتشاراً كبيراً، وعنوانه صلب المسيح لشاهد عيان، وقد نشر هذا الكتاب نحو أواخر القرن التاسع عشر باللغة الألمانية، وكذلك بالانكليزية نحو عام 1907م، وقدم كأنه نص قديم حقيقي لناسخ أسيني، يصور فيه يسوع كأنه ابن مريم، وأنه معلم أسيني، لم يذكر اسمه، وأن ذخيرة هذا المعلم من المعرفة الطبية الأسيني ة لم تمكنه من النجاة من الصلب فحسب، بل جعلته قادراً على الظهور بعد ذلك أمام حوارييه، كما لو كان قد بعث من الموت، ومن دون شك تلقى جورج مور الإلهام من هذا العمل، وذلك عندما نشر عام 1916م كتابه ذا بروك كيريث، محدثاً صدمة للقراء المسيحيين في كل الأرجاء الناطقة بالانكليزية من العالم، فقد صور أيضاً يسوع كأنه المحافظ على الفكر الأسيني الذي نجا من الصلب، واعتزل في مجتمع أسيني جوار مدينة قمران، وهناك وبعد سنوات يقوم شخص متعصب يدعى بولس بزيارته معلناً رواية أسطوريةً غريبةً لحياة يسوع، ومرقياً إياه في سياق ذلك إلى منزلة الألوهية.

أما الأسينيون الذين أتى كتاب «بروك كيريث» على تصويرهم فكانوا مشتقين أساساً من أولئك الذين ذكروا على نحو متماثل من بليني ويوسيفوس وفيلو، وهم الآن مطبوعون بهيئة روحانية غامضة، وهو ما جعلهم محبوبين من كتّاب أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ذوي التوجهات الباطنية، حتى إن القراء المثقفين لم يعرفوا شيئاً البتة عن الأسينيين، وتلك كانت الصورة السائدة عنهم، كما استبقى المزيد من المعلقين الناقدين على شيء من هذه الصورة، أمثال روبرت غريفز الذي سعى في نواحٍ أخرى لتوضيح الأصول المسيحية.

عندما اكتشفت مخطوطات البحر الميت بدا، على الأقل ظاهرياً، أنها لا تحتوي على أي دلالات تتعارض مع الصورة السائدة للأسينيين، ولذلك كان مألوفاً أنها يجب أن تترافق مع المعاني التي جرى إقرارها.

1- الغنوصية: هي علم يتعلق بالروحانيات.

وفي عام 1947م اقترح البروفيسور سوقينق شخصية أسينية لتأليف هذه المخطوطات، وذلك عندما رأى نصوص قمران أول مرة، وكذلك استحضر الأب دو فوكس وفريقه الصورة التقليدية للأسينيين، وكما لاحظنا كان دو فوكس مسرعاً في ربط قمران باستيطان الأسينيين الذي أتى بليني على ذكره، وتزامن ذلك مع ما كتبه البروفيسور كروس: كان المجتمع في قمران مستوطنة أسينية، و سرعان ما أصبح كون مخطوطات البحر الميت أسينية في أساس تأليفها يعد حقيقة مقبولة ومثبتة، وكذلك فإن الأسينيين عرفوا بأنهم مسالمون زاهدون عازفون عن الزواج ومعتزلون الناس، وأبعد ما يكونون عن القضايا السياسية.

وجاءت نظرة الإجماع لتنافس بقولها إن مجتمع قمران كان قد بني على أطلال بائدة لحصن يهودي مهجور، يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد، وإن مؤلفي المخطوطات وصلوا إلى تلك البقعة نحو عام 134 قبل الميلاد، وإن المباني الرئيسة كانت قد شيدت نحو عام 100 قبل الميلاد فما بعد، وهو ترتيب زمني يسبق المسيحية على نحو لا جدل فيه، وقد قيل إن ذلك المجتمع كان قد شهد ازدهاراً، حتى أتى عليه زلزال مدمر، تلاه حريق عام 31 قبل الميلاد، وخلال فترة حكم هيرود العظيم أعوام 37 ـ 4 قبل الميلاد كانت قمران مهجورة وقاحلة، ومن ثم في عهد خلفاء هيرود أصبحت الآثار مأهولة ثانية، وجرت إعادة الإعمار، وبحسب الإجماع ازدهرت قمران بعد ذلك، وظلت مسالمة وحيادية سياسياً كمنطقة مستقلة دمرها الرومان عام 68 ميلادي خلال الحرب التي أدت إلى دمار القدس، وبعد ذلك جرى احتلال الموقع من حامية عسكرية رومانية حتى نهاية القرن الأول، وعندما اندلعت الثورة في فلسطين بين عامي 132 ميلادي و135م أصبحت قمران مأهولة من مستوطنين من الثوار، لقد كان ذلك بمنزلة سيناريو دقيق ومعد بطريقة ملائمة، ليبعد بقوة مخطوطات البحر الميت عن أي محتوى يشكل مفاجأة ممكنة، ولكن يبدو أن الدليل قد جرى تجاهله عندما أمرت تعاليم علم اللاهوت المسيحي الراسخة بذلك.

بعيداً عن المسألة الجغرافية هناك تناقض في إصرار دو فوكس على أن المقطع الذي كتبه بليني، والمقتبس سابقاً، يشير إلى قمران، فالتناقض هنا يخص تأريخ المخطوطات، ذلك أن بليني يشير في مقطعه هذا إلى الحالة بعد تدمير القدس، فالمقطع يشير إلى أن انغيدي كانت قد دمرت بطريقة مماثلة، ويصف المجتمع الأسيني بأنه لم يمس بأذى، بل إنه أخذ يستوعب حشوداً من اللاجئين، مع أن دو فوكس كان على دراية بأن قمران قد لاقت مصير القدس و انغيدي ذاته فيما لحقها من دمار خلال ثورة أعوام 66، 73

ميلادي، وهكذا سيبدو الاحتمال ضعيفاً أن يكون المجتمع الأسيني الذي تحدث بليني عنه هو قمران ذاتها، ليس هذا فحسب، بل إن مجتمع بليني لم يكن يحتوي على نساء البتة، كما جاء على وصفه، مع أنه في الواقع كانت هناك أضرحة للنساء في قمران، وطبعاً لا يزال ممكناً هنا أن يكون الأسينيون هم فعلاً من استوطن قمران، وإن لم يكونوا أصحاب مجتمع بليني فهم أصحاب مجتمع ذكر من آخرين، وإن كان الأمر كذلك، فستكشف مخطوطات البحر الميت كم كان بليني ضعيفاً في اطلاعه على شؤون الأسينيين.

إن مصطلح أسيني هو مصطلح إغريقي، ويظهر فقط عند الكتاب الكلاسيكيين مثل يوسيفوس وفيلو وبليني، ويكتب باللغة الإغريقية **Esseno** أو **Essaioi**، ولذلك إذا كان سكان قمران أسينيين فعلاً، فسيظن المرء أن مصطلح أسيني هو ترجمة إغريقية أو نسخ بحروف اللغة الإغريقية لكلمة ذات أصل عبري أو آرامي، استخدمت للإشارة إلى مجتمع قمران.

لا تتوافق مبادئ الأسينيين عند الكتاب الكلاسيكيين مع حياة مجتمعهم وكفره، وذلك بحسب ما اتضح خلال الدليل الخارجي لعلم الآثار، أو خلال الدليل الداخلي للنصوص في ذاتها، وقد عرض كل من يوسيفوس وفيلو وبليني تصورات عن الأسينيين وكانت متضاربة بدقة مع ما تظهره آثار قمران من أدلة، وكذلك مع مخطوطات البحر الميت، كما تعارض الدليل الداخلي والخارجي على نحو متكرر مع مبادئهم، وقد ذكرت بعض هذه التعارضات من قبل، إلا أنه من المفيد إعادة النظر في أهمها:

1. معلومات يوسيفوس عن وجود جماعة أخرى من الأسينيين تقبل بمسألة الزواج، إلا أن هذا، كما يشير، يعد شذوذاً، وعلى نحوٍ عام يقول يوسيفوس مردداً أقوال فيلو وبليني إن الأسينيين لم يتزوجوا، ومع ذلك فقد وجدت أضرحة تعود إلى نساء وأطفال بين تلك الأضرحة التي كشف التنقيب عنها في قمران، وإن قانون المجتمع كان يتضمن نظماً تحكم مسألة الزواج وتربية الأطفال.

2. لم يأت أي من الكتاب الكلاسيكيين قط على ذكر أي شيء من شأنه أن يشير إلى أن الأسينيين كانوا يستخدمون تقويماً من نموذج خاص، غير أن مجتمع قمران استخدم تقويماً فريداً مبنياً على حركة الشمس بدلاً من التقويم اليهودي التقليدي الذي كان يعتمد القمر، وإذا كان مجتمع قمران أسينياً فعلاً كان لا بد لميزة صارخة جداً كهذه أن تحظى بشيء من الإشارة أو التلميح.

3. بحسب فيلو اختلف الأسينيون عن بقية أنماط اليهودية القديمة بعدم ممارستهم لعبادة تقتضي التضحية بالحيوانات، ومع ذلك فإن مخطوطة المعبد تصدر تعليمات دقيقة عن مثل تلك التضحيات، كما تكشف آثار قمران عن وجود عظام لحيوانات

وضعت بعناية في قدور أو جرت تغطيتها بقدور، ودفنت تحت الأرض على عمق قليل، بينما قال دو فوكس إن هذه العظام ربما تكون بقايا أضحيات بحيوانات، كما تنص مخطوطة المعبد.

4. يستخدم الكتاب الكلاسيكيون مصطلح أسيني للدلالة على ما يصفونه بأنه فرع من اليهودية، إضافة إلى الفريسيين والصدوقيين، ولكن لم يرد مصطلح أسيني في أي من مخطوطات البحر الميت.

5. يصرح يوسيفوس بأن الأسينيين كانوا على علاقات متوافقة بهيرود العظيم الذي، وفق تعبيره، عاملهم باحترام فائق، ورفع شأنهم أكثر مما تستحقه طبيعتهم بشراً، ومع ذلك يشير الأدب القمراني إلى وجود عداء للسلطات غير اليهودية على نحو عام، ولهيرود وسلالته الحاكمة على نحو خاص، وليس هذا فحسب، بل إن قمران كانت قد عزلت وهجرت من ساكنيها عدة سنوات، وذلك تماماً بسبب اضطهاد هيرود لها.

6. بحسب ما جاء عن الكتاب الكلاسيكيين، كان الأسينيون مسالمين، وذكر فيلو خصوصاً أنه لم يكن بينهم صناع أسلحة أو دروع، بينما يميز يوسيفوس، على نحو لافت، بين الأسينيين الرافضين للعنف والمسيحيين المحاربين والغيورين الوطنيين، مع أن آثار قمران كانت تحتوي على برج دفاعي ذي طبيعة عسكرية بحتة، كما كانت تضم ما لا يمكن أن يدعى بغير كير حدادة، أما فيما يتعلق بالأدب القمراني، فقد كان في أكثره حربياً إلى أقصى حد، كما تجسده نصوص مثل مخطوطة الحرب، والحقيقة أن سمة الولع بالقتال في هذه النصوص تبدو عموماً أكثر ارتباطاً بما قاله يوسيفوس وغيره عن الغيورين مما يقولونه عن الأسينيين، وهو تحديداً ما وصم به كل من روث ودرايفر مجتمع قمران معرضين أنفسهم بذلك لغضب دو فوكس والفريق الدولي.

لقد كانت أكثر الكتابات عن مجتمع قمران باللغة الآرامية والعبرية، وليست باللغة اليونانية، فهاتان اللغتان كانتا المعنيتين، حتى إنه لم يجرِ إيجاد أي دراسة مقبولة لأصول كلمة أسيني حتى اليوم، وحتى الكتاب الكلاسيكيون كانوا حائرين في أصل اشتقاق هذا المصطلح، فقد اقترح فيلو مثلاً أنه آت من الكلمة اليونانية أوسيوس **oseeos** التي تعني مقدس، وأن الأسينيين كانوا لذلك أوسيوتيس **oseeotes**، أي الأشخاص المقدسين.

هنالك نظرية لاقت رواجاً لائقاً بين زمرة العلماء الحديثين، وعلى نحو ملحوظ لدى غيزا فيرميز من جامعة أكسفورد، ووفقاً لفيرميز فإن مصطلح أسيني يشتق من المفردة الآرامية آسايا **assayya** التي تعني الشافين، ما عزز صورة بعض أوساط الأسينيين

ممارسين للطب، وهم ردفاء يهود لنساك الاسكندرية المعروفين بالمعالجين، لكن لم ترد كلمة آسايا في الأدب القمراني، كما لم يكن هناك أي إشارة إلى الإشفاء أو إلى أي نشاطات طبية أو أعمال علاجية، ولذلك فإن اشتقاق كلمة أسيني من آسايا يبقى أمراً تخيلياً محضاً، ولن يكون هناك داع أبداً لتوثيقها، ما لم توجد خيارات أخرى.

والحقيقة هناك خيار آخر، وهو ممكن ومحتمل، فإذا لم يكن سكان قمران يشيرون إلى أنفسهم بأنهم أسينيون أو أسايا، فقد استخدموا مصطلحات عبرية وآرامية أخرى، ومن هذه المصطلحات يتضح أن ذلك المجتمع لم يكن يحمل اسماً واحداً للتعريف بهم، فقد كان لديهم معنى فريد ومميز جداً خاص بهم، ويظهر هذا المعنى بألقاب ودلالات متعددة، كما يرتكز هذا المعنى في جوهره على كل العهد الشديد الأهمية الذي احتاج إلى قسم رسمي أبدي وكلي بالامتثال لناموس موسى التوراة، وهكذا يشير مؤلفو مخطوطات البحر الميت إلى أنفسهم مثلاً بأنهم حراس العهد، وكثيراً ما استخدموا مرادفات لتعابير عهد و ناموس لتعطي الدلالة نفسها على نحو بارز في الطاوية التي هي مذهب فلسفي ديني، وهذه المرادفات هي السبيل، عمل أو أعمال أو معاسيم باللغة العبرية، وقد تكلموا مثلاً عن مثالية السبيل أو سبيل الصلاح التام، وهنا سبيل تعني عمل الناموس أو الطريقة التي يعمل بها الناموس، وتتخلل تنوعات جذور الكلمات هذه مخطوطات البحر الميت لتشير إلى مجتمع قمران وأفراده.

وقد وجد إيسنمان أيضاً في تعليق حبقوق اسماً هاماً على نحوٍ خاص، هو توراه أوسي ها- **Torah_osei ha**، وترجمت إلى منفذي الناموس، ويبدو أن هذا المصطلح هو مصدر كلمة أسيني، فصيغة الجمع من منفذ هنا هي: أوسيم ـ **osim** ومن ثم كان مجتمع قمران يشكل إجمالاً ما يسمى الأوسيم ـ **osim**، ويبدو في الواقع أنهم كانوا قد عرفوا بهذا الاسم، وقد تحدث أحد الكتاب المسيحيين القدامى ويدعى إيبيفانيوس عن طائفة يهودية هرطقية مزعومة، وهي طائفة احتلت في أحد الأزمان منطقة تحيط بالبحر الميت، ويقول إن هذه الطائفة كانت تدعى أوسينيز **ossenes**، وهكذا فإنه من المقبول أن ننتهي إلى أن الأسينيين، وهنا أوسينيز **ossenes**، الذين تكلم إيبيفانيوس عنهم كانوا الأوسيم ـ **osim** أنفسهم الذين عاشوا في مجتمع قمران.

وهكذا، فإن مؤلفي مخطوطات البحر الميت ربما يظن أنهم أسينيون، ولكن ليس بالطريقة التي عرفهم ووصفهم فيها كل من يوسيفوس وفيلو وبليني، وقد ثبت أن حسابات مؤرخي الأحداث الكلاسيكيين قد سارت معاً ضمن حدود مرسومة، فهم أيضاً

منعوا الكثير من العلماء الحديثين من إجراء الربط المنطقي الضروري، وربما كان عدم الرغبة في ذلك هو السبب في بعض الحالات، لأنه إذا جرى ذلك الربط فستنبثق صورة مختلفة وأكثر اتساعاً، من شأنها أن تجعل مصطلحات مثل أسيني و مجتمع قمران قابلة للتبادل مع الآخرين.

إن ما نتعامل معه الآن هو أسماء مشتقة من الدلالات المختلفة المستخدمة للإشارة إلى القوم أو الطوائف نفسها، لقد نوقشت هذه الفكرة منذ عام 1969م من خبير ذي اطلاع في هذا المجال، وهو البروفيسور ماثيو بلاك من جامعة سانت آندريوس في اسكتلاندا الذي كتب قائلاً:

سيكون مصطلح أسيني مقبولاً، شريطة ألا نعرف الأسينية ضمن مجال ضيق جداً، مثل مساواتها حصرياً بمجموعة البحر الميت، بل أن نكون على استعداد لفهم المصطلح بأنه وصف عام لهذه الحركة الواسعة الانتشار ذات الطابع المعادي لأورشليم والفريسية، وغير المنسجم مع تلك الحقبة، فالمسيحية تنحدر من مثل هذا النمط الأسيني لليهودية.

هناك نصرة لخلاف البروفيسور بلاك مع عمل ابيفانيوس، وهو الكاتب المسيحي القديم الذي تحدث عن الأوسينيز **Ossenes**، حيث يقر ابيفانيوس بأن المسيحيين الأصليين كانوا على نحو عام يسمون الناصريين في اليهودية، كما جاء في سفر أعمال الرسل، وقد عرفوا باليسوعيين، لقد تطابق هؤلاء المسيحيون أو اليسوعيون تماماً مع تعبير البروفيسور بلاك: «الحركة الواسعة الانتشار ذات الطابع المعادي لأورشليم والفريسية، وغير المنسجم مع تلك الحقبة»، إلا أنه لا يزال هناك ربط مهم.

كان مصطلح حراس العهد من المصطلحات التي أشار بها مجتمع قمران إلى أفراده، وهو بالعبرية الأصلية بريت نوزاري ها **Brit– Nozarei ha**، ومن هذا المصطلح تشتق كلمة نوزريم **Nozrim**، وهي أحد الأسماء العبرية الأقدم لطائفة، عرفت لاحقاً بالمسيحيين، وكذلك تشتق الكلمة العربية الحديثة التي تعبر عن المسيحيين نصرانيون **Nasrani** من المصدر ذاته، وهكذا ينطبق الأمر ذاته أيضاً على كلمة نازوريان **Nazorean** أو نازارين **Nazarene** التي كانت طبعاً الاسم الذي يلقب به المسيحيون القدماء أنفسهم في كل من الأناجيل و أعمال الرسل، وعلى نقيض افتراضات النسق التقليدي الأخير لم يكن لها علاقة البتة بنشأة يسوع في الناصرة التي، كما يفترض الدليل، لم تكن أصلاً في ذلك الوقت، وفي الواقع يبدو أنه كان مربكاً جداً للمعلقين القدماء مواجهة المصطلح المجهول نازوريان **Nazorean** الذي قادهم إلى التوصل إلى نتيجة مفادها أن عائلة يسوع تنحدر من الناصرة التي ظهرت حينها على المصور.

الخلاصة إذاً أن كلاً من الأسينيين المذكورين في النصوص الكلاسيكية، و الأوسينيز- **Ossenes** الذين ذكرهم إيبيفانيوس، و الأوسيم **Osim** الذين يشكلون مجتمع قمران هم جميعاً قوم واحد، ولذلك ينطبق الأمر أيضاً على بريت نوزاري ها -**Brit . Nozarei ha**، ونوزريم- **Nozrim**، و نصراني- **Nasrani**، و نازوريان- **Nazorean**، وباعتماد علم دراسة أصول الكلمات هذا، يتضح أننا في الواقع نتعامل مع ما أسماه البروفيسور بلاك حركة واسعة الانتشار تتسم، كما يقول إيسنمان مجازياً، بتنوع في الدلالات بفوارق طفيفة للإشارة إلى الشعب ذاته، متبدلة مع مرور الزمن ومع حركة الترجمة وكتابة اللغات بحروف لغات اخرى، تماماً كما تطورت كلمة سيزار- **Caesar** تدريجياً، لتصبح قيصر- **Kaiser**.

وهكذا، يبدو أن مجتمع قمران كان نظيراً للكنيسة القديمة المؤسسة في أورشليم، أي الناصريين- **Nazoreans** الذين اتبعوا يعقوب شقيق المسيح، وفي الواقع يقر تعليق حبقوق بكل صراحة بأن جهاز الحكم في قمران، مجلس المجتمع، كان فعلاً في أورشليم في ذلك الوقت، وفي الفصول **9: 2** يشار إلى أفراد الكنيسة القديمة تحديداً بأنهم أتباع السبيل، وهو تعبير مماثل للاستخدام القمراني.

الفصل الخامس

أعمال الرسل

يعد كتاب «أعمال الرسل» الكتاب الأهم في «العهد الجديد»، بغض النظر عن الأناجيل ذاتها، فلدى المؤرخين ربما تكون هذه الأعمال في الواقع ذات شأن أعظم، وطبعاً يجب التعامل معها بنوع من الحذر والحيطة، شأنها شأن بقية الوثائق التاريخية الصادرة من مصادر موالية، كما يجب على المرء معرفة لمصلحة من تمت كتابة النص؟، ومن الطرف الذي يسير هذا النص في خدمته؟، وإلام انتهى؟، إلا أن هذه الأعمال، أكثر من الأناجيل، شكلت الأهمية الحاسمة ظاهرياً للسنوات الأولى من المسيحية القديمة، وعلى نحو مؤكد سيبدو أن الأعمال تحتوي على قدر أكبر من المعلومات الأساسية التي يصعب إيجادها في مكان آخر، وعلى هذا القدر فقط تعد هذه الأعمال نصاً جوهرياً.

ليست الأناجيل، كما هو متعارف عموماً، جديرة بالاعتماد مثل الوثائق التاريخية، وأولها وثائق مارك التي ألفت نحو عام 6 ميلادي، أو ربما بعيد تلك الفترة قليلاً، لقد سعت الأناجيل الأربعة كلها لبعث حقبة زمنية تسبق تاريخ تأليف هذه الأناجيل ربما ستين أو سبعين عاماً، وقد مرت بفضول على الخلفية التاريخية لها، مركزة أساساً على الهيئة الأسطورية ليسوع وتعاليمه، فهي، في نهاية الأمر، نصوص شعائرية وتعبدية، حتى إنها لا تحمل تلك الفحوى التي تجعلها تسجيلاً للتاريخ.

تعد الأعمال عملاً من طراز مختلف، فهي لا يمكن أن تؤخذ كأنها أعمال تاريخية قطعية طبعاً، وذلك لأنها أولاً متحيزة بشدة، فقد كان لوقا وهو مؤلف النص، يعتمد بوضوح مصادر مختلفة، ويقوم بتعديل المواد ومراجعتها لتلائم أهدافه الخاصة، وكانت هناك محاولة متواضعة لتوحيد العبارات المذهبية أو الأسلوب الأدبي، وحتى مؤرخو الكنيسة أقروا بالخلل الحاصل في علم التأريخ، حيث لم تكن لدى المؤلف الخبرة المباشرة في الكثير من الأحداث التي قام بوصفها، فهو مجبر على فرض ترتيبه الخاص لهذه الأحداث، وهكذا اندمجت بضعة أحداث منفصلة ضمن واقعة واحدة، بينما ظهرت بعض الوقائع المفردة كأنها عدة أحداث منفصلة، وتكون هذه المشكلات حادة، خصوصاً في تلك الأجزاء من النص المتعلقة بالأحداث التي سبقت مجيء بولس، وأكثر من ذلك سيبدو أن الأعمال قد جمعت انتقائياً، وزورت من محرريها على نحوٍ كبيرة تماماً كالأناجيل.

مع ذلك كانت «الأعمال»، خلافاً للأناجيل، تواقة إلى أن تكون نوعاً من التأريخ للأحداث في مجال زمني واسع ومتواصل، وعلى نقيض الأناجيل تشكل محاولةً للمحافظة على السجل التاريخي، وأن تكون قد كتبت، على الأقل في بعض المقاطع، من شخص صاحب تجربة مباشرة أو شبه مباشرة في الأحداث التي يقوم بوصفها، مع وجود

تحيز فيها، فهو من نوع شخصي بحت، وهذا ما مكن المعلقين الحديثين من قراءة ما بين السطور، تبدأ الروايات التي سردت في فصول «الأعمال» بعد فترة وجيزة من صلب المسيح، المؤرخ عموماً في عام 30 ميلادي وربما منذ عام 36 ميلادي، وتنتهي في الفترة بين عامي 64 و67 ميلادي، ويظن معظم الباحثين أن الروايات كانت قد ألفت أو نسخت في الفترة التي بين بين 70 و95 ميلادي، وهكذا يمكن القول إن الأعمال كانت معاصرة لبعض الأناجيل، إن لم تكن كلها، وهناك احتمال أن تكون قد سبقت بتاريخها الأناجيل الأربعة كلها، فمن شبه المؤكد أنها تعود إلى ما قبل إنجيل يوحنا على الأقل على النحو الذي وصل فيه النص إلينا.

إن مؤلف الأعمال رجل يوناني مثقف، يعرف نفسه بأنه لوقا، ولا يمكن البت إذا كان هو نفسه لوقا الفيزيائي المحبوب الذي جاء ذكره في كتاب الكولوسي للرسول بولس من العهد الجديد، بأنه صديق بولس المقرب، مع أن الباحثين في العهد الجديد على استعداد تام لتقبل هذه الفكرة، وكذلك يتفق الباحثون الجدد على أنه يبدو واضحاً تماماً أنه مطابق لمؤلف إنجيل لوقا، وفعلاً تعد الأعمال النصف الثاني من إنجيل لوقا، وكلاهما موجه لمتلق مجهول يدعى ثيوفيلوس، ولأنهما مكتوبان باللغة اليونانية فقد ترجمت الكثير من الكلمات والأسماء إلى تلك اللغة، وربما في الكثير من المناسبات، حرفت معانيها على نحو خفيف عن أصولها العبرية أو الآرامية، وبجميع الأحوال لقد كتبت الأعمال وإنجيل لوقا لتخاطب جمهوراً يونانياً، وهو جمهور مختلف تماماً عن الجمهور الذي تخاطبه مخطوطات قمران.

مع أن الأعمال تركز في المقام الأول على بولس الذي يحتكر الجزء الأخير من رواياتها، فهي تسرد قصة علاقة بولس بمجتمع أورشليم المؤلف من أتباع يسوع المباشرين بقيادة يعقوب، وهو شقيق المسيح، تلك الطائفة التي أطلق عليها بعد ذلك المسيحيون الأوائل، والتي تعد اليوم الكنيسة القديمة أو الأصلية، وبسردها لتلك العلاقة بين بولس وذلك المجتمع لا تعرض الأعمال سوى رأي بولس فقط، فـ «الأعمال» جوهرياً هي وثائق لمسيحية باولين، أو ما يظن اليوم بأنه مسيحية معيارية، أي إن بولس دائماً هو البطل، وأياً كان من يعاديه، سواء السلطات أم يعقوب ذاته فسيعد وغداً تلقائياً.

بدأت «الأعمال» بعد فترة وجيزة من غياب يسوع عن المشهد، حيث كان يشار إليه بالنصراني- **the Nazorene**، أو باللغة اليونانية نازورايون- **Nazoraion**، ثم شرعت الروايات تصف تنظيم المجتمع وتطوره أو ما يسمى الكنيسة القديمة في أورشليم

واحتكاكها المتزايد بالسلطة، فقد ورد في الأعمال ـ الفصول:6ـ 44: 2 أن المجتمع انبعث بكل نشاط، لقد عاش المؤمنون كلهم معاً، وتشاركوا في كل الأمور، باعوا بضائعهم وممتلكاتهم، وتشاطروا العائدات بينهم، كل بحسب حاجته، لقد ذهبوا جسداً واحداً إلى المعبد كل يوم، وتلاقوا في منازلهم على فتات الخبز، وهنا تجدر ملاحظة عبور هذا الإخلاص إلى المعبد، ويصور يسوع وأتباعه المباشرون عادة بأنهم أعداء المعبد، حيث يقلب يسوع طاولات الصرافين رأساً على عقب، معرضاً نفسه لاستياء الكهنة وانفعالاتهم، وذلك بحسب ما جاء في الأناجيل.

تقدم «الأعمال» في الفصول 6:8 تعريفاً بالشخصية المعروفة باسم ستيفانوس، وهو الشهيد المسيحي الرسمي الأول، حيث كان قد اعتقل، وحكم عليه بالموت رجماً بالحجارة، وفي دفاعه عن نفسه أشار ستيفانوس إلى جريمة أولئك الذين تنبؤوا بقدوم الرجل الصالح أو الرجل العادل، وهذه الاصطلاحات تحمل على نحو فريد طابعاً قمرانياً، حيث يرد ذكر الرجل الصالح على نحو متكرر في مخطوطات البحر الميت بأنه الصَديق – Zaddik، ومن الجذر نفسه يشتق مصطلح معلم البر في المخطوطات: «زيديكس موريه ها– zedex_Moreh ha»، وعندما يتحدث المؤرخ يوسيفوس عن معلم يدعى صدوق – Sadduc أو زادوك– Zadok بأنه قائد لجماعة يسوعية ويهودية مناهضة للرومان، فإن هذا أيضاً يبدو أنه تأويل يوناني خاطئ لـ للرجل الصالح، وكما جرى تصويره في «سفر الأعمال» بعد ذلك، يستخدم ستيفانوس ميزة فريدة ذات خصوصية محددة لقمران.

لم يكن ذلك هو الشأن القمراني الوحيد الذي يصور في خطاب ستيفانوس، فهو يسمي في دفاعه أسماء مضطهديه في الفصول: 7:53، يقول: أنت يا من بيدك الناموس القادم إليك على أجنحة الملائكة، أنت أقل من حافظ عليه، وكما تصف الأعمال كان ستيفانوس مصمماً بكل وضوح على موالاة الناموس، ومرة ثانية يبرز هنا صراع ضد الأرثوذكس والأعراف المقبولة وبحسب الأعراف المسيحية السابقة كان يهود ذلك العصر هم الذين صنعوا تعويذة صفائية، تابعة للمذهب الصفائي في التطهر، متزمتة للقانون، وقد صور المسيحيون الأوائل، على الأقل من حيث الرأي الصارم، بأنهم جاحدون، أو مرتدون، وبأنهم يدافعون عن نوع جديد من التحرر والمرونة، وأنهم يتحدون العادات والتقاليد، مع أن ستيفانوس، وهو الشهيد المسيحي الأول، كان قد برز مدافعاً عن الناموس، بينما اتُهم مضطهدوه بالتقصير.

إن تجريم ستيفانوس، الذي أعلن نفسه موالياً للقانون، لم يكن يعني له شيئاً، فقد أتى هذا التجريم من يهود أنداد له، يمجدون الناموس نفسه، ولكن ماذا لو كان هؤلاء

الأنداد اليهود يعملون لمصلحة جماعة الكهنوت الذين توصلوا إلى تسوية مع السلطات الرومانية؟، فهؤلاء الكهنة متعاونون مع السلطات، مثل الكثير من الفرنسيين الذين عاشوا تحت نير الاحتلال الألماني، وكانوا لا يريدون أكثر من الحصول على حياة هادئة، ومثل خشيتهم من خروج ثائر مهتاج أو مقاوم من بين صفوفهم جالباً عليهم الثأر من السلطة، وقد ظلت الكنيسة القديمة التي كان ستيفانوس عضواً فيها، تشدد باستمرار على أرثوذكسيتها وعلى موالاتها الغيورة للناموس، وكان مضطهدوهم هم أولئك الذين يجدون الوسائل التي تبقي سمعتهم عطرة أمام روما، والذين بفعلهم هذا يتخفون عن الناموس، أو بالمصطلح القمراني ينتهكون الناموس ويخونونه، وفي هذا السياق كان اتهام ستيفانوس لهم منطقياً كما كان قتلهم له منطقياً كذلك، وسنرى لاحقاً أن يعقوب، وهو العادل والصّديق والصالح وشقيق المسيح والذي ضرب أروع الأمثلة في موالاته المتزمتة للقانون، سيلقى مصير ستيفانوس نفسه بعد ذلك، وذلك بحسب التقليد الأخير.

وفقاً للأعمال، تزامن موت ستيفانوس مع ظهور بولس، الذي سمي بعد ذلك شاؤول طرسوس أول مرة، ويقال إنه استبقى على ثياب قتلة ستيفانوس، مع أنه ربما كان قد أدى دوراً أكثر فاعلية، وتخبرنا الفصول 1،8 أن شاؤول قد أُثبت تورطه الكامل في عملية قتل ستيفانوس، ولاحقاً في الفصول 9:21، يتهم شاؤول بأنه تولى بدقة هندسة نوع الهجوم على الكنيسة القديمة الذي أدى إلى مقتل ستيفانوس، وعلى نحوٍ مؤكد كان شاؤول في هذه المرحلة من حياته متحمساً، أو غيوراً، في عداوته للكنيسة القديمة، ووفقاً لما جاء في الفصول 3،8 لقد عمل على دمار الكنيسة كلياً، فتنقل من منزل إلى منزل معتقلاً الرجال والنساء، ومرسلاً إياهم إلى السجن، في وقت أدى فيه دور التابع للكهنوت المناصر للرومان.

ويتكلم الفصل 9 عن تحول شاؤول، فبعد مقتل ستيفانوس بفترة وجيزة أبحر إلى دمشق، ليتصيد أعضاء الكنيسة القديمة هناك، مصطحباً معه فرقة الموت ومذكرات اعتقال من سيده الكاهن الأعلى، وكما لاحظنا فهذه الحملة يرجح أنها لم تكن موجهة إلى سورية، بل إلى دمشق التي ذكرت في وثيقة دمشق، وفي طريقه إلى وجهته المنشودة قاسى شاؤول نوعاً من التجارب المضنية التي عللها المعلقون بأن تكون أي شيء ابتداءً من ضربة شمس إلى نوبة صرع، وإلى وحي غامض، الفصول 9:1 ـ 19، 22: 6 ـ 16، وزعم أن ضوءاً من السماء قد ضرب حصانه، وأن صوتاً قادماً من مصدر مجهول قال له: شاؤول، شاؤول، لماذا تضطهدني، وعندها يطلب شاؤول من الصوت أن يعرف بنفسه، فيرد الصوت: أنا يسوع النصراني وأنت تضطهدني، وبعدها يأمره الصوت أن يتقدم إلى

دمشق، حيث سيتعلم هناك ما يجب عليه فعله لاحقاً، وعندما تنتهي هذه الزيارة ويستعيد شاؤول وعيه يكتشف أنه قد أصيب بعمى مؤقت، وفي دمشق يستعيد بصره على يد أحد أعضاء الكنيسة القديمة، وسيسمح لنفسه بأن يعمّد.

إذا عرضت هذه القصة على عالم نفس من عصرنا فلن يجد شيئاً غير اعتيادي في مغامرة شاؤول، فمن الممكن أنها جاءت نتيجة لضربة شمس أو نوبة صرع، ومن الممكن أن تعزا إلى نوع من الهذيان أو الهيستيريا أو الارتكاس الذهاني، أو ربما شعور الضمير بالذنب لرجل سريع التأثر برؤية مشهد الدماء على كفيه، بينما فسرها شاؤول بأنها ظهور حقيقي ليسوع الذي لم يسبق أن عرفه شخصياً، ومن هنا نتج التحول الذي أصاب هذا الرجل، لقد نبذ اسمه السابق ليسمي نفسه بولس، ولاحقاً سنراه متحمساً لنشر تعاليم الكنيسة القديمة على قدر حماسته السابقة لإبادة أتباعها، فانضم إلى مجتمعهم وأصبح واحداً من تلامذتهم أو تابعيهم، ووفقاً للرسالة الموجهة إلى الغلاطيين- **18_Galatians Gal 1:17** بقي تحت وصايتهم مدة ثلاث سنوات ممضياً معظم هذه الفترة في دمشق، وبحسب ما جاء في مخطوطات البحر الميت فقد كانت مدة فترة الاختبار والتدريب للقادمين الجدد إلى مجتمع قمران ثلاث سنوات أيضاً.

بعد فترة التلمذة التي دامت ثلاث سنوات عاد بولس إلى أورشليم، ينضم إلى قادة المجتمع هناك، ولم يكن مفاجئاً أن معظمهم كانوا مرتابين فيه، ولم تكن لديهم القناعة التامة بتحوله هذا، ويتحدث في الغلاطيين **1:18 20_Galatians** نسبة إلى مقاطعة غلاطيا، عن رؤيته فقط ليعقوب وسيفاس، بينما بدا أن جميع الآخرين، ومنهم الحواريون، قد تجنبوا رؤيته، وقد أجبر مراراً على أن يثبت نفسه، وعندها فقط وجد بعض المناصرين له، وبدأ بالتبشير، ونتيجة لذلك بدأت الجدالات، ووفقاً للفصول **9:29** قام بعض أعضاء مجتمع أورشليم بتهديده، وبهدف نزع فتيل حالة من الأزمة المرتقبة قام مناصروه بترحيله مباشرة إلى مسقط رأسه طرسوس، وهي بلدة في كيليكية، وهي اليوم في تركيا، وفي الواقع لقد أرسل إلى موطنه، لينشر الدعوة هناك.

من المهم أن ندرك أن ذلك كان بمنزلة إبعاد له، فالمجتمع في أورشليم، تماماً كما هو في قمران، مشغول كاملاً تقريباً بأحداث فلسطين، أما العالم الأوسع مثل روما، فكان مهتماً فقط بما يمس أو ينتهك واقعه المحلي.

وهكذا تظهر القصص الثلاث الأولى لبولس، بحسب ما جاء في «الأعمال»، إلى مناطق خارج البلاد، ومن تلك المناطق كانت أنطاكية، وبحسب ما تقول الفصول **11:26**

لقد كانت أنطاكية المكان الذي سمي فيه الحواريون أول مرة مسيحيين، وقد أرخ المعلقون رحلة بولس إلى أنطاكية بتاريخ أقصاه عام 43 ميلادي، وفي ذلك الوقت كان قد أنشئ هناك مجتمع للكنيسة القديمة، وهو الذي أبلغ به قادة الطوائف في أورشليم التي كانت تحت حكم يعقوب.

وبعد خمس سنوات أو أكثر كان بولس يلقي التعاليم في أنطاكية، عندما نشأ جدل في فحوى عمله التبشيري، وكما يوضح الفصل 15 وصل ممثلون عن القيادات في أورشليم إلى أنطاكية، وذلك بحسب تقدير إيسنمان، للتحقق من نشاطات بولس هناك، وقد شددوا على أهمية الولاء المطلق للقانون، واتهموا بولس بالانحلال، وبسرعة أعيد ورفيقه بار نابا إلى القدس من أجل استشارة شخصية مع القيادة، ومن هنا سيتشكل شرخ، ويتسع بين بولس ويعقوب، ويصبح مؤلف الأعمال هو المدافع عن قضية بولس في النزاع.

في كل التقلبات التي أتت لاحقاً يجب تأكيد أن بولس هو عملياً أول مهرطق مسيحي، وأن تعاليمه التي أصبحت القاعدة الأساس للمسيحية التي أتت لاحقاً، ما هي إلا تحريف فظيع للتعاليم الأصلية أو النقية التي مجدتها القيادة، وسواء أكان يعقوب الملقب شقيق المسيح هو حرفياً شقيق يسوع بالدم أم لم يكن، مع أن كل المعطيات تدل على أنه أخوه فعلاً، فمن الواضح أنه كان يعرف يسوع شخصياً، أو الهيئة التي أصبحت تذكر بأنها يسوع لاحقاً، وكذلك فعل معظم أعضاء المجتمع أو الكنيسة القديمة الآخرين في أورشليم، ومن ضمنهم طبعاً بطرس، وعندما كانوا يتكلمون، كانت كلماتهم تصدر من سلطة مباشرة، ولم يكن بولس على معرفة شخصية كهذه من قبل بالرمز الذي بدأ يعد أنه مخلصه، فهو لم يمتلك سوى تجربة شبه صوفية في الصحراء وصوت مجهول كلمه بلا جسد، وهذا عنده جرأة زائدة أن يدعي السلطة لنفسه على أساس هذه التجربة، وهذا أقل ما يمكن أن يقال، كما قاده ذلك إلى تحريف تعاليم يسوع إلى أقصى حد، وذلك ليؤلف لاهوته الفردي الأعلى الخاص حقيقة، ثم ليجعله شرعياً، وذلك بادعاء نسبته إلى يسوع، وأما يسوع المخلّص بشدة للتوراة اليهودي فكان من أشد أنماط التجديف هو الدفاع عن عبادة أي شخصية فانية، ومن ضمنها عبادة شخصه هو، وقد وضح ذلك في الإنجيل ملحاً على حوارييه وأتباعه ومستمعيه ألا يعترفوا بغير الله، ففي يوحنا 10: 33 -5 مثلاً يتهم يسوع بالكفر لدى ادعائه الألوهية، ويرد مستشهداً بالمزمور 82: أليس مكتوباً في شريعتكم: أأنا قلت إنكم آلهة؟، فالشريعة تدعو أولئك الذين نزلت إليهم كلمة الله آلهة .

وحقيقة لقد وضع بولس الله جانباً، وأسس أول مرة عبادة يسوع، يسوع الذي هو بمنزلة نظير للإله أدونيس، أو لأي من الآلهة الأموات والمبعوثين الذين وجدوا في الشرق

الأوسط في ذلك الوقت، ولكي يتنافس مع هؤلاء الأنداد السماويين وجب على يسوع أن يجاريهم فكرة فكرة ومعجزة معجزة، وفي هذه المرحلة أصبحت العناصر الإعجازية جزءاً من سيرة حياة يسوع، متضمنة بكل الاحتمالات ولادته من أم عذراء وبعثه من الأموات، وهي كلها من اختراعات باولين التي كانت في الأكثر على خلاف مع العقيدة النقية التي أعلنها يعقوب وبقية المجتمع في أورشليم، ولذلك ليس مدهشاً أن ينزعج يعقوب وحاشيته مما يفعله بولس.

ولأن بولس يعرف تمام المعرفة ما يفعل، فهو يفهم بسفسطائية حديثة مدهشة تقنيات الدعاية أو التبشير الديني، وهو يدرك أيضاً ما يلزم لتحويل رجل إلى إله، وهو يشرع بذلك بقدر من الدهاء، يفوق الدهاء الذي استخدمه الرومان لفعل ذلك مع إمبراطورهم، وكما اعترف بنفسه فهو لم يدعِ أنه ينقل أخبار يسوع التاريخي، الشخص الذي عرفه كل من يعقوب وبطرس وشمعون شخصياً، وعلى النقيض اعترف في موضعين من الكورنثيين، نسبة إلى مدينة كورنثا في اليونان، **11:3ـ 4**: بأن المجتمع في أورشليم يعلن وجود يسوع آخر، ويقول إن ممثليهم خدم الصلاح، وهو استخدام تعبيري خاص بقمران، وهم الآن بكل المقاصد والغايات أعداء لبولس.

عاد بولس، بموجب تعليمات أصدرت له، من أنطاكية إلى أورشليم نحو عام **48** ميلادي، والتقى قادة المجتمع، وعلى نحوٍ لا يدعو للدهشة نشأ خلاف جديد، فإذا كانت الأعمال موضع ثقة، فإن يعقوب يوافق على التسوية من أجل السلام، جاعلاً بفعله ذلك الأمر أسهل على الوثنيين أن ينضموا إلى جماعة المصلين، وكان غير ممكن أنه قبل بتخفيف أفكار معينة من الناموس على حين ظل متعنتاً بشأن أفكار أخرى.

أظهر بولس ولاءً كلامياً فقط للقيادة، فهو لا يزال في هذه المرحلة في حاجة إلى موافقتهم، ليس لجعل تعاليمه شرعية، بل لإعطاء الشرعية والضمان للمجتمعات التي أسسها في الخارج، ولقد كان من قبل متمسكاً بطريقته، وشرع في مهمة جديدة من السفر والتبشير، تتضمن زيارة أخرى لأورشليم، الفصول **18:21**، وكانت تواريخ معظم رسائله تعود إلى هذه الفترة أي أعوام **50** و**58** ميلادي، ويتضح من رسائله أنه أصبح في ذلك الوقت منفصلاً كلياً تقريباً عن القيادة في أورشليم، وكذلك عن الولاء للناموس، وفي رسالته الخطية إلى الغلاطيين عام**57** ميلادي يلمح بحقد إلى هؤلاء الناس الذين هم قادة معترف بهم، وأهمية شأنهم لا تهمني - **Gal.2:6**، لقد حرف مكانته اللاهوتية بطريقة لا يمكن إصلاحها من أولئك الذين يحملون الولاء الديني للقانون، وفي الرسالة

نفسها إلى الغلاطيين 2:16، يقر بأن: ما يبرئنا هو الإيمان بالمسيح أكثر من الإخلاص للقانون، وليس لأي شخص أن يبرأ خلال حفظه للقانون، و يقول مخاطباً الفلبيين-3:9: لن أسعى بعد الآن إلى الكمال بجهودي الخاصة، الكمال الذي يأتي من الناموس، وكانت هذه هي العبارات المستفزة والمتحدية للشخص الذي أعلن نفسه مرتداً، أما المسيحية التي ستتطور لاحقاً من بولس، فهي تخدم الآن فعلياً كل ما يتعلق بجذورها، فلم يعد لها علاقة بيسوع، بل بصورة يسوع التي رسمها بولس.

نحو عام 58 ميلادي يعود بولس ثانية إلى أورشليم مع توسلات داعميه له بعدم الذهاب، فقد كان واضحاً أنهم يخشون حدوث اضطرابات مع هيئة الكهنوت، وهكذا التقى مرة ثانية يعقوب وقيادة مجتمع أورشليم، وعبروا عن قلقهم المشترك من المتعصبين الآخرين للقانون، الذين شجعهم بولس على التخلي عن توراة موسى في أثناء تبشيره لليهود الذين يقطنون في الخارج، ويوضح بولس في رسائله أنها تهمة مسوغة، ولم تسجل «الأعمال» رده على هذه التهمة، إلا أن الانطباع المنقول عنها يقول إنه كان يكذب، ويحنث بيمينه، ويستنكر التهم الموجهة ضده، وعندما طلب إليه أن يطهر نفسه مدة سبعة أيام سارع إلى الموافقة على الطلب، مبرهناً بذلك على عدم إنصاف الادعاءات له، ومؤكداً استمراره في الولاء للقانون.

بعد بضعة أيام دخل بولس ثانية في صراع ضد هؤلاء الغيوريين على الناموس الذين كانوا أقل اعتدالاً من يعقوب، ولدى رؤيته في المعبد قام حشد من المتدينين بمهاجمته، زاعمين في أثناء فورة غضبهم أنه «هذا هو الرجل الذي يبشر بأي شخص في أي مكان ضد الناموس» -الفصول FF 21:28، وهكذا حدثت أعمال شغب في المعبد، وسحب بولس إلى خارج المعبد، فحياته الآن في خطر، وفي اللحظة الملائمة يجري إنقاذه من ضابط روماني، كان قد أبلغ عن حالة الشغب، فجاء مع حاشية من الجند ليعتقل بولس ويكبله بالقيود، تقديراً أولياً بأنه قائد الـ سيكاري- Sicarii، وهو الملاك الغيوري الإرهابي.

عند هذه المرحلة تصبح الرواية أكثر غموضاً، ولا يسع المرء إلا أن يشك في أن أجزاءً منها قد بدلت أو عدلت، بحسب النص الموجود، قام بولس، قبل أن يتمكن الرومان من سحبه إلى الخارج، بالاحتجاج مؤكداً أنه يهودي طرسوسي، وطلب إذناً بمخاطبة الحشد الذي كان حالاً يحاول إعدامه من دون محاكمة، وكان اندهاش الرومان الكبير من طلب كهذا كافياً، ليسمحوا له بفعل ذلك، وبعدها أسهب بولس، معتمداً تدريبه الفريسي المتظاهر بالتقوى على يد غمالائيل، المعلم المشهور في ذلك العصر، في الحديث عن عدائه

الأولي للكنيسة القديمة ودوره في موت يعقوب وتحوله الذي تلا كل ذلك، وأدى كل هذا الإسهاب، أو جزء يصعب تحديده منه، إلى استثارة غضب جديد في نفوس الحشد، فهتفت الجموع: طهروا الأرض من هذا الرجل! فهو لا يستحق الحياة!، الفصول **22:22**.

متجاهلين كل تلك النداءات أخرج الرومان بولس إلى الحصن الذي يرجح أنه حصن أنطاكية ومركز القيادة العسكري والإداري للرومان، وهنا أرادوا استجوابه تحت التعذيب، ليحددوا السبب وراء استثارته لهذا العداء، وذلك بحسب ما جاء في الفصول، مع أن بولس كان قد وضح سابقاً موقفه للعوام، إلا إذا كانت هناك بعض العناصر في حديثه مما يعدها الرومان عناصر خطيرة ومدمرة، وفي كل الأحوال بحسب القانون الروماني لا يمارس التعذيب على أي فرد يعد مواطناً رسمياً في الإمبراطورية الرومانية، وهو المبدأ الذي يتميز به بولس على نحو تام، فقد ولد من عائلة ثرية في طرسوس، ولدى ذكره لهذه الحصانة استطاع النجاة من التعذيب، لكنه بقي محتجزاً.

في تلك الأثناء قامت مجموعة مؤلفة من أربعين أو أكثر من اليهود الغاضبين بالاجتماع سراً، ونذروا على أنفسهم ألا يأكلوا أو يشربوا، حتى يقوموا بقتل بولس، إلا أن هذه الحدة والضراوة في الكراهية لم تكن ذات قيمة، فلا يمكن المرء أن يتوقع لمثل هذا الحقد، إن لم نقل الاستعداد للعنف أن يصدر من مجموعة عادية من المنافقين الفريسيين والصدوقيين، فهؤلاء الذين يظهرون هذا الحقد هم بكل وضوح غيورون على الناموس، لكن هذا الولاء الملتهب للناموس لم يكن ليصدر في فلسطين في ذلك الوقت سوى عن أولئك الذين رأت نصوصهم المقدسة النور لاحقاً في قمران، وهكذا مثلاً لفت إيسنمان الانتباه إلى مقطع بالغ الأهمية في وثيقة دمشق، إذ يعلن هذا المقطع عن رجل إذا حنث بيمينه في الرجوع إلى توراة موسى عمداً عندها يجب أن يقع عليه العقاب .

كيف يمكن أعمال العنف التي وجهت ضد بولس أن تسوي الصورة الشائعة الأخيرة المقدمة من الإجماع للأسينيين الهادئين المسالمين الزاهدين؟، فالاجتماع السري والنذر المتحمس لإبادة بولس تعد مميزات للغيورين المحاربين ووحداتهم الخاصة بالاغتيالات، وهي وحدات السيكاري- **Sicarii** المرعبة، ومرة أخرى يطرح هنا مقترح ملحّ بأن الغيورين من جهة والغيورين على القانون في قمران من جهة أخرى ما هم إلا طرف واحد، أي الجهة نفسها .

أياً يكونوا فقد أحبطت فرق الاغتيالات بالظهور المفاجئ الذي جاء في الوقت الملائم، لابن أخ بولس الذي لم يذكر اسمه، فقد كان هذا الأخير على علم بطريقة أو

بـأخرى بمكيـدتهم، وقـد أخـبر هـذا القريـب الـذي لا نعـرف عنـه المزيـد كـلاً مـن بـولس والرومـان بتلـك المكيـدة، وفي تلـك الليلـة يجـري إبعـاد بـولس عـن أورشـليم حفاظـاً علـى سلامته، وقد أبعد وبرفقته موكب حراسـة قوامـه 470 عنـصراً، 200 مـن المشاة بقيادة اثنين من القادة المئة، إضافة إلى200 من حملـة الرمـاح، و70 فارسـاً، ثـم يؤخـذ بـولس إلى مدينة قيسارية العاصمة الرومانية لليهودية أو أرض يهوذا ليمثل أمام الملك أو الحاكم من الرومان أغريبا، وكونه مواطناً رومانياً كان لديه الحق في أن تسمع قضيته في روما، وقد طالب بهذا الحق، ونتيجة ذلك أرسل إلى روما ظاهرياً للمحاكمة، ولـيس هنـاك أي إشـارة إلى ما سوف يحاكم من أجله.

بعـد سـرد مغامراتـه في الرحلـة، ومـن ضـمنها غـرق الـسفينة، ينتـهي الفـصل، أو بالأحرى ينقطع، كما لو أن الكاتب قد قوطع في أثناء عمله، أو كمـا لـو أن شخـصاً مـا قـام بإزالـة النهايـة الأصـلية ووضـع مكانهـا نهايـة سـطحية، وطبعـاً هنـاك عـدد كـبير مـن الاعتقادات اللاحقة، كأن يكون بولس قد سجن أو نال استماعاً شخصياً مـن الإمبراطـور، أو أطلـق سـراحه وذهـب إلى إسـبانيا، أو أن يكـون نـيرون قـد أمـر بإعدامـه، أو أنـه واجـه بطـرس في رومـا، أو في سـجن في رومـا، أو أنـه قـد أعـدم وبطـرس معـاً، ولكـن لـيس في «الأعمال»، ولا في أي وثيقة موثوقة أخرى، ما يمكن أن يعد أساساً لأي من هذه القصص، فربما تكون النهايـة الأصـلية للفصل قد أزيلـت أو بـدلت فعـلاً، وربمـا يكـون المؤلـف لوقـا ببساطة يجهل ما حدث بعد ذلك، ولأنه لم يكن مهتماً بالتناسق الفني للرواية فقد سمـح لنفسه بأن يختم بنهاية غير سليمة، أو ربمـا، كمـا اقـترح إيسنمان وسـيؤخذ هـذا المقـترح لاحقاً في الحسبان، كان لوقا يعرف ما حدث، لكنـه قطـع الـسرد متعمـداً، أو قطـع الـسرد من محررين جاؤوا لاحقاً لإخفاء المعرفة بما جرى.

يعتري الأجزاء الأخيرة من «الأعمال» بدءاً من أعمال الشغب في المعبد فـصاعداً، نـوع من القلق والاضطراب والغموض مع وجود أسئلة بـلا أجوبـة، أمـا في بقيـة الأجـزاء فتبـدو «الأعمـال» ظاهـرياً بـسيطة علـى نحـوٍ كـافٍ، ففـي إحدى المراحـل هنـاك سـرد عـن تحـول بولس والمغامرات التي أعقبت هذا التحول، ولكن يرتـسم وراء ذلـك تـأريخ لخـلاف متزايـد بـين طـائفتين، تتـألف إحـدى هـاتين الطـائفتين مـن متطـرفين رددوا تعـاليم النـصوص القمرانيـة، وأصـروا علـى المراقبـة الـصارمة للنـاموس، أمـا الطائفـة الثانيـة الـتي تتمثـل في بولس وداعميه المباشرين فقد أرادت أن تخفف النـاموس، وأن تزيد أعداد المجندين الجدد بتسهيل الأمر على الناس للانضمام إلى جماعتهم، أما المتطرفون فقد كـانوا أقـل اهتمامـاً بالعـدد مـن اهتمـامهم بالنقـاء المذهبي، وبـدا أن لـديهم اهتمامـاً ظاهـرياً فقـط بالأحـداث

والتطورات التي تجري خارج فلسطين، وكذلك لم يظهروا أي رغبة بالتوافق مع روما، ومن الناحية الأخرى كان بولس مستعداً للاستغناء عن النقاء المذهبي، فقد كان هدفه الأساسي هو أن ينشر رسالته بأكبر قدر من الاتساع، وأن يحشد أكبر قدر ممكن من الموالين، ولكي يحقق هذا الهدف خرج عن طريقته، ليتجنب الخصام ضد السلطات، وكان على استعداد تام للتوصل إلى توافق مع روما، حتى عن طريق التملق.

وكما يظهر في «الأعمال» كانت الكنيسة القديمة بعد ذلك مقطعة الأوصال نتيجة انشقاق أولي، وكان بولس وراء التحريض على هذا الانشقاق، فكبير أعداء بولس تلك الشخصية الغامضة ليعقوب شقيق المسيح، والواضح أن يعقوب هو القائد المعترف به في مجتمع أورشليم، والذي أصبح معروفاً للكنيسة القديمة، وإجمالاً يصادف أن يعقوب كان متطرفاً مبدياً الرغبة في التوصل إلى تسوية في بعض الأفكار المعينة، وكل ما يقترحه الدليل هو أنه حتى هذه المرونة المعتدلة تظهر بعضاً من حرية الإجازة من مؤلف «الأعمال»، وعلى نحو واضح لم يكن يعقوب ليستأصل من السرد، فعلى الأرجح كان دوره معروفاً جداً، ومن ثمّ فقد انتقصت أهميته تقريباً وصور كهيئة استرضائية، شخصية تتوضع بين شخصية بولس والمتطرف.

في كل الأحوال يقلص النص الفرعي من الأعمال نفسه إلى تضارب بين شخصيتين قويتين، هما يعقوب وبولس، ويوضح إيسنمان أن يعقوب برز حارساً للتعاليم الأصلية، وشارحاً للنقاء المذهبي والولاء الغيور على الناموس، وكان آخر ما يرد على ذهنه هو تأسيس دين جديد، بينما كان ذلك تماماً ما يجول في خاطر بولس، فيسوع بولس هو إله ذو منزلة عليا، وقد جاءت سيرة حياته التي اتسمت بالمعجزات، لتقارب معجزات الآلهة الأنداد له الذين كان ينافسهم من أجل كسب المناصرين، فهو رجل يبيع الآلهة بعد كل شيء على الأسس نفسها التي يباع وفقها الحساء أو طعام الحيوانات، وبحسب معايير يعقوب، أو بالأحرى بحسب معايير أي يهودي ورع، فهذا طبعاً تجديف وارتداد، ونتيجة المشاعر المستثارة من هذه القضايا كان صعباً الحد من اتساع الصدع بين يعقوب وبولس، ليصل إلى مستوى المناظرة المتحضرة، كما تشير إليه الأعمال، لقد ولد نوع من العداء القاتل الذي يظهر في نهاية السرد.

في الصراع بين يعقوب وبولس، يقف نشوء ما ندعوه المسيحية وتطورها عند مفترق طرق، هل تطابق التوجه السائد لتطورها مع تعاليم يعقوب، عندها لن تكون هناك مسيحية البتة، بل سيكون هناك أصناف معينة من اليهودية التي، ربما، تظهر كأصناف مهيمنة، وربما لا، وكما اتضح، فقد تكتل التوجه السائد للحركة الجديدة تدريجياً عن بولس وتعاليمه خلال القرون الثلاثة التالية، وهكذا ولد دين جديد فعلاً، حاملاً معه الرعب الحتمي ليعقوب وأتباعه، وهو دين جاء، وبحوزته القليل القليل ليفعله مع مؤسسه المزعوم.

الفصل السادس

يعقوب الصالح

إذا كان يعقوب قد قام بدورٍ ذي شأن خلال تلك الحقبة الزمنية، فلماذا لا نعرف عنه الكثير؟، لماذا انتقص من قدره؟، فكان شخصية هامشية تقبع في الظل، هذه الأسئلة يمكن الإجابة عنها بكل بساطة، سواء أكان أخا يسوع فعلاً أم لم يكن كذلك، فإن إيسنمان يؤكد أن يعقوب كان على معرفة شخصية بيسوع، على نحو لم يكن يعلمه بولس، كان على نحوٍ مؤكد أقرب في تعاليمه إلى المصدر أكثر مما وصل إليه بولس كله، كانت غاياته وهواجسه تختلف عن غايات بولس وهواجسه، حيث كانت أحياناً تتعارض، أما لبولس فقد كان يعقوب يشكل قلقاً دائماً له، فإذا كان غير ممكن طمس أهمية يعقوب، إلا أنه مع انتصار دعوة بولس المسيحية جرى الحط من قيمتها على الأقل.

كان يعقوب على عكس عدد من الشخصيات في العهد الجديد، فهو يبدو شخصية تاريخية بارزة، وعلاوة على ذلك، فإنه شخص قام بدور بارز في قضايا عصره، على نحو أكبر مما نسب إليه عموماً، إن ليعقوب مجموعة أدبية وافرة، لا بأس بها، مع أن معظمها لا يتطابق مع مجموعة التعاليم الكنسية للعهد الجديد.

وفي العهد الجديد الإنجيل نفسه ذُكر يعقوب أحد إخوة المسيح مع أن السياق غامض ومحيّر عموماً، كما أصيب بالتحريف على نحو جلي، وفي «سفر أعمال» الرسل الذي تحدثنا عنه فإنه يولي أهمية أكبر ليعقوب، مع أنه لا يرد له أي ذكر فيه حتى القسم الثاني من «أعمال الرسل»، بعد ذلك ومع إرسال بولس رسالته إلى أهل غلاطية يأتي وصفه بزعيم الكنيسة الأولى الذي يسكن في أورشليم، ويقصده مجمع من الشيوخ، إن المرء لا يحظى إلا بقليل من المعلومات عن إنجازاته، حتى إنه يعرف أقل عن شخصيته وسيرته الذاتية، هذا إذا ما استثنينا ما نسب إلى بولس، كما لا تحظى رسالة يعقوب في العهد الجديد بأهمية كبيرة أيضاً، إن الرسالة يمكن أن تكون قد استمدت فعلاً من نص ليعقوب، حتى إن إيسنمان أشار إلى الأسلوب واللغة والتمثيل المجازي القمراني، إنها تتضمن اتهاماً ستظهر أهميته لاحقاً، وهو اتهام جاء فيه لقد قتلتم الصدِّيق أو البار، وعلى أي حال لم ترد أي معلومات شخصية.

هذا كان دور يعقوب في الكتاب المقدس، ولكن إذا قام المرء بالمزيد من البحث خارج هذا المجال فلا بد أن يجد وصفاً ليعقوب، وإن هذا هو البحث الذي يعمل عليه إيسنمان منذ سنوات عدة، إن أحد مصادر المعلومات التي يؤكدها هو نص مجهول الاسم للكنيسة الأولى، الذي يطلق عليه اسم إقرارات أكليمندس، وقد ظهر هذا النص في مطلع القرن الثالث، وجاء في الوثيقة: بينما كان يعقوب يقوم بإلقاء موعظة في الهيكل يقوم عدو

مجهول، تصحبه مجموعة من الأتباع، باقتحام المكان، ويقوم العدو بالسخرية من المستمعين إلى يعقوب، وتعلو الجلبة التي يحدثها على كلمات يعقوب، ويستمر بإثارة غضب حشد الناس بالشتائم والأذية، ثم راح يصيح كالمجنون، ليحرض الجميع على القتل: من أنتم؟، لماذا تترددون؟، أيها الضعفاء والعجزة، لماذا لا نقوم بضربهم، ونجعل جميع هؤلاء الأتباع سخرية؟، ولا يكتفي العدو بالتلفظ بالإهانات، فيمسك عصا خشبية، ويضرب بها المصلين المجتمعين، ويقوم أتباعه بالشيء نفسه، ثم يعمُ المكان هرج ومرج.

الكثير من الدماء تراق، وأخذ الناس تهرب بهلع، وفي هذه الأثناء هاجم ذاك العدو يعقوب ورماه بتهور من أعلى الدرج، ومع الظن أنه قد مات لم يتردد بإلحاق المزيد من الأذى به.

علي أي حال يعقوب لم يمت، ووفقاً لما جاء في الإقرارات يقوم أتباعه بحمله إلى منزله في أورشليم، في الصباح التالي وقبل بزوغ الفجر يفرُ الرجل المصاب وأتباعه من المدينة متجهين إلى أريحا، حيث يبقون فيها بعض الوقت، وعلى الأرجح حتى يتماثل يعقوب للشفاء.

إن هذا الاعتداء مهم جداً لإيسنمان، فهو يشير إلى أوجه الشبه بينه وبين الاعتداء على ستيفانوس، كما رواه سفر «أعمال الرسل»، ويفترض أن يكون ستيفانوس شخصية مختلقة لإخفاء حقيقة ذلك الاعتداء الذي كان يستهدف يعقوب، لأن «أعمال الرسل» لا يمكن أن تعترف بهذا، وأريحا التي فر إليها يعقوب ملاذاً له لا تبعد إلا بضعة أميال عن قمران، علاوة على هذا، فهو يحاول البرهان على أن الهروب إلى أريحا، يشكل المفتاح لإيجاد الحقيقة التاريخية، وهو تفصيل ليس له أهمية، وعلى الأرجح لم يجرِ اختلاقه أو تحريفه، لأنه لا يخدم أي غاية محددة، أما لدى العدو فإن هناك بعض الشك في هويته الحقيقية، وتختتم «إقرارات أكليمندس» بالتالي:

وبعد ثلاثة أيام أتى إلينا من غمالائيل أحد إخوتنا في الدين، ليخبرنا بسر يقول: إن العدو قد كلف مهمة من قيافا كبير الكهنة، وذلك باعتقال كل من يؤمن بيسوع، ويذهب إلى دمشق لإيصال رسائله .

إن النسخ المتبقية من مؤلف يوسيبيوس، وعنوانه: «آثار اليهود»، لا تأتي إلا على إشارة واحدة إلى يعقوب، ربما حرفت بعد ذلك أو لم تحرف، تشير التقارير التاريخية إلى أن السنهدرين، أو المحكمة الدينية العليا، استدعت يعقوب أخا يسوع الذي يسمى المسيح، واتهم جزافاً بخرق الناموس، وخلصت المحكمة إلى أن يعقوب وبعضاً من أصحابه

مذنبون، ووفقاً لذلك رجموا حتى الموت، سواء أكانت هذه الرواية دقيقة أم جرى التلاعب بها أم اختلقت كلياً فإن أهم جانب فيها هو التاريخ الذي تشير إليه، ويشير يوسبيوس إلى أن الأحداث التي قد قام بوصفها قد وقعت خلال فترة انتقال الحكم بين ولاة اليهودية، كان الوالي الحالي قد توفي مؤخراً، وكان خليفته لوسيوس ألبنوس مازال في طريقه إلى فلسطين قادماً من روما، في أثناء الفترة الانتقالية قام كبير الكهنة حنانيا، وهو رجل غير محبوب، بالاستحواذ على السلطة، وهذا ما سهل تأريخ حكاية وفاة يعقوب نحو عام 26 ميلادي، أي قبل أربع سنوات فقط من اندلاع الثورة في عام 66 ميلادي، وهذا يشكل في ذلك الوقت دليلاً يتجسد في التسلسل الزمني للأحداث، حيث إن وفاة يعقوب يمكن أنه يكون لها صلة بالحرب التي دمرت الأرض المقدسة بين عامي 66 و73 ميلادي، أما إذا أردنا الحصول على المزيد من المعلومات فعلينا الرجوع إلى آخر مؤرخي الكنيسة.

لعل المصدر الرئيس للمعلومات هو يوسبيوس أسقف قيسارية في القرن الرابع، العاصمة الرومانية لليهودية، ومؤلف أحد أهم كتب تاريخ الكنيسة الأولى، ووفقاً لأعراف الزمن فإن يوسبيوس قد اقتبس مستفيضاً من كتاب سابقين لم يتبق الكثير من مؤلفاتهم، استشهد في حديثه عن يعقوب بأكليمندس أسقف الاسكندرية-215.152 ميلادي، ويشير إلى يعقوب كما روي لنا بالصدِّيق، أو كما تترجم عادة البار، وبالعبرية **Zaddik**، وهذا على نحو مؤكد الاستعمال القمراني المعتاد، والذي اشتق منه لقب معلم البر زعيم جماعة قمران، ووفقاً لأكليمندس وما جاء في تقارير يوسبيوس فإن يعقوب رمي من على حافة درج في معبد الهيكل، ثم ضرب بعصا، حتى فارق الحياة.

و جاء بعد ذلك في سرد يوسبيوس للأحداث التاريخية اقتباس موسع لمؤرخ الكنيسة في القرن الثاني، ويدعى هيغسيبوس، وقد بقيت أعمال هيغسيبوس تفرض نفسها حتى أواخر القرن السادس عشر أو السابع عشر، ومنذ ذلك الحين اختفى كل شيء، مع إمكان وجود نسخ في الفاتيكان، وفي مكتبة دير أو أكثر في إسبانيا أيضاً مثلاً، ومع ذلك نجد في الوقت الراهن أن معظم مؤلفات هيغسيبوس موجودة في مقتطفات من أعماله استشهد بها يوسبيوس.

و يقول يوسبيوس مقتبساً من هيغسيبوس: إن يعقوب الصدِّيق كان تقياً منذ ولادته، فهو لم يشرب الخمر، ولم يأكل طعاماً حيوانياً، ولم يلمس رأسه موسى حلاقة، ولم يدهن جسده بالزيت، كما لم يستحم قط، وكان وحده الذي يسمح له بدخول الحرم المقدس، قدس الأقداس في معبد الهيكل، لأن رداءه لم يكن مصنوعاً من الصوف، وإنما من الكتان،

أي ثياب كهنوتية، كان معتاداً دخول صحن الهيكل وحيداً، وكانوا كثيراً ما يجدونه راكعاً على ركبتيه، يلتمس المغفرة للناس، ولذلك أصبحت ركبتاه قاسيتين كركبتي جمل، ولأن برَّه كان لا مثيل له، سمي بالصدِّيق وحصن الناس.

وجدير بنا في هذه المرحلة أن نقاطع النص، لنلاحظ تفاصيل مثيرة للاهتمام، يحكى أن يعقوب كان يرتدي الكتان أو الثياب الكهنوتية، وكان هذا ما يميز الذين يخدمون في معبد الهيكل، وينتمون إلى عائلات كهنوتية، وكانوا عادة من الصدوقيين الأرستقراطيين الذين عقدوا اتفاقاً مع روما ومع أتباعهم من سلالة هيرودس، يشير إيسنمان ثانيةً إلى إيبيفانيوس، وهو مؤرخ آخر للكنيسة، يتحدث عن يعقوب عندما كان يرتدي تاج كبير الكهنة، في حينها كان لا يسمح إلا لكبير الكهنة أيضاً بدخول قدس الأقداس، الحرم الداخلي وأكثر المناطق قداسة في معبد الهيكل، فماذا كان يعقوب يفعل هناك؟، من دون أن يبدي مؤرخو الكنيسة أي تفسير أو علائم استغراب، والذين لا يبدو أنهم يلاحظون أي شيء شاذ أو مخالف للأصول في تلك الأفعال، هل كان يحظى، بفضل نسبه ربما، بحق شرعي لارتداء لباس كهنوتي ودخول قدس الأقداس؟، أو قد يكون، كما يفترض إيسنمان يؤدي دور كبير كهنة المعارضة تقريباً، أي إنه متمرد يرفض الانصياع لتسوية الكهنوت المعترف بها مع روما، ولذلك أخذ على عاتقه القيام بدور الذين قد خانوه، وعلى كل حال فإن الكهنوت المعترف به لم يكن له أي أثر في يعقوب، ووفقاً لهيغسيببوس يقرر الكتبة والفريسيّون القضاء عليه، حتى يخاف والناس لا يصدقونه، فقالوا إنه: حتى الصدِّيق قد ضلَّ، واستشهدوا باقتباس من العهد القديم، هذه المرة من سفر النبي أشعيا- 10:3، ليسوغوا أفعالهم، كما أشاروا إلى أن أشعيا قد تنبأ بوفاة الصدِّيق، وبارتكابهم جريمة قتل يعقوب سيحققون نبوءة أشعيا، ليس إلا، ولكنهم باستشهادهم بهذا الاقتباس من سفر أشعيا فهم يتّبعون طريقة استخدمت في مخطوطات البحر الميت والعهد الجديد على السواء، ويشير إيسنمان إلى أنه كما استخدم الاقتباس لوصف وفاة يعقوب، فإن جماعة قمران وظّفت فقرات مماثلة من العهد الجديد تتحدث عن البر، لكي تصف وفاة معلم البر، وقد قام يوسبيوس بوصف وفاة يعقوب بالأسلوب التالي:

ولذلك صعدوا ورموا الصدِّيق، وقالوا لبعضهم: دعونا نرجم يعقوب الصدِّيق، ثم أخذوا يرجمونه مع سقوطه، إلا أنه كان لا يزال على قيد الحياة، بينما راحوا يرشقونه بالحجارة، صرخ أحد أفراد عائلة كهنوتية: توقفوا! ما هذا الذي تقومون به؟، ثم قام أحدهم، وهو قصّار، بأخذ عصا، كان يستخدمها لدقِّ الثياب، وجعلها تهوي على رأس الصدِّيق، هكذا كان استشهاده، وبعد هذه الحادثة مباشرة شرع فيسبازيان بمحاصرتهم.

فيسبازيان الذي أصبح إمبراطوراً عام 69 ميلادي، أعطى أوامره للجيش الروماني الذي يحتل اليهودية بإخماد ثورة عام 66 ميلادي، وهنا تكمن ثانية صلة متعلقة بتوالي الأحداث التاريخية بين وفاة يعقوب والثورة، ولكن يوسبيوس ذهب أبعد من هذا، فهذه الصلة لها أكثر من تسلسل أحداث فقط، حيث يقول: إن الحصار المفروض على أورشليم كله، وهو يقصد على الأرجح الثورة في اليهودية كاملة، كان نتيجة مباشرة لقتل يعقوب، وليس لأي سبب آخر غير هذه الجريمة الفظيعة التي كان هو ضحيتها .

يستشهد يوسبيوس بيوسيفوس، ليدعّم هذه الصلة المروعة، إن الفقرة التي اقتبسها من يوسيفوس، مع عدم وجود أي فقرة أطول منها في أي نسخة موسعة في مؤلفات يوسيفوس، كانت دونما شك ما كتبه يوسيفوس بسبب أوريجين أحد أوائل باباوات الكنيسة وأكثرهم نشاطاً، ويقتبس الفقرة نفسها تماماً، مشيراً إلى ثورة عام 66 ميلادي والغزو الروماني الذي تلاها، يقول يوسيفوس: إن هذه الأمور التي حصلت لليهود كانت جزاءً على ما ارتكبوه بحق يعقوب الصدّيق، الذي كان أخا يسوع الذي كان يعرف بالمسيح، مع أنه كان أكثر الرجال براً، إلا أن اليهود قاموا بقتله.

ومن هذه التفاصيل الصغيرة التي تخص يعقوب أخذ يتشكل المخطط، يعقوب زعيم الكنيسة الأولى المعترف به في أورشليم، وهو يمثل طائفة من اليهود الغيوريين على الناموس، حالهم حال جماعة قمران، وإن هذه الطائفة تكنُّ العداوة على نحو واضح لكهنوت الصدوقيين وكبير الكهنة حنانيا الذي عيَّنه هيرودس، حيث خانوا أمتهم ودينهم بعقدهم اتفاقية مع الحكومة الرومانية وملوك سلالة هيرودس الذين يحركهم الرومان كالدمى، إن هذه العداوة شديدة جداً حتى إن يعقوب نسب إلى نفسه الواجبات الكهنوتية التي كان حنانيا قد توصل إلى تسوية من أجلها، فجاء رد أتباع حنانيا بافتعال مقتل يعقوب، وتقريباً بعد ذلك مباشرة اندلعت الثورة في جميع أرجاء اليهودية، وكان حنانيا ذاته أول ضحاياها، والذي قتل لأنه كان عميلاً مؤيداً للرومان، ومع ارتفاع حدة التمرد كان على روما أن ترد عليه، حيث قامت لهذا بإرسال حملة عسكرية بقيادة فيسبازيان، وكانت النتيجة الحرب التي شهدت نهب أورشليم ودمار معبد الهيكل في عام 68 ميلادي، والتي لم تنته بسقوط مسعدة في عام 74 ميلادي.

إن الجزء الوحيد الغامض في هذا المخطط هو طبيعة الدور الذي أسهمت فيه وفاة يعقوب وأهميته، هل كانت مصادفة فقط مع الأحداث التاريخية؟، أو هل كانت كما أكد يوسبيوس ويوسيفوس العامل المسبب الرئيس؟، إن الحقيقة تكمن على نحو مؤكد

تقريباً في أن الثورة نشأت بإسهام عوامل كافية، ولذلك لم يلجأ المؤرخون إلى وفاة يعقوب بعدّها تفسيراً وحيداً، أو أن البرهان الذي يبين بلا شك أن وفاة يعقوب لم تكن حادثة عابرة فقط، ويبدو أنه كان لها على الأقل صلة بمجرى الأحداث العامة.

على أي حال فإن يعقوب وفقاً للنتيجة التي توصل إليها تحليل إيسنمان من دون أدنى شك شخصية بارزة في القرن الأول، ويتميز بأهمية أكبر مما تعترف به التعاليم المسيحية حتى يومنا هذا، كما تظهر الكنيسة الأولى بمعنى مختلف تماماً، فلم تعد مجموعة مصلين متعبدين يتجنبون السياسة والشؤون العامة، والذين يتّبعون أسلوباً خلاصاً ذاتياً، ولا يتوقون إلى ملكوت سوى ملكوت السماء، على العكس أصبحت أحد مظاهر القومية اليهودية في ذلك الوقت، وهي جماعة أفراد مسلحين يسعون إلى دعم الناموس، وخلع جماعة كهنة الصدوقيين الفاسدين من معبد الهيكل، ودحر الرومان المحتلين من الأرض المقدسة، وفي كل هذا فإنها تلتزم الأفكار التقليدية للغيورين.

ولكن ما علاقة هذا كله بقمران ومخطوطات البحر الميت ؟.

يبرز وصف منطقي ليعقوب أخي الرب في سفر «أعمال الرسل»، وفي أعمال يوسيفوس ومؤرخي الكنيسة الأولى، حتى لو كان منقوصاً، فهو يظهر مثال البر، حتى إن الصدِّيق يلحق باسمه لقب له، فهو الزعيم المعترف به لجماعة مذهبية تقيّة كان أفرادها غيورين على الناموس، ولا بد من أنه واجه خصمين مختلفين ومتميزين تماماً، أحدهما بولس، وهو دخيل قام، في بادئ الأمر، باضطهاد الجماعة، ثم اعتنق المسيحية، وأجيز له الانضمام إلى الجماعة، هذا فقط ليصبح مرتداً ويراوغ ويدخل في نزاع ضد أسياده، وليسرق صورة يسوع، ويشرع بالتبشير بمذهبه الخاص، مذهب استمده من مذهب الجماعة، لكنه قام بتشويهه، إن الخصم الثاني ليعقوب من خارج الجماعة، وهو حنانيا كبير الكهنة وزعيم جماعة كهنة الصدوقيين، إن فساد حنانيا معروف للجميع، والكثيرون يكرهون هذا الرجل، كما خان الرب وبني إسرائيل أيضاً بالتواطؤ مع الحكومة الرومانية وملوك سلالة هيرودس الذين يحركهم الرومان كالدمى، وإن يعقوب يتحدى حنانيا علناً، وفي نهاية المطاف يلقى حتفه على أيدي أعوان حنانيا، إلا أن حنانيا يُقتل بعدها فترة قصيرة جزاءً له، وحدث كل هذا وراء ستار الاضطراب الاجتماعي والسياسي المتصاعد والغزو الوشيك لجيش خارجي.

مع التفكير في هذا المخطط توجه إيسنمان إلى دراسة مخطوطات البحر الميت، وخاصة تفسير سفر حبقوق، ومع تجميع التفاصيل المجزأة من نصوص قمران بترتيب

منطقي تكشف أمر استثنائي مشابه لتسلسل الأحداث الواردة في «أعمال الرسل» ويوسيفوس، ومؤرخي الكنيسة الأولى، روت المخطوطات قصتها الخاصة، حيث كانت تحكي، على نحو رئيس، عن شخصية متفردة، وهي معلم البر، وهو قدوة يحمل الفضائل نفسها التي يتحلى بها يعقوب، كان المعلم مثل يعقوب الزعيم المعترف به لجماعة مذهبية تقيّة كان أفرادها غيورين على الناموس، وكان على المعلم، حاله حال يعقوب، أن يواجه خصمين مختلفين ومتميزين تماماً.

أحدهما كان يلقب بالأفَّاك، وهو دخيل أجيز له الانضمام إلى الجماعة، ثم انقلب مرتداً، ودخل في نزاع ضد المعلم، ثم سرق جزءاً من مذهب الجماعة، وبحسب تفسير سفر حبقوق فإن الأفَّاك لم يصغ إلى النبأ الذي تلقاه معلم البر من عند الرب، وبدلاً من هذا لجأ إلى خيانة الميثاق الجديد، لأنهم لم يؤمنوا بعهد الرب، وانتهكوا قداسة اسمه، يورد النص بوضوح أن الأفَّاك استهزأ بالناموس بين جموع المصلين، لقد أضلَّ الكثيرين، وجمَّع المصلين على ضلالة، ويقال إنه ذاته مثقل بأعمال الضلالة، وطبعاً فإن هذه الآثام هي تماماً التي اتهم بها بولس في «أعمال الرسل»، هذه الآثام التي أدت في نهاية «أعمال الرسل» إلى محاولة قتله، ويؤكد إيسنمان أن حساسية بولس المفرطة واللافتة للانتباه حيال تهم المراوغة والكذب، ومثلاً ورد في الرسالة الأولى إلى تيموثاوس **7:2**، أنه أكَّد بسخط كأنه يدافع عن نفسه بقوله: إنني أقول الحقيقة ولست أكذب، وورد في الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس**31:11**، أنه يقسم إن «الله أبو ربنا يسوع المسيح، يعلم أني لست اكذب»، هذه ليست سوى أمثلة لكلمات بولس التي توحي تقريباً برغبة مفرطة، ليبرئ نفسه من الاتهامات الضمنية بالكذب، وفقاً لمخطوطات البحر الميت فإن الأفَّاك كان خصم معلم البر من داخل الجماعة. أما عدو المعلم الثاني فكان من الخارج، لقد كان الكاهن اللعين، وهو ممثل فاسد للكنيسة الرسمية الذي خان مكانته وعقيدته، فلقد تآمر للقضاء على الفقراء، وهم الغيوريون على الناموس، والذين يقال إنهم كانوا منتشرين حول أورشليم وفي مناطق أخرى، فكان يضايق معلم البر أينما التمس المعلم المأوى، وقد واجه المعلم على أيدي أعوان الكاهن اللعين إصابات خطرة، وربما قاموا بقتله، إلا أن النص غامض بهذا الخصوص، فقام أتباع المعلم بعد ذلك بقتل الكاهن اللعين ذاته، ثم قاموا بعد قتله بأخذ الثأر من لحم جسده، أي إنهم شوهوا جثته، إن أوجه الشبه جليَّة بين الكاهن اللعين في المخطوطات والشخصية التاريخية لكبير الكهنة حنانيا.

ويسبر إيسنمان في كتابه عن يعقوب أوجه الشبه هذه، فيستعرض يعقوب وبولس وأنانياس من ناحية، ومعلم البر والأفَّاك والكاهن اللعين من الناحية الأخرى، مورداً

تفاصيل شاملة، ويدرس تفسير سفر حبقوق إضافة إلى نصوص أخرى سطراً تلو الآخر، ويقارنها بالمعلومات التي يقدمها «أعمال الرسل» ويوسيفوس ومؤرخو الكنيسة الأولى، وفي الصفحات التي بين يدينا يبدو أنه من المستحيل أن ننصف بحق أهمية الدليل الذي يجمعه، ولكن الاستنتاجات المستخلصة من هذا الدليل حتمية، وتشير المخطوطات إلى الأحداث نفسها التي يرويها «سفر أعمال الرسل» ويوسيفوس ومؤرخو الكنيسة الأولى.

و يدعم هذا الاستنتاج التكرار المنتشر واللافت للنظر للفلسفة واللغة المجازية القمرانية في «أعمال الرسل» وفي رسالة يعقوب ورسائل بولس الإنجيلية الكثيرة، كما يدعمها ظهور حقيقة أن المكان الذي بدأ منه بولس دعوته والذي أمضى فيه ثلاث سنوات طالباً رهبانياً كان في الواقع قمران، وليس مدينة في سورية، وحتى التفصيل الدقيق الذي لم يبد صحيحاً أول وهلة إنما هو مشروح ضمن النصوص نفسها، وهو حقيقة أن اضطهاد يعقوب ومقتله حدثا في أورشليم تحديداً، بينما كانت مخطوطات البحر الميت، أن الأحداث وقعت في قمران، ويورد تفسير سفر حبقوق بوضوح أن زعامة الجماعة كانت في أورشليم في أثناء ذلك الوقت.

كما يؤكد إيسنمان فكرة أخرى، لأنها شديدة الأهمية، يقول بولس في رسالته إلى أهل رومية **17:1** : لأن ما فيه معلن بر الله بإيمان لإيمان كما هو مكتوب، أما الصدِّيق فبالإيمان يحيا، وتظهر الفكرة نفسها في الرسالة إلى أهل غلاطية **11:3** : ولكن ليس لأحد أن يتعلل بالناموس عند الله فهو ظاهر، لأن الصدِّيق بالإيمان يحيا .

إن هاتين الجملتين تشكلان فعلاً مرحلة بداية المعنى اللاهوتي للدين، وإنهما أساساً كما قال إيسنمان جوهر لاهوت بولس، وإنهما تشكلان الأساس الذي يستطيع بولس خلاله مواجهة يعقوب، ويستطيع أن يتغنى بغلبة الإيمان، بينما يتغنى يعقوب بغلبة الناموس.

من أين أتى بولس بمعتقد غلبة الإيمان هذا؟، كان هذا الجزء، بلا ريب، غير مقبول في التعاليم اليهودية في ذلك الوقت، في الوقع أتى به من سفر حبقوق الأصلي، وهو نص من العهد القديم المشكوك بصحته، ويظن أنه يعود إلى منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وفقاً للصحاح الثاني، الآية الرابعة من سفر حبقوق: إن الصدِّيق يحيا بإيمانه، إنه من الواضح أن كلمات بولس في رسالته هي صدى لهذه العبارة، وأن سفر حبقوق هو الكتاب المقدس الذي يشير إليه بولس.

وعلى أي حال فإن الشيء الأكثر أهمية لا يزال تفسير سفر حبقوق، وقد وجد ضمن مخطوطات البحر الميت حاشية وتفسير أحد أقسام سفر حبقوق، إن تفسير سفر حبقوق يستشهد بالعبارة نفسها، ثم يتابع ليتعمق بها :

«والبار بإيمانه يحيا»، والتي تفسر بأن هذا يتعلق بأن كل الذين يلتزمون الناموس في بيت يهوذا سيخلصهم الرب من بيت الحساب بسبب آلامهم ولإيمانهم بمعلم البر.

إن هذه الفقرة الاستثنائية تعادل فعلاً صيغة المذهب المسيحي الأول، فهي تورد بوضوح أن الآلام والإيمان بمعلم البر تمهد الطريق للنجاة والخلاص، لابد من أن بولس استلهم جوهر اللاهوت الخاص به كلياً من هذه الفقرة في مخطوطات البحر الميت، ولكن الفقرة التي نحن بصدد الحديث عنها تؤكد على نحو جليٍّ أن الآلام والإيمان بمعلم البر ستوصل إلى الخلاص فقط لمن يلتزمون الناموس في بيت يهوذا، وهذا تأكيداً التزام الناموس الذي كان يسعى بولس لتجاهله، وبذلك يضع حداً للخلاف المذهبي مع يعقوب وبقية أعضاء الكنيسة الأولى .

الفصل السابع

الغيرة على الناموس

وفقاً لروبرت إيسنمان تصور مخطوطات البحر الميت جماعة قمران كحركة ذات طبيعة مختلفة جداً عن الأسينيين أصحاب المعتقدات الشائعة، ولا تنحصر مراكز نشاط هذه الحركة في قمران، وإنما تنتشر في بضع مناطق أخرى أيضاً، ومنها أورشليم، فهي تستطيع ممارسة نفوذ واسع، ويمكنها ممارسة سلطتها بتأثير كبير، كما تحظى بتأييد واسع، تستطيع إرسال بولس مع الكثير من الآخرين في بعثات للتجنيد وجمع الأموال في الخارج، ويمكنها تنظيم عمليات إخلال بالأمن وإحداث فوضى بين الشعب، كما تستطيع التخطيط لعمليات قتل مثل المحاولة التي قامت بها لقتل بولس في نهاية سفر «أعمال الرسل» وقتل حنانيا بعد ذلك وتستطيع ترشيح ممثلها البديل الشرعي لمنصب كبير كهنة الهيكل، كما يمكنها أن تستولي على حصون ذات أهمية عسكرية كبيرة، وتحكم سيطرتها عليها مثل حصن مسعدة، وأهم شيء أن لديها القدرة على جمع شعب اليهودية كاملاً حولها وإشعال ثورة هائلة ضد روما، ثورة تفضي إلى صراع خطير يدوم فترة سبع سنين، ويستوجب تدخلاً، لا يقتصر على بضع وحدات عسكرية، وإنما يتطلب تدخل جيش روما كاملاً، فبتقديم هذا المقدار والحجم لهذه النشاطات فإنه من الواضح أن الوصف التقليدي للأسينيين وللكنيسة الأولى غير كاف إطلاقاً، وإنه من الواضح أن الحركة التي قدمت نفسها خلال جماعة قمران، والكنسية الأولى على حد سواء، قامت أيضاً بتقديم نفسها خلال مجموعات أخرى، كانت تُعد منفصلة عموماً، مثلاً الصدوقيين والغيوريين والإسكاريين.

كشف بحث إيسنمان البساطة الكامنة فيما كان يبدو سابقاً وضعاً معقداً على نحو مروِّع، وكما يقول: «ثبت في النهاية أن مصطلحات مثل: الأبونيين، المسيحيين الفلسطينيين، الأسينيين والصدوقيين هي أسماء مختلفة للفكر ذاته، بينما نجد أن التعابير المتعددة التي استخدمتها جماعة قمران لتشير إلى نفسها مثل أبناء النور لم تكن جميعها تصنف المجموعات المختلفة، وإنما كانت تؤدي دور تعابير مجازية، تستخدم عوضاً من بعضها».

على نحو مماثل سيجري الإثبات أن الغيوريين المناضلين والإسكاريين هما اسمان مختلفان للفكر نفسه ومظهران للحركة ذاتها، إن هذه الحركة تتميز بالطابع النضالي والقومي والثوري والإصلاحي وكره الأجانب، مع نشوئها في زمان العهد القديم إلا أنها توحَّدت في عصر المكابيين في القرن الثاني قبل الميلاد، لكن الأحداث في القرن الأول للعصر المسيحي منحتها زخماً جديداً، يتسم بالضراوة خصوصاً، وفي صميم الحركة

تكمن قضية شرعية السلالة الحاكمة، شرعية لا تقتصر على البيت الحاكم، وإنما تشمل الكهنوت، وفي البداية نجد أن أهم شيء هو الشرعية الكهنوتية في حقيقةً.

كانت شرعية الكهنوت قد أصبحت قضية شديدة الأهمية في زمان العهد الجديد، فقد كان مفترضاً أن تنتقل وراثياً من هارون وضمن قبيلة اللاويين، وهكذا كان الكهنوت طوال العهد القديم حكراً على اللاويين، ويشار إلى كبير الكهنة اللاوي الذي عاصر داوود وسليمان بالصدوق، مع أنه غير واضح إذا كان لقباً شخصياً أم موروثاً، إن الصدوق هو من قام بمسح سليمان بالزيت، وبذلك أصبح مسيحياً، ومخلِّصاً، وبالعبرية هو ماشي آه ها - **mashi'ah_ha**، ولكن كبار الكهنة أنفسهم كانوا قد مُسحوا بالزيت، ونتيجة لذلك أصبحوا مخلِّصين أيضاً، ولذلك كان بنو إسرائيل في زمان العهد القديم يخضعون لسلالتين متشابهتين من المخلِّصين أو الممسوحين، إحدى هاتين السلالتين كانت تشرف على الجوانب الروحية، وهي من قبيلة اللاويين من سلالة هارون، أما الأخرى فكانت تتخذ نمطاً ملكياً، وكانت تشرف على النواحي الدنيوية، وتنسب نفسها إلى داوود من قبيلة يهوذا على نحو مؤكد، إن هذا يفسر الإشارات في مخطوطات البحر الميت إلى المخلِّص أو المخلصين من سلالة هارون، ومن سلالة إسرائيل، أو من سلالة هارون، ومن سلالة داوود، إن هذا المبدأ يشبه كثيراً مبدأ القرون الوسطى في أوروبا، حيث كان يكلف وفقاً له كل من البابا والإمبراطور، ليحكما معاً الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

إن السلالة الكهنوتية التي تشكلت من ذرية هارون، حافظت على مكانتها، حتى الغزو البابلي عام **587** قبل الميلاد، ومع انتهاء العبودية البابلية عام **538** قبل الميلاد قام جهاز الكهنوت بإعادة تشكيل نفسه بسرعة، كما ادعى ثانية نسبته، مجازياً، وليس واقعياً، إلى هارون، وعندما قام الاسكندر الكبير عام **333** قبل الميلاد باجتياح الأرض المقدسة، حكمت فلسطين خلال السنوات التالية سلالات متعاقبة من الهلنستيين أو الإغريق الشرقيين، وخلال هذه الفترة أعد الكهنوت حشداً مذهلاً من المطالبين بالسلطة، وكان الكثير منهم قد تكيف جزئياً أو كلياً مع طرائق الهلنستيين وأساليب معيشتهم، إضافة إلى القيم والاتجاهات الهلنستية، وكما هو الأمر في هذه الأحوال ولدت النزعة التحررية رجعية متحفظة ومتشددة، ومنها نشأت حركة استنكرت حالة التراخي والهرطقة والتساهل، وعدم المبالاة بالمعتقدات القديمة، وتشويه الطهارة القديمة وتدنيسها، والاستخفاف بالناموس المقدس، أخذت هذه الحركة على عاتقها تخليص فلسطين من أعوان الهلنستيين والفاسقين الذين كان يظن أن وجودهم فقط يدنس الهيكل.

ووفقاً لأول سفر من أسفار المكابيين دافعت الحركة عن نفسها أول مرة على الأرجح نحو عام 167 ميلادي، وذلك عندما قام ضابط إغريقي بأمر الكاهن الريفي متتيا المكابي بتقديم قربان عند مذبح وثني استخفافاً بالناموس اليهودي، إن متتيا الذي غار على الشريعة 1المكابيين 26:2، استشاط غضباً لرؤيته هذا الإلحاد، فقام مباشرة بقتل يهودي من أبناء جلدته لإذعانه، كما قتل الضابط الإغريقي، و من ثم كما قال إيسنمان: فعلاً لقد أصبح متتيا أول غيور، وبعد وقوع هذه الحادثة في الهيكل مباشرة رفع شعار الثورة: «كل من يغار على الشريعة ويحافظ على العهد فليخرج ورائي» - 1 المكابيين 27:2، وبناءً على هذا ذهب إلى الريف مصطحباً أبناء يهوذا وسمعان ويوناثان، واثنين آخرين، إضافة إلى مجموعة تسمى الحسيديين، وهم «ذوو البأس في إسرائيل، وكل من انتدب للشريعة» - 1 المكابيين 42:2، وبعد نحو عام أو أكثر عندما رقد متتيا على فراش الموت حضّ أبناءه وأتباعه: أن غاروا على الشريعة، وابذلوا نفوسكم من دون عهد آبائنا - 1 المكابيين 50:2.

عندما وفاة متتيا انتقلت زعامة الحركة إلى ابنه يهوذا، الذي انصرف إلى البرية، فلبث مع أصحابه في الجبال يعيشون عيشة الوحوش، ويأكلون العشب، لئلا يشتركوا في النجاسة - 2 المكابيين 27:5، إن هذا يؤكد صحة ما أصبح في نهاية الأمر أحد المبادئ الهامة من شعائر تطهير الذات، وذلك بالانزواء إلى البراري والعيش فترة في عزلة نوعاً من شعائر الدخول في الدين، يفترض إيسنمان فيما يتعلق بهذه الفكرة أنها أصل نشوء المجتمعات المنعزلة مثل جماعة قمران التي يعود تأسيسها إلى عهد المكابيين، وهذا المظهر يقابل فعلاً الاعتكاف في العصر الحديث، وأبرز نموذج لتطهير الذات في العهد الجديد هو فعلاً يوحنا المعمدان الذي كان يلقي الوعظ في البراري، وكان يأكل الخرنوب والعسل، ولكن يجب أن نتذكر أن يسوع خضع لتجربة أولية اختبارية في الصحراء.

قام أخوه يهوذا المكابي وأصحابه من أماكن اعتزالهم التي لجؤوا إليها بحملة مطولة من عمليات حرب العصابات التي تصعدت، لتصبح ثورة حقيقية حشدت جميع الناس، وبحلول عام 152 قبل الميلاد كان المكابيون قد فرضوا سيطرتهم بالقوة على الأرض المقدسة، وقاموا بتهدئة أوضاع البلد، وثبتوا أنفسهم في السلطة، وكان أول عمل قاموا به عندما سيطروا على الهيكل هو تطهيره من جميع المظاهر الوثنية، مع أن المكابيين كانوا الملوك والكهنة الفعليين للهيكل في آن واحد، إلا أن المكانة الثانية كانت أكثر أهمية لهم، فأسرعوا إلى إضفاء الصفة الشرعية على حالهم في الكهنوت أوصياء على الناموس، ولم يقوموا بإعلان أنفسهم الملوك حتى الجيل الرابع من سلالتهم بين عامي 103 و76 قبل الميلاد.

نـشر المكـابيون النـاموس مـن معقـل الكهنـوت بتعـصب شـديد، وكـانوا مـولعين بالاستشهاد بأسطورة العهد القديم عهد فنحاس الذي يرد في سفر العدد، ويحكى أن فنحاس كان كاهناً وحفيداً لهارون، حيث بدأ نشاطه بعد فرار العبريين من مصر في عهد موسى واستيطانهم في فلسطين، وبعد ذلك فترة قصيرة تضاءلت أعدادهم كثيراً بسبب مرض الطاعون، فيقوم فنحاس بمهاجمة رجل كان قد تزوج بأجنبية وثنية، حيث أمسك برمح وقتل الزوجين من دون تردد، فأعلن الرب عند ذلك أن فنحاس هو التقيُّ الذي لديه الغيرة ذاتهاالتي لدي، وقطع عهداً مع فنحاس من الآن فصاعداً أن جزاءه على غيرته على ربِّه أن له ولسلالته كهنوتاً أبدياً -1 المكابيين **54:2**.

كانت هذه هي الشخصية التي ينظر إليها كهنوت المكابيين الشخصية النموذجية، فقاموا بإدانة جميع العلاقات من أي نوع بالوثنيين والأجانب كما فعل فنحاس، كما أصروا وسعوا إلى تجسيد الغيرة على الناموس، وتناقلوا كره الأجانب وأساليب الأجانب والزوجات الأجنبيات بالوراثة، ويبدو أن هذا قد ميَّز توجه الصدوقيين الغيورين.

إنه من غير المعروف مقدار صحة ادعاء المكابيين في نسبهم سواء إلى هارون أم داوود، وعلى الأرجح لم يستطيعوا إثبات ذلك، إلا أن غيرتهم على الناموس ساعدتهم على تحقيق شرعيَّتهم، ويمكن بني إسرائيل أن يدعوا أن الكهنوت والحكم الملكي طوال حكم سلالتهم يلتزمان على نحو أكثر أو أقل بالمعايير الصارمة للسلطة في العهد القديم.

إن كل هذا قد انتهى مع وصول هيرودس إلى الحكم عام **37** قبل الميلاد، والذي عُيِّنَ دُمية للرومان الذين اجتاحوا فلسطين قبل ربع قرن، في البداية وقبل أن يعزز مكانته كانت تشغل باله الشكوك في شرعيَّته، فقام مثلاً بالزواج بأميرة من المكابيين، لكي يحتال لكسب الشرعية، ولكن حالما ضمن مكانته قام بقتل زوجته وأخيها، وبذلك قضى على نحو مؤثر على سلالة المكابيين، كما قام بإبعاد كبار الكهنوت الذي كان قد ملأه بأعوانه والمقربين إليه والقضاء عليهم، هؤلاء هم الصدوقيون الذين عرفهم التاريخ من المصادر الإنجيلية والمؤرخ اليهودي يوسيفوس، يفترض أزينمان أن مصطلح الصدوق تهجئة مختلفة أصلاً أو محرفة من **Zadok**، أو **Zaddikim**، أي الصدّيقين باللغة العبرية، والذي كان، بلا أدنى شك، حال كهنوت المكابيين، لكن الصدوقيين الذين عيَّنهم هيرودس كانوا مغايرين جداً، فقد كانوا منحازين كثيراً إلى نظام الحكم الذي اغتصب العرش، وكانوا ينعمون بحياة رخاء ورغد مع الهيبة والامتيازات الخاصة، وفرضوا احتكاراً مجزياً لهم على الهيكل وكل ما يتعلق به، ولم يكن لديهم أدنى فكرة عن الغيرة على الناموس، فوجد بنو

إسرائيل أنفسهم عبيداً لحكم ملكي فاسد وغير شرعي، مع كهنوت فاسد وغير شرعي أيضاً، وكان كلاهما أدوات لا أكثر يتحكم بها الرومان الوثنيون.

كان هذا الوضع في أيام متتيا المكابي قد استدعى رد فعل لا مفر منه، فإذا كانت دمى هيرودس من الكهنة قد أصبحوا الصدوقيين أصحاب التعاليم الشائعة، فإن خصومهم الطاهرين الذين ظلوا غيورين على الناموس قد أصبحوا معروفين في التاريخ بمجموعة من الأسماء المختلفة، وفي نصوص محددة، مثلاً في أدب قمران ورد اسم هؤلاء الخصوم الصدّيقين أو أبناء الصدّيق، أما في العهد الجديد فجرت تسميتهم الناصريين، وبعد ذلك المسيحيين الأوائل، وعند يوسيفوس جرت تسميتهم الغيوريين، أو الإسكاريين، وقد عدهم الرومان على نحو مؤكد إرهابيين وخارجين عن القانون، و قطّاع طرق، أما في علم المصطلحات الحديث فيمكن تسميتهم المتشددين الثوريين الإصلاحيين .

أياً كان المصطلح الذي يستخدمه المرء فإن الوضع الديني والسياسي في اليهودية في مطلع القرن الأول الميلادي قد أثار معارضة واسعة الانتشار ضد نظام حكم هيرودس وكهنوته، وأدوات الإمبراطورية الرومانية التي قامت بمساندة كلٍ منهما ودعمه، وهكذا كان للصدوقيين في مطلع القرن الأول الميلادي غريمان وفئتان مناوئتان، فمن ناحية كان هناك صدوقيو العهد الجديد ويوسيفوس، بينما كان في الناحية الأخرى صدوقيو هيرودس، إذاً كانت هناك حركة الصدوقيين الحقيقة أو الطاهرة التي رفضت جميع أساليب مساعدة العدو، وبقيت مخلصة بشدة للمبادئ الثلاثة التقليدية المسيطرة، وهي الكهنوت أو المسيح الكاهن من نسل هارون، والمسيح الملك من نسل داوود، وعلاوة على ذلك، ظلت هذه الحركة غيورة على الناموس.

لابد من أنه قد توضح للقارئ الآن أن الغيرة على الناموس ليست عبارة يكثر استخدامها، بل على العكس تماماً فهذه العبارة تستخدم تحديداً بالطريقة نفسها التي يمكن أن تستخدم فيها عبارة إخوة الصنعة في الماسونية، وعندما ترد هذه العبارة أو بعض أنماطها الأخرى فإنها تقدم للباحث معلومة هامة، تبين له مجموعة محددة من الناس أو حركة معينة، فبعد تقديم هذه الحقائق لا فائدة من الجدل في وجود فارق بين جماعة قمران التي تمجّد الغيرة على الناموس، والغيوريين على التعاليم الشائعة.

إنه لمن المعترف به أن الغيوريين على التعاليم الشائعة قد تأسسوا على نحو عام في مطلع الحقبة المسيحية على يد شخصية، تعرف باسم يهوذا الجليلي، أو بدقة أكبر ربما يهوذا الجمالاوي، بدأ يهوذا ثورته مباشرة بعد موت هيرودس الكبير في عام 4 قبل الميلاد،

ويذكر يوسيفوس السمة المميزة لهذه الثورة بوضوح: حالما انتهى الحداد على هيرودس تصاعدت المطالب الشعبية مباشرة لعزل كبير الكهنة الذي عينه هيرودس قسراً، وتنصيب بديل يكون أكثر تقوى وطهارة، قام يهوذا وأتباعه برفقة كاهن يعرف بالصدوق، وكما يبدو هو ترجمة لـ **Zadok**، أو كما يفترض إيسنمان **Zaddik**، وهي المرادف العبري للصدِّيق، بشن غارة مباشرة على مستودع الأسلحة الملكي في بلدة الصفورية التي في منطقة الجليل، فغنموا أسلحة وعتاداً، وأصيب قصر هيرودس في أريحا قرب قمران بهجوم في الوقت ذاته، إما قبله وإما بعده قليلاً، على يد أشخاص قاموا بإحراق القصر كله، وتبع هذه الحادثة نحو خمسة وسبعين عاماً متواصلة من صراع حرب العصابات والأعمال الإرهابية، وتأججت في عمليات عسكرية واسعة بين عامي **73.66** ميلادي.

يقول يوسيفوس في مؤلفه الحروب اليهودية ضمن آثار الكارثة المتفجرة للثورة: إن يهوذا الجليلي قد أسس طائفة غريبة خاصة به، ثاني أهم أعمال يوسيفوس هو آثار اليهود الذي ألفه بعد ربع قرن أو أكثر عندما هدأت الأوضاع قليلاً، وذلك لأن يوسيفوس أصبح في هذا العمل أكثر صراحة، حيث يقول: إن يهوذا والصدوق أصبحا غيوريين، وهو يلمح إلى شيء يشبه الهداية، هداية إلى توجه أو حالة ذهنية مقبولة، ويقول: شكّلت حركتهما الطائفة الرابعة من الفلسفة اليهودية، وكان شبّان بني إسرائيل متحمسين لها، كانت الحركة منذ البداية تتسم بالطموحات الإصلاحية، فكان الصدوق يجسد شخصية المخلص الكهنوتي من نسل هارون، بينما كان ليهوذا رغبة طموحة للشرف الملكي، أي مكانة المخلص من نسل داوود.

و يتضح أن يهوذا نفسه قتل في بداية المعركة تماماً، وانتقلت عباءة الزعامة إلى أبنائه الثلاثة، كان اثنان منهم، هما يعقوب وسمعان، زعيمين غيوريين معروفين، قبض عليهما الرومان وصلبوهما بين عامي**46** و**48** ميلادي، أما الابن الثالث، أو ربما الحفيد، مناحم فكان أحد المحرضين الرئيسين على ثورة عام **66** ميلادي، في أيام الثورة الأولى عندما كانت تبشر بالنجاح وصف مناحم بأنه يشكل أداة الانتصار لفتح أورشليم، أي إن له مكانة الملك، وهذا مظهر آخر من مظاهر طموحات إصلاح السلالة الحاكمة، واستولى مناحم عام **66** ميلادي على حصن مسعدة، آخر قائد للحصن يعرفه التاريخ كان أليعازر، وهو سليل آخر ليهوذا الجليلي، إلا أنه لم يجرِ تحديد صلة قرابة محددة بينهما.

إن الانتحار الجماعي للمدافعين الغيوريين في مسعدة أصبح حادثة تاريخية مشهورة، فهي موضوع روايتين على الأقل وفيلم سينمائي ومسلسل تلفزيوني قصير، كما

جرت الإشارة إليها في هذا الكتاب، وسنلقي نظرة عليها عن كثب قريباً، إن مسعدة لم تكن على أي حال المثال الوحيد لمثل هذا الانتحار الجماعي، ففي عام **67** ميلادي تقدمت القوات الرومانية إلى جمالا في الجليل، وهي الموطن الأصلي ليهوذا وأبنائه، وذلك رداً على التمرد الذي اكتسح الأرض المقدسة، فقُتل أربعة آلاف من اليهود دفاعاً عن البلدة، وعندما شعروا بأن لا طائل من مساعيهم أقدم خمسة آلاف آخرون على الانتحار، إن هذا يظهر أكثر من معارضة سياسية فقط، ويؤكد اتجاه التعصب الديني، وقد عبر يوسيفوس عن هذا الاتجاه في حديثه عن الغيوريين قائلاً: إنهم لا يقيمون أي قدر لإقبالهم على أي نمط من أنماط الموت، ولا يبالون حقاً بالموت أقرباء وأصدقاء لهم، ولا يجبرهم أي خوف على مناداة أي رجل بالرب، ولدى الغيوريين إن الاعتراف بألوهية الإمبراطور الروماني، كما يطالب الرومان، كان أشنع أنماط الكفر بالرب، وكان الموت يفضل حقاً على ارتكاب هذه الخطيئة بحق الناموس.

إن الغيرة على الناموس تجعل الغيوريين، الذين يصَوَّرُون عادة بأنهم مقاتلو الحرية العوام تقريباً، في صفٍّ الأفراد الشديدي التدين من جماعة قمران، وكما أشرنا سابقاً جرى العثور على نصوص قمرانية في أطلال مسعدة، وإن الغيرة على الناموس تجعل الغيوريين في صفٍّ ما يسمى الكنيسة الأولى، والتي ينسب إلى رعيتها مراراً وتكراراً الغيرة ذاتها، إن شخصية سمعان الغيور التي يرد ذكرها في الإنجيل تؤكد أن هناك غيوراً واحداً على الأقل من جماعة يسوع المقربين، ويمكن أن يكون يهوذا الاسخريوطي الشخص الآخر، وهو الذي يمكن أن يكون اسمه قد استمد من الإسكاريين، ومن ناحية أخرى فإن اكتشاف إيسنمان يفوق الجميع، وهو المصطلح الإغريقي المستخدم للدلالة على رعايا الكنيسة الأولى، حيث كانوا يلقبون بوضوح الغيوريين على الناموس.

و هكذا ظهر في فلسطين في القرن الأول نوع من الكهنوت المتعصب، ينتمي إلى السلالة الحاكمة، يدّعي نسباً حقيقياً أو رمزياً إلى هارون، مع صلته بالمجيء الوشيك المتوقع للمسيح الملك من نسل داوود، وحافظ هذا الكهنوت على حالة إعلان الحرب المستمرة من طرفه على سلالة هيرودس الحاكمة وكهنتها الدمى والرومان المحتلين، بناءً على نشاطاتهم في فترة معينة، وعلى المنظور الذي كان ينظر إليهم الآخرون خلاله لقِّب الكهنوت وأنصاره بأسماء متنوعة مثل الغيوريين والأسينيون والصدوقيين، والناصريين، مع أسماء أخرى، منها تلك التي أطلقها عليهم أعداؤهم، مثل قطّاع الطرق والخارجين على القانون، فهم لم يكونوا نُسَّاكاً ولا متصوفين سلبيين قط، بل على العكس، كانت بصيرتهم كما يقول إيسنمان: «ذات طابع رؤيوي عنيف»، وتفرز النتيجة اللاهوتية المعتادة

لأعمال العنف التي كانت عادة تلصق بالغيوريين، ويمكن إدراك هذا العنف السياسي واللاهوتي من حياة يوحنا المعمدان الذي أعدم، بحسب ما ورد في إنجيل متّى ومرقس، لأنه أدان زواج هيرودس أنتيباس بابنة أخيه، لأنه مخالف للشريعة أن تتزوجها، وإن إيسنمان افترض فعلاً أن يوحنا المعمدان كان هو الصدوق الغامض الذي رافق يهوذا الجليلي زعيم الغيوريين وقت ولادة يسوع.

لنلخص الأمور باختصار، ظهر بين الخليط المحير للألقاب والأسماء أنماط حركة واسعة، اندمج فيها معاً الأسينيون والصدوقيون والناصريون والغيوريون مع جانب الجماعات المفترضة الأخرى، وتبيَّن أن هذه الأسماء دلالات فقط، أو صور مختلفة على أكثر تقدير للدافع الديني والسياسي ذاته الذي انتشر في جميع أرجاء الأرض المقدسة وخارجها منذ القرن الثاني قبل الميلاد، إن هذه الجماعات المنفصلة ظاهرياً من الممكن أنها كانت على الأكثر تشبه تشكيلة الأفراد والمجموعات والمصالح التي اتحدت، لتشكل حركة واحدة تسمى المقاومة الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية، إن التمييز بينهم لدى روبرت إيسنمان شخصياً لا يتعدى مسألة منزلة فقط، فجميعها أنماط مختلفة فقط للفكر ذاته، ولكن حتى لو وجد بينها تفاوت بسيط، فإنها لا تزال متحدة بتشاركها في مشروع طموح واحد، يتمثل بتخليص أرضهم من الاحتلال الروماني، وإعادة الحكم الملكي اليهودي الشرعي مع كهنوتهم المشروع.

إنه لمن المؤكد أن المشروع لم ينته بدمار أورشليم وقمران بين عامي 68 و70 ميلادي، ولا بسقوط مسعدة عام 74 ميلادي، فبعد آثار كارثة الانهيار المفاجئ فرَّت أعداد كبيرة من الغيوريين والإسكاريين خارج البلاد، إلى مناطق يعيش فيها الكثير من اليهود، كبلاد فارس مثلاً، ومصر وخصوصاً الاسكندرية، ففي الاسكندرية قاموا بمحاولة حشد الشعب اليهودي المحلي لإشعال ثورة أخرى ضد الرومان، إلا أنهم لم يلقوا نجاحاً كبيراً، حيث جرت محاصرة قرابة ستمئة منهم، وجرى تسليمهم للسلطات، خضع الرجال والنساء والأطفال للتعذيب لإجبارهم على الاعتراف بألوهية الإمبراطور، وبحسب ما قال يوسيفوس: لم يستسلم أحد منهم، ولا حتى أوشك أحدهم على نطقها، ويضيف قائلاً:

«لم يذهل المتفرجين شيئاً مثلما أذهلهم فعل الأطفال الصغار، حيث لم يستطيعوا إجبارهم على مناداة القيصر بالرب، حتى إنه طغت صلابة روح الشجاعة على وهن هذه الأجساد الضئيلة».

وهنا أيضاً تتجسد نزعة التفاني المتعصب، تفانٍ لا يمكن أن يكون ذا طابع سياسي، ولا يمكن أن يكون إلا على أساس ديني.

و بعد أكثر من ستين عاماً على الحرب التي حولت أورشليم والهيكل إلى خراب، اشتعلت في الأرض المقدسة ثانية ثورة جديدة بقيادة الشخصية المسيحية الشعبية سمعان بار كوكبا ابن النجم، وفقاً لإيسنمان هذا المصطلح يفترض أن سمعان ينحدر حقيقة من سلالة الزعيم الغيور في القرن الماضي، وعلى أي حال فإن صورة النجم خصوصاً قد برزت بينهم على نحو جليٍّ خلال الفترة التي وصلت إلى ذروتها مع الثورة الأولى، وكما لاحظنا فإن الصورة نفسها ترد مراراً في مخطوطات البحر الميت، وهي مأخوذة على نحو كبير من نبوءة في سفر العدد-17:24: «يبرز كوكب من يعقوب، ويقوم قضيب من إسرائيل»، ويستشهد مخطوط سلطة الحرب بهذه النبوءة، ويؤكد أن الكوكب أو المسيح إضافة إلى الفقراء أو البررة سيقومون بصدِّ الجيوش الغازية، وجد إيسنمان نبوءة النجم هذه في موضعين حساسين آخرين في أدب قمران، أحدهما في وثيقة دمشق وهي مصورة بوضوح: «إن النجم هو مفسر الناموس الذي سيأتي إلى دمشق، كما هو مكتوب، أن القضيب هو الأمير».

يصف يوسيفوس إضافة إلى مؤرخين رومان مثل سيوتونيوس وتاسيتوس كيفية تداول نبوءة ما في الأرض المقدسة في مطلع القرن الأول الميلادي، وأثر النبوءة التي تقول: «من الآن فصاعداً سيخرج من اليهودية رجال كتب القدر لهم حكم العالم»، إن انتشار هذه النبوءة، كما يقول يوسيفوس شكَّل العنصر الرئيس في اندلاع ثورة عام 66 ميلادي، ولا داعي لذكر أن نبوءة النجم دخلت إلى التعاليم المسيحية بسبب نجم بيت لحم، الذي رحَّب بمولد يسوع، ولذلك نَعِمَ سمعان بار كوكبا بنسب رمزي لامع.

وعلى عكس ثورة عام 66 ميلادي فإن عصيان سمعان المسلح الذي اندلع عام 132 ميلادي لم يكن حريقاً عشوائياً هائلاً نجم من هيجان عفوي، إذا صح التعبير، بل على العكس، فإن تخطيطاً مطولاً ودقيقاً كان من ضمن المشروع، فمثلاً قام الحدادون والحرفيون اليهود الذين أجبروا على مساعدة الرومان بتصنيع أسلحة دون المستوى المطلوب بعض الشيء، وعندما كان يرفضها الرومان يجري تجميعها وتخزينها ليستخدمها المتمردون، كما استقى سمعان الدروس من حرب القرن الفائت، إذ لا طائل من الاستيلاء على الحصون والصمود فيها مثل حصن مسعدة، إن التغلب على الرومان يتطلب حملة تتسم بسهولة الحركة وتعتمد تكتيك الكرِّ والفرّ، وهذا أدى إلى إنشاء شبكة واسعة تحت الأرض، تتكون من غرف وممرات وأنفاق، وكان سمعان قد استخدم هذه الشبكة قبل الثورة للتدريب، وما إن اندلع القتال بعد ذلك، حتى استخدمت قواعد

ومناطق تنقل، وهذا سهل للمتمردين شنّ هجمات مفاجئة كالبرق، ثم يتوارون عن الأنظار، وهذا هو نوع الكمائن ذاته الذي ألفهُ الجنود الأمريكيون خلال حرب فيتنام نتيجة ما تجشموه من خسائر، لكن تكتيك سمعان لم يقتصر على عمليات حرب العصابات، فكان جيشه يضم الكثير من المتطوعين من كل مكان، والكثير من المرتزقة والجنود المحترفين الذين لهم باع طويل في المجال العسكري، حيث كشفت سجلات الناجين الذي وجدها علماء الآثار أن عدداً من ضباط سمعان ومساعديه كانوا لا يتحدثون إلا اللغة الإغريقية، فكان يستطيع أحياناً بهذه القوات المتمرسة التي بإمرته أن يواجه الرومان في معركة منظمة، استطاع سمعان في العام الأول من الثورة أن يقضي على فيلق روماني كامل على الأقل، وعلى الأرجح على فيلق آخر، فقد حررت فلسطين فعلياً من القوات الرومانية، وجرت استعادة السيطرة على أورشليم وتشكيل سلطة يهودية حاكمة فيها، كادت الحملة أن تحقق نجاحاً كاسحاً، وكان السبب الرئيس وراء إخفاقها أن حلفاء سمعان الذي عاهدوه على النصرة قد خذلوه، فبحسب مخططه الرئيس الشامل كان على الجيش القادم من بلاد فارس أن يساند قواته، ففي فارس كانت لا تزال تقيم أعداد كبيرة من اليهود، وتنعم برعاية من السلالة الحاكمة المتعاطفة معهم، ولكن عندما كان سمعان في أشد الحاجة إلى هذه التعزيزات خضعت فارس نفسها لغزو قبائل مقاتلة قادمة من السهوب الشمالية، قامت بالاستيلاء على موارد بلاد فارس، وهذا أدى إلى فقدان سمعان للمساندة التي وُعِدَ بها.

كانت القوات الرومانية في سورية تعيد تنظيم صفوفها بحذر خارج فلسطين بقيادة الإمبراطور أدريان ذاته ومساعده يوليوس سيفيروس الحاكم الأسبق لبريطانيا، وبدأ غزو كلي آخر، كان قوامه يتجاوز اثني عشر فيلقاً، أي ما يعادل ثمانية آلاف تقريباً من القوات، تقدمت القوات على جبهتين، واجتاحت الأرض المقدسة كاملة، وفي نهاية الأمر جرت محاصرة سمعان، ليخوض معركته الأخيرة عام 135 ميلادي في بتير معقله الرئيسي الذي على بعد أميال عدة غربي أورشليم.

كانت قوات سمعان تسيطر على قمران طوال فترة الثورة، وإن العثور على نقود معدنية يؤكد أن وجودهم كان في موقع له أهمية استراتيجية بالغة، ومع مزاعم الأب ديفو فإنه من الممكن أن بعض مخطوطات البحر الميت على الأقل وضعت في قمران في آخر عهد سمعان.

الفصل الثامن

انتحار الغيوريين

عندما ننظر إلى الحركة المسيحية الواسعة في فلسطين في القرن الأول نظرة معينة، وننظر، على نحو واضح، إلى طوائفها المتنوعة أجزاء متممة لها، فسيبدو لنا عدد من العوامل والحالات الاستثنائية التي يتعذر تفسيرها حتى يومنا هذا، فمثلاً تشكل حدة يوحنا المعمدان المتميزة بإيمانها بالآخرة ونهاية العالم وفقاً لذلك معنى ما، تماماً كدوره في الأحداث المذكورة في الأناجيل، كما يمكن أن يكون الوضع كذلك لدى واحد من التفاسير الكثيرة من النصوص والأحداث غير الملائمة من الناحية اللاهوتية المتعلقة بمهنة عيسى المسيح، فكما ذكرنا، كان هناك على الأقل غيوري واحد بين أتباعه، وربما أكثر، فهناك العنف في فعله بقلب طاولات تبديل الأموال في الهيكل، وإعدامه من السلطات الرومانية لا السلطات اليهودية، بأسلوب كان لا يطبق إلا على المعارضين السياسيين، إضافة إلى الكثير من الأمثلة الأخرى، التي قام مؤلفو هذا الكتاب بدراستها مطولاً في مكان آخر، وأخيراً لدينا كلمات عيسى المسيح نفسها:

لا تفترضوا أنني جئت لأُحل السلام في الأرض، فليس السلام ما جئت لأجلبه، بل السيف، إذ إنني جئت لأبعث الرجل ضد أبيه، والابنة ضد أمها - متى **10: 34**.

وما يخبرنا بأكثر من هذا، تعبير قمراني، لا لبس فيه، يقول:

لا تتصوروا أنني جئت لألغي الناموس أو الأنبياء، لم آت لألغيها، بل لأكملها، أو لأحققها، يجب أن لا تمحى أي نقطة، أو حرف واحد من الناموس حتى يجري الوصول إلى غاياته، ولذلك، فإن الشخص الذي يخرق حتى إحدى أصغر هذه الوصايا، بل يعلم الآخرين أن يحذوا حذوه سيكون الأدنى مكانة في ملكوت السماوات- متى **5: 19.17**.

يبدو في هذا النص كأن عيسى المسيح قد تنبأ بحلول بولس، وعلى نحو مؤكد ومحدد أكثر لم يكن ليحذر من وقوع ذلك، ومن المعايير التي وضعها، فإن مركز بولس في ملكوت السماوات لا يمكن أن يكون أعلى كثيراً من مركزه الواقعي موظفاً منبوذاً مقيماً في تلك الأرض.

كما يظهر لنا شذوذ آخر من نظرة جديدة، وهو حصن مسعدة، وشخصية مدافعيه المتشبثين به وعقليتهم، فعندما ظهرت الأرض المقدسة في تمرد عام **66** ميلادي، كانت مسعدة أحد أول المعاقل التي احتلها مناحم، وهو ابن يهوذا الجليلي مؤسس طائفة الغيوريين أو حفيده، والذي كان يقيم على قمة جبل ذي سفوح شديدة الانحدار، ويطل على الساحل الجنوبي الغربي للبحر الميت الذي ينخفض نحو **33** ميلاً عن قمران، وقد

صار هذا المكان أهم معقل للمتمردين، وكان الرمز والتجسيد الأسمى المقاومة، وبعد فترة طويلة من سقوط المقاومة في أماكن أخرى ظلت مسعدة صامدة، فمثلاً احتلت القدس، ودمرت في عامين من اندلاع التمرد المسلح في عام 68 ميلادي، ولكن حصن مسعدة ظل منيعاً حتى عام 74 ميلادي، ومن داخل جدران هذا الحصن قام ما يقرب من 960 مدافعاً بصد الهجمات المتكررة، والحصار الشامل الذي قام به الجيش الروماني، الذي يقدر عدد قواته بخمسة عشر ألف جندي.

ومع صلابة هذه المقاومة، إلا أن موقف مسعدة كان قد صار ميئوساً منه مع حلول منتصف شهر نيسان عام 74 ميلادي، لم يعد للحامية قدرة على الصمود في وجه هجوم شامل بعد أن انقطعت عنها الإمدادات، وحاصرتها القوات الرومانية على نحو كامل، فبعد قصف الرومانيين للحصن بآليات الحصار الثقيلة، أقاموا سلماً ضخماً، يمتد على سفح الجبل، وفي ليلة الخامس عشر من نيسان استعدوا لانقضاضهم الأخير، وقد اتخذ ساكنو الحصن بقيادة أليعازر بن جاير قرارهم، فقد قتل الرجال زوجاتهم وأولادهم، ومن ثم جرى اختيار عشرة رجال لقتل رفاقهم، وبعد قيامهم بذلك، تقدموا لإجراء قرعة ليختاروا من بينهم واحداً ليعدم التسعة الآخرين، وبعد قيام هذا الواحد بمهمته تلك، قام بإضرام النار فيما تبقى من أبنية الحصن وقتل نفسه، إجمالاً هلك 960 رجلاً وامرأة وطفلاً، وعندما اقتحم الرومان بوابة الحصن في صباح اليوم التالي، لم يجدوا إلا جثثاً بين الأنقاض.

لم ينج من هذه المذبحة إلا امرأتان وخمسة أطفال، ربما كانوا قد اختبؤوا في أقنية المياه تحت الحصن، بينما كان بقية سكان الحصن يقتلون أنفسهم، يروي يوسيفوس شهادة إحدى المرأتين التي انتزعت منها في التحقيقات التي أجراها معها الضباط الرومانيون، وكما يقول يوسيفوس فقد زودتهم هذه المرأة بوصف مفصل عما حدث في الليلة الأخيرة من الحصار، فإذا ما صدقنا هذه الرواية، وما من سبب يمنعنا من ذلك، فإن قائد الحصن أليعازر كان قد حضّ أتباعه على القيام بالانتحار الجماعي، وذلك في خطابه القيادي والمقْنِع الذي قال فيه:

منذ أن بدأ الإنسان البدائي بالتفكير، فإن كلمات أجدادنا وكلمات الآلهة، مدعومة بأفعال أسلافنا وأسلافهم، كانت باستمرار تترك فينا أثراً بالغاً، يشير إلى أن الحياة هي الفاجعة للإنسان، وليس الموت، فالموت يحرر أرواحنا، ويسمح لها بأن ترحل إلى وطنها الطاهر، حيث لا تعرف معنى الفاجعة، وبينما تكون حبيسة جسد فانٍ تشاركه مآسيه، تفنى في الحقيقة الضيقة.

ولأن ربط الألوهية بالبشر الفاني غير ملائم أبداً، فالمؤكد أن الروح يمكنها أن تكون ذات تأثير كبير عندما تكون محبوسة في الجسد، فهي تجعل الجسد أداة الإحساس الخاصة بها، فتحركه على نحو غير مرئي، وتدفعه في أفعاله إلى حدود تضاهي حدود الطبيعة الفانية، ولكن عندما تتحرر من الحمل الذي يثقلها، ويشدها إلى الأرض لتتجول عليها بلا غاية، تعود الروح إلى مكانها الخاص، والحقيقة أنها تتصف بشيء من الطاقة المباركة والقوة المحررة كلياً من الأغلال، وتبقى غير مرئية للعين البشرية كما هو الله نفسه، ولا حتى عندما تكون في الجسد تمكن رؤيتها، فهي تدخل من دون الشعور بها، وترحل من دون أن ترى، إذ تملك لنفسها طبيعة خالدة، ولكنها تسبب تغيراً في الجسد، فأياً ما تلمسه الروح يعش ويزهر، وما تغادره الروح يذبلْ ويموت، وهذا يعود إلى الغزارة في طبيعة الخلود فيها.

وبحسب كلام يوسيفوس فقد ختم أليعازر كلامه قائلاً: «فلنمت من دون أن يستعبدنا عدونا، ولنغادر هذا العالم رجالاً أحراراً مع زوجاتنا وأولادنا، هذا ما يمليه علينا الناموس».

أحياناً لا يمكن الثقة بيوسيفوس، ولكن في تلك الحالات يكون ذلك جلياً، ففي هذا المثال، ليس هناك أي سبب للشك في كلماته، كما تميل الحفريات التي جرت في مسعدة في ستينيات القرن العشرين إلى دعم هذه النسخة من رواية الأحداث، من الممكن طبعاً أن يكون قد نمّق خطابات أليعازر بطريقة ما، جاعلاً إياها أكثر بلاغة وأكثر إطناباً مما كانت عليه فعلياً، مانحاً نفسه بعض الحرية الشعرية، إلا أن المضمون العام للرواية يترك أثراً جلياً، وقد كان مقبولاً دائماً عند المؤرخين، وفوق ذلك كان يوسيفوس يمتلك فهماً فريداً ومباشراً للعقلية التي أملت هذا الانتحار الجماعي في مسعدة، في بداية التمرد كان هو نفسه قائداً للتمرد في الجليل، وفي سنة 67 ميلادي كانت قواته قد حاصرها الرومان بقيادة الإمبراطور فيسبازيان في موقع جوتاباتا، المسمى اليوم بام يوديفات قرب سيبفوريس، وعندما سقطت المدينة، أقدم معظم المدافعين عن المدينة على الانتحار، كي لا يخضعوا للأسر، والكثير من الآخرين، ومنهم يوسيفوس نفسه، فروا واختبؤوا في الكهوف، وبحسب روايته هو، يقول إنه وجد نفسه في كهف مع أربعين آخرين من الفارين، وما حصل هنا كان كما حصل في مسعدة، فقد اقترع الكثيرون ليجري اختيار من سيقتل رفاقه، سواء كان مصادفة، كما يقول يوسيفوس، أم بوساطة العناية الإلهية أو ربما بخدعة كانت قد ساعدت أو حرضت على شيء ما، فقد وجد نفسه وشخصاً آخر الوحيدين الناجيين، وكان قد حث رفيقه على الاستسلام، ثم ما لبث أن نقض ولاءه، وانضم إلى الرومان المنتصرين، وطبعاً لم يخرج من هذه المغامرة بأي موقف جدير

بالإكبار، ولكن حتى إذا لم يستطع أن يلتزم منهج الغيوريين، فهو لم يكن غريباً عن مواقفهم، ومن ذلك استعدادهم لتقديم أنفسهم قرابين باسم الناموس.

في الواقع هناك منطق معقد تقريباً يحكم هذا القربان الذاتي الذي لم يكن جلياً بسهولة لمن قرأ كلمات يوسيفوس، سواء في ذلك الوقت أم لاحقاً، إن الانتحار الجماعي الذي حصل في مسعدة أو جامالا أو أي موقع آخر يشرحه إيسنمان في اعتماده أساساً لمفهوم القيامة الفريد والخاص بالغيوريين، إن هذا المعنى مأخوذ أساساً من نبيين من أنبياء العهد القديم، وهما دانيال وإيزاكيل اللذين كانت نصوصهما قد وجدت بين مخطوطات البحر الميت في قمران، كان دانيال- دانيال2:2، أول من سمى هذا المعنى في نمطه المتطور، فقد قال: «من بين أولئك الذين يستلقون على تراب الأرض نائمين سيستيقظ الكثير منهم، بعضهم إلى حياة خالدة، وبعضهم إلى خزي مخجل وأبدي»، ويتكلم أيضاً عن ملكوت السماوات الوشيكة، وعن نهاية الزمان، وعن الأمير الممسوح بالزيت، وعن ابن الإنسان الذي جرى تداول السلطة عليه- دانيال **7**: **14.13**.

وأما عند إيزاكيل فإن النص المتصل بهذا نجده في الرؤيا الشهيرة عن وادٍ مليء بعظام جافة، والتي، كما يعلن عنها الرب، ستعيش ثانية:

«إنني أنوي أنْ أبعثكم من قبوركم، وأن أعيدكم إلى أرض إسرائيل، وستعرفون أنني أنا يهوه، عندما أفتح قبوركم وأبعثكم من قبوركم، وسوف أضع روحي فيكم، وستعيشون»، إيزاكيل **37**: **14.12**.

كان هذا النص مهماً جداً، إذ إن نسخة منه كانت قد وجدت مدفونة تحت أرض الكنيس في مسعدة.

إن معنى القيامة هذا المأخوذ من نصوص دانيال وإيزاكيل كان قد حافظ عليه واعتنقه الغيورون على الناموس الأصليون، أي المكابيون **Maccabees**، ولهذا وفي الكتاب الثاني للمكابيين، يجري استخدامه للتشجيع على الاستشهاد في سبيل الناموس، في الكتاب المكابي الثاني- **14:42** يقوم شخص كبير السن بقتل نفسه بدلاً من أن يؤسر ويعاني الإساءات، وفي الكتاب المكابي الثاني- **6:18** يقوم كاهن ومعلم لكتاب الناموس بقتل نفسه، ليكون مثالاً للأسلوب الأمثل للموت، في سبيل القوانين المقدسة والمبجلة. يقول إيسنمان في هذا الشأن إن هذه الحادثة تشكل نموذجاً بدائياً لتأسيس عقلية الغيوريين بعد ذلك، ويصل هذا المعنى إلى تعبيره الكامل في الكتاب المكابي الثاني في جزئه السابع، حيث خضع سبعة إخوة للموت بعد التعذيب بدلاً من خرق الناموس:

«قال أحد الإخوة: قد تخرجونا من هذه الحياة الدنيا، ولكن ملك العالمين سيرفعنا إلى الأعلى، إذ إننا نموت في سبيل قوانينه، لكي نعيش ثانية إلى الأبد».

وقال آخر: «لقد منحني الإله هذه الأعضاء، وفي سبيل قوانينه سوف أترفع عنها، عسى أن تصلني مرة جديدة منه هو».

وقال آخر لجلاديه: إن ما اخترناه هو الأفضل، أن نواجه الموت على أيدي البشر، ولكن معتمدين وعد الرب بأنه سيرفعنا إليه، بينما أنتم لن تقوم لكم قيامة، ولن تكون لكم حياة جديدة .

ومن هنا كما يذكر كتاب ما قبل المسيحية عند المكابيين، ظهر مبدأ الانبعاث الجسدي، الذي سيتشكل على نحو ملحوظ لاحقاً في الديانة المسيحية، ولكن كما يوضح قول الأخ الثالث من الخطابات المذكورة أعلاه، فهذا الانبعاث متاح للصالحين فقط، أي لأولئك الغيوريين على الناموس، ولكن هناك فكرة أخرى ذات صلة بالنص المخصص عن الكلام عن موت الإخوة السبعة، فقبل أن يجري إعدام آخر واحد منهم، جيء بأمه لتراه، ولقد جرى دفعها، لكي تحثه على الخضوع وبذلك ينقذ نفسه، ولكن بدل أن تقوم بذلك، تقول له: «إنه في يوم الرحمة سيعود إليها بصحبة إخوته- المكابيين الثاني 7:29، في نهاية الزمن سيعود أولئك الذين ماتوا معاً، ليبعثوا مع بعضهم، ولهذا قام أليعازر في عظته لحامية مسعدة بحضهم لكي يموتوا بصحبة زوجاتهم وأبنائهم، فذلك ما يقضي به الناموس»، ليس قانون كنيسة **Sadducee** أو قانون اليهودية اللاحقة، بل هو قانون أولئك الذين يسمون المتعصبين، لو كان النساء والأطفال قد تركوا أحياء، لما كان الرومان المنتصرون قد أبادوهم، ولكنهم كانوا سيفرقونهم عن رجالهم وعن بعضهم، كما كان الكثير منهن سيستعبدن أو يغتصبن أو يرسلن إلى مواخير الجيش الروماني، وبذلك سيطردن وسيحرمن من طهرهن الشعائري بحسب الناموس، كان الناس في مسعدة يخشون من التفرقة والتدنيس أكثر من خشيتهم الموت، حيث إن الموت للصالحين سيكون مؤقتاً وحسب، ومن هنا كان لدى المدافعين المتشددين في مسعدة مبدأ للقيامة الجسدية مطابق نظرياً للمبدأ نفسه الذي وجد عند المسيحية لاحقاً .

وبحسب اعتقاد أنصار الإجماع من الصعب أن تكون الحامية التي دافعت عن مسعدة منسجمة مع الصورة التقليدية للأسينيين الوديعين المحبين للسلام، الذين شكلوا المجتمع في قمران، والحقيقة كما ذكرنا، فإن أنصار الإجماع يستمرون في إصرارهم على أنه لا يمكن أن يكون قد قام أي اتصال بين مجتمع قمران وحامية مسعدة، مع النصوص التي اكتشفت في مسعدة والتي كانت مطابقة لبعض النصوص التي وجدت في قمران،

وهي نصوص وجدت في قمران، ولم توجد على الأقل في مثالين لها، في أي مكان آخر، وأيضاً مع استخدام المدافعين عن مسعدة للتقويم نفسه، الذي كان يستخدم بدقة بين أدوات قمران وهي تقويم شمسي فريد من نوعه، مقارنة بالتقويم القمري لكنيسة **Sadducee** الرسمية، واليهودية العبرية اللاحقة.

ومرة أخرى يمكن أن يكون هناك تمييز للترتيب الذي وصفه إيسنمان: حركة قومية مسيحية واسعة التي ظهر فيها حقيقةً عدد من الطوائف المفترضة، إن كان يمكن التمييز بين أي منها، إن تفسير إيسنمان يتلاءم ويفسر ما كان يبدو سابقاً تخبطاً في التناقضات والمخالفات، وهذا يعطي معنىً للمهمة التي أرسل فيها بولس بأمر من يعقوب وهيئة كهنوت ما كان يدعى الكنيسة الأولى، إلى المقاطعة الناصرية في القدس، يجب أن نتذكر أن إسرائيل في العصور الإنجيلية لم تكن إقليماً، ولا قطعة أرض دينية محددة فقط، بل إن الأهم من ذلك، أن إسرائيل كانت ترمز لشعب ولقبيلة ولمضيف، عندما أرسلت هيئة الكهنوت في القدس بولس ومبشرين آخرين كان الهدف من ذلك هو تغيير ديانة الناس إلى الناموس، أي إلى إسرائيل، ماذا يمكن أن يعني ذلك في كلمات عملية، إذا لم يكن يعني تجهيزاً للجيش؟، منذ أيام العهد القديم، وخاصة منذ العبودية البابلية، تبعثرت قبيلة إسرائيل في أرجاء بلاد البحر المتوسط وما حولها، وصولاً إلى بلاد فارس، حيث كان في عصر ظهور القائد شمعون بار كوكبا في عام 132 ميلادي لا يزال هناك تعاطف كافٍ لظهور وعد بالدعم على الأقل، ألم تكن البعثات التي أرسلتها هيئة الكهنوت في القدس لاستغلال هذا المصدر الممكن للقوة البشرية الهائلة، لتدعو إلى شعب إسرائيل المشتت ليطردوا الغزاة الرومانيين من أرضهم الأصلية ويحرروا وطنهم؟، وبولس بتبشيره بدين جديد تماماً بدلاً من تجميعه للمتطوعين كان في واقع الأمر يقوض سياسة الحركة ويضعفها ويسلبها صفتها العسكرية، لقد كان ذلك طبعاً أمراً أشد خطورة من الارتداد عن عقيدة أو تقاليد شعائرية معينة فقط، بل الحقيقة أنه كان نمطاً من أنماط الخيانة، أما القانون، فكما يبدو في مخطوطات البحر الميت، فهو ليس مقتصراً على نحو كامل على العقيدة والتقاليد الشعائرية، وبمراجعة نصوص قمران يبدو جلياً أن هناك اندفاعاً لبناء شخصية مسيحية شرعية كواجب مقدس، سواء كانت ملكية أم كهنوتية أم تجمع الاثنتين، وضمنياً سيدخل في ذلك إعادة بناء الملكية والكهنوت لطرد الغزاة، ولاسترجاع الأرض المقدسة وتطهيرها لشعب الله المختار ليسكنها، وتعبر كلمات مخطوطة الحرب عن ذلك، حيث تقول: «إن سلطان الغزاة يجب أن ينتهي، سيطهر أبناء الصلاح ليلمع نجمهم على أطراف الأرض كلها».

الفصل التاسع

بولس وعلاقته بالرومان

مع هذه الصورة الكبيرة في مخيلتنا، يجدر بنا البحث ثانية في الوصف المضطرب والسطحي لأحداث وقعت قرب نهاية أسفار الرسل، حيث يُذكر أن يعقوب والهيئة الكهنوتية الحانقة استدعت بولس مرة أخرى إلى القدس بعد بعثة إنجيلية، قام بها فترة طويلة في الخارج، لكن مؤيدي بولس المقربين منه نصحوه بعدم الذهاب بعد أن استشعروا المتاعب مراراً وتكراراً في كل مرحلة من مراحل جولته، لكن بولس، وهو رجل لا يتهرب من المواجهة، لم يصغ إلى نداءاتهم، فعندما اجتمع بولس بيعقوب وأعضاء قيادة الجماعة، قاموا بتأنيبه لتهاونه الوارد في ملاحظاته عن الناموس، ومع أن الأسفار لا تسجل ردود فعل بولس على هذه الاتهامات، لكن يتبين، كما يبدو مما يلي، أن بولس يُكَذِّب نفسه، وينفي الاتهامات الموجهة إليه، حيث تكشف رسائله ذاتها أنه قد جرى تبرئته، أي إنه يعترف بحجم جريمته، مع نزاهته العظيمة وولائه المتعصب لروايته عن المسيح يعترف بولس بأن التوصل إلى نوع من الحلول الوسط ضروري هذه المرة، وهكذا عندما طُلب منه أن يطهر نفسه مدة سبعة أيام، ومن ثم يبين ظلم الادعاءات الموجهة إليه، وافق مباشرة على ذلك، هنا يقترح إيسنمان أنه من الممكن أن يعقوب كان على بينة من الحال الحقيقي، وأن بولس قد يكون فعلاً تبين أنه مذنب، ففي حال رفض شعائر التطهير، سيعلن عن نفسه للعلن أنه يتحدى الناموس، لكن بموافقته على الشعائر، أصبح أكثر كذباً من ذي قبل، تعليق حبقوق، وبغض النظر عن مسار العمل الذي اختاره كان يتعين عليه أن يلعن نفسه، وقد يكون هذا هو تماماً ما قصده يعقوب.

على أي حال، مع تبرئته لنفسه بالتطهير الذاتي يستمر بولس في نشر العداوة ضد أولئك المتحمسين للقانون الذين قاموا بعد ذلك أياماً قليلة بمهاجمته في المعبد، وقد صرحوا بأن هذا الرجل الذي يعظ الجميع في كل مكان، هو ضد الناموس- السفر 21:28، إن أعمال الشغب التي تلت ذلك ليست بالاضطرابات البسيطة، فقد ثارت المدينة كلها: «جاء الناس يركضون من كل جانب، أمسكوا ببولس، وجروه من المعبد إلى الخارج، وأُغلقت الأبواب خلفه، فقد كانوا على وشك قتله لولا وصول تقرير إلى مقر الجنود أن هناك أعمال شغب في جميع أنحاء القدس»- السفر 30.31: 21.

جرى استدعاء الجنود، أي ما لا يقل عن ستمئة رجل، حيث جرى إنقاذ بولس في الوقت الملائم، ربما لمنع الاضطرابات المدنية من الحدوث على مجال أكبر، وإلا فلماذا يتحمل الجنود عناء إنقاذ حياة أحد اليهود المهرطقين الذي جلب لنفسه غضب زملائه؟، يشهد حجم الاضطرابات على نوع التداول والنفوذ والسلطة التي كان يجب على ما يدعى الكنيسة المبكرة ممارستها في القدس بين اليهود في ذلك الوقت!، فمن الواضح أننا نتعامل مع حركة داخل اليهودية نفسها، وهي تنال الولاء من معظم سكان المدينة.

بعد إنقاذ بولس من الرعاع الغاضبين قام الرومان بإلقاء القبض عليه، فطلب الإذن لإلقاء خطاب يبرئ به نفسه قبل اقتياده إلى السجن، ولسبب غير مفهوم وافق الرومان على طلبه، مع أن الخطاب لن يؤدي إلا إلى تأجيج الرعاع، ومن ثم أخذوا بولس للتعذيب والاستجواب، وكما جرى السؤال من قبل: استجواب بشأن ماذا؟، لماذا يجري تعذيب رجل أهان زملاءه المتدينين واستجوابه في أفكار حساسة في العقيدة وشعائر الاحتفال؟، ليس هناك سوى تفسير واحد لاستفادة الرومان من هذا الأمر، وهو أن بولس مشتبه بأنه مطلع على معلومات ذات طابع سياسي أو عسكري.

لقد كان الخصوم السياسيون أو العسكريون الحقيقيون والوحيدون في مواجهة الرومان هم أتباع الحركة القومية، وهم المتحمسون للتقاليد الشعبية، وقد كان بولس مبشر الكنيسة المبكرة تحت تهديد المتحمسين للقانون، أولئك الذين يبلغون أربعين شخصاً أو أكثر، حيث كانوا يخططون لقتله، وقد نذروا بألا يأكلوا أو يشربوا حتى يقوموا بقتله، وبعد قيام ابن أخيه الذي لم يرد ذكره حتى الآن بإنقاذه من هذا المصير، أُسرع به تحت الحراسة إلى خارج القدس نحو القيسارية، حيث طالب بحقه مواطناً رومانياً ليوجه نداءً شخصياً إلى الإمبراطور، في أثناء وجوده في قيسارية اختلط بولس بطريقة اجتماعية وحميمية بالنائب الروماني أنطونيوس فيلكس، كما أكد إيسنمان أن بولس أقام علاقة حميمية بصهر النائب أنطونيوس فيلكس ويدعى هيرودس أغريبا الثاني، وبأخت الملك التي ستصبح في وقت لاحق عشيقة تيتوس، القائد الروماني الذي سيدمر القدس، ويصبح في النهاية الإمبراطور.

لكن هذه ليست العناصر المشبوهة الوحيدة التي تلوح في أفق سيرة بولس الذاتية، فمن البداية فرقت ثروته الواضحة، وجنسيته الرومانية، وألفته مع المؤسسة الحاكمة، بينه وبين رفاقه وأعضاء آخرين في الكنيسة المبكرة، ومن الواضح أنه كان لديه صلات مؤثرة في النخبة الحاكمة، وإلا فكيف يمكن شاباً أن يصبح مسؤولاً عن الأعمال السيئة نيابة عن الحاكم؟، وعلاوة على ذلك في رسالته إلى الرومان - **16:11** يتحدث عن رفيق يدعى هيروديون، وهو اسم يرتبط بكل وضوح بالسلالة الحاكمة، أكثر من كونه رفيقاً في التبشير، ويشير السفر **13:1** إلى أحد رفاق بولس في أنطاكية باسم مانين، الذي كان قد نشأ مع هيرودس التيترارك، مرة أخرى هناك ما يدل على مستوى عال من الارتباط الارستقراطي.

وإن بدا المقترح مذهلاً، فعلى الأقل من الممكن أن بولس كان نوعاً من أنواع العملاء الرومانيين، وقد أوصلت المخطوطات نفسها إيسنمان إلى هذا الاستنتاج، ومن ثم عثر

على الإشارات في العهد الجديد التي تدعم ذلك الاستنتاج، وفعلاً، في حال قام شخص بجمع المواد التي عُثر عليها في قمران وتركيبها مع تلك الواردة في الأسفار، والإشارات الغامضة في رسائل بولس، فقد يصبح هذا الاستنتاج احتمالاً ممكناً، لكن هناك احتمالاً آخر أيضاً، ربما ليس أقل إذهالاً من سابقه، وهو الأحداث الأخيرة المضطربة والغامضة في القدس، وتدخل الرومان في الوقت الملائم، وخروج بولس من القدس بحراسة مشددة، وإقامته الفاخرة في قيسارية، واختفاؤه الغامض والكامل من مسرح التاريخ، كل ذلك يؤدي إلى إحداث جلجلة غريبة في عصرنا هذا، هنا يتذكر المرء المستفيدين من برنامج حماية الشهود في الولايات المتحدة الأمريكية، كما يتذكر أيضاً ما يدعى ظاهرة المخبرين في إيرلندا الشمالية، في كلتا الحالتين تقوم السلطات بتحويل عضو ما في منظمة غير مشروعة، تسخّر نفسها للجريمة المنظمة أو للإرهاب شبه العسكري، حيث يوافق هذا العضو على تقديم الأدلة والشهادة، من أجل الحصول على الحصانة، والحماية، والنقل، والمال، ومثل بولس، سيجلب هذا العضو على نفسه غضب زملائه الانتقامي، ومثل بولس سيظل تحت ما يبدو حماية عسكرية أو شرطية غير متجانسة، ومثل بولس سيجري تهريبه تحت الحراسة، وبعد تعاون هذا الشخص مع السلطات يُعطى عندئذ هوية جديدة، ويجري إعادة توطينه مع عائلته من الناحية النظرية بعيداً عن متناول رفاقه الذين ينوون الانتقام منه، وعندما يشعر العالم بأسره بالقلق، فإن هذا العضو، على غرار بولس، سيختفي.

إذاً، هل ينتمي بولس إلى جماعة العملاء السريين التاريخية؟، أو ينتمي إلى الجواسيس والمخبرين التاريخيين؟، هذه بعض الأسئلة التي خلّفها بحث روبرت إيسنمان، لكن على أي حال، يطلق ظهور بولس على الساحة سلسلة من الأحداث التي وقعت، والتي كان لا بد من إثبات عدم إمكان الرجوع فيها، فقد جرى تحويل ما بدا حركة محلية ضمن إطار اليهودية القائمة، التي لا يمتد نفوذها إلى أبعد من الأرض المقدسة، جرى شيء يبلغ من المقدار والضخامة حداً، لا يمكن أي شخص في ذلك الوقت توقعه، فقد جرى اختطاف الحركة التي عُهد بها إلى الكنيسة المبكرة ومجتمع قمران وتحويلها إلى شيء لم يعد قادراً على استيعاب أسلافه، فظهرت هناك مجموعة من الأفكار التي بدت هرطقة في بدايتها، لكنها تطورت مدة القرنين التاليين لتصبح ديناً جديداً تماماً، لقد أصبح الآن ما كان هرطقة ضمن إطار اليهودية عقيدة الدين المسيحي، وكان يمكن أن ينجم من عدد قليل من الحوادث التي وقعت في التاريخ نتائج مؤثرة على نحو أبعد.

ملحق

غني عن القول أن قصة المخطوطات لم تنته، فلا تزال حبكتها تتكشف، وهي تمر بتطورات وتقلبات جديدة، لقد حدث الكثير منذ ظهور هذا الكتاب في بريطانيا في شهر أيار عام **1991**م، فبحلول الخريف وصلت الأمور إلى أوجها، وكانت المخطوطات موضوع التغطية في الصفحة الأولى، وكذلك الافتتاحيات في صحف مثل صحيفة نيويورك تايمز، حتى في الوقت الذي يجري فيه الإعداد لنشر الطبعة الأمريكية من كتابنا، ستظهر كتب ومقالات أخرى مطبوعة، ويجري عقد مؤتمرات، ويزداد اهتمام وسائل الإعلام، ويصدر مناصرون كثر بيانات جديدة.

في شهر أيار سلمت لجنة الرقابة الإسرائيلية جامعة أكسفورد مجموعة كاملة من صور جميع مواد المخطوطات، وجرى إنشاء مركز لبحوث المخطوطات برعاية غيزا فيرميز، ومع ذلك فقد بقي الوصول إلى تلك المخطوطات محدود جداً، وتواصل حرمان العلماء المستقلين من الوصول إلى المخطوطات أيضاً، وفي مقابلة مع التلفزيون البريطاني تساءل الأستاذ نورمان غولب من جامعة شيكاغو عن هدف هذا المركز، وسأل ببساطة هل كان المركز مركزاً للإحباط؟.

في 5 أيلول ذكرت وسائل إعلام أمريكية أن عالمين من كلية الاتحاد العبري في سينسيناتي هما الأستاذ بين زيون وتشهولدر، وأحد طلابه الذين يحضّرون للدكتوراه وهو مارتن جي.ابيغ قد كسروا احتكار مخطوطات البحر الميت، باستخدام الفهرس الأبجدي الذي أعده الفريق الدولي في خمسينيات القرن العشرين، استعمل العالم وطالبه كمبيوتراً لإعادة بناء النصوص نفسها، فقد قامت جمعية الآثار الإنجيلية بايبليكال آركيولوجي سوسياتي بنشر النتائج، التي قيل إن 80 بالمئة منها كان دقيقاً، وعنوانها هيرشل شانكس، وكان متوقعاً أن يغضب من تبقى حياً من أعضاء الفريق الدولي، فقد ندد الأستاذ كروس بما سماه القرصنة، كما ندد المخلوع جون سترغنيل بشدة قائلاً: ماذا يمكنك أن تسمي ذلك، إلا سرقة ؟، ومع ذلك في يوم 7 أيلول أيدت افتتاحية نُشرت في صحيفة نيويورك تايمز العمل الذي قام به كل من وتشهولدر وابيغ:

قد يميل بعض القائمين على اللجنة إلى اتهام علماء سينسيناتي بالقرصنة، لكن على العكس من ذلك يجب الثناء على العمل الذي قام به كل من وتشهولدر وابيغ، بالتخلص من التعتيم رويداً رويداً، فمنذ زمن بعيد استنفدت اللجنة، بما لديها من أبحاث

سرية جداً وخفية، ثقتها مع العلماء وعامة الناس على السواء، ويبدو أن عالمي سينسيناتي علموا ما قد نسيته لجنة المخطوطات، وهو أن هذه المخطوطات وما يقولون عن الجذور المشتركة للمسيحية واليهودية تنتمي إلى حضارة، وليس إلى عدد قليل من الأساتذة المعزولين.

سرعان ما تبع ذلك كشف أكثر إثارة في 22 أيلول، وذلك عندما كشفت مكتبة هانتينغتون في كاليفورنيا أنها تمتلك مجموعة كاملة من صور جميع مواد المخطوطات غير المنشورة، فقد عهد بيتي بيكتل من شركة بيكتل، الذي كُلف المواد نحو عام 1961م، بهذه المجموعة إلى مكتبة هانتينغتون، وطالب أعضاء من الفريق الدولي بإعادة تلك المجموعة بعد أن علموا بوجود تلك الصور، فلم تكترث مكتبة هانتينغتون لذلك الطلب، ولم تكتف بالإعلان عن حيازتها تلك الصور، بل أعلنت أيضاً عن عزمها جعل تلك الصور في متناول أي باحث يرغب برؤيتها، فقد كانت تعرض نسخاً على الميكروفيلم بأقل من عشرة دولارات، وقال ويليام أيه موفيت مدير المكتبة: عندما تحرر المخطوطات، فإنك في الوقت نفسه تحرر العلماء.

وطبعاً مرة أخرى، أحدث أعضاء الفريق الدولي ضجةً، لكن هذه المرة أكثر عنفاً من ذي قبل، ومرة أخرى كانت هناك اتهامات بسرقة العمل العلمي، ومع ذلك، فقد رد أحد الأساتذة المستقلين: «إن معظم الناس سيعدون مكتبة هانتينغتون مثل روبين هود، فهي تسرق من الأثرياء أكاديمياً لتعطي السرقة إلى أولئك المتعطشين للمعرفة».

أما عمير دروري رئيس هيئة الآثار الإسرائيلية فقد اتهم مكتبة هانتينغتون بارتكاب تجاوزات قانونية عدة، مع أن الصور كانت قد أُخذت قبل فترة طويلة من انتقال المخطوطات إلى الأيدي الإسرائيلية غنائم حرب، لقد تحدث ماحن بروشي مدير صرح الكتاب على نحو تهديدي عن الإجراءات القانونية، لكن مكتبة هانتينغتون أصرت على موقفها الذي يرى أنه يجب أن يكون هناك حرية للوصول إلى الصور أو لا شيء، وقالوا: موقفنا هو أنه ينبغي أن يكون هناك حق الوصول من دون عوائق، بحلول ذلك الوقت كان الكشف عن الصور أمراً واقعاً، وإن أي محاولة لعكس تلك العملية لن تثمر، فقد صرحت مكتبة هانتينغتون : «لقد تأخر الوقت، وقضي الأمر».

في 25 أيلول استسلمت الحكومة الإسرائيلية، ونأت بنفسها بحذر عن تصريحات دروري وبروشي، فقد قيل: إن دروري وبروشي تحدثا شخصياً، وليس ممثلين للحكومة الإسرائيلية، وأصدر يوفل نيعمان وزير العلوم الإسرائيلي بياناً صحفياً أكد أنه:

«ينبغي منح كل باحث حرية الوصول لدراسة المخطوطات ونشر النتائج التي توصل إليها، ومن حسن الحظ أن هذه الفرصة أصبحت الآن ممكنة بقيام مكتبة هانتينغتون بعرض مجموعة صور المخطوطات للعلن».

خلال ذلك، في الساعة **11:05** من صباح ذلك اليوم، جرى تسجيل اسم روبرت إيسنمان أول عالم يطلب رسمياً الوصول إلى صور مواد المخطوطات التي بحوزة مكتبة هانتينغتون، وجرى الانتصار في معركة الوصول، ومع ذلك، لا يزال هناك عملية تفكيك عقيدة التفسير أصدرها الفريق الدولي على مر الأربعين سنة الماضية.

وبحلول الوقت الذي ظهرت فيه الأحداث المرتبة زمنياً في العناوين الرئيسة، بدأ إيسنمان بمواصلة بحثه على جبهات أخرى أيضاً، ففي عام **1988**م أشار إيسنمان إلى أن أعمال التنقيب التي جرت في قمران لم تكتمل بعد، ولم تكن شاملة، وفي الواقع فإن طبيعة الأراضي المحيطة بقمران هي أراض مثالية للحفاظ على المخطوطات، ويوافق جميع الخبراء في هذا المجال تقريباً على إمكان اكتشاف المزيد، فليس ممكناً فقط وجود مواد إضافية للمخطوطات مدفونة تحت انهيارات التربة وتساقط الصخور، فلم يجر التنقيب في الكثير من الكهوف بطريقة صحيحة، أي عبر أنقاض الأسطح المتساقطة وصولاً إلى الأعماق، وينبغي البحث ثانية في كهوف أخرى، قام البدو بالبحث فيها سابقاً، إذ إن البدو مالوا إلى التغاضي عن بعض الوثائق المخبأة، وتركوا وراءهم الكثير من أجزاء المخطوطات، وعلى أي حال، فقد توقف فعلاً ورسمياً قيام البدو بالتنقيب مع حرب عام **1967**م، هناك مواقع أخرى في المنطقة المجهولة والمجاورة لقمران ينبغي استكشافها على نحو كامل، مثلاً وجد عالم آثار إسرائيلي الجنسية، على بعد تسعة أميال جنوباً عند شواطئ البحر الميت، في مكان يدعى عين الغوير، قبوراً على غرار قبور قمران، وأطلال بيوت على غرار بيوت قمران، ولو أنها كانت صغيرة، ومن الممكن جداً افتراض أن تكون الكهوف في الأودية المجاورة التي لم يجر فيها حتى الآن أعمال تنقيب مستودعات للمخطوطات.

ومع أخذ هذه الحقائق في الحسبان، عزم إيسنمان على الشروع في استكشافاته الأثرية الخاصة به، وطبعاً كان هدفه الرئيس البحث عن مواد إضافية للمخطوطات، قد تكون هذه المواد، كما أثبتت الحالة فيما يخص مخطوطات المعبد، جديدة كلياً، لكن حتى لو كررت المواد تلك الموجودة سابقاً في أيدي الفريق الدولي، فمن شأنها أن تفرغ عمليات القمع المستمرة من معناها، ومع ذلك وبغض النظر عن فكرة مواد المخطوطات الإضافية،

أراد إيسنمان بناء صورة كاملة قدر الإمكان عن عدد السكان في المنطقة بأسرها، من قمران إلى الجنوب حتى مسعدة، وخلص إلى القول إنه ربما كانت هناك مجتمعات أخرى على غرار مجتمع قمران، ونتيجة لذلك، فقد شرع في البحث عن أدلة لأي نوع آخر، مثلاً دليل على التحكم في المياه، مثل المصاطب، والقنوات المائية والأحواض، والتي من الممكن أنها قد أُنشئت للحفاظ على الثروة الحيوانية ودعم الزراعة.

حتى الآن قام مايكل بيجنت بمرافقة روبرت إيسنمان وفريقه من علماء الآثار والمتطوعين في اثنتين من البعثات الاستكشافية، الأولى في كانون الثاني عام **1989**م، والثانية في كانون الثاني عام **1990**م، فقد ركزوا في البعثة الأولى على التنقيب في كهف يبعد تقريباً ميلاً واحداً في الجنوب من قمران، على ارتفاع نحو **500** قدم فوق الجرف، ينفتح الكهف على سلسلة من الغرف، تمتد في الصخر ثماني أقدام تقريباً، وقد تميز جزء من المناطق الداخلية بأرضية مستوية مصنوعة من سعف النخيل والطين المرصوص، إلا أنه لم تظهر أي مخطوطات في ذلك المكان، لكن جرى العثور على عدد من بقايا العصر الحديدي، إبريق، وسراج، ومقبض سهم منقطع النظير، ورأس سهم على حاله بعد **3000** سنة، لقد أثبتت البعثة أول مرة أن بعض الكهوف على الأقل حول قمران كانت مسكونة، ولم يجر استخدامها فقط ملاجئ مؤقتة خلال فترات قصيرة من الخطر، لكنها شُغلت على نحو دائم.

أما البعثة الثانية فقد سعت إلى استكشاف أكبر قدر ممكن من شاطئ البحر الميت جنوب قمران وواجهة الجرف المجاور، فقد كان الغرض من هذا العمل هو تجميع قائمة من الكهوف غير المكتشفة بعد، والتي قد تستدعي لاحقاً أعمال تنقيب شاملة، فبعد تقسيم البعثة نفسها إلى فرق صغيرة بحثت على طول **13** ميلاً من جرف يرتفع **1200** قدم، وبصرف النظر عن الكهوف، جرى العثور على بقايا من مصاطب وجدران اصطناعية، وبقايا إنشاءات للسيطرة على المياه والري، كل ذلك يشهد على وجود البشر والزراعة في تلك المناطق، إجمالاً، جرى اكتشاف **137** كهفاً، وإخضاعها لدراسة تمهيدية من دون أعمال تنقيب، وجرى عد **83** كهفاً من تلك الكهوف تستحق أعمال تنقيب منهجية، وستصبح تلك الكهوف محور النشاط في المستقبل.

ونظراً إلى الأهمية الاستثنائية والكبيرة لهذا النشاط، سيكون هناك نظام جديد من أنظمة الرادار الأرضي، يمتاز بتكنولوجيا متطورة، ويُعرف باسم الرادار البيني الباطني- إس آي آر، كنا نناقش إيسنمان في إمكان وجود كهوف أخرى في المنطقة المجاورة لقمران

وعلى طول شاطئ البحر الميت، كذلك إمكان وجود كهوف، وغرف، وأقبية، وممرات وهياكل جوفية تحت أنقاض قمران نفسها، فلم يبحث قط دو فوكس، وهو الشخص الوحيد الذي قد يحاول القيام بأعمال تنقيب في الموقع الحالي، عن أي شيء من هذا القبيل، ولم يستكشف ما تحت السطح قط، ومع ذلك ومن ناحية عملية، ليس معروفاً عن بناء من ذلك النوع الذي شهدته أنقاض قمران عدم احتوائه على غرف تحت الأرض، أو ممرات، أو سجون، أو أنفاق للهرب، ومن المسلم به عموماً أن يكون شيء من هذا القبيل فعلاً، لكن سيكون ضرورياً القيام ببعض أعمال التنقيب الكبيرة تقريباً، والتي تنطوي على الكثير من التجربة والخطأ، وربما الأضرار التي قد تلحق بالموقع.

ومن ثم، فقد بدت فكرة العثور على أي شيء تحت قمران مسلّمة محكوماً عليها من قبل بحجم ما قد ينجم منها، لكن عثرنا مصادفة في خريف عام 1988م على مقالة صحفية تتحدث عن العثور على قبو يحوي مدفناً سرياً تحت كنيسة قرب ستراتفورد أون آفون، من الممكن أن يرتبط بالعلماء الشكسبيريين، كان ما يهمنا في هذه المقالة هو أنه جرى تحديد موقع القبو كما يبدو بوساطة نوع من أنظمة الرادار التي تعنى بالمسح الباطني، تديره شركة مقرها في جنوب إنجلترا.

لقد أثبتت الاحتمالات التي عرضها الرادار البيني الباطني صحتها حقاً، فقد كان الرادار نظاماً أرضياً يعادل نظام تسجيل السونار الذي في السفن، لقد كان الجهاز قابلاً للحمل، فعندما يتحرك بسرعة ثابتة على الأرض، ينتج صورة مشكلةً حاسوبياً للملامح الباطنية، تُنتج الصورة نفسها من بناء صورة للسطوح البينية، أي نقاط تفسح عندها الأرض، أو الصخور أو أي مادة أخرى من الكثافة والصلابة المجال أمام الهواء، ومن ثم كان النظام كاملاً نظاماً مثالياً لتحديد موقع الكهوف والتجاويف الباطنية، فعلى الأقل سيكشف النظام السطوح البينية التي تبعد 30 قدماً عن السطح وفي الأحوال الجيدة سيتمكن النظام من الاختراق حتى عمق 120قدماً.

فقد أثبت مدير الشركة التي تدير الرادار عزمه على تقديم المساعدة، وقد تبين أنه قرأ واستمتع بالكتب التي نشرناها سابقاً، لقد فتنته فكرة استخدام جهازه في قمران، بل إنه عرض قدومه مع البعثة وإدارة الجهاز بنفسه، ونتيجة لهذا العرض أحدثت بعثة إيسنمان في عام 1990م مرحلة هامة، وهي الإشارة إلى المواقع التي تتطلب البحث بوساطة الرادار، ونحن الآن بانتظار إذن من الحكومة الإسرائيلية لجلب الجهاز إلى البلاد واستخدامه في قمران.

لم تكن مخطوطات البحر الميت التي عُثر عليها في عام 1947م الأولى من نوعها لنصوص قديمة، ظهرت في صحراء اليهودية، في الواقع هناك تقارير تتحدث عن العثور على نصوص مثل هذه في بدايات القرن الثالث الميلادي، يُزعم أن عالم اللاهوت أوريجين وهو أحد آباء الكنيسة الأوائل قد قام بواحد من تلك الاكتشافات، ووفقاً لمؤرخ الكنيسة يوسيبوس فإن أوريجين كان قد عثر على عدة نسخ مختلفة من نصوص العهد القديم التي كان بعضها مفقوداً منذ سنوات كثيرة، يُقال إن أوريجين أخرج النسخ من مخابئها وأظهرها للعلن، وكما قيل لنا: إنه جرى العثور على إحدى نسخ المزامير بجرة في أريحا في عهد أنطونيو بن سيفيروس، إن هذه الإشارة تتيح لنا تأريخ الاكتشاف إلى الفترة التي بين عامي 211 و217 ميلادي.

والأمر الأكثر إثارة هو رسالة يعود تاريخها إلى قبل عام 805 ميلادي قليلاً، كان تيموثيوس بطريرك سيلوسيا قد كتبها إلى كاهن آخر، تقول:

«لقد علمنا من يهود جديرين بالثقة كانوا يتلقون التعاليم في العقيدة المسيحية أنه قبل عشرة أعوام وقرب أريحا، جرى العثور على بعض الكتب في كهف، فقد قام كلب لصياد عربي بتتبع حيوان إلى كهف ولم يعد، فدخل العربي ليجد كهفاً صغيراً يحتوي على الكثير من الكتب، ذهب العربي إلى القدس، وأخبر اليهود هناك، حينها خرج اليهود بأعداد كبيرة، ووجدوا كتباً من العهد القديم وكتباً أخرى مكتوبة بأحرف عبرية، ولأن الشخص الذي أخبرني هذه القصة كان رجل علم، سألته عن الإشارات الكثيرة الواردة في العهد الجديد، والتي يُشار إليها بالناشئة في العهد القديم، لكن لا يمكن العثور عليها هناك، قال: «إن تلك الإشارات موجودة، ويمكن العثور عليها في الكتب التي وُجدت في الكهف»».

استمرت اكتشافات مماثلة بالتتابع عبر القرون وصولاً إلى العصر الحديث، وأحد أشهر تلك الاكتشافات هو اكتشاف موسيس ويليام شابيرا، وهو تاجر تحف قديمة، يمتلك متجراً في القدس، حيث حدث ذلك الاكتشاف في أواخر القرن التاسع عشر، فقد علم شابيرا في عام 1878م من بعض العرب الذين بحثوا عن ملجأ، فيما هو الآن الأراضي الأردنية على الشاطئ الشرقي للبحر الميت، هرباً من السلطات، وداخل كهف في وادي مجيب مباشرةً في عين جدي في الجانب الآخر من البحر الميت، قيل إنهم عثروا على عدد من الصُرر تحوي رقعاً، فقاموا بفتح تلك الصُرر على أمل العثور فيها على أشياء ثمينة، لكنهم عثروا فقط على عدد من المخطوطات الجلدية الداكنة، فقام أحد الأشخاص العرب بأخذ تلك المخطوطات معه، وادعى في وقت لاحق أن حيازته لتلك

المخطوطات جلبت له الحظ الجيد، وقيل إن هذا هو السبب وراء عدم رغبته في بيع المخطوطات أو رفع أسعارها.

هنا فُتن شابيرا الذي اعتاد أن يبيع التحف القديمة لهواة جمع التحف الأوروبيين وللمتاحف، وبمساعدة شيخ كان صديقاً له، تمكن شابيرا من شراء ما زُعم أنها المجموعة الكاملة من المواد، فقد تألفت هذه المجموعة من خمس عشرة قطعة من رق البرشمان، يبلغ عرض كل واحدة منها ثلاث بوصات ونصف البوصة، وطولها سبع بوصات، وبعد دراسة ما اقتناه بضعة أسابيع، أدرك شابيرا أن الذي بين يديه هو نسخة قديمة من كتاب دويترانومي، وهو كتاب يختلف اختلافاً ملحوظاً عن النص الإنجيلي المعروف.

في عام 1883م بعد تقلبات ومشاورات مع خبراء، جلب شابيرا أجزاء المخطوطات إلى لندن، كانت تسبقه تغطية مثيرة وواسعة في الصحافة، فقد أعلن الخبراء البريطانيون أن أجزاء المخطوطات حقيقية، وجرى نشر ترجماتها في صحيفة التايمز، ومن ثم جاء رئيس الوزراء وليام جلادستون لرؤية تلك الأجزاء، وناقش إمكان شرائها من شابيرا، يبدو أن المبلغ الذي وضع حينها هو مليون جنيه استرليني، وهو رقم مذهل في ذلك الوقت.

ومن ثم أرسلت الحكومة الفرنسية باحثاً بارزاً، وهو أحد أعداء شابيرا القدامى، عبر القناة لدراسة أجزاء المخطوطات وإعداد تقرير عنها، لكن شابيرا رفض السماح للرجل الفرنسي بتفحص أجزاء المخطوطات عن كثب أو لمسها، عدا نظرة سريعة إلى اثنين أو ثلاثة من تلك الأجزاء، ومن ثم أخضع تعنت شابيرا الرجل لقضاء يومين ينظر إلى جزأين إضافيين من المخطوطات معروضين في صندوق زجاجي، تحت تدافع زوار آخرين في المتحف، نتيجة السخط وربما الحنق المسوغ أعلن الرجل الفرنسي في النهاية أن أجزاء المخطوطات مزورة، وقد ردد علماء آخرون، من دون حتى عناء النظر في الأجزاء هذا الاستنتاج، وسرعان ما تحولت هذه المسألة إلى مهزلة حينها ألحق شابيرا الضرر بنفسه كثيراً، فبعد إنكاره والتشكيك فيه، أطلق شابيرا النار على نفسه في غرفة في فندق روتردام في 9 آذار عام 1884م، فقام تاجر كتب أثرية في لندن بشراء أجزاء مخطوطاته بعشرة جنيهات وخمسة سنتات.

ومنذ ذلك الحين اختفت أجزاء المخطوطات تلك، مع أنها قد تظهر لدى أحد الأشخاص أو في ممتلكات أحد هواة جمع التحف الذين يعملون لمصلحتهم الشخصية، ووفق آخر محاولة لتتبع تلك الأجزاء، ربما تكون قد أُخذت إلى أستراليا في ممتلكات أحد تجار الآثار.

لقد أصبح هناك عدد من السلطات الحديثة، منها آليغرو الذي قام بدراسة خاصة لشابيرا، مقتنعين بإمكان أن تكون أجزاء المخطوطات العائدة لشابيرا حقيقية، وقد أكد آليغرو أنه في حال جرى اكتشاف تلك الأجزاء في هذا القرن بدلاً من القرن الماضي، فإنه في جميع الاحتمالات سيجري إثبات صحتها كتلك المواد التي جرى اكتشافها في قمران، لكن في أواخر القرن التاسع عشر، كان الغرور وسمعة العلماء والمصالح الخاصة في خطر، كما هو الحال اليوم، ونتيجة لذلك، فقد جرى فقدان شيء من القيمة التي إلى لا تقدر بثمن تقريباً على نحو شبه مؤكد.

وفي الوقت نفسه، لا تزال اكتشافات مثل اكتشاف شابيرا مستمرة، هكذا، وفي أواخر السبعينيات من القرن العشرين مثلاً، عندما كنا نحن أنفسنا نملك القليل الذي يزيد على المعرفة السطحية بمخطوطات البحر الميت وغير ذلك من الوثائق، قام صديق من باريس وهو من هواة جمع التحف بالاتصال بنا، فقد سألنا من دون سابق إنذار إذا كان يمكننا لقاؤه في مطعم في لندن، ليس ببعيد عن تشارينغ كروس، وقد جرى طلب مايكل بيجنت، الذي قام بالكثير من أعمال التصوير الاحترافية بالاسم، وطُلب منه إحضار آلة تصوير وإبقاؤها مخفية.

وجد بيجنت شريكنا برفقة ثلاثة رجال آخرين، هاوٍ لجمع التحف أمريكي الجنسية، وتاجر فلسطيني، ومهندس أردني، رافقهم إلى مصرف قريب، حيث دخلوا إلى غرفة صغيرة خاصة، وجرى إخراج صندوقين خشبيين، كل واحد منهما موصد بثلاثة أقفال، حينها قال أحد المسؤولين في البنك بحدة: لا ندري ماذا تحوي هذه الصناديق، ولا نريد أن نعرف ما بها، ومن ثم تركهم موظفو البنك، بعد أن أوصدوا باب الغرفة على بيجنت ورفاقه الأربعة في الغرفة.

جرى الاتصال بالقدس هاتفياً، حيث جرى الحصول على إذن ما، حينها قام المهندس الأردني بإخراج مجموعة من المفاتيح وشرع في فتح الصندوقين، كان في داخلهما تحديداً مئات من صفائح رقيقة من الورق المقوى تحمل كل منها، وهي مربوطة بشريط لاصق، عشرة أو حتى أجزاء من أوراق البرشمان القديمة وورق البردي، ومن الواضح أن الأجزاء غطت فترة طويلة من الزمن، وقد استمدت من عدد من المصادر المتنوعة، وجرى كتابتها بعدة لغات مختلفة، مثل، الآرامية، والعبرية، واليونانية والعربية، كما يمكن أن يتوقع مما قد تجد في تجمع انتقائي وغير مدروس، لم يكن كل شيء هناك ذا قيمة، فقد ثبت لاحقاً أن الكثير من الأجزاء لا قيمة لها، وكانت إيصالات ووثائق متعلقة بمعاملات تجارية قديمة، ربما تكون قد وُجدت في مكب قديم للنفايات، لكن كان هناك وثائق أخرى.

جاءت هذه المجموعة إلى لندن عن طريق سوق المخطوطات السري الذي كان ناشطاً في القدس وبيت لحم خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، وجرى إخراجها من إسرائيل خلال فترة وجيزة من حرب عام 1967م، أو بعدها، الآن كان مفترضاً أن تعرض تلك المجموعة للبيع لمصلحة حكومة أوروبية معينة لم يُذكر اسمها، بسعر زُعم أنه 3 ملايين جنيه استرليني، وطُلب من بيجنت أن ينتقي مجموعة مختارة من الصور الفوتوغرافية، ليجري عرضها نماذج لما كان متاحاً، وقام بأخذ ما يقرب من مئة صورة، لكن كان هناك مئات من الصفائح وما مجموعه يزيد على ألفي جزء، معظمها من الحجم الكبير تقريباً.

منذ عشر سنوات أو نحو ذلك من هذه الحادثة، لم نسمع شيئاً إضافياً عن تلك المجموعة، ففي حال جرى التفاوض على سعر المبيع، فإنهم قد قاموا بذلك بهدوء تام من دون الإعلان عن ذلك الإجراء، في المقابل قد تكون المجموعة كاملة لا تزال في مصرف لندن، أو في بعض أماكن الإيداع المماثلة التي في أماكن أخرى، أو بين كنوز تاجر من تجار القطاع الخاص.

وقد علمنا لاحقاً أن المعاملات الشبيهة بتلك التي كنا قد اطلعنا عليها لم تكن استثنائية البتة، وفي أثناء العقد التالي كان بحثنا يهدف إلى تقريبنا من الاتصال بشبكة معقدة لتجار جمع الآثار الذين يعملون في الإتجار بالمخطوطات سراً، هذه الشبكة شبكة دولية تعمل في مجال مماثل لشبكات الإتجار في اللوحات أو الأحجار الكريمة، فيمكن تقديم مئات الآلاف من الجنيهات عند المشاهدة المباشرة والعملية، ويجري نقل تلك الجنيهات عند الاتفاق.

لقد كان هناك عاملان أديا إلى الإعلان عن سوق المخطوطات السري، فقد كان العامل الأول عمل يادين والجيش الإسرائيلي في أعقاب حرب عام 1967م مباشرة، عندما جرى استجواب التاجر المعروف باسم كاندو وإجباره على كشف وجود مخطوطات المعبد، وليس غريباً أن هذا العمل أخل بالهدنة القائمة، وعزز انعدام الثقة على نحو أكبر بين التجار الإسرائيليين والعرب، ونتيجة لذلك تجد الكثير من المواد التي يعثر عليها البدو، والتي كان مألوفاً أن تذهب إلى الأيدي الإسرائيلية، طريقها على نحو غير مشروع إلى دمشق أو عمان أو حتى إلى أبعد من ذلك، ومن هناك تجد طريقها إلى الغرب عبر تلك الطرق مثل تركيا ولبنان.

أما العامل الثاني الذي كان مسبباً لسوق المخطوطات السري فهو القانون الذي سن برعاية اليونسكو، فهذا القانون ينص على أن ما يجري تهريبه من آثار إلى خارج البلاد

يجب إعادته إلى بلدها الأصلي، ونتيجة لذلك لم يتمكن الأشخاص الذين استثمروا مبالغ كبيرة في مواد الآثار، أو أملوا الحصول على مبالغ كبيرة من مواد الآثار، من الإعلان عن ممتلكاتهم، وفي واقع الأمر دفع هذا القانون بالإتجار السري بالمخطوطات ليكون أكثر سرية، وعلى كل حال، أدى ذلك إلى زيادة كبيرة في الأسعار.

كيف تعمل تجارة المخطوطات السرية؟، تسيطر بعض العائلات المعروفة بتجارة الآثار على هذا العمل، حيث تقوم هذه العائلات بتوريد الكثير من الآثار المعروضة للبيع على نحو قانوني في إسرائيل وفي الخارج، ففي أثناء نصف القرن الماضي أنشأت هذه العائلات شبكات استخبارات خاصة بها، تحافظ على الاتصالات الوثيقة بالبدو، وتواكب جميع الشائعات، والقيل والقال، والأساطير، والاكتشافات المروية عن النشاطات الأثرية، فعندما يجري تحديد مكان يمكن أن يكون موقعاً مثمراً، يقومون باستئجار الأرض مدة عام، ويجري نصب خيمة بدوية سوداء وكبيرة، تبدو كأنها مكان للإقامة، وفي الليل تجري أعمال التنقيب تحت الخيمة، عندما يجري نقل جميع القطع الأثرية ذات القيمة، يجري تفكيك الخيمة وينتقل ساكنوها، وتحدث عملية مماثلة في المدن، ولاسيما في القدس، التي أثبتت أنها أرض خصبة على نحو استثنائي، يجري استئجار المواقع فترات قصيرة، وإذا احتاج الأمر يجري شراؤها، وفي حال عدم وجود منزل مقام سابقاً في ذلك الموقع، يقومون ببناء واحد، ومن ثم يبدأ قاطنو المنزل بأعمال التنقيب نزولاً من القبو إلى الأعماق.

خلال إجراءات كهذه وجدت الكثير من مواد المخطوطات طريقها إلى أيدي هواة جمع التحف وأيدي المستثمرين، فهذه المواد جميعها تخدع عالَم علم الآثار الرسمي والدراسات الإنجيلية، في الواقع لا يدرك عالَم علم الآثار الرسمي والدراسات الإنجيلية عادة وجود تلك الإجراءات، حالياً يجهل الأكاديميون وجود كمية كبيرة من مواد قمران ومواد ذات صلة في أيدي هواة جمع التحف أو معروضة للبيع، فنحن أنفسنا نعلم بالكثير من تلك الأجزاء، نعلم بنسخة محفوظة جيداً لأحد نصوص قمران تدعى كتاب الغفران، نعلم بعدد قليل من الرسائل التي كتبها سمعان في كوتشبا، أيضاً، هناك أسباب جوهرية للظن بوجود وثائق أخرى، وثائق ذات طبيعة تحدث اضطراباً كبيراً جداً، ووثائق فريدة جداً ولا يحلم بها عالَم الدراسات.

خلال السنوات القليلة المقبلة، يمكن توقع حدوث تطورات هامة من أي جهة أو من كل الجهات الثلاث المتميزة، وغني عن القول، أن الأكثر وضوحاً في هذه الجهات الثلاث هو مواد قمران نفسها، إن مجموعة المواد كاملة الآن في متناول الجميع وبسهولة، حيث

يمكن العلماء المستقلين من دون أفكار سابقة، ومن دون شحذ الفؤوس، ومن دون حماية مصالح منوطة بهم، يمكنهم القيام بعملهم، فلقد بدأت عقيدة التفسير الخاصة بالفريق الدولي تواجه الهجوم، وكما أوضح هذا الكتاب فإن الدليل الأثري والمتعلق بالكتابة القديمة الذي يدعمون موقفهم به لن يصمد أمام التفحص الدقيق، ونتيجة لذلك يمكننا توقع حدوث إعادة نظر جذرية للعملية التي وفقاً لها جرى تحديد تواريخ لعدد من النصوص ذات أهمية خاصة، ونتيجة لذلك ستظهر سياقات وتفسيرات جديدة لمواد معروفة سابقاً، كما ستظهر مواد جديدة من آراء تقول إن هذه المواد وضعت جانباً بتسرع، ومن دون اهتمام قبل بضع سنوات.

في الوقت نفسه تدعم كل حملة أثرية جديدة يشرع بها إيسنمان وزملاؤه في قمران وعلى شواطئ البحر الميت إمكان ظهور مواد جديدة كلياً، وسيجري تعزيز ذلك الأمر باستخدام نظام الرادار البيني الباطني، حيث إن الحكومة الإسرائيلية منحت الآن تراخيص لاستخدامه.

وأخيراً هناك سوق المخطوطات السري الذي قد يُخرج في أي لحظة شيئاً ما لنتيجة لم يسبق لها مثيل، شيئاً بقي حتى الآن طي الكتمان، وفي النهاية ينشر أمام الجميع، وكما قلنا فإن مواد كهذه موجودة حقاً، السؤال ببساطة هو: متى يقرر أولئك الذين يحتفظون بهذا الشيء الكشف عنه.

أياً كانت الجهة أو الجهات التي قد تصدر منها مواد جديدة، فإن عمليات الكشف الجديدة، وفي بعض الحالات الكبيرة جداً، لابد من أن تكون وشيكة، وعندما يحدث ذلك، يمكننا أن نتوقع إلقاء المزيد من الضوء على التاريخ الإنجيلي، وعلى الشخصية اليهودية القديمة، وعلى جذور كل من المسيحية والإسلام، وعلى كل حال لا ينبغي التوقع من كشف بهذا الحجم إسقاط الكنيسة، أو توقع أي شيء مروع كهذا العمل، في النهاية الكنيسة اليوم هي مؤسسة اجتماعية، وثقافية، وسياسية واقتصادية أكثر من مؤسسة دينية، حيث يعتمد استقرارها وأمنها عوامل بعيدة تماماً عن الإيمان، والمذهب، والعقيدة التي تنشرها، على أي حال، هناك بعض الناس قد يُدفعون إلى التساؤل إن كان ضرورياً الحكم على الكنيسة، هذه المؤسسة الرخوة تماماً، والمنحازة، وغير الموثوقة في دراساتها ذاتها، ومقولتها عن تاريخها ونشأتها، بأنها جديرة بالثقة وجازمة في نهجها في مثل هذه المسائل العاجلة والمعاصرة كالاكتظاظ السكاني، وتنظيم النسل، ومركز المرأة، وعزوبة رجال الدين.

في نهاية المطاف تكمن أهمية نصوص قمران في شيء ما أكثر من قدرته على إحراج الكنيسة، تكمن الأهمية الحقيقية لنصوص قمران في الشيء الذي ستكشفه عن الأرض المقدسة، تلك الأرض التي امتصت بشراهة دماء الكثير من البشر قروناً كثيرةً، دماء أريقت باسم الآلهة المتصارعة، أو لنكن أكثر دقة، أريقت باسم نسخ لا تختلف كثيراً لنفس الإله، قد تواجهُنا الوثائق التي سيجري الكشف عنها بقليل لا مفر منه من حجم جنوننا الفارغ، وبذلك تضعنا في موقف مخجل على الأقل بدرجة أو نحو ذلك في التوجه العام للحكماء، فمخطوطات البحر الميت تقدم رؤية جديدة عن الأديان الثلاثة الكبرى التي ولدت في الشرق الأوسط، إن العالم الذي يدرس هذه الأديان إلى أبعد حد هو العالم الذي لن يبين درجة اختلافهم، لكن مقدار تداخل الأديان الثلاثة وتشابهها، والذي سيبين إلى أي درجة يستقون من المصدر نفسه، وأن مرد أكثر المشاحنات التي نتجت بينهم، عندما لم تنجم من سوء فهم بسيط، ليس إلى القيم الروحية، بل إلى السياسة، والجشع، والأنانية وغطرسة التفسير الوقحة، أما في الوقت الحاضر، حيث تعاني اليهودية والمسيحية والإسلام انبعاث الأصولية، فيود المرء أن يظن، مع أن هذا قد يكون أكبر مما يؤمل فيه، أن الفهم الأكبر لجذور الأديان الثلاثة المشتركة قد يساعد في الحد من التحيز، والتعصب الأعمى، وعدم التسامح، والتشدد الذي تسعى إليه الأصولية منذ فترة طويلة.

17 كانون الثاني 1991م

13 تشرين الأول 1991م

ملحق الصور

شليمان شختر محاط بصناديق المخطوطات التي حصل عليها من جنيزة في القاهرة عام 1896م والتي أحضرت إلى كامبردج .

في اليمين محمد الديب الذي اكتشف أول كهف لمخطوطات البحر الميت.

كاندو و جورج إيسابا أول من نبه مطران الكنيسة السورية على المخطوطات.

البروفيسور أليعازر سوقينق، وهو العالم الإسرائيلي الأول الذي اقتنى وترجم مخطوطات البحر الميت عام 1974م.

جزء من إحدى المخطوطات «تعليق حبقوق» الذي يتناول المعركة التي جرت بين قائد مجتمع البحر الميت واثنين من خصومه، الكذاب والكاهن اللعين .
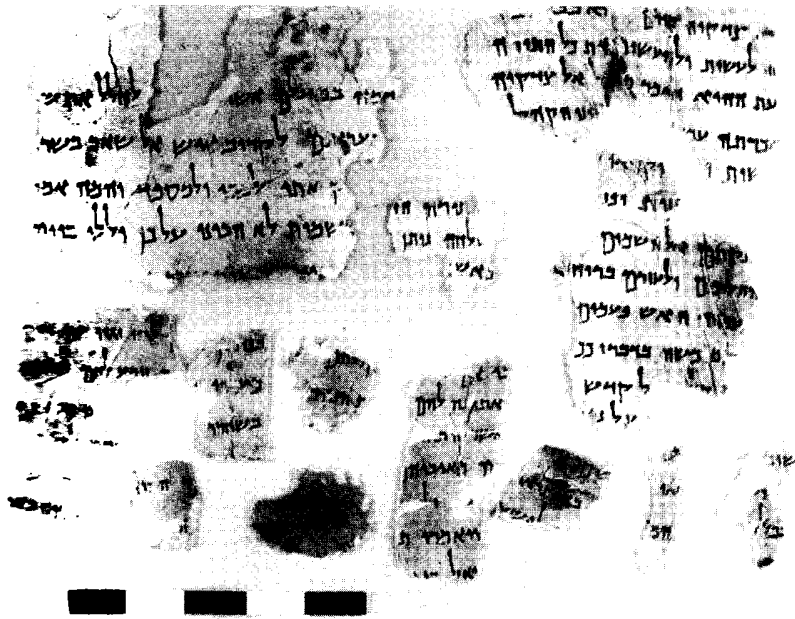
أمثلة لأجزاء صغيرة للمخطوطة التي جرى شراؤها من البدو بعد مطابقتها و ترتيبها، القليل من هذه الآلاف من الأجزاء يمكن أن تضم معاً بدقة.

في الأعلى الأب جوزيف ميليك.

في اليمين الدكتور فرانك كروس.

تنقيبات ضمن آثار قمران، الأب دو فوكس والأب ميليك مع جيرالد لانكستر هاردينغ من قسم الآثار.

أحد الأوعية، يحتوي على عظام حيوانات، وجدت في أثناء التنقيبات، ولم يجرِ شرحها على نحو مرض قط، ويبدو أنها بقايا وجبات مقدسة.

آثار قمران خلال واحدة من عمليات التنقيب التي أجراها الأب دو فوكس و جيرالد لانكستر هاردينغ.

البروفيسور رايت بيكر من جامعة مانشستر يقطع المخطوط النحاسي إلى قطع لترجمته، وقد أثبت أنه يحتوي على قائمة بالكنوز من معبد أورشليم.

المخطوط النحاسي قبل أن يفتح وجد مكسوراً إلى قسمين في الكهف 3عام 1952م.

الأب جان ستاركي يحتفل بصلاة القداس عند آثار قمران قبيل يوم التنقيبات الأثرية.

أعضاء الفريق الدولي في متحف روكفيلر في القدس، وهم يعملون على المخطوطات المكتشفة في الكهف 4، في الوسط الرجل الملتحي هو الأب دو فوكس، ويمينه الأب ميليك ويساره الأب ستاركي، جون آليغرو يجلس يمين الصورة.

أعضاء الفريق الدولي يعملون على أجزاء مخطوطة في حجرة المخطوطات، من اليسار إلى اليمين الأب باتريك سكيهان، جون سترغنيل، جون آليغرو.

من اليسار إلى اليمين جون سترغنيل، فرانك كروس، الأب ميليك، جون آليغرو، والأب ستاركي.

جون آليغرو وجون سترغنيل يعملان في حجرة المخطوطات.

من اليسار إلى اليمين جون سترغنيل، وجون آليغرو، والأب سكيهان، والدكتور كلاوس هنزينغر والأب ميليك.

جون آليغرو يعمل على تعليق ناحوم في حجرة المخطوطات .

الأب ميليك محاطاً بالدكتور هنزينغر والأب بينويت، يدرسون أجزاءً حديثة الشراء من مخطوطة في كانون الثاني عام 1956م ومن الممكن أن هذه الأجزاء جاءت من الكهف 2.

الدكتور هنزينغر، كانون الثاني ــ يناير عام 1956م يحمل مخطوطة المزامير من قمران، الكهف 2، و لم يجرِ نشر هذه المخطوطة حتى عام 1965م.

أجزاء مخطوطة كما أحضرت من البدو الذين اكتشفوها في كانون الثاني عام 1956م.

مخطوطة المزامير من الكهف 11 قبل أن تفتح.

ختم وجد في آثار قمران يحمل على نحو غريب اسم صاحبه، يوسيفوس، مكتوباً باللغة اليونانية بدلاً من العبرية أو الآرامية.

قمران، وتظهر مصاطب الطين، أخذت الصورة من الآثار بالنظر غربا إلى التلال اليهودية، مع الكهف 5 إلى أقصى اليسار و فتحتي الكهف 4 إلى اليمين، و يمكن رؤية المدخل الأصلي للكهف 4 أعلى الفتحة اليمنى.

آثار قمران، يمكن رؤية الكهفين 4 و5 عند نهاية المنحدر المتآكل الأقرب.

داخل الكهف 4 في قمران، حيث جرى اكتشاف العدد الأكبر من أجزاء المخطوطات عام 1952م إذ جرى العثور على أجزاء ما يقارب 800 مخطوطة مختلفة في هذا المكان.
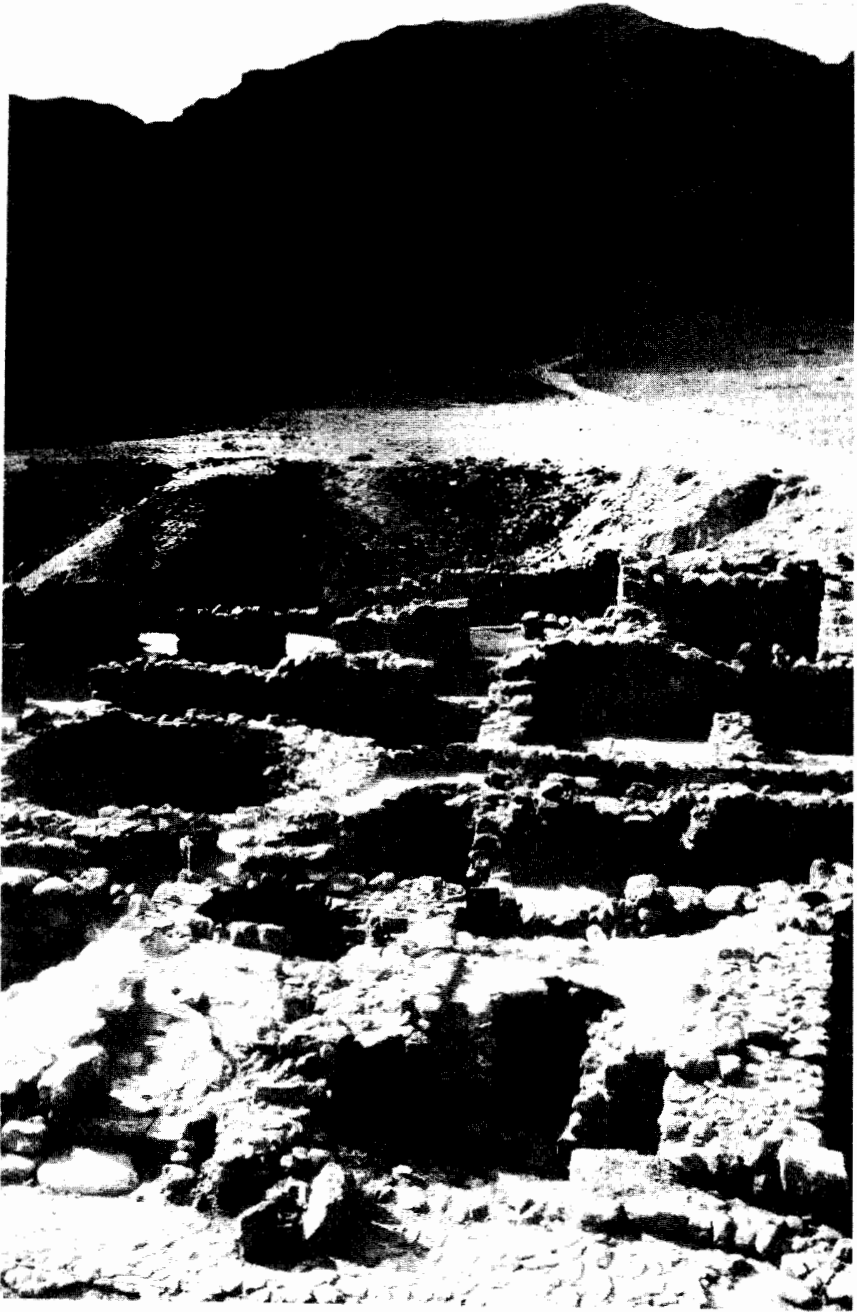
آثار قمران كما تبدو من البرج المحصن، تظهر في مقدمة الصورة بقايا كير الأسلحة الدائري، ويساره جرى اكتشاف جزء من قناة مائية.

بقايا المجرى المائي الرئيس الذي يدخل مجتمع قمران، يحتوي الموقع على نظام تغذية مائي معقد من المياه الموسمية في الوادي خلف الآثار.

خزان محفور في أرض الصحراء على المصاطب الصخرية قرب آثار قمران، لقد كان التحكم بالمياه وتخزينها أمراً حيوياً لضمان بقاء هذا المجتمع.

كان تزويد قمران بالماء يعتمد قناة المياه هذه، المحفورة عبر صخور قاسية من واجهة الجرف، كان الماء يحتجز في الوادي، ويوجه إلى هذه القناة.

مخرج قناة الماء، من هنا كانت المياه تتدفق نزولاً في المجرى المائي إلى المستوطنة.

عدد يقارب 1200قبر مغطاة بالصخور شرقي الآثار، يبدو أن القبور تنفرد بنمط مجتمع قمران، فهي خلافاً للأصول اليهودية الطبيعية، قد رصفت من الشمال إلى الجنوب، عدد قليل من القبور جرى فتحها، ووجدت بقايا لرجال و نساء و أطفال داخلها.

نحو اثني عشر قبراً من قبور قمران مرصوفة من الشمال إلى الجنوب، جرى اكتشافها على بعد نحو 9 أميال في الجنوب من قمران، في منطقة عين الغوير، ومن الواضح أن هناك مستوطنة وجدت على هذا الموقع أيضاً، و ربما خدمت الكهوف في الوادي والمنحدرات في الخلف مستودعات جيدة للنمط نفسه من المخطوطات كالتي وجدت قرب قمران.

آثار مستوطنة في عين الغوير قرب القبور، وقد جرى تأريخ هذه الآثار إلى عصر هيرود.
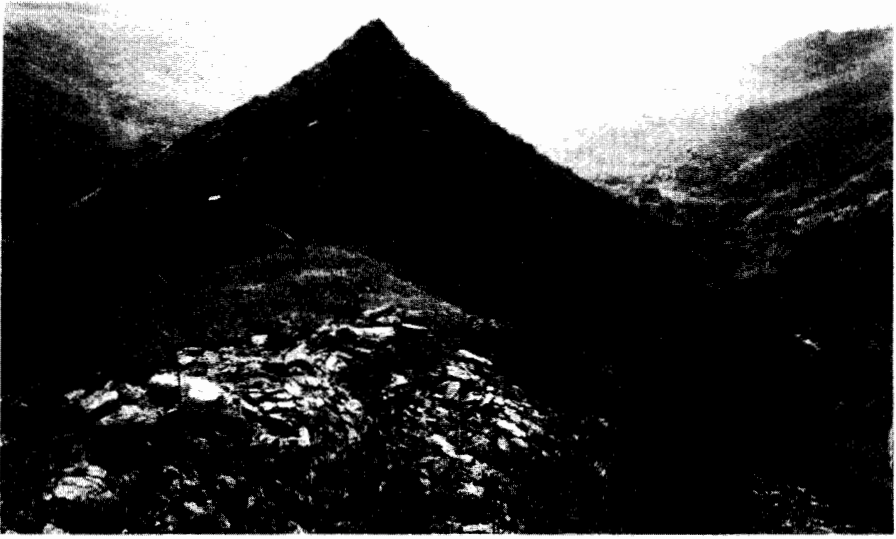
التلة الهرمية في جملا في الجولان، حيث انتصبت آخر القلاع، في العاشر من تشرين الثاني سنة 67م لقي هنا 4000غيوري مصرعهم، وهم يقاتلون الرومان، كما قتل 5000آخرون أنفسهم خلال القفز من أعلى الجرف، و تزودنا مخطوطات البحر الميت باستبصار عن الأسباب الكامنة وراء هذا الانتحار الكبير.
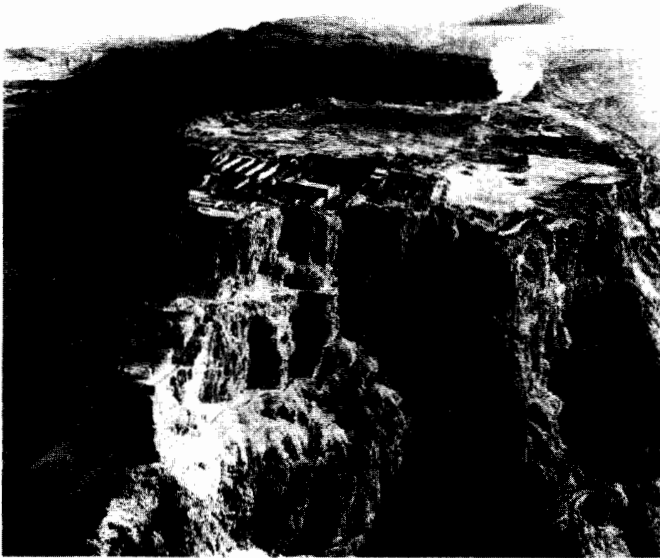
آثار مسعدة، وهنا قام 960غيورياً، رجالاً و نساء و أطفالاً، بقتل أنفسهم عوضاً من الاستسلام للرومان في 15نيسان 74م.

قمران والبحر الميت

حقيقة مخطوطات البحر الميت

عاصمة الثقافة العربية 2009
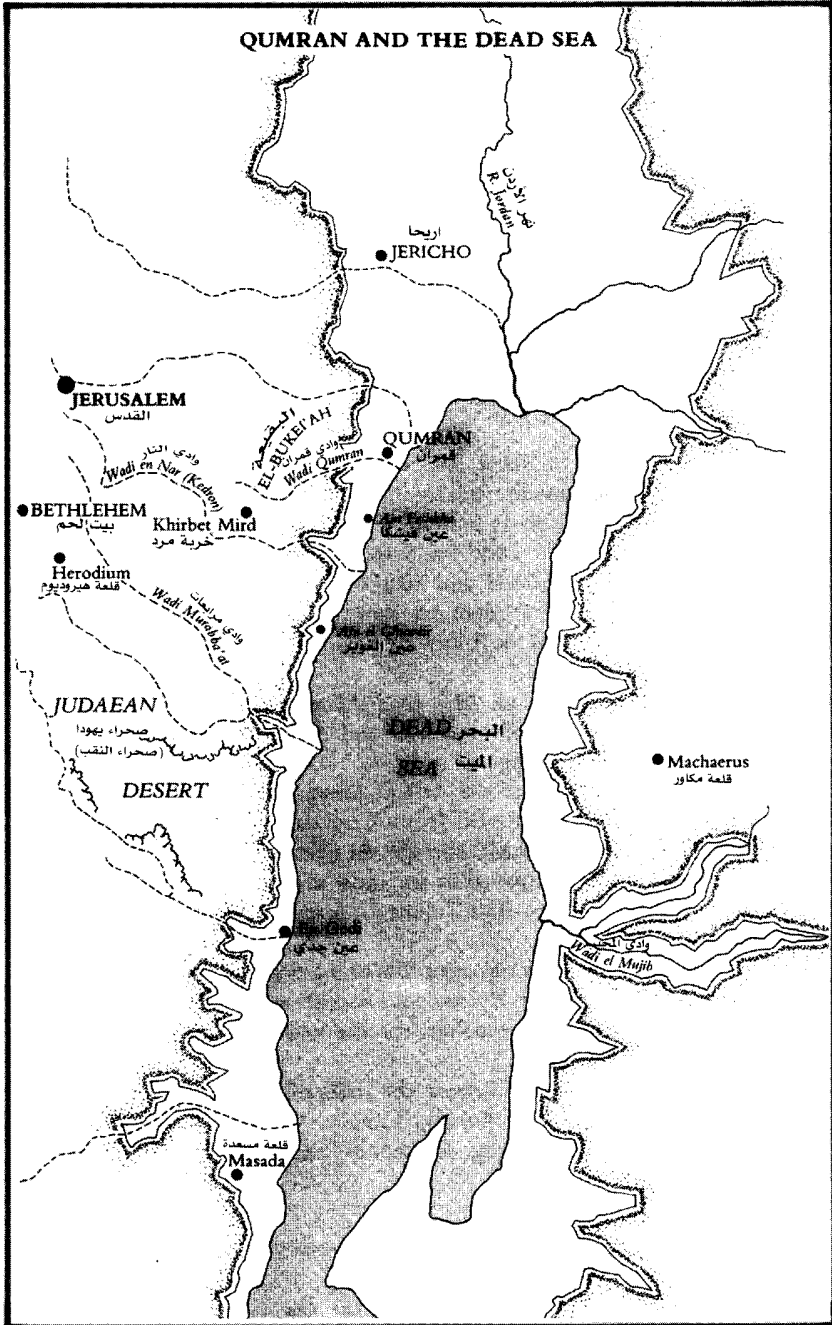
جاء الكشف عن المخطوطات ليؤكد أن الدين اليهودي كان يشهد صراعاً حاداً مع بداية العهد المسيحي، يعكس المحاولة اليائسة لصياغته بشكل قومية، والتي انتهت بالفشل. ومما لاشك فيه أن الصهيونية لعبت دوراً كبيراً في تأخير نشر اللفائف، وحاولت إيهام الرأي العام بأن المخطوطات تحتوي على فخ يستهدف الأديان، وبالمقابل حاولت الصهيونية جاهدة التركيز على أن هذه المخطوطات جاءت لتؤكد أصالة اليهود في المنطقة، من خلال التوجه نحو فكرة أن اليهودية هي أصل الديانات السماوية، وهو ما تثبت الدراسة المتأنية للمخطوطات عكسه تماماً.

ويوضح الكتاب بشكل غير مسبوق أسرار تجارة الآثار غير المشروعة، وطرق تحرك القطع من مناطق اكتشافها في الشرق الأوسط نحو أوروبا.

ونستطيع الآن القول بأن لفائف البحر الميت قدمت لنا منظوراً جديداً عن الأديان السماوية التي ولدت في الشرق العربي، فقد بينت مدى تداخل هذه الأديان بل وتشابهها، وأن كل الخلافات بينها لم تنجم عن اختلاف القيم الروحية أو سوء فهمها بل نجمت عن حب السيطرة والتسلط، والجشع، والأنانية، وغطرسة سوء التفسير الوقحة، وأوضح أمثلتها في العصور الوسطى غزوات الفرنجة للأراضي المقدسة، وفي أيامنا الحركة الصهيونية التي دمرت وقتلت وهجرت سكان تلك الأرض، ولا تزال ترتكب المجازر، مدفوعة بتهيؤات رفضها اليهود أنفسهم منذ قرون طويلة، فسعت الصهيونية لإقامة دولة اليهود الدينية من خلال حركة انبعاث أصولية، تقوم على التعصب الأعمى، وعدم التسامح، والتشدد الذي ولد صحوة أصوليات أخرى كانت هاجعة منذ فترة طويلة.

الناشر

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح